

# آثم في مكة

تأليف  
بارفيز شارما





# آثم في مكة

حج التحدي لمسلم مثليّ

تأليف

بارفيز شارما

## قائمة المحتويات

1.....	مقدمة
7.....	الفصل الأول
43.....	الفصل الثاني
68.....	الفصل الثالث
103.....	الفصل الرابع
128.....	الفصل الخامس
138.....	الفصل السادس
151.....	الفصل السابع
164.....	الفصل الثامن
172.....	الفصل التاسع
198.....	الفصل العاشر
220.....	الفصل الحادي عشر
256.....	الفصل الثاني عشر

## مقدمة

«ما اسمه؟» سألتُ زوجي الذي كان أكثر تنبُّهاً مني في صباح يوم أحد حين أخبرني عن المذبحة في أورلاندو بولاية فلوريدا. كان ذلك قبل أقل من خمسة أشهر بقليل من انتخاب أمريكا دونالد جيه ترامب لرئاسة الولايات المتحدة.

إنها أكبر حادثة إطلاق نار جماعي في أمريكا - ينفذها حارس وحيد مختل مرة أخرى. والهدف؟ ملهى ليلي للمثليين، يسمى بالس، في أورلاندو. دارت التوقعات حول أنه رجل أبيض آخر معتل نفسياً يمكنه الوصول بسهولة ونمطية إلى الأسلحة المتاحة للأمريكيين للأسف. لكن حدسي كان مختلفاً هذه المرة.

قلت: «سيكون مسلماً». بيقين مشابه لذلك الذي كنت أظهره منذ شهور مع الأصدقاء وكيث الذين امتعضوا من اعتقادي بأن رئاسة ترامب كانت محتومة ووشيقة.

قال كيث بدهشة: «لم تقول ذلك؟». «غالبية عمليات إطلاق النار من هذه الشاكلة ينفذها رجال بيض معتوهون». رددتُ توجسي الحزين بينما كنا نتصفح مواقع الويب المختلفة على هواتفنا. إذ كانت الهاشتاغات كهاشتاغ أورلاندو (#Orlando) وهاشتاغ أورلاندو قوية (#OrlandoStrong) وغيرها تنتشر بسرعة أكبر من فيروس زیکا، و«حالات» الفيسبوك تتغير بلمح البصر، ودراسة تغريدات أورلاندو تتصاعد بحدة.

كانت عبارة «أنا أنقذ ذلك من أجل داعش»، أو أخرى مشابهة، ما يُزعم أن هذا القاتل الجماعي أعلنه في مكالمات مع منتج منكوب مناوب ليلاً في الأخبار المحلية 13 لأورلاندو. دحضت وكالة المخابرات المركزية في وقت لاحق النظرية القائلة بوجود أي ارتباط بين مطلق النار والدولة الإسلامية. وقيل إن المسلح تمكن حتى من الاتصال برقم الطوارئ 911 في منتصف مجزrته. وقد لقي مصرعه في الساعة 5:53 صباحاً وفقاً لهذه التغريدة من شرطة أورلاندو: «حادثة إطلاق النار في بالس: مطلق النار داخل الملهى لقي حتفه».

بعد ساعات، ثبت أنني كنت على حق. فقد كان اسماً مسلماً، عمر متين، وهو مسلم من المحتمل أنه مثلي كاره لنفسه، إذ ادعى البعض أن لديه صفحة شخصية على تطبيق غرايندر للمواعدة بين المثليين. دخل مدججاً بالسلاح إلى بالس في الساعة 2:02 صباحاً. وبعد ثلاث ساعات من الإبادة المطلقة، سقط تسعة وأربعون شخصاً قتلى. وأصيب ثلاثة وخمسون بجروح خطيرة. أتذكر أنني كنت أفكر في قرارة نفسي بأننا نحن، المسلمين في الغرب، نتحمل بعض المسؤولية. لقد انتهى وقتنا، في رأيي، لأداء دور الضحية. المزيد من الإسلاموفوبيا بعد حادثة أورلاندو؟ ولم لا؟ فالقتل باسم الإسلام يُرتكب كل يوم تقريباً في السنوات التي أعقبت 11 سبتمبر. وسيسم التاريخ أبداً عصرنا كفترة من الإسلام العنيف.

مضى على عهد ولائي عام واحد فقط وكانت دوامة أمريكا نحو اليمين تسير على قدم وساق. فهذا الصيف الأمريكي الفاشي مجرد نذير. وقد أنشأ ترامب ائتلاًفاً كان «سجل المسلمين» بالنسبة لهم مجرد صيحة واحدة من صيحات عديدة للمعركة البغيضة.

قلت للصحافة المكتوبة التي اتصلت: «سيكون هناك عشرات جدد من أمثال متين»، رافضاً الرد على منتجي التلفزيون الكبلي، إذ لم أعرف كيف أتناول القضايا في مقاطع صوتية بليغة.

باستخدام كيموجي قبيح الوجه، ذي دمعة زرقاء كبيرة تُذرف من الرموش الصناعية المبالغ فيها، أرسلت رسالة نصية إلى صديقي أدهم في المملكة العربية السعودية: «ترامب سيفوز. والآن ستمر سنون يقول خلالها المعتلون النفسيون المسلمون إنهم يقتلون من أجل داعش». فرد أيضاً بكيموجي حزين من منزله في جدة.

قلت لزوجي في ذلك الصباح: «هل هو مسلم. هل هو من داعش. هذه حرب لن تضع أوزارها أبداً. يمكنهم جميعاً الاستشهاد بالقرآن من أجل الجهاد العنيف وهم يستشهدون به وسوف يستشهدون به دائماً».

سأل كيث: «لكن ألا تؤيد تفسير القرآن في سياقه؟ أليس ذلك نفاقاً؟». لقد شهد كيث سنوات من محاربتني علناً للإسلاموفوبيا، مستعيناً بالقرآن كأداة أساسية لي. إذ كنت دائماً مدافعاً عن القرآن. فهل تغيرت كثيراً؟

أجبت: «أبداً، فالقرآن نص شبه فصامي».

سأل باندهاش: «ماذا من المفترض أن يعني ذلك؟».

أخبرته كيف أن الكتاب الذي استغرق نزوله ثلاثة وعشرين عاماً لم ينزل بالتسلسل، وحتى أنه قد يبدو للبعض مبعثراً. وأخبرته كيف كان يُنظر إلى سوره (الفصول) على أنها إما مكية (نزلت في مكة) وإما مدنية (نزلت في المدينة). وكما قال البعض إن السور المدنية كانت «أعنف» لأن محمداً المدني ذاق طعم الحرب. أما قبل الهجرة، فكان محمد المكي رجلاً مطاردًا ومنكسراً. كان سلمياً، وكذلك كانت طبيعة ذلك الوحي.

قلت: «يبدو كما لو أن هناك قرآنيين مختلفين مختلفين». «وأجرؤ حتى على الإضافة أنه يبدو كأن هناك محمدين مختلفين في القرآن وشرائع الإسلام اللاحقة».

قال وهو يحتضنني بقوة: «كُفَّ عن قول ذلك علناً، أظنه خطيراً».

هل ثمة أمان في جزيرتي الصغيرة مانهاتن؟ قلت مماًزحاً كعادتي: «إنها تقع قبالة الساحل الأمريكي وينبغي أن تكون دولة مستقلة». في ظل هذا التغيير في أمريكا، هل سأجرؤ على أن أرتدي علناً ذلك القميص الذي اشتريته ذات مرة من أحد متاجر ساوث هول في لندن؟ كان القميص بخضرة العلم السعودي وكُتب عليه بأحرف بارزة: «لا تُصَب بالذعر. أنا إسلامي». إنني أحتفظ به حتى يومنا هذا.

كانت حملة ترامب المفزعة عنصرية وكرهية للنساء. إذ جعلت الصوابية السياسية مهجورة. وفجأة فُكَّت القيود على السنة ملايين الأمريكيين. وشرع الجانب المظلم لأمريكا يتحول إلى جانبها المرئي. ففي مجزرة 12 يونيو 2016، غرد ترامب مرتين. ورد في إحدى التغريدتين «أقدر التهاني على كوني محققاً بشأن الإرهاب الإسلامي المتطرف، أنا لا أريد التهاني، أريد الصرامة والתיقظ. يجب أن نكون أذكاء!».

لم تظهر كلا التغريدتين أي شعور بالرحمة أو العزاء. وقد كنا على وشك «انتخاب» وحش عديم الشفقة. فناخبوه فضلوا موت مثليين بنيين على أي حال.

يُزعم أن تنظيم داعش العدمي احتفل بصعوده. فبعد خمسة أشهر تقريباً، مع فوز ترامب برئاسة الولايات المتحدة، نقلت يو إس إيه توداي عن كيان يُسمى «شبكة المنبر الإعلامي الجهادي» التابعة لتنظيم «الدولة الإسلامية» قوله: «افرحوا بدعم من الله، وأبشروا بزوال وشيك لأمريكا على يد ترامب». وبالنسبة لأناركيين إسلاميين آخرين، كانت أورلاندو، وانسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي، وأخيراً الانتخابات الأمريكية «دليلاً» على «زوال الغرب» الذي سيجلب «الحرب الأهلية» و«الدمار». وبينما واصلتُ البحث في شبكة الإنترنت المظلمة، وجدتُ آخرين يزعمون الانتماء إلى داعش، قائلين إن هذا كله سيعزز «التجنيد». إن الإسلاموفوبيا شيء حقيقي، وما زلت أعيشه. لكن كلما استحضره «المسلمون المعتدلون»، ازداد داعش قوة في التجنيد ضد ما يراه الغرب المسيحي، عدو الإسلام، الذي يُعد الجهاد العنيف ضده واجباً دينياً. وترامب، بالنسبة لداعش، نعمة لا نظير لها.

تساءلت هل كان يعلم ترامب أن فكرته عن الإسلام العنيف والكاره للنساء والعدواني كانت مشابهة بشكل مخيف لكيفية تفسير داعش أو الأيديولوجيين الوهابيين الحاكمين في المملكة العربية السعودية للإيمان وتقديمه. بدا هذا كأنه بداية طلبنة أمريكا. فمثل طالبان، كان ترامب وأتباعه يعيدون عقارب الساعة إلى الوراء.

لو لم يكن هناك أوباما، لما كان هناك ترامب. فالكراهية العميقة للأول من قبل المؤيدين العنصريين للثاني أضحت مكشوفة أخيراً. لقد بدأ في الواقع هذا التعصب للبيض بالكامل في عام 2008. فالخط الذي يمتد من سارة بالين عبر حركة بيرثر وحركة الشاي لينتهي بمؤيدي ترامب خطٌ مستقيمٌ. وقد تجاهل الجميع في الغالب الحقيقة بأن نسبة كبيرة من الأمريكيين البيض لم يقبلوا قط برجل أسود كرئيس لهم. ولم يقبلوا قط بعائلة سوداء تعيش في ما كان دائماً البيت الأبيض، الذي ذكرتنا ميشيل أوباما ببلاغة بأنه «بُني بأيدي العبيد». بالنسبة للبعض كان الأمر كما لو أن سنوات أوباما لم تمر حتى. فهل صوتت تلك النسبة لترامب؟ بالتأكيد. ولكن حتى هؤلاء ربما ما كانوا ليتنبؤوا بمستقبل



قريب ستدخل إلى مفرداته الشائعة عباراتٌ غريبةٌ مثل «اليمين البديل» و«الأخبار الزائفة» و«الحقائق البديلة».

لم يُسمح لباراك أوباما بخلق أمريكا ما بعد العنصرية. وكانت حملة «حياة السود مهمة» مجرد مثال واحد. لقد جعل ترامب العنصرية وكل نكهات التعصب مستساغة مجدداً. وعرفت الأغلبية البيضاء في هذا البلد أنه بحلول العام 2020 ستكون غالبية الأطفال دون سن الخامسة من أقلية عرقية. وفي غضون عقود فقط، ستكون أمريكا بلد الأغلبية والأقلية. أما في الوقت الحالي، فالجوانب المخيفة وغير المتسامحة لأغلبية ترامب الذكورية البيضاء تتشبث بالسلطة بما يأتيها من قوة.

بينما كان ترامب يتجه نحو النصر، تعاضمت بخفية قوة بلاء شبه منسي يُسمى «اليمين البديل». فهذه الحركة الهامشية القائلة بسيادة البيض التي فضلت التحية النازية، ونادت يحيا ترامب! في تجمعاته، وعرضت أزياء على طراز الرايخ الثالث، كانت جزءاً من ائتلاف ترامب الفائز. وحتى اليمين الجمهوري التقليدي لم ير مثيلاً لها قط. في البداية، وقع على عاتق يده اليمنى وبطل اليمين البديل ستيفن بانون، أن يصبح كل من الإسلاموفوبيا ومعاداة السامية والكراهية بشكل عام إخوة غير محتملين في المكتب البيضاوي لترامب. فهذه الولايات الأمريكية المنفصلة (بوحشية). كانت أوروبا تميل نحو اليمين وما من سبب يمنع أمريكا من فعل الشيء نفسه. كغيري من الملايين، شعرت بهذا بقوة. إذ كان هذا الحشد يدخل البيت الأبيض لتغيير التاريخ وسلب مستقبلنا. في نفس الوقت، ذكّرت نفسي بأن السيادة الإسلامية ليست سوى مرآة لسيادة البيض. بعد متين ببضعة أشهر وفي أثناء انتقال ترامب للسلطة، ذكّرني صديق ضمن كبار موظفي أحد أعضاء مجلس الشيوخ البارزين، قائلاً: «كن حذراً بشأن ما تقوله وما تكتبه؛ فأنت مسلم. من المحتمل ألا يُنشأ السجل أبداً. لكن وقت الاحتراس قد حان، يا بارفيز. لقد خشينا ذلك وها قد حصل الآن».

في المناسبات العامة، قلت إنني، أنا أيضاً، مسلم «متطرف» ولكن من نوع مختلف تماماً.

كان التطرف كلمة الساعة لبعض الوقت. وأصابتني أورلاندو في الصميم. فقد كنت مسلماً تقياً. وكنت مثلياً. انتهى بي المطاف أكتب مقال رأي لموقع الأخبار الأمريكي ذا ديلي بيست، يحمل للأسف

عنوان «مسلم مثلي: الإسلام ليس دين سلام». لحسن الحظ، ثمة عنوان فرعي «كالديانتين التوحيديتين السابقتين له، الإسلام ملطخ اليدين بالدماء».

انزاح عبء عن كاهلي. فلقد مُحيت إلى الأبد عبارة «الإسلام دين سلام» الاعتذارية من مفرداتي. بعد سنوات من تلويث يدي في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وتصوير أسلوب حرب العصابات في الأنظمة الديكتاتورية دون إذن من الحكومة، وبعد المخاطرة حرفياً بحياتي لإكمال وتصوير الرحلة الإسلامية الشاقة والأسمى، الحج، اكتسبت أخيراً الثقة لقول هذا. لقد ناضلت من أجل إثبات صدق كلامي. ومن أجل الإسلام، عرّضت حياتي حرفياً للخطر مرات كثيرة لا يمكنني حتى أن أحصيها.

أرسلت بثقة لصديقي أدهم المفضل أبداً في جدة «اقرأها. أحبّها، يا رجل! فلاًول مرة أنت برأيي تقول الحقيقة كاملة. لقد أخبرتك أن كل أمور إسلامك محض هراء!».

أرسلت له أن إعادة القراءة ستخبره أنني لم أكن ألعن الإسلام. وإنما كنت أطالب فحسب بالتأمل الذاتي الضروري لدى جميع المسلمين – إنه تعميم، ولكنه ليس من دون سابقة داخل الإيمان. فهل جميع المسلمين «إرهابيون»؟ لا. لكن، هل جميع الإرهابيين مسلمون؟ يبدو أن الغالبية كذلك.

في أمريكا في عهد ترامب سأكون واحداً من بين كثيرين مستهدفين للتشقي. وسندرك مرة أخرى أنه ما من فهم حقيقي للثقافة السياسية الأمريكية دون وجود العرق في مركزها. هل كان الأمر ببساطة كون المسلم هو الأسود الجديد؟ بالنسبة لمن هم مثلي، الحقائق لا تساعد: فالإسلام على ما يبدو في حالة حرب مع جزء كبير من الإنسانية. وهو أيضاً في حالة حرب مع نفسه. ولطالما كافحت حتى لا أقع ضحية.

## الفصل الأول

### لبيروت

أخبرني باباك: «لن تصدق عدد الأثرياء السعوديين الأوغاد الذين يأتون إلى هنا. نحن البيروتيون ماهرون في المضاجعة. أما السعوديون؟ يتباهون وكأنهم أفحل، ولكنهم سرعان ما يكشفون أنهم سالبون بمجرد أن يخلعوا ثيابهم». أجبته بضحكة.

كان باباك شاباً في العشرينات من عمره ومؤسس الدببة العرب، التي نظمت جولات «الدببة» في لبنان وسوريا والأردن للرجال المثليين الغربيين الراغبين في التمتع بملذات هذه المنطقة. إن الدببة، لكي يفهم أولئك غير الخبراء في التنميط المثلي الغربي، هم الرجال المثليون الذين لا يتوافقون مع الصور النمطية «الفاشية للجسد»، بل يتباهون بالشعر على أجسادهم والدهون المتراكمة على عظامهم. أو كما يصفهم أحد الأصدقاء: «إنهم مجرد رجال مثليين فقدوا الأمل».

كنا في شهر رمضان عام 2010، أي تقريباً في نهاية العام الهجري 1431. كان هذا العام بالغ الأهمية، لكنني لم أدرك ذلك حينها. ذهبت إلى بيروت لكي أتحدث مع اللبنانيين عن الله والجنس. كان قد مضى عامان على صدور فيلمي *جهاد في سبيل الحب*. وكان لحساباتنا، التي استندنا فيها إلى صدوره في صالات السينما في الولايات المتحدة وكندا وعدد كبير من مهرجانات الأفلام والتقييمات التلفزيونية الجيدة في بعض الدول مثل الهند بالإضافة إلى مبيعات مئات الآلاف من أقراص الدي. في. دي، دور كبير في وصول الفيلم إلى مئات آلاف الأشخاص. سافرت خلال فترة قصيرة إلى عشرين دولة. هل انتهى دوري تحت أضواء الشهرة؟ بدا لي أن طوفان الصحفيين الذين يرغبون في إجراء مقابلات معي لا يهمد. كانت فترة مليئة بالنجاحات. سرعان ما توالى عليّ الفتاوى بالإضافة إلى الكراهية على الإنترنت، ولكن علمني الخبير في الشؤون العامة الذي أتعامل معه أنه «ما من دعاية سيئة».

كانت بيروت مدينة تحاول أن تلمس خطاها بعد سنوات من الحرب الأهلية. منذ شهر، نظمت منظمة نسوية مصرية عرضاً للفيلم في القاهرة الحبيبة، ولكنني لم أتمكن من الحضور. ولذلك، كانت هذه المرة الأولى التي أذهب فيها مع منتجي إلى عاصمة عربية. كان أمراً جليلاً بالنسبة لي، أشبه باجتياز مرحلة محورية. ولكن مجيئي إلى بيروت بصفتي خادماً هندي قصة مذهلة حقاً.

استغرق الأمر من مكاتب الشرق الأوسط التابعة لمؤسسة ألمانية غير ربحية منتسبة إلى حزب الخضر الألماني شهوراً للحصول على تأشيرة دخول لي، أنا الأجنبي الفخور الذي يحمل البطاقة الخضراء الأمريكية لغير المقيمين، ولكنني ما زلت أحمل جواز سفر هندي. طلبت السلطات اللبنانية من النساء العاملات في المؤسسة توقيعاً على تعهد بعدم زواجي من امرأة لبنانية في محاولة لأصبح مواطناً. إنها مجرد عنصرية لبنانية نموذجية تجاه الناس الذين ينتمون إلى ذلك الجزء من العالم، أولئك الذين يشكلون جزءاً كبيراً من طبقة العاملين المأجورين الذين يعملون لدى الأثرياء البيروتيين. ولكنهم ختموا جواز سفري في نهاية المطاف. لم يشكل الدخول إلى أي دولة عربية أخرى مشكلةً بالنسبة لي، حتى أنني أمتلك عدداً لا يحصى من التأشيرات المصرية. ولكن مصر كانت دولة فقيرة لم تستورد منظفات المراحيض من شبه القارة الهندية. كان عدد سكانها كبيراً، ويعيشون في فقر مدقع. كانت مصر أفقر الدول العربية، ولكنها حافظت على مركزها باعتبارها القلب الثقافي للعالم العربي لعدة قرون. أما هنا في لبنان الصغير، لطالما برزت طبقة عليا من الأثرياء المسيحيين والمسلمين على حد سواء. كان المسيحيون وطوائفهم الفرعية العديدة يشكلون غالبية السكان تقريباً، أما المسلمون وطوائفهم الكثيرة انقسموا أيضاً بين مدارس مختلفة من الإسلام السني والشيوعي.

لطالما كان الدين قضيةً معقدةً هنا. تشكل هيكل ديمقراطي خطير بعد عقدين من الحرب الأهلية، وصمم لإرضاء جميع الجماعات. من الناحية الدستورية، ينبغي أن يكون الرئيس مسيحياً ورئيس الوزراء مسلماً سنياً، وأما رئيس مجلس النواب مسلماً شيعياً. ولدينا أيضاً حزب الله الذي تربطه بالسلطة علاقة معقدة. من وجهة نظر العديد من اللبنانيين الشيعة، يعتبر حسن نصر الله شيخاً محترماً ومناضلاً من أجل الحرية. وبالنسبة للغرب، يعتبر نصر الله إرهابياً. وأما أنا فأتفهم طرفي الجدل، وهو ما وضعني في مأزق مع زملائي الغربيين.

انضم إليّ المنتج الهوليوودي ديفيد في بيروت. وتماماً كما حدث معي، تفاجئ ديفيد بمسؤولي الحدود اللبنانيين الذين يدققون جوازات السفر عند بوابة الصعود إلى الطائرة المتجهة إلى بيروت بينما كنا ما نزال في فرانكفورت. وكما هو الحال بالنسبة لجواز سفري، طلب منه إثباتاً على أنه لم يسافر إلى إسرائيل من قبل. ولكنه سافر إلى إسرائيل أكثر من أي شخص أعرفه. على أي حال، كانت الأمور واضحة بالنسبة لي: كنت على وشك الدخول إلى دولة بوليسية. كنت متأكداً من أن التأشيرة الإيرانية على جواز سفري لم تمر مرور الكرام، بل ولربما تركت انطباعاً إيجابياً. لحسن الحظ، لطالما تصرف ديفيد بطريقة ذكية، إذ حصل على العديد من تأشيرات الدخول والخروج الإسرائيلية على أوراق منفصلة – رفاهية يقدمها الإسرائيليون المتشككون على حدودهم الخاضعة لحراسة شرطية حازمة. لم أكن لأعرف هذا الأمر على أي حال لأن إسرائيل لم تكن أبداً على خارطة الدول التي أنوي زيارتها. في ذلك الوقت، كنت فخوراً بمناصرتي لحركة مقاطعة إسرائيل بي. دي. إس. (المقاطعة، وسحب الاستثمارات، وفرض العقوبات) – درع من المقاطعات التي تهدف إلى مكافحة ما أطلق عليه الكثير من أصدقائي على موقع فيسبوك اسم «الفصل العنصري الإسرائيلي». شعر ديفيد بالحماس لوجوده في بيروت، فأخبرته بأنه مازوشي ولكنني أحترم فضوله.

خلال أول عشرين ساعة قضيتها في هذا البلد، مررت بجوار كتابات بيروتية على الجدران تصور نجمة داوود والدم ينزف منها. وبطريقة مشابهة، كتبت عبارة «اللعة على اليهود» بعجل على جدار مجاور. تمنيت ألا يراها ديفيد، فكلانا مثليان ونفتخر بشراكتنا اليهودية-الإسلامية.

كما جرت العادة، افترقنا ليقوم كل منا بأشياء مختلفة. لم ألتق بديفيد غالباً إلا في العروض والمقابلات المشتركة. كان عندي موعد غرامي عن طريق غريندر تلك الليلة، وهو تطبيق مواعيد للمثليين يحاول شق طريقه عالمياً. بدا أن الجميع يعرفونه، إذ كان استخدامه أمراً محتوماً بالنسبة للرجال البيروتيين المثليين العصريين الحقيقيين. لم يكن موقع المواعيد الشهير الآخر، الذي يسمى منجم، متطوراً مثل تطبيق غريندر الذي يعطي معلومات حتى عن المسافة الدقيقة بين الشخص والذي يرغب في مواعيدته. ولكن سبقه في ذلك نظيره لمواعيد المغايرين جنسياً: تيندر.

حين وقفت في البهو الصغير في فندقنا ذا ماي فلاور، تساءلت عما إذا لاحظ ديفيد الخريطة المعروضة. لم تتح لنا الفرصة للنقاش حولها، أو لربما لم يرغب أي منا في ذلك. ها هي ذا: تمامًا كما رأيت في العديد من خرائط العالم في الكتب المدرسية الإسلامية في نشأتي. سميت الدولة المجاورة للبنان على هذه الخريطة باسم فلسطين، بينما طمست معظم مدنها اليهودية الجديدة مثل تل أبيب. أما جورسالم فكتبت بخط عريض باسمها العربي: القدس. ها هو لبنان، وها هي سوريا، وحتى الأردن ومصر، ولكن الدولة الإسرائيلية محمية بأكملها من على وجه هذه النسخة من الأرض.

كان الشخص الذي تعرفت عليه عبر غريندر على وشك الوصول. أخبرته أنني سأنزل لأستقبله وهو على بعد 600 قدم. فلم يكن مسموحًا سوى لنزلاء الفندق الذين يمتلكون مفاتيح غرف باستخدام المصعد.

كان رجلًا مثيرًا ووسيمًا وقوي البنية، وله شارب ولحية سوداوان مشذبان بعناية. كان الجنس رائعًا بكل معنى الكلمة، وكان سالبًا كما توقعته أن يكون، مثل جميع الرجال العرب الذين ضاجعتهم. تحدثنا عن بيروت بينما دخنا سجائرنا بعد الجماع. أخبرني أنه سيكون من دواعي سروره أن يأخذني في نزهة على كورنيش بيروت الشهير. تذكرت أنني رأيته في فيلم الإثارة البوليوودي الذي صدر في ستينيات القرن العشرين، والذي كان عنوانه /نكخين (عيون)، إذ صور بأكمله في بيروت - المدينة التي كانت حينها ترقى إلى مستوى سمعتها السينمائية باعتبارها «باريس الشرق». صور الفيلم عالمًا مليئًا بالإثارة والسحر. سألته عما إذا زار الضاحية من قبل.

أمضيت بعض الوقت في دراسة جغرافيا هذه العاصمة القديمة لهذا البلد الصغير. كانت الأشرفية والحمرا والضاحية أحياء في هذه المدينة المقسمة تعمقت فيها خطوط الصدع الديني. الأولى منطقة ذات أغلبية مسيحية، أما الثانية ففيها مزيج من جميع الأديان، والأخيرة منطقة تابعة لحزب الله. في ساحة ساسين في الأشرفية، كان هناك بيروت ويست فيليج، المكان الذي تسكع فيه محبي الفن.

أربعة ملايين ونصف مليون شخص من ثماني عشرة طائفة مختلفة يتشاركون نحو 6,000 ميل مربع: وقوع المشاكل هو أمر محتوم. ولكن هل غيرت خمس عشرة سنة من الحرب الأهلية شيئًا؟

سألته: «أيمكنك أن تأخذني إلى هناك؟».

استغرق عدة دقائق قبل أن يجيب قائلاً: «لماذا؟ هل أنت مهتم بمعرفة شيء عن حزب الله؟ هل أنت صحفي؟ أم أنك جاسوس؟».

أكدت له أنني لست كما يظن، وأخبرته عن عروض فيلمي. قلت له إنني أتمنى أن يحضر أحد العروض.

قال لي: «أنا متزوج ولدي طفلان. لا يمكنني حضور فيلم كهذا في مكان عام». ثم أخبرني بالخبر الصاعق: «يجب أن أخبرك، فأنت تبدو رجلاً نزيهاً. أنا أذهب إلى الضاحية يومياً في الواقع. أنا أعمل لدى الشيخ نصر الله. أساعدهم فيما يخص الفيسبوك والتغريدات وما إلى هنالك، لأنني أجد التعامل مع أمور الكمبيوتر».

لقد خرجت لتوي في موعد مع عضو في حزب الله. إنها سابقة من نوعها بالنسبة لي. واصلنا حديثنا، وأخبرته أنني بحثت في مدى الدعم الذي تحظى به هذه المنظمة في لبنان. قال لي: «الكثير».

أخبرته أنني أعلم أن حتى الأشخاص الذين يعملون في الحكومة يؤيدون هذه المنظمة باعتبارها حركة مقاومة شرعية وقفت في وجه الجيش الإسرائيلي. فقال لي إنه فخور بذلك وإنها كانت معركة جيدة. سألته عما إذا كانوا يدفعون له أجراً مرتفعاً، فأخبرني أنه يكفي لإعالة أسرته المكونة من أربعة أفراد. ومثلما يفعل الرجال المثلليون حين يواعدون مخادعاً مجهول الهوية، لم أكلف نفسي عناء السؤال عن اسمه.

ولكنه أخبرني على أي حال أن اسمه «رفيق». تماماً مثل اسم الحريري، رئيس وزرائنا السني الذي قتله السوريون عام 2005.

سألته عن مدى شعبية رفيق الحريري.

فأخبرني: «لا تقارن بنصر الله».

وسألته أيضاً عما إذا كان يعرف أن الحريري قد عمل لدى السعوديين ذات مرة.

أجابني: «هؤلاء السعوديون يخربون الأمور دائماً. عليك أن تراهم حين يأتون في الصيف إلى هنا. يخربون كل ما يرونه في الفنادق الفاخرة. نعم، أعلم أن الحريري كسب الملايين في السعودية. كل شخص في لبنان يعلم هذا».

كررت أمامه مقولتي: «من يعتبره البعض إرهابياً يراه البعض الآخر مناضلاً في سبيل الحرية». قال لي: «أكبر برهان على ذلك هو ما يحدث هنا يا بارفيز. انظر إلى تاريخ الهند التي تنتمي إليها. إنني على يقين أن البريطانيين قد اعتبروا المناضلين الهنود في سبيل الحرية مثل غاندي إرهابيين».

لم أتمكن من إيجاد مأخذ على منطقه هذا. أعجبت برفيق ووافقت على السير معه على الكورنيش.

سألني: «إذا أنت لست مسلماً، أليس كذلك؟».

عبر رفيق عن استيائه عبر غريندر من عدم وجود أي طريقة للوصول إلى «الرجال غير المختونين» سوى مواعدة «مسيحي الأشرافية».

أجبت: «أنا مسلم، ولكنني سني».

قال لي: «مسلم غير مختون؟ كيف يعقل هذا؟».

أجبت وأنا أضع ذراعي بحذر شديد على كتفه: «نحن المسلمون متوافرون بكل الألوان والأشكال والأحجام، أليس كذلك يا صديقي؟». أبعد يدي عنه برفق وهو يشعل سيجارة. مشينا قليلاً، وأخبرني بصراحة أنه لن يأخذني إلى الضاحية لأنه سيكون أمراً خطيراً للغاية. نصحتني بأن «أبحث لربما عن صحفي» يمكنه أن يأخذني إلى هناك. بعد أن تمتعنا بنسيم البحر الأبيض المتوسط على الكورنيش بينما كنا نسير ونتحدث، تبادلنا أنا ورفيق عناوين البريد الإلكتروني خاصتنا واتفقنا أن نبقي على تواصل. ولكن لم يحدث هذا.



في وقت لاحق من تلك الرحلة، صادقت رجلاً يدعى مو، سمي على اسم النبي مثل مئات الآلاف من المسلمين. ولكنه كان أحد القلائل الذين اختصروا اسمهم بهذه الطريقة العصرية. اعتاد الصحفيون الغربيون الذين يغطون أحداث هذه المنطقة المضطربة على الاستعانة بمو باعتباره وسيطاً بارعاً. أخبرني أنه يخطط للزواج من صديقه البريطانية اليهودية في قبرص، وهو أمر يفضل العديد من الشباب الراغبين بالزواج المدني فعله. كان الزواج بين الأديان يجلب المتاعب في هذه الدولة الطائفية. ولذلك، ينتهي الأمر بالعديد من الأزواج الشباب في قبرص بينما تغض الحكومة بصرها عما يحدث.

قال لي مو: «نحن ورثنا هذا النظام الديني - لم نختره».

بدا لي أن كثيراً من الأمور هنا تتماشى مع المفاهيم التي نشأت عليها. عرفتني إحدى الناشطات الشابات المؤيدات لفلسطين، والتي كانت واحدة من الأشخاص الذين نظموا عروض الفيلم، على صديقها المدرب الرياضي المبتدئ بسام. يذهب بسام يومياً إلى شارع الحمرا من وادي البقاع، ولكن المسافات ليست مهمة في بلد صغير كهذا. أخبرني أنه يمتلك شقةً سريةً وسط بيروت مخصصةً للمواعيد الجنسية في عطلة نهاية الأسبوع «برفقة فتيات أجمل مما يمكنك أن تتصور!». هذا يعني أنه يمتلك المال. أخبرني، وكأنه قد قرأ لتوه أفكاره، أن عائلته واحدة من أغنى المقاولين في المنطقة. وقال لي إن الجماع الشرجي حلال لأن غشاء البكارة يبقى سليماً. ما يزال غشاء البكارة هذا أكثر الفضائل قيمةً بين أوساط المؤمنين، سواء كانوا مسيحيين أم مسلمين.

أخبرني أيضاً عن صديقه التي تدرس في القاهرة قائلاً: «أقسم لك أنني لم ألمسها أبداً. إنها المرأة التي سأزوجها». يا له من تجسيد دقيق للنفاق العربي.

قال بسام: «يمكنك أن تمارس الجنس الشرجي مع ما تيسر من النساء. ولكن لا تتزوج إلا العذراء». أتذكر أنني شعرت بالإهانة بسبب اختياره السيئ للكلمات.

إن كنت امرأة ارتكبت خطأً وسمحت لرجل بفض غشاء البكارة لديك، هناك حل. ازدهرت الجراحة الترميمية المهبلية في المنطقة. تحظى المرأة العربية التقليدية بأكبر قدر من الاحترام حين تتزوج شخصاً من «عائلة جيدة» وتنجب أطفالاً. والأم العربية هي المدبر المطلق للأسرة. وبالنسبة لها، لن يجلب ابنها إلا العذراء. لم تكن أُمي تتوقع مني أي شيء آخر.

كانت الساعة الواحدة صباحاً. حين غادرت الهند قبل عقد من الزمن، ظننت أنني تركت تعددية الآلهة لدى الهندوس وآلهتهم الذي يبلغ عددهم 10 ملايين إله خلفي. ولكن بينما كنت أسير في المنطقة الخفية التي يقع فيها الملهى الليلي «المخصص للمثليين فقط» في الشرق الأوسط العربي، بدا لي أن الإله شيفا الهندوسي الذي يؤدي رقصته التانترية لزعزعة الكون قد لحق بي. كانت بيروت مكلفةً. دفعت 20 دولاراً (الدولار الأمريكي هو إحدى العملات المتداولة في لبنان) من أجل الدخول. كان الملهى يحمل اسم آسيد لسبب أو لآخر. لمحت تمثال ناتراج على الفور، إذ كان مختبئاً خلف بار طويل بشكل لا يصدق. وتحته مباشرةً، توجد لافتة كتب عليها: «مشاريب مجانية حتى الساعة 5 صباحاً».

ألقيت نظرةً حولي، ورأيت تماثيل رديئةً -مصنوعةً من البلاستيك على الأغلب- ولكن شهوانيةً، تشبه تلك الموجودة في خاجوراهاو، موضوعةً على جدار ضخم. تساءلت عن سبب تأثر تصميم هذا الملهى بالأيقونات الهندوسية في معابد مدهيا برديش الشهوانية، فأخبرني الجميع بأنه لطالما كان كذلك دون سبب.

قال لي باباك: «إنه شهر رمضان، لذلك لا تجد ازدحاماً كبيراً». كان عليه أن يقترب مني أكثر لكي أسمع في وسط ضجيج ريمكس التكنو الصاخب للأغنية المصرية الشهيرة «حبيبي نور العين».

أضاف باباك: «لولا الصيام وتحريم ممارسة الجنس في هذا الوقت لما كنت ستتمكن من التحرك هنا في هذه الساعة». أخبرني باباك أنه دعا مؤخراً أحد المراسلين «الانتهازيين» من صحيفة نيويورك تايمز إلى هذا الملهى لكي يلتقط صوراً لما وصفه بأنه «مقال فظيع وافتراءي». زعم المقال أن بيروت «هي بروفينستاون الشرق الأوسط». كان جميع الناشطين المثليين المحليين الذين التقيتهم غاضبين بسبب هذا المقال. ولكن في الحقيقة، كانت هذه الدولة البوليسية وبيروت ماتزالا في بداية طريق الحقوق المدنية الطويل على كافة الأصعدة.

قال لي باباك إنه نصف أرمني ونصف فلسطيني، «ولذلك أنا هالك على الجهتين». إنه محق. فبحسب ما يقال عن اللبنانيين، إنهم يكرهون هاتين الإثنتين على حد سواء.

بعد ذلك، وقفنا بالقرب من آسيد لنتشارك سيجارةً، فنظر باباك إلى سيارة تتوقف تبدو من نوع هامر.

قال لي: «إنه أمير سعودي مثلي الجنس». لم يكن لدي أي وسيلة للتأكد من ذلك، ولكن كان هناك علم سعودي على لوحة السيارة بالفعل. ثم أخبرني باباك وكأنه ينطق بحقيقة لا مجال للشك فيها: «إنه يأتي إلى هنا أحياناً لاصطحاب الأولاد. الجميع يعلم ذلك».

نزل من السيارة رجلاً قصير القامة منتفخ البطن محاطاً بحشد من حراس الأمن أو أشخاص من فتوحاته الجنسية. ساروا بثقة إلى المدخل لينحني الحارس أمامهم بتكلف قبل أن يسمح لهم بالدخول مجاناً. يبدو أنهم جاءوا إلى هنا من قبل. حدثت بهم وأنا أفكر بعائلتي المفضلة، الكارداشيان، التي صورت دخولها إلى الملاهي الليلية. صاح أحد الصبيان بصوت عال وهو يشعل سيجارة: «وقت الشذوذ». عرفني أحدهم على هذا الصبي في الملهى المثلي بارودو الذي زرناه في وقت سابق من تلك الليلة، حيث ظننت أنه أجمل الحضور. أراني مجموعة الأساور التي يرتديها، وكان من بينها واحدة كتب عليها «أنا أحب بيروت» على غرار تلك التيشترات التي يطبع عليها «أنا أحب نيويورك».

عانقته وقلت له: «باربي!». يمكن لهذا المخلوق الليلي السحري أن يكون ما يريد؛ يشبه باربي أكثر من كين، أو لربما مزيج من الاثنين معاً، وهو يرتدي أقصر شورت رأيت في حياتي ويضع طبقة سميكة من الماسكارا. أتخذ وضعية فتانة أمام كاميرا هاتفي كاشفاً عن مؤخرته في الشارع، فصفر له أحد السائقين العابرين.

أشار باباك إلى التلال التي يمكن رؤيتها بالقرب من آسيد وقال: «إنه فندق حبتور غراند، الذي نزل فيه جميع الصحفيين في الوقت التي كانت فيه إسرائيل تقصفنا عام 2006». أنزل ذراعه ليشير بوضوح إلى واد تتلأأ فيه الأضواء وقال: «إنها الضاحية». لم يكن باباك يعلم أنني أعتزم الذهاب إلى هناك، إلى أرض حزب الله. لم أتحدث معه حول هذا الأمر لأنه مسيحي. أخبرني كيف قصفت إسرائيل الضاحية وحولتها إلى أنقاض، بينما تمتع الصحفيون في فندق حفتور بمقاعدهم الأمامية.

أخبرني باباك أيضاً: «لم يتوقف المثليون عن الرقص ولا حتى الليلة واحدة هنا في آسيد طيلة فترة الحرب. حلقت الطائرات الإسرائيلية بدون طيار في السماء بينما تساقطت القنابل العنقودية هناك في الضاحية. أما هؤلاء الرجال فكانوا يرقصون على موسيقى تكنو ترانس في خضم هذه الفوضى اللعينة».

قلت له: «ليتبارك المثليون الذين لا يمكن تفجيرهم». ضحك كلانا.

فكرت في عناوين مقالات الرأي المستقبلية التي لم أكتبها، واخترت «الحب في وقت رمضان». وكما فعلت دائماً في رحلاتي المتعلقة بفيلمي *جهاد في سبيل الحب*، دونت بعض الملاحظات على هاتفي. لم يمر سوى بضع ساعات منذ أن كنت في الفراش مع رفيق، وهنا أمام *آسيد*، كنت أحاول استكشاف الجغرافيا المربكة لهذه العاصمة المتنازع عليها.

سألني باباك وهو يقود السيارة إلى ملهى آخر للمثليين في هذه الليلة الصاخبة: «هل شاهدت من *أوف إسرائيل* (رجال إسرائيل) من قبل؟».

أجبت: «لا، ما هذا؟ يبدو مثيراً للشبهات».

أخبرني مماًزحاً في إشارة إلى ما يسميه النشطاء المثليون «الغسيل الوردي»: «إنه أكثر الأفلام الإباحية إثارة، وفيه رجال يهود. إنني متأكد من أن الحكومة الإسرائيلية هي من موله!». بين المزاح والجد، أخبرني باباك أنني سأكون أكثر ثراءً لو قررت أن أصبح صانع أفلام إباحية.

علمني باباك المزيد حول الغسيل الوردي الذي يحدث في بعض من الأراضي المتنازع عليها في هذا الكوكب. كان باباك يحاول، بطريقته الفريدة «غير النشاطية»، أن يبني بديلاً عربياً لتل أبيب «المكروهة». كان مصطلح الغسيل الوردي مستخدماً من قبل العديد من النشطاء المثليين للإشارة إلى الموقف المتعمد للحكومة الإسرائيلية التي تدعي أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في المنطقة التي تدعم حقوق المثليين. نشر وكلاء السياحة كتيبات كاملة تسلط الضوء على الشمس والرمال والملاهي الليلية المخصصة للمثليين والحياة الليلية ككل في مدن مثل تل أبيب، باعتبارها أموراً تجعل من إسرائيل وجهةً مختارةً – ملاذاً للسياح المثليين المتشوقين لتجربة الحياة الممتعة في منطقة البحر المتوسط.

زعم حسان، أحد النشطاء المثليين الذين التقيتهم في بيروت، قائلاً: «خصصت ميزانية تصل إلى تسعين مليون دولار لدفع أجندة المثليين في إسرائيل. إنه أحد برامجهم الحكومية الفعلية لتجنب المناقشات حول الفصل العنصري الإسرائيلي ضد الفلسطينيين وصرف الانتباه عن الاحتلال». وبحسب ما قاله نشطاء آخرون، إن إسرائيل بعيدة كل البعد عن أن تكون جنةً للمثليين. تعرض المشاركون في

مسيرات الفخر المثلية للهجوم والتشهير مراراً وتكراراً في مدن مثل القدس، حيث تنتشر الممارسات التعصبية ضد المثليين بين أوساط اليهود الأرثوذكس المتطرفين، تماماً كما سبق وفعلوا في مستوطناتهم غير القانونية.

كانت الحجة التي أستخدمها علانيةً في المقابلات التي أجريتها في بيروت بسيطة جداً: ما من شيء سوى رهاب المثلية يدفع الحاخام الإسرائيلي السفاردي الأكبر واثنان آخرين من كبار الحاخامات، بالإضافة إلى رؤساء كنائس الروم الكاثوليك والأرمن والروم الأرثوذكس وثلاثة من كبار الأئمة في القدس، إلى الجلوس معاً على نفس الطاولة كما فعلوا عام 2005 في صورة الغلاف الشهيرة لصحيفة نيويورك تايمز. لم تكن على الأرجح لتجتمع هذه الشخصيات الدينية، التي لطالما انقسمت بشدة فيما بينها، في ظهور علني وحيد لولا احتجاجها على إقامة مسيرة فخر القدس العالمية للمثليين التي ستدوم عشرة أيام وستتضمن موكب فخر أيضاً. خلال المسيرة، طعن يهودي حريدي متشدد ثلاثة من المشاركين بواسطة سكين مطبخ حادة. كان يدعى يشاي شليس.

وأثناء استجوابه على يد الشرطة، قال واصفاً الدافع وراء أفعاله: «جئت لأقتل في سبيل الله. لا يمكننا أن نسمح بمثل هذه الفاحشة في هذا البلد». كان يتحدث كأبي رجل دين وهابي. الإسلام الوهابي هو الشكل المتطرف للإسلام في المملكة العربية السعودية، وهو ذو تأثير كبير على بقية العالم الإسلامي. ثمة ادعاءات تقول إن الوهابيين في المملكة العربية السعودية لا يشكلون سوى أقلية. أنا لا أتفق معها.

كما أخبرت أحد الصحفيين حينها، هذا ما حدث في بلدي الهند حين اتحد الهندوس والمسلمون المتدينون علناً ضد رفع «الحظر» عن المثليين في المادة 337 من قانون العقوبات الهندي، وهي المادة التي تعتبر «اللواط» و«الجماع الجسدي المخالف لقوانين الطبيعة» و«البهيمية» جرائم يعاقب عليها القانون.

أخبرته محاولاً شرح أوجه الشبه، لأن لبنان أيضاً فيها القانون 337 الجزائي المشابه من المادة 534: «ما من شيء أفضل من جولة تقليدية من التهجم على المثليين لتقريب الهندوس والمسلمين من بعضهم البعض».

تسكنت برفقة أعضاء مجموعة حلم للمثليين علناً، وهي مجموعة تمولها غالباً المنظمات الأوروبية غير الربحية. وكما هو الحال في إسطنبول، كانت بيروت عبارة عن غرفة انتظار للمثليين شرق الأوسطيين الذين يحاولون طلب اللجوء في الغرب. ساعدتهم مجموعة حلم في التعامل مع البيروقراطية اللبنانية المعقدة لكي يحصلوا على تأشيرات مؤقتة. على الرغم من وجود بعض الأماكن المتسامحة في بيروت، مثل آسيد، لم يستطع أحد التلويح بأعلام قوس قزح من نافذة شقته.

كان خطر القمع الحكومي يلوح دائماً في الأفق. أخبرني النشطاء المحليون عن تنفيذ بعض الممارسات الرجعية مثل فحوصات الشرج، التي كانت شائعة بين الرجال المحتجزين بتهمة «السلوك غير الطبيعي». شتان ما بين بيروت وبروفينستاون، فكرت في قرارة نفسي.

في حمام الآغا المصمم على الطراز التركي، يبحث الرجال عن الإثارة. ولكنه سيدهم في غضون سنوات قليلة. سرعان ما ستعود التحقيقات الشرجية للرجال الذين اعتقلوا في سينما بلازا بتهمة «السلوك غير الطبيعي». اتخذت مجموعة حلم موقفاً قوياً بشأن الحريات التي لم تطبق بعد دستورياً أو دينياً أو اجتماعياً. لم يكن في بيروت نظير لشارع كاسترو في سان فرانسيسكو أو حي تشيلسي في نيويورك. كان نشطاء حلم محقين بخصوص حرياتهم الخطرة. في وقت لاحق، أعطيتهم نسخاً من فيلمي على مجموعة من أقراص دي. في. دي. التي لا تحمل أي علامات. أخبروني أن بعضهم يسافر دوماً إلى دمشق وحلب وعمان، وأنهم سيحرصون على أنها ستكون في «أيد أمينة». شعرت بسعادة غامرة – تمكنت من إرسال أقراص دي. في. دي. من فيلمي الممنوع إلى كثير من البلدان الإسلامية، بما في ذلك باكستان وإيران والمملكة العربية السعودية. لن أتوقف عند هذا الحد.

دعاني فؤاد، الكاتب والناشط الفلسطيني الأمريكي، إلى حفلة صاخبة في شقته التي تقع في المنطقة المعزولة المسيحية من حي الأشرفية. كان فؤاد يعمل لدى موقع إلكتروني مقره الولايات المتحدة الأمريكية وهدفه مساندة فلسطين، اسمه «الانتفاضة الإلكترونية». وهناك، قابلت وسطاءً وصناع أفلام ومراسلين ومصرفيين – وحتى مغنية سوبرانو سابقة في الستين من عمرها. كانوا يشربون المشروبات الكحولية ويدخنون الحشيش ويتحدثون طيلة الليل. أما أنا فشاركتهم في الشرب لا في التدخين، إذ تركتني تجربتي الوحيدة مع الحشيش في شبابي مذعوراً لا أقوى على الحركة. شاركنا سيدة فرنسية

في العشرين من عمرها تحليلها المعماري لوسط بيروت. وصفته بأنه بلاستيكي وعديم الروح. كان رئيس الوزراء اللبناني السابق والملياردير رفيق الحريري مسؤولاً عن ذلك.

أمضينا بعض الوقت على شرفة الشقة. أسندت ذراعي على الحافة فلاحظت أنها مليئة بثقوب الرصاص.

قلت: «رصاص في بيروت».

أجابتنني: «إنه أمر عادي».

عند الساعة 2 صباحًا، بدا لي أن لا أحد يرغب بالمغادرة. وبعد أن لاحظت علامات التعب التي ظهرت عليّ، اقتربت منا أخت المضيف التي تدعى سيدة. كانت تعمل مع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

قالت لي: «لا تقلق. إنه أمر طبيعي. دائماً ما نحتفل في بيروت وكأنها نهاية العالم غداً. أنت بحاجة إلى مشروب آخر». في تلك الفترة، لم أكن قد أقلعت عن المشروبات الكحولية بعد. معظم المسلمين الذين أعرفهم يشربون المشروبات الكحولية. ما لم أكن أعرفه حينها هو أن إقلاعي التام عن الكحول لم يكن بعيداً.

وتابعت قائلة: «تحلق الآن طائرات إسرائيلية بدون طيار فوقنا». بدأت أتأقلم مع إيمان البيروتيين بالقضاء والقدر. حتى وإن كان بعض أو لربما جميع الأشخاص في هذه الحفلة غير متدينين، بدا أنهم متفقون على فكرة «نهاية العالم» القريبة.

أرسل لي صديقي السعودي أدهم رسالة نصية ذات يوم أثناء وجودي في بيروت. تعرفت على أدهم في عرض جهاد في سبيل الحب في تورنتو عام 2007. ومنذ ذلك الحين، جمعتنا صداقة رائعة ولكن محصورة بالرسائل النصية. كان يعيش في جدة، ولكنني لم أشعر أن المسافة بيننا بعيدة بسبب تواصلنا الدائم. أخبرني ذات مرة أنني «الوحيد الذي أعرف» عن انجذابه لكل من الرجال والنساء.

سألني: «هل رأيت هذا؟». كان يتحدث عن رابط لمجلة عربية أسبوعية تصدر باللغة الإنجليزية وتدعى مصر/اليوم، يقرأها غالباً المغتربون في القاهرة. كانت مقالة تعود إلى عام 2008، اقتبس فيها

كلام منقول حول فيلمي عن الداعية المصري الشاب والخبير الإعلامي معز مسعود الذي درس تحت إشراف مفتي مصر علي جمعة:

إن [الفيلم الوثائقي] محق في استخدامه لمصطلح الجهاد ولكنه يخطئ في تعريفه. حين يكافح الأشخاص ذوي الميول المثلية ضد ميولهم هذه، فهم يكافحون ضد فعل يرضي جسدكم المادي ولكن يتناقض مع أنفسهم الروحية ... الجهاد هو الكفاح في سبيل الخير. إنه صراع من أجل الخير والجمال والعدالة والحقيقة. النشاط المثلي ليس تجسيدا لهذه المبادئ العالمية؛ بل انتهاك لها كونه يتعارض مع البعد الروحي. كنت لأحب عنوان [الفيلم] لو أنه عرف بشكل مختلف. نحن نحتاج إلى الجهاد ضد التطرف في المجتمع، لكي نتعلم أن نحب الآثم الذي يكافح رغم كرهنا لمعاصيه. ولذلك، أنا أيضا أدعو إلى «الجهاد في سبيل الحب».

على الرغم من أنه لم يفتح ذراعيه مرحبًا بالمثليين في الدين، بدا لي أنه يحاول إيجاد حل وسط. أرسلت إليه مجيبًا: «مضحك! إنه يدعو لجهاد في سبيل الحب! حقًا؟! على أي حال، لم أرسلت لي هذا الرابط القديم؟».

أجابني: «كنت أبحث عنك في غوغل! أنا أحب بيروت بالمناسبة. قبلاتي لها».

كنت أتراسل مع أدهم بشكل شبه يومي. على مر السنين، لم نلتق وجهًا لوجه سوى عدة مرات فقط، ولكنني اعتبره أحد أقرب أصدقائي. ما من شيء لم أخبره به. بعد أيام قليلة من اندلاع الاحتجاجات في مصر -والتي غطيتها بكثافة- سألته مجازًا عما إذا كانت الثورة في طريقها إلى الرياض. فأرسل لي: «هل تمزح معي؟ على عكس المصريين والتونسيين وغيرهم ممن قد يلحقون بركب الثورة يا بارفيز، نحن السعوديون لم نعان بما يكفي». في ذلك الوقت، اعتقدت أنها طريقة موجزة للإجابة عن سؤال معقد إلى حد ما. وتابع قائلاً: «لطالما كان آل سعود هنا، وسيبقون دائماً هنا».



على مر السنين، تغيرت حياة أدهم كما تغيرت حياتي. قبل أشهر فقط من تسكعي في بيروت، أصبح له خطيبة. لم تكن صداقتي مع أدهم مزدوج الميول الجنسية عاديةً، ولم أسأله أبدًا عما إذا كان قد فعل شيئًا لتلبية رغباته. لن يكشف هذا الأمر لعائلته أبدًا. كان السبب ثقافيًا. تفهمت ما يمر به لأنني نشأت في بلدة صغيرة في الهند، ولم أجروا أبدًا على البوح بهاتين الكلمتين أمام والدي - أنا مثلي. بالنسبة للمسلمين مثلي ومثل أدهم، ما يهم العائلة هو أنك «لا تسأل، ولا تقل»، وهو أمر يناسب جميع الأطراف.

في ذلك الشتاء في بيروت عام 2010، كان أدهم حاضراً في كل يوم في حياتي، كما هو الحال دائماً. وبالتالي، كانت المملكة العربية السعودية حاضرةً معي يومياً أيضاً. لم يكن قد أصبح هاشتاغ Jan25# أكثر الهاشتاغات استخداماً على هذا الكوكب بعد، ولم تكن الأحداث في تونس قد بدأت أيضاً، ولكنه أرسل لي مرةً وهو في دانكن دوناتس في جدة، المكان المعروف للبحث عن الإثارة بالنسبة للرجال المثليين جنسياً، قائلاً: «يبدو أنه هناك ما يدعو للقلق هنا، ولكنني لا أعرف السبب». تساءلت عن الفترة التي سيستغرقها أدهم قبل أن يعترف بهذه المهزلة، ولكنني لم أرغب في إزعاجه.

كانت خطبة أدهم من زبيدة، قريته من الدرجة الثانية، «مدبرة» على يد أمه المتدينة، وهو أمر مألوف لدى جميع المسلمين. ما يثير الدهشة هو أنهما لم يتزوجا بعد. لم يلتق أدهم وزبيدة إلا حين زارت العائلة في جدة أو حين ذهب إلى الرياض. لقاؤهما في حد ذاته تتخلله مفاوضات مقعدة بسبب وجهات النظر الوهابية التي تمنع الاختلاط، وهو واحد من الموضوعات الحساسة في المملكة.

حضرت زبيدة كل خميس حلقات لدراسة القرآن، و«الحلقة» بحسب ما يقال هو الاسم الذي أطلقه عليها النبي. على الرغم من تدينها، كانت زبيدة على وشك الحصول على درجة الدكتوراه من جامعة الأميرة نورة في الرياض، حيث تسكن عائلتها. بعد أشهر قليلة من وفاة بن لادن، افتتحت جامعة بي. إن. يو. كما يسميها السعوديون، وكانت بحسب ما تباهاوا أكبر الجامعات النسائية و«أحدثها» في العالم. عند افتتاحها، جلس الملك عبد الله وغيره من كبار الشخصيات في غرفة مختلطة مع نساء بوجوه مكشوفة. استشاط رجال الدين غضباً، ولكن عبد الله تمسك بموقفه. وعلى الرغم من ذلك، وضع هذا

الملك نفسه نظاماً في عام 2012 «يبلغ» بموجبه الأزواج عبر الرسائل النصية القصيرة في حال مغادرة زوجاتهم أو أطفالهم البلاد.

كان حرم جامعة بي. إن. يو. دليلاً على حاجة البلاد لمهندسين معماريين جيدين، بخلاف أولئك الذين يعملون لدى عائلة بن لادن. كان عبارة عن هيكل رخامي وزجاجي وجرانيتي مكيف. تدخل النساء مرتديات أحذية رياضية عادية؛ وبعد أن يخلعن عباياتهن تنكشف وجوههن التي يكسوها المكياج وأقدامهن التي تنتعل الكعب العالي. العباية هي سترة فضفاضة سوداء تغطي كل شبر من جسد المرأة. وكانت بعض النساء اللاتي يرتدين العباية، مثل المطوعة (الشرطة الدينية)، تغطين أقدامهن أيضاً بالجوارب وترتدين قفازات سوداء اللون.

لجسد المرأة المغطى قوة جنسية هائلة. وخير مثال على ذلك هو ريتا هايورث التي غنت ورقصت بينما خلعت أحد قفازيها في أغنية «بوت ذا بليم أون مايم» في الفيلم نوار الهوليوودي الذي يحمل الاسم ذاته عام 1946 والذي لعبت فيه دور غيلدا. لن تخدم شهرتها على يوتيوب أبداً. فمن خلال خلع أحد قفازيها وحسب، تحولت هايورث إلى رمز الإثارة الجنسية، بينما تخيل كل رجل مغاير جنسياً نفسه في ذلك الملهى الليلي في بوينس آيرس وهو يجردها من ثيابها. المرأة التي ترتدي العباية أو غيرها من أشكال الحجاب تصبح رمزاً جنسياً أيضاً. كاحلها مكشوف بعناية كافية لإثارة الشهوة حين ينظر المطوعون بعيداً. ما من شيء أخطر من خصلة شعر أو كاحل أنثى على ضبط النفوس المسلمة وجيوش الذكور المتدينين، مثل هيئات إنفاذ الأخلاق المنافقة في المملكة العربية السعودية – المطوعين.

غالباً ما يحاول أدهم معرفة ما إذا كان لزبيدة رأيها الخاص. قالت عن عائلة آل سعود الحاكمة: «نحن لا نتحدث عن هذه الأشياء. ولكن في رأيي، ملكنا هو ما شاءه الله لنا. إنه يستمع إلينا».

هل كانت أغلبية النساء مثل زبيدة؟ ألا يعترضن أبداً على الوضع الراهن؟ هل اعتقدن حقاً أنهن إذا أمسكن بيد المحرم (وصي ذكر في أسرتهم المباشرة) سيتمكن من تحقيق أهدافهن بتعليم وحياء مهنية ممتازين؟

سألت أدهم عن موعد الزفاف. كنت أتوق إلى الحضور. أخبرني أن الأمر سيستغرق بعض الوقت لأن «طلاب الدكتوراه يستغرقون وقتاً طويلاً لإنهاءها». شهمت حين علمت موضوع أطروحتها:

«الشرعية في القرن الحادي والعشرين». كانت هذه المرأة «التقية جداً» التي تزوجت «زواجاً مدبراً» من خطيبها مزدوج الميول الجنسية سرّاً تطيع بكل تأكيد الأمر المطلق باستخدام العقل، والذي يكمن في ولادة القرآن ذاتها. كان محمد، الذي نزل عليه الوحي، أمياً في نهاية المطاف، وهو أمر غير مقبول بالنسبة لزبيدة.

أخبرت أدهم: «إنني متحمس جداً لقراءة أطروحتها».

أجابني: «ISA سأسرسلها لك حين تنتهي منها». كان يستخدم اختصاراً للمصطلحات العربية اليومية كما يفعل المسلمون في كثير من الأحيان. «ISA» تعني إن شاء الله.

كتبت لأدهم: «أفهم سبب حب السعوديين الماكنين لقضاء الصيف هنا». كلما مشيت في شوارع هذه المدينة أكثر، أحببتها أكثر. شعرت أن بيروت هي أكثر البيئات الإسلامية التي جربتها عالمياً، باستثناء إسطنبول الحبيبة، على الرغم من أن كثيراً من البيروتيين ينزعجون إذا وصفت مدينتهم بأنها إسلامية. ذكرتني بالانفتاح الذي لطالما تخيلت أنه تغلغل في المجتمعات الإسلامية خلال قرون من الحكم العثماني. حين غادرت أحد المقاهي المحلية الذي يدعى «فيسبوك»، والذي تعرض فيه نسخة بارزة طبق الأصل من علامة «أعجيني»، أخبرني أحد أصدقائي الكتاب: «أعتقد أنه المقهى الوحيد في العالم الذي يحمل اسم [فيسبوك]».

بينما كنت في وسط بيروت، وبعد ساعات قليلة من إرسال أدهم رسالة نصية لي حول موضوع أطروحة دكتوراه زبيدة المنير بلا شك، أقيم عرض مسائي لفيلمي في أحد المقاهي العصرية الذي حول إلى غرفة عرض. كان المكان ممتلئاً بالكامل. استمرت جلسة الأسئلة والأجوبة التي أعقبت الفيلم ساعة على الأقل، أو لربما أكثر. حاولت أن أستذكرى قليلاً فقلت: «يبدو أن حزب الله لم يتلق دعوة للحضور». لا شيء سوى بعض الضحكات التي يتخللها التوتر. إنها منطقة معقدة وكان هذا النوع من النكات الذي يمس بعضاً من الجمهور غير مقبول. كنت أعلم بسرعة، ولكن ذهني كان مشتتاً بما أفصح لي أدهم حول أطروحة زبيدة.

علا صوت امرأة في الجمهور وقالت: «ما سبب كون هؤلاء الأشخاص في فيلمك متدينين للغاية؟ في الثقافة اللبنانية، يتسبب الدين في إيذاء المثليين جنسياً، ولكن الفيلم يتعامل مع الأمر وكأنه غير مألوف».

أجبتها: «شكراً لك. يا لها من طريقة مهمة للنظر إلى الفيلم. أتمنى أن يكون الفيلم قد أجاب عن سؤالك؟ لطالما رغبت بأن يتحدث الفيلم عن نفسه، بطريقة أفضل مما أستطيع». ولكنها أصرت على سؤالها، فقلت: «لربما تتغير الأمور؟ في يومنا هذا تستطيع النساء السعوديات نيل درجة الدكتوراه!». علا صوت ضحكات الجمهور. لم أجبها بالطريقة الإسلامية النموذجية التي أستخدمها مع الجماهير الغربية. كنت منافقاً. تجنبت أن أناقش أمراً كنت لأرحب فيه في أي بلد آخر. لربما كان السبب أنني لا أعرف ما يكفي عن الحياة الدينية في بيروت القرن الحادي والعشرين. ولكنني كنت أعرف تمام المعرفة دور الدين التاريخي باعتباره المقسم الأساسي لهذا البلد الذي مزقته الحرب الأهلية. لم أغتزم الفرصة لأدخل في أي نقاش ديني معاصر مع أي شخص، ولا حتى رفيق مثلاً في تلك الليلة التي قضيناها نمشي على الكورنيش.

بعد العرض، أخبرتني الناشطة المثلية الجزائرية عائشة: «أحبته! على أي حال، ماذا زرت في بيروت؟ أسمح لي بأن أكون دليلك السياحي وأريك ما لم يشاهده سائح من قبل؟». قبلت عرضها واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي ظهراً في فندقتي.

قلت لها: «عليّ أن أعترف أنني غالباً ما أستيقظ متأخراً. إنها مدينة الليل».

ما لم أخبرها به هو أن أحد أسباب عدم تمكني من لقاءها مبكراً هو أن مواعيدي الليلة السابقة حرمني من النوم. كان رجلاً مجهولاً من النوع الصامت التقيته عبر غريندر، وقال إنه من السعودية واسمه أحمد. أُرغب دائماً في معرفة شيء ما عن الشخص الذي أخرج معه في موعد، لذا لم يخل الأمر من قليل من الصدق في هذا اللقاء الجنسي البحت، ولكن لن يخبر أي منا أحداً عما تحدثنا على الأرجح. لا يدرك سوى قلة قليلة من الناس عظمة الجنس بين الرجال المثليين، مقارنةً بالميول الجنسية والأنواع الاجتماعية الأخرى.

أراد أحمد إلغاء الموعد حين أخبرته عن فيلمي. كتب لي في رسالة نصية: «لا أرغب بإجراء مقابلة حول كل هذه الأمور يا رجل». أخبرته أنه لا داع للخوف، فقد أنهيت تصوير الفيلم. سافر أحمد بشكل متكرر من جدة إلى بيروت لصالح مجموعة مالية أخبرني أنه يعمل لديها. حين غادر في تلك الليلة، أعطيته نسخة دي. في. دي. لا تحمل أي علامات من فيلمي. اعتدت أن أفعل ذلك كثيرًا، أرسل العديد من أقراص الدي. في. دي. من خلال بعض الأصدقاء (وفي هذه الحالة موعد مجهول!) لكي تصل إلى البلدان الإسلامية التي لا تسمح بعرض الفيلم رسميًا. قبل عامين من مجيئي إلى بيروت، أرسل لي صديقي المثلي سلمان، الذي التقيته في الجامعة الأمريكية حين كنت أستاذًا وطالبًا فيها، رسالة عبر البريد الإلكتروني من دبي ليخبرني أنه ذهب إلى لاهور في باكستان ووجد فيها نسخة دي. في. دي. مقرصنة من الفيلم تباع في شوارع سوق أناركالي المزدحمة. نسخ سلمان الفيلم وأعطاه للعديد من أصدقائه في دبي وما حولها، ونظم ذات مرة عرضًا خاصًا للفيلم في غرفة معيشته. ما أردت تحقيقه هو بناء «شبكة سرية» لتوزيع الفيلم دون أن أضطر إلى عرضه على موقع يوتيوب.

أرسلت طلب صداقة إلى عائشة على موقع فيسبوك قبل لقائنا في صباح اليوم التالي.

اصطحبني في جولة لرؤية الرسومات الجدارية التخريبية على الجدران التي رسمت ذات يوم الحدود الخارجية للمدينة واستندت إليها أول أحيائها الأرمنية. كتب على إحداها كلمة «برلين» باللغة العربية، في إشارة إلى أن هذا الجدار هو السبب في انقسام المدينة. وعلى جدار آخر، لوح بياض الثلج ببندقية كلاشينكوف، وكتب إلى جانبها عبارة «ارفض التمييز المظهري» باللغة الإنجليزية. ولكنني تساءلت بيني وبين نفسي: لم/البندقية؟

شرحت لي عائشة باشمئزاز واضح: «إنها إشارة إلى هوس اللبنانيين بعمليات تكبير الثدي، وشد البطن، وشفط الدهون، والرغبة العامة لدى المرأة بأن تكون ملفتة للنظر وجميلة في كل الأوقات».

أخبرتني عائشة أيضًا أن كلا الجنسين في لبنان مهووسان بعمليات تجميل الأنف. وجدت العديد من الرسومات الجدارية المتعلقة بموضوع التمييز المظهري، التي كان بجوارها بعض من عبارات حزب الله التحفيزية مكتوبة بخط عربي جميل. كتب في إحداها: «يا رب اجمعنا بالحسين في الآخرة»، في إشارة إلى أكثر الأئمة الشيعة الموقرين وحفيد النبي. بالنسبة للشيعة، كان الحسين الخليفة الثاني بعد

علي مباشرةً. أما بالنسبة للسنة، فكان أبو بكر الخليفة الثاني بعد علي. وفي هذه الحقيقة التي قد تبدو بسيطةً حول نسل محمد وخلافته تكمن بداية تشكل الإسلام الطائفي الدموي المقسم بين شيعة وسنة. بينما راقبت رسومات حزب الله الجدارية، تذكرت أن هذا الانقسام العميق ليس بسيطاً أبداً، إذ نشأ عنه تشكل ديانيتين منفصلتين تماماً في القرون التي أعقبت وفاة النبي.

قطعتني عائشة عن حلم اليقظة ذلك قائلةً: «إنني أكرهه»، مشيرةً إلى حزب الله.

لطالما لفتت الرسومات الجدارية انتباهي في حمامات وشوارع المدن الأجنبية. من وجهة نظري، إنها دوماً مؤشر على الطريقة الحقيقية التي يعيش المجتمع من خلالها. كلما راقبت رسومات جداريةً عن كذب، أشعر أنني أستطيع الولوج إلى عقول أفراد المدينة بطريقتي الفريدة.

قدنا السيارة مروراً بشارع 22 نوفمبر، ودلّنتني عائشة على ما أسمته «الحرش». كان حرش الصنوبر، الذي قصفه الإسرائيليون ودمروه تماماً في عام 1982، أشبه بحديقة أسطورية.

أخبرتني عائشة أنه قصف «لأسباب لا نفهمها نحن البيروتيون. كان مغلقاً طيلة الوقت حين كنت طفلةً». لم يسمح لأحد بدخول هذه الحديقة لما يقرب خمسةً وعشرين عاماً، على الرغم من إعادة بنائها عقب الحرب الأهلية اللبنانية التي انتهت عام 1990 واستمرت خمسة عشر عاماً. قالت لي عائشة إنه ينبغي على البيروتيين الراغبين في زيارة هذه الحديقة أن يتقدموا بطلب للحصول على تصاريح خاصة، ولكن يبدو أن دخول السياح الغربيين إليها أكثر سهولةً.

قلت لها: «أنه أمر غريب للغاية. حديقة مقفلة؟ لكن دعيني أخبرك أنه في مانهاتن أيضاً حديقة مقفلة تسمى حديقة غراميسي، وهي مخصصة للمقيمين حولها وحسب».

أخبرتني عائشة: «الأمر ليس كذلك هنا»، وأضافت أنه مجرد أحد الأسباب التي تجعل بيروت غامضةً وعصيةً عن الفهم. أشارت إلى امرأة قوقازية ترتدي فستاناً ضيقاً وحذاءً ذي كعب عال وقالت: «انظر هناك. إنها عاهرة روسية. أصبح لقاؤهن أمراً شائعاً في هذه المنطقة». تساءلت عن الكنوز التي تختبئ داخل حدود الحرش وعما يجعلها مميزةً إلى هذا الحد.

سألتها محاولاً تغيير الموضوع: «أتعلمين أنك سميت تيمناً بزوجة الرسول المفضلة؟».

أجابتنني: «بالطبع أعلم. ولكنني لا أدري ما إذا كان جميع المسلمين يوافقونك في هذا الرأي». لم يفلت إرث عائشة من الطائفية الإسلامية.

بينما كنا نقود السيارة، تعرفت أكثر على عائشة. كان لديها صديقة حميمة في دمشق، ولم تكن زيارتها أمراً سهلاً في كثير من الأحيان. كان دور سوريا في الحرب الأهلية و«تدخلها» المستمر في الشؤون اللبنانية حقيقة لا شك فيها. كانت عائشة إحدى الأشخاص الذين لم يعاصروا الحرب الأهلية، ولربما كانت نظرتها عن سوريا مختلفة عن نظرة والديها. كان والد عائشة من العلويين السوريين، مثل الديكتاتور السوري المتشبه بالسلطة بشار الأسد، أما والدتها فكانت شيعية لبنانية. إن العلوية طائفة من الإسلام الشيعي. كانت عائلة الأسد التي تحكم سوريا على وشك أن تشهد حالة غير مسبوقة من الفوضى. هذا ما لمحت إليه عائشة، إذ كانت تكتب مدونةً بشكل منتظم وتتناول فيها القضايا الإقليمية. لا بد أنها كانت على علم ببعض المعلومات التي لم أعرفها باعتباري دخيلاً، على الرغم من أنني لطالما افتخرت بأنني أعمل جاهداً لأكون على اطلاع دائم بالأحداث التي تجري في المنطقة.

أخبرتني بشيء من الغموض: «الأمر تتغير بسرعة كبيرة هنا. إذا تابعت جميع المدونات والأخبار مثلي، سترى أنه يبدو أن هناك قنبلة موقوتة على وشك الانفجار».

إنها الجملة التي كررتها في كل مرة زرت فيها القاهرة في السنوات العديدة الماضية. وفي ذلك الوقت، كان الانفجار على بعد أشهر وحسب. سألتها عما إذا كانت تقصد الشرق الأوسط الأعم.

أجابتنني: «نعم. يمكنك مثلاً القول إن أيام بشار الأسد باتت معدودة».

لقد اندهشت. بدا الأسد لي قوياً بل وحتى صوتاً للتعددية العلمانية، ولكن سيتبين أنني مخطئ تماماً.

تابعت قائلة: «ما من شيء مستقر هنا بعد الآن. لو سمعت الحديث الذي يدور في شوارع دمشق مثلما تفعل صديقتي الحميمة، ستتعجب. إنها أيضاً مثلي تفكر ملياً في السياسة طيلة الوقت. وهي أيضاً تمتلك مدونةً. ولكن تذكر كلامي هذا – ما من شيء في سوريا أو في أي مكان آخر في هذه المنطقة سيبقى على حاله. سيصاب العالم بأسره بالصدمة».

خلال العرض الثاني لفيلمي، قابلت صفا، مسيحية تقيم منذ فترة طويلة في المكان الذي كنت أتوق لزيارته: إقطاعية حسن نصر الله، حي الضاحية الشيعي. في مدينة أقل سرالية، لن يكون وجود امرأة مسيحية مثلها لا ترتدي الزي الإسلامي وتعيش في حي شديد التحفظ أمراً ممكناً. ولكن فاجأتني بيروت في كل مرة. أخبرتها أن الجميع خائفون من اصطحابي إلى هناك.

قالت لي: «أنا سأصطحبك. أرسل لي رسالة على الفيسبوك وسنخطط سوياً».

في اليوم التالي، جلست أنا وصفا في سيارتها من نوع تويوتا لاند كروزر. قالت لي مبررة: «عائلة كبيرة».

لم يكن توسع الضاحية راقياً مثل الحمرا أو الأشرفية. كانت الشقق الرثة والمقصوفة التي خضعت إلى عدة مراحل مختلفة من البناء والتدمير متكدة فوق بعضها البعض. كانت الثياب معلقة في الأزقة حتى تجف. لم نتمكن من التحرك أبداً بسبب حركة المرور. كان هناك كثير من الرسوم الجدارية وأعلام حزب الله الصفراء المعروفة. تمكنت من تمييز الشعار عليها. أخبرت صفا بما أعرفه عنها، إذ رأيت الشرطة الدينية الإيرانية، بسيج، تحمل أعلاماً مماثلة في رحلتي الوحيدة إلى طهران.

أخبرت صفا أنني عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري تقريباً، وبينما كنت ما أزال أعمل مؤقتاً بصفتي مراسلاً لإحدى مجتمعات الأخبار، ذهبت إلى طهران «التي يهيمن عليها الشيعة» وقضيت فيها ليلتين لأكتب مقالاً عن مهرجان فجر السينمائي. كانت أول رحلة لي إلى خارج البلاد، وشعرت أن طهران شبيهة بدلهي (باستثناء جبالها)، شديدة التلوث ويخنفها الازدحام المروري. ما من مكان في العالم يقدر الإمام الحسين مثلما يفعلون في طهران. حرص الشيعة الذين لا ينفرون من التصوير على أن تذخر الجدران بلوحات تصوره. قال رؤساء بلديات المدينة (من بينهم أحمد نجاد سابقاً) مراراً وتكراراً إنهم لو ملأوا جميع الجدران بجداريات الشهداء وآية الله الخميني وحتى الأحداث الإسلامية، فلن يكون هذا كافياً. كانت الحرب العراقية الإيرانية ماتزال في الذاكرة القريبة.



مررت بمقبرة جنة الزهراء، وسمح لنا سائق سيارة الأجرة بالتصوير. وقفت مجموعات من النساء اللاتي ترتدين التشادر الأسود وهن ينتحبن إلى جانب القبور التي لم تكن تشبه أي قبر رأيته في حياتي - كان على كل منها صورة مؤطرة «لشهاد» الميت، وإلى جانبها تبكي حشوداً من الفزاعات السوداء. بدا كما لو أنهن تعبدنهم. أهذا ما يجعلهم مكروهين إلى هذا الحد لدى السنة؟

أبعدني صوت صفا عن قصتي في إيران. قالت لي وهي تزمز بصوت عال رداً على دراجة نارية تنحرف مصدره صوت أزيز كادت تصدمنا: «إلى أين ينبغي أن يذهب كل هؤلاء؟ هل سبق لك أن رأيت ازدحاماً مرورياً كهذا؟ هذا البلد سجن لعين على أي حال». كان ذلك الرجل الوحيد القادر على التحرك، كما بدا لي.

بدأت أنا وصفا نتحدث عن شعار حزب الله. كان أصفر اللون تزيينه عبارة «حزب الله» بخط كوفي أنيق، إذ ينتفض الحرف العربي الأول، الألف في كلمة الله، حاملاً بندقيّة من طراز آيه كيه-47. كان تصميمه ذكياً لأنه تمكن من تصوير هذا الحزب السياسي بدقة. وبعض من نسخ هذا الشعار تضمنت سيفاً وكرّة أرضية وكتاباً وما بدا أنه فرع شجرة. أما النص أعلاه فمأخوذ من السورة الخامسة من القرآن، التي جاء فيها: «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ»، وفي أسفل الشعار كتبت الكلمات التي تعرف الحركة: «المقاومة الإسلامية في لبنان».

أعجبت صفا بمعلوماتي، وسألتني: «هل تعلم أن له ألواناً أخرى أيضاً؟». أجبتها أنني لم أعرف ذلك، ولكننا بعدها مررنا بجانب نسخة خضراء وسوداء اللون.

قالت: «أترى هذا؟». رأيت علماً غريباً أخضر وأصفر اللون كتب عليه باللغة الإنجليزية: «بدمنا نفوز».

«أعتقد أنها تشير إلى القصف الإسرائيلي عام 2006. أليس كذلك؟».

أومأت صفا برأسها. لم تكن ترتدي حجاباً، ولكنها قالت: «لا تقلق، إنهم لا يزعجونني. لحزب الله أعين في كل مكان. إنهم يعرفون بالضبط من أكون أنا».

بدا أن ما ترتديه من قميص دون أكمام وسروال من الجينز في هذا الحي، الذي يمكن القول إنه الأكثر تديناً في لبنان، أشبه بتحد متعمد. وهذا ما أخبرتها به، ولكنها قالت: «هذا ما أرتديه كل يوم. أنا أسكن هنا. لم عساي أن أغير؟».

كانت آثار عملية إعادة الإعمار المتسعة تتجلى في جدران الطوب غير المطلية. أخبرتني أن الأموال الإيرانية هي التي ساعدت الضاحية في «النهوض كما طائر الفينيق» بين عشية وضحاها بعد وقف إطلاق النار. كنت أعرف مسبقاً أن حزب الله أصبح بمثابة مقاومة صالحة وضرورية حتى بالنسبة للشباب المسيحيين في عام 2006، وهذا ما أكدته صفا لي. أخبرتها أن لليمين الهندوسي المتطرف «منظمة» مماثلة تسمى آر. آر. إس، إذ سعت لكي تظهر وكأنه لا غنى عنها بعد المآسي والكوارث الطبيعية من أجل أن تكسب المزيد من الأتباع.

قالت لي: «ما من شيء يوحد اللبنانيين أكثر من كراهيتنا لإسرائيل».

لاحظت أن الشوارع خالية من الناس. قالت صفا: «إنه رمضان. الجميع نيام في منازلهم. يجب أن ترى ما يحدث في الليل حين تضاء الفوانيس وتملاً أكشاك الطعام الشوارع».

اعتدت على الحياة الليلية الرمضانية المترفة في طفولتي. وكنت في القاهرة ذات مرة في شهر رمضان ورأيت المصابيح الجميلة المزركشة التي تسمى بالفوانيس وهي تضيء الأزقة والمنازل المزينة. في حين كانت الصرامة الرمضانية خلال فترة الصباح حتمية، كانت ليالي هذا الشهر بمثابة نسخة إسلامية من موسم الأعياد الأمريكي، تستمر إلى حين قدوم عيد الفطر الذي يعتبر أشبه بالنسخة الإسلامية من عيد الميلاد المجيد. بعد مرور شهر من التقوى والامتناع، تقام أكثر الاحتفالات بهجة. تربطني بهذه الأوقات ذكريات طيبة من الهدايا والآيس كريم. وأما بالنسبة للبالغين، كانت أهميته مرتبطة بعودة الحياة الجنسية. من المؤكد أن علاقاتي البيروتية عبر غريندر في رمضان عام 1431 هجري ستسبب في منحي مكاناً مميزاً مخصصاً لأسوأ العصاة في جهنم.

سألتها: «أوه، اعتقدت أن الفوانيس موجودة في القاهرة وحسب. كيف تأكلين خلال النهار بصفقتك مسيحية تسكن في هذا الجزء من المدينة؟».

«مصر ليست بعيدة جداً، لذلك تجد الفوانيس في كل مكان. أما الأكل – الأمر بسيط. لا تفعل ذلك في الأماكن العامة وحسب».

أوقفت صفا السيارة عند إحدى الزوايا، وقالت: «دعنا ننتظر بضع دقائق لكي يذهب الجميع إلى مساجدهم». لم تكن مهتمةً أبداً بالطقوس الدينية، وهذا ما أخبرتني به حين التقينا لأول مرة.

قلت لها: «تذكرني هذه المنطقة قليلاً بمنشأة ناصر، ولكنها أنظف قليلاً». إنه أحد أكبر الأحياء الفقيرة في القاهرة، وهو يعرف أيضاً باسم «مدينة القمامة».

قالت لي: «هذا ليس منصفاً يا بارفيز. لقد زرت القاهرة. هذه المنطقة جنة مقارنةً بتلك المزبلة!». أدركت متأخراً وبعد زيارة المنشأة عدة مرات بعد ذلك أنها كانت على حق. يمكن مقارنة أرض حزب الله بضواحي الطبقة المتوسطة النموذجية من دلهي إلى القاهرة، ولكن بفارق واضح متمثل في أعلام حزب الله والأناشيد المملوكة المطبوعة التي لا تحصى عن «الشهداء» بالإضافة إلى صورهم المعروضة بشكل لافت للنظر.

وكما هو الحال في أي مكان آخر في العالم الشيعي، وتاماً مثل مقبرة جنة الزهراء في طهران، كان تصوير وجه الشهيد أمراً ذي أهمية بالغة. مررنا بالجداريات التي تصور آية الله الخميني أب الثورة الإيرانية، وحسن نصر الله زعيم حزب الله. أحجمت عن البوح بأي تعليق. لم أكن أعرف حينها أنني سأكون في أرض مليئة بالمقابر المجهولة بعد أقل من عام. لم يجد الشيعة أي مشكلة في عبادة الأصنام. وسأعرف في القريب العاجل أيضاً أن العبادة الوحيدة التي يبدو أنها مسموحة في أرض الوهابيين كانت لصورة الملك وأفراد العائلة الملكية البارزين وهم يلوحون ويبتسمون دائماً للعامة. كانت هذه الجداريات مصحوبةً بكلمات عربية منمقة ومتزلفة. وعلى عكس المملكة العربية السعودية، لم يكن تصوير وجوه الشهداء الذين يفوقون الحصر أمراً إشكالياً في لبنان. بدت بيروت وكأنها مدينة فصامية، ولهذا السبب وقعت في حبها.

بدأ أذان صلاة الظهر في مساجد الضاحية. بقيت صامتاً.

سألتني صفا ممازحةً: «ألن تصلي؟ الجميع في فيلمك يفعل ذلك طيلة الوقت».

سكتت قليلاً قبل أن أجيبها: «جميع هذه المساجد شيعية. لا يسمح لي بالدخول إليها». لم أدرك في ذلك الوقت أنني سأكون على علاقة وثيقة مع الشيعة في غضون بضعة أشهر وحسب.

كنا في مكان يبدو وكأنه زقاق سكني عادي. تعلو مجموعة متشابكة من الأسلاك الكهربائية ومكيفات الهواء فوق معظم النوافذ بشكل يندر بالخطر. نزلت صفا بسرعة من السيارة ولفقت نظري إلى أحد المباني العادية المؤلفة من طابقين. لم يكن مزيئاً سوى بعلمين آخرين من أعلام حزب الله التي تغزو المنطقة.

قالت لي وهي تشير بيدها: «هذا المبنى هناك هو قسم العلاقات العامة لحزب الله». التقطت صورةً للافتة الشارع.

قالت لي: «مستحيل. لا تفعل هذا هنا. ستقع في مشكلة كبيرة».

أخبرتني أن لها صديق ثرثار هناك يدعى إبراهيم الموسوي، والذي علمت لاحقاً أنه كان رئيس ذلك القسم في حزب الله التي يبدو أنه يعمل بدقة متناهية. قالت لي: «إنه يجلب أفضل أنواع النميمة على الإطلاق وهو على علم بكل ما يجري». شعرت أن سؤالي عن سبب وكيفية معرفتها بشخص ما في الأجهزة البيروقراطية لحزب الله غير لائق. ولكنني سجلت موقعنا على هاتفي على أي حال. كنا في شارع بئر العبد. (في الضاحية، كتبت الافتات في الشوارع غالباً باللغة العربية. ولكن في العديد من الأماكن في بيروت، كتبت باللغتين العربية والفرنسية).

قالت لي وهي ترسم وجهاً مبتسماً في الهواء: «إن كنت ترغب في زيارتهم، كل ما عليك فعله هو أن تسأل أي سيارة تاكسي في الضاحية عن مبنى فواز»، وأضافت ضاحكة: «من يدري؟ قد ترغب يوماً ما في تصوير فيلم عن جنود حزب الله».

اصطحبتني صفا بعد ذلك إلى أغرب مكان رأيته في حياتي: متجر هدايا خاص بحزب الله! في كل مكان من حولنا، وفي أي شكل يمكن تصوره، يوجد ما لا يمكنني أن أصفه إلا بفن حزب الله الهابط. ضحكت صفا وقالت: «إنه متجر يبيع التذكارات المتعلقة بحزب الله». لم يكن لدي أي مشكلة في أن أقضي ساعة أو أكثر هناك.

عرضت أيقونات شيعية مصنوعة «في الصين» من البلاستيك الرخيص بكل أناقة. قلت لها: «واو، إنهم رجال أذكاء فعلاً! ثمة ناس في الصين توظف حقاً من أجل صنع أكواب القهوة التي تحمل صورة نصر الله! قد تكون هذه رخصة شيعية عالمية!». شعرت بالبهجة ولم أستطع مقاومة رغبتني في نشر صورة لكوب قهوة خاص بنصر الله على الفيسبوك. كتبت في المنشور: «لو أخبرني أحد أنني سأقف في متجر هدايا خاص بحزب الله في جنوب بيروت، لأخبرته أنه مجنون». ونشرت صورة أخرى لتيشيرت كتب عليها: «أنا أحب [شعار حزب الله]».

كنت أنا وكيث من الداعمين المتلهفين للفن الهابط. وتماًماً كما هو الحال مع الرسومات الجدارية، شعرت أن الفن الهابط يعطيني فكرة صادقة عن أي مجتمع. جمعت العديد من هذه الأشياء خلال رحلاتي عبر البلدان الإسلامية، ولكن ما من شيء يضاهي ما وجدته هنا. لم تتوافر التيشيرتات الصفراء التي تحمل شعار حزب الله الأخضر بمقاس أكبر من الوسط. كان يجب عليّ أن أشتري المزيد لأصدقائي اليهود في نيويورك الذين يشاركونني حس الدعابة السوداوي. اشتريت سلاسل مفاتيح صفراء اللون تحمل شعار حزب الله. واشترت أكواب قهوة عليها صور للخميني ونصر الله وهما يلوحان بيديهما. واشترت أيضاً أقلاماً وأعلاماً مصغرة مرتكزة على قواعد لكل من إيران وحزب الله. اشتريت كمية لا حصر لها من الهدايا. حصلت على جميع أنواع الحلوى المتعلقة بحزب الله، حتى عربة زجاجية رخيصة تعمل بالبطارية تحمل شعار حزب الله الذي يتوهج باللون الأخضر عند تشغيلها. تعجبت من كون المتجر مفتوحاً أثناء وقت الصلاة، ولكن الرأسمالية على ما يبدو أهم من الدين بالنسبة لصاحب المتجر هذا. لم يقبل بطاقات الائتمان. الدفع نقدًا حصراً، وبالدولار الأمريكي العظيم وحسب.

بعد انتهائنا من التسوق، أخبرت صفا: «لم لا أرسل إلى صديقك الموسوي رسالة بريدية إلكترونية أخبره فيها أنني صحفي مستقل أكتب مقالاً عن بيروت وأرغب في تغطية جميع المناطق المختلفة في المدينة. هذا ليس خطراً، أليس كذلك؟».

أعطتني صفا عنوان بريده الإلكتروني المباشر. وبينما وقفت على بعد أمتار قليلة من المكتب نفسه، أرسلت إليه رسالة بريدية إلكترونية ووصفت نفسي فيها بأنني صحفي مستقل من الهند. كنت أطلب منه ما لا يمكن اعتباره إلا أمراً غير معقول – مقابلة مع حسن نصر الله. أخبرته أنها ستكون

بعيدةً عن «الشؤون السياسية» وستناقش «إعادة إعمار الضاحية وتحديثها». لم أخبره -وهو أمر في غاية الأهمية- أنني مقيم بشكل دائم في الولايات المتحدة. إذا تمكنت من الحصول على إذن، فمن الممكن أن أكون معصوب العينين وسيساعدني جواز سفري الهندي على العديد من نقاط التفتيش. أين كان يعيش في هذه الضاحية الكبيرة على أي حال؟ أبقى هذا السؤال دون إجابة حتى الآن حتى بالنسبة لأكثر عملاء الموساد حنكةً والموجودين حتمًا هنا في الضاحية؟

ودعت أنا وصفا بعضنا البعض بعد أن أوصلتني إلى فندق لو كومودور، حيث كنت على وشك اللقاء بصحفي في مطعم بنيهانا. وبينما تناولنا السوشي والساكي، إذ يبدو أن اللبنانيين المتباهين يفضلهما على المطبخ المحلي اللذيذ والغني، أمطرني الناقد الثقافي المؤيد لحزب الله واليساري الذي يعمل في صحيفة/الأخبار بوابل من الأسئلة حول الفيلم الوثائقي وعن سبب عدم تصويري في لبنان. قلت له ضاحكًا بينما يسجل ملاحظاته: «أنتم البيروتيون لستم متدينين بما فيه الكفاية». أخبرني عن سبب اضطراره للعودة إلى هذه «الأرض المضطربة التي ولدت فيها» من لندن، وتخليه عن وظيفة ذات أجر مرتفع في صحيفة/الحياة التي يملكها السعوديون. لم يعد بإمكانه تحمل سياستها المؤيدة للسعودية. أخبرني أنه مع تقدمه في السن دعت «بيروت التي في قلبي» إلى العودة إليها. قال لي إن الشعور باقتراب نهاية العالم الذي اختبرته في حفل فؤاد كان شعورًا بيروتيًا دائمًا. كانت الحرب الأهلية بالإضافة إلى وجود حزب الله، الذي أسفر عن قصف إسرائيلي متكرر، مثالين على «روعة» هذه المدينة. وافقته الرأي وأخبرته أنني أشعر وكأنني على حافة الهاوية منذ وصولي إلى هنا. عرض عليّ أن يصطحبني إلى متجر كتب مشهور في شارع الحمرا. أخبرته أنني انتهيت لتوي من التسوق في «متجر خاص بحزب الله» في الضاحية، وأريته الأشياء التي اشتريتها. حرق ببلاهة ثم طلب مني على عجل أن أخبرها بعيدًا. يبدو أن البيروتيين لا يريدون الاعتراف بمواطنيهم المقاتلين.

قلت له: «أعلم أنني قد أقع في المشاكل إذا قررت الجمارك الأمريكية تفتيش أمتعتي المسجلة، ولكنني أحب الخطر وأحيا به». ركز المقال الذي نشره بشكل كبير على ما قلته عن زيارتي للضاحية. وفي ذلك الوقت، أزعجني الأمر لأنني بقيت عدة أيام إضافية في البلد.

التقيت في وقت لاحق مع اثنين من أصدقائي الجدد في مقهى شهير في الحمرا يدعى مقهى يونس، وهما مضيف الحفل فؤاد والوسيط مو الذي ساعد الصحفيين الغربيين في تغطية ما يجري في هذه المنطقة المضطربة. كانت تربطهما علاقة تكافلية. يطرح مو أفكاراً لمقالات قد يكتبها فؤاد، بينما يستفيد مو بتلقيه عروضاً أخرى في عمله بصفته وسيطاً. كان من الواضح أن فؤاد أمريكياً، ولكنه كان يبحث عن هويته الفلسطينية. وكان لبنان مشابهاً جداً لموطن أجداده، إذ لن تسمح له إسرائيل بالدخول بسبب كتاباته التحريضية.

كان لمو علاقات وثيقة بكل ما هو بيروتي، بما في ذلك السياسة المحلية وسلوك حزب الله داخل هذا المكان المتغير باستمرار. كانت بيروت في منافسة مع القاهرة في أن تصبح ملاذاً للصحفيين خلال عملهم في الشرق الأوسط. ولكن كل شيء سيتغير في غضون ثلاثة أشهر وحسب. تدبر فؤاد ومو بالكاد ما يكفي قوت يومهما في هذه المدينة المكلفة، ولكن الإيجارات في المناطق التي يعيشان فيها كانت رخيصة. لم تكن الكتابة لصالح الانتفاضة الإلكترونية بدافع كسب المال، لذلك بدأ فؤاد بالكتابة لصالح صحيفة غارديان أونلاين وغيرها من المواقع المدفوعة التي كتبت أنا لصالحها أيضاً. شاركته شبكة علاقتي الأخرى بسعادة، وأخبرته أيضاً أنني كنت عاطلاً عن العمل بعد فيلمي.

قال مو ضاحكاً: «ربما يمكنك أن تصبح مراسلاً للمنار!». كانت المنار قناة تلفزيونية يديرها حزب الله، وهي محظورة في معظم الدول الغربية. في غرفتي في الفندق، تبين لي أن كل ما تعرضه هذه القناة هو خطابات لحسن نصر الله. ضحك حين أخبرته أنها ساعدتني على النوم. ذكرت فؤاد بوعد قطعه في الحفلة.

في صباح اليوم التالي، شكلنا طاقماً غير متناغم: فؤاد، ومو، وأنا، وكاميرتي الرقمية الوفية حول عنقي. نزلنا بالقرب من حي صبرا الذي تسكنه الطبقة المتوسطة الدنيا، والذي يقع على حدود حي شاتيلا الذي يعيش في ظل فقر مدقع ويعتبره معظم البيروتيين الذين قضينا بعض الوقت معهم مجرد منطقة عشوائية. شعرت وكأنني في رحلة حج لأنني كنت في أقرب نقطة يمكنني الوصول إليها للصراع الإسرائيلي الفلسطيني. كانت تلك المنطقة موطناً لأكبر تجمع للاجئين الفلسطينيين في العالم. نصحني فؤاد بأن أبقى الكاميرا مخفية في حقيبتي.

قلت لهم: «لا أرغب في تذكر هذه التجربة من خلال صور تجسد الفقر المزري. حين كنا في ريو، كان هناك جولات في الأحياء الفقيرة ولكنني رفضت الذهاب. لذا لربما أنت محق يا فؤاد».

كان السكان حذرين من الكاميرات والصحفيين. كانت هذه المنطقة مضطربةً يتداخل فيها الفقر والسياسة مع بعضهما البعض. فكرت في نفسي: إنها قنبلة موقوتة أخرى. طارد حزب الكتائب المسيحي الماروني، الذي هلك له جيش الدفاع الإسرائيلي، الفلسطينيين وقتلهم في أزقة شاتيلا الضيقة في الثمانينيات. كانت الحرب الأهلية اللبنانية مندلعةً آنذاك، وانحازت جميع الدول المجاورة، ولا سيما إسرائيل، إلى أحد الجوانب. اصطحبنا فؤاد في البداية لنمر بجانب ما أسماه «جدار الموت»، إذ قال إنه أجبر بعض الرجال على الاصطفاف أمامه وثم أعدموا بدم بارد على يد الكتائب التي تدعمها إسرائيل.

حاول أن يشرح التاريخ المعقد للحرب الأهلية بينما كنا نسير، فقال: «ثمة العديد من الجدران المشابهة. قتلوا هنا أكثر من ثلاثة آلاف شخص. من شعبي. كان ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ما يزالان على قيد الحياة حينها. كنت مجرد طفل، ولكن شرح والدي وأجدادي لنا كل شيء خلال نشأتنا». لم أصغ تمامًا لما قاله لأنني سمعته كثيرًا من قبل. دخلنا منطقةً عشوائيةً بدت وكأنها نسخة أنظف من دارفي في بومباي.

قال لنا مشيرًا إلى مقبرة تحوي شواهد قبور: «هذه ساحة الشهداء». ألقى العديد من الجثث في المقابر الجماعية، ولكن دفن بعض المسؤولين المهمين في منظمة التحرير الفلسطينية هنا. أخبرنا فؤاد: «يسيطر حزب الله على هذه المقبرة الآن»، ولكن ما من وسيلة للتأكد مما قاله. تمكنت من رؤية علم واحد، ولكنه لربما يستخدم كعلامة إقليمية. لم يكن هناك أي نصب تذكاري باستثناء عمود خرساني وحيد مطلي باللون الأحمر، كتب عليه كلمة «مذبحة» باللغة الإنجليزية بشكل خاطئ. بدأت أزقة شاتيلا تصبح أضيق، وسرعان ما أصبحنا نسير في رتل إلى جانب العديد من الأعلام الفلسطينية وصور ياسر عرفات بخلفية جبل الهيكل في القدس، وهو ما يعرفه المسلمون باسم الأقصى، أي «أبعد المساجد» وثالثها قدسيةً في الإسلام. يقال إنه يحتوي على الحجر (أي «قبة الصخرة») حيث وضع النبي إبراهيم ابنه إسماعيل لكي يذبحه كما أمر الله. حتى أنه كان هناك صور لعرفات والكعبة خلفه، وهو دليل مباشر



على سبب توحيد فلسطين للأمة (أي «المجتمع» الإسلامي العالمي) بغض النظر عن الانقسامات الطائفية. لم تكن نجمة داوود التي تنزف دمًا أمرًا تندر رؤيته في المنطقة أيضًا.

كانت هناك أيضًا ملصقات جديدة تمتدح الرئيس التركي أردوغان. فكرت في حبي الجديد لبيروت الذي يشبه حبي لإسطنبول. ولكن الأخير كان أكثر حميميةً. كانت تركيا «الديموقراطية الإسلامية المستقرة» في المنطقة. في تلك الفترة، تحدى أردوغان إسرائيل والولايات المتحدة «بكل بطولة» بسبب الهجمات السابقة على قافلة بحرية في مهمة إنسانية إلى غزة.

مررنا بمدرسة صغيرة ورأينا الأولاد والبنات غير المفصولين عن بعضهم البعض وهم يشاركون في فصل الرسم. اشترت قارورة مياه من أحد المتاجر التي عرضت مجموعةً متنوعةً من الواقيات الذكرية بكل وضوح. كان هناك مسجد صغير بجواره تمامًا.

قلت محاولاً تلطيف الجو الكئيب: «أرأيتم، هذا دليل على أن الإسلام يحب الجنس!». شغل المتجر صوت فيروز، وهي واحدة من أعظم المطربات في العالم العربي، إذ كانت تغني قصيدتها الأسطورية لهذه المدينة التي نشأت فيها، لبيروت. مررنا هذه المرة بلوحة جدارية ضخمة أخرى لياسر عرفات تظهر فيها القدس (جورسالم) خلفه. تعتبر القبة الإسلامية المطلية بالذهب بمثابة مبنى إمبراطورية ستيت القدس، فهي تجعل أفق المدينة معروفًا في جميع أنحاء العالم. كتب بأحرف عربية ضخمة: «ما هو الذي أحق بالقتال من أجله أكثر من هذا، الذي هو لنا». كانت الرسالة في صبرا وشاتيلا واضحةً في كل مكان ألتفت إليه. إن إسرائيل هي العدو الأكبر ووجودها محل نزاع. وأما القدس فملك للإسلام. أتذكر أنني فكرت في الأديان والحضارات التي دائماً ما تبنى فوق بعضها البعض – لطالما كان تدمير أحدها تاريخياً متوقفاً على بناء آخر.

بعد أن ابتعدت عن مجموعتي، صادفت جداراً رسم عليه بالكامل شباباً فلسطينيون وسيمون في لوحة جدارية عملاقة. وفي جزء من النص المكتوب وردت كلمة «شهيد» التي تعني الشيء ذاته في العربية والأردية والفارسية. تساءلت عن عدد الانتفاضات (التي تترجم غالباً إلى الإنجليزية «uprising») التي لم تندلع بعد. كم من الجراح ستفتح ولن تلتأم؟ بالنسبة للفلسطينيين، انتهت الانتفاضة الثانية وأما الثالثة فلم تحن بعد. ولكن النكبة (التي تعني بالإنجليزية حرفياً «the

catastrophe» أو «الكارثة») في عام 1948، حين شرد ما يقرب مليون فلسطيني بعيداً عن ديارهم إلى الأبد على يد الدولة القومية الإسرائيلية الجديدة، فلم تنته أبداً.

كم وددت أن أجد هذه اللوحة على تيشرت.

في ظهيرة يوم آخر لي في بيروت، زرت وسط المدينة «المزيف» و«البلاستيكي» الذي بني على حساب رفيق الحريري المقتال، وهو ما أثار استياء مثقفي بيروت الذين أجمعوا على استنكارهم. بدأ أذان صلاة المغرب. لفت انتباهي جامع محمد الأمين القريب الذي جعل كل شيء حوله يبدو ضئيل الحجم. ذكرني بالمسجد الأزرق في تركيا. علمت فيما بعد أنه بني قصداً على الطراز العثماني، بقبتين زرقاوتين ومآذن على الطراز العثماني بنهايات مخروطية حادة.

كان المسجد نظيفاً من الداخل، زينته الخطوط العربية الذهبية والسقوف العالية. تدلت ثريا ضخمة في وسط مناطق الصلاة المفروشة بالسجاد، وكان المحراب مجهزاً بشكل جميل، وهو مكان موجود في كل مسجد ليشير إلى مكة. كان المسجد، مثل العديد غيره، مسمى تيمناً باسم النبي محمد. ولكن على الرغم من الجهود الواضحة التي بذلت لجعله يبدو شبيهاً بالعمارة الإسلامية على مر القرون، بدا الجامع أشبه بتاج محل بني على عجل في القرن الحادي والعشرين.

صليت بتضرع كما لم أفعل من قبل. شكل المصلون صفّاً واحداً بسبب العدد القليل. كانت صلاة تبعث على السلام. جاء رجل عجوز متلح وجلس إلى جانبي. أخبرني أنني أبدو وكأنني لا أنتمي إلى هنا. أخبرته أنني زائر من أمريكا. لم يسئ لي أبداً.

قال لي: «أنا أصلي هنا لأن الجامع قريب من المتجر الذي أعمل فيه. وإلا فهو قبيح. لو أنك رأيته في السبعينيات. كان أعظم بكثير».

أجبت: «نعم، أخبرني العديد بذلك».

«هل سبق وأديت فريضة الحج؟ عليك أن ترى عجائب المسجد الحرام في مكة. هذا هو التاريخ الإسلامي الحقيقي. عليك أن تذهب. إنها سنة». تمنيت لو أخبرته أن السعوديين هم في الواقع أكثر

القوى تدميراً في التاريخ الإسلامي. صافحته وبقيت جالساً لفترة طويلة، محاولاً بكل هدوء أن أتخذ قراراً من شأنه أن يغير حياتي إلى الأبد.

في ذلك المساء، اجتمعت مجموعتنا البائسة، ديفيد ومو وفؤاد وصفا وعائشة وأنا، ووصلنا إلى مطعم يزعم أنه يدار بواسطة حزب الله. فاحت رائحة الزعتر في كل أنحاء المكان. كان هناك بوفيه مليء بالفول والتبولة والحمص والفلفل واللبننة وبابا غنوج بالإضافة إلى كل أنواع المازة. اندفع الندل جنوب الآسيويين في كل أرجاء المكان. كان هناك عائلات تتناول التمر والكوكاكولا والآبلتيني على الإفطار. ملأت النساء المحجبات أطباقهن إلى جانب اللواتي ترتدين تنانير مثل صفا. أكانت هذه التعددية على الطراز اللبناني؟ أضاء هاتفني. انفجرت صفا، التي شاركتني حس الدعابة السوداوي، ضاحكة حين رأت الرسالة البريدية الإلكترونية. رفض طلبي لإجراء مقابلة مع نصر الله بحجة «جدول سفر حافل». جاء في نهاية الرسالة: «إدارة العلاقات الإعلامية في حزب الله تتمنى لك إقامة مثمرة في بيروت».

همست لصفا: «إلى أين يمكنه أن يسافر أساساً؟».

«إلى تل أبيب بالطبع! إنهم يتوقعون إلى الترحيب به!».

رفع محمد سعد البيشي سيفه النحيل. أربع أقدام من الفولاذ المنحني بليون في آخره يتلأأ تحت أشعة الشمس الضارية. حدق محمد في السماء وكأنه يحاول الحصول على موافقة من جلالته. ثم نظر إلى الأسفل محدقاً في شخص مكسو باللباس الأبيض راكعاً تحته. أمره محمد بنطق الشهادة الإسلامية: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله». جرت هذه الأحداث أمام سوبر ماركت مندرين في المدينة على سهل مترب بحجم ملعب كرة قدم تقريباً. وعلى بعد مائة ياردة، وقف حشد من حوالي خمسين رجلاً مراقبين ما يحدث.

قرأ شخص يرتدي ثوباً أبيض اللون وقطعة قماش حمراء ذات نقوش مربعة الحكم الشرعي المطول، والذي يتضمن «الانخراط في أبلغ أشكال الفحش والممارسات اللواطية القبيحة». تلا ستة رجال طويلي اللحي آيات قرآنية. أوماً أحدهم برأسه إلى محمد الذي تراجع إلى الخلف ووقف في موقعه إلى يسار المدان، ثم مد ساقه اليمنى إلى الأمام وساقه اليسرى إلى الخلف، ورفع ذراعيه في وضعية أنيقة شبيهة بوضعيات اليوغا. وبعد ذلك، وضربة واثقة وفعالة تمكن من قطع عنقه بسرعة. سقط رأسه

مصدرًا صوتًا مكتومًا سمع ارتداده في جميع أنحاء الحقل. بعد انتهائه من عمله المروع، صرخ محمد: «الله أكبر!» ومسح نصله بقطعة قماش بيضاء، ثم ألقى بها بعيدًا. همهم بعض الشهود المجتمعين بعبارة «الله أكبر» ردًا على صرخته. تأرجح الجسد مقطوع الرأس إلى الأمام قبل أن يصدر صوت طقطقة للحظات، كما لو أنه يحاول لفت الانتباه إليه، ثم استقر أخيرًا إلى اليمين. ارتجفت يدي. وقع مني هاتف الآيفون الخاص بي على الرمال. كتمت صرختي. استدار المطوع واتجه نحوي.

قال لي شريكي وهو يمسك بهاتفه: «هيا لنتناول الغذاء. هناك مطعم من سلسلة البيك بالقرب من هنا».

استيقظت لأجد ملاءتي مبللة. أما كيث، زوجي والرجل الذي أحببته أكثر من الحياة نفسها، كان يشخر بهدوء بجانبني. أصابت أنفاسه الدافئة الشعر على مؤخرة عنقي بالقشعريرة. تحركت يده إلى كتفي وكأنها تحاول أن تهدئ من روعي – أحس بكابوسي حتى أثناء نومه. ابتعدت عنه برفق. ليلة أخرى دون نوم؟ ذهبت إلى جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتي. هناك عشرات من النوافذ المفتوحة منذ آخر جلسة لي. عمليات البحث على غوغل من الليلة السابقة: «المثلية الجنسية والمملكة العربية السعودية»، و«قطع الرأس في المملكة العربية السعودية»، و«الحج في المملكة العربية السعودية»، و«كاميرا وتصوير في مكة»، و«الصلاة الشيعية والصلاة السنية»، و«البيشي والرياض»، و«الحج والموت والتدافع»، و«الوهابية والعقاب والحج». مر على زيارتي إلى بيروت ستة أشهر.

أخبرني محمد عبر إحدى غرف الدردشة: «نادني مو، مثل كل أصدقائي». بدت الصداقة مستحيلة على هذه الصفحة المليئة بصور السيلفي العارية، التي قد تدفع حتى أنتوني وينر إلى الشعور بالخجل.

راسلني أحد باسم مستعار (Buttfuck11): «هل ترغب بفرجي؟ أنا في الحمرا. وأنت؟».

كتبت مجيبًا: «لست في بيروت».

«أين أنت إذا؟».

ضغطت على زر الحظر. اختفى (Buttfuck11) خلال لحظة من صفحتي على منجم - وهو موقع مواعدة يستخدمه الرجال المثليون في المنطقة. بحثت عن (Mo786)، ولكنه لم يكن متصلًا بالإنترنت.

مشيت إلى المطبخ وأشعلت سيجارةً، مستذكراً الأحداث التي قد ألهمت بطريقة غير مباشرة كابوسي، الذي بدا وكأنه رحلة سريالية من المشي أثناء النوم. مشى محمد بعيداً وهو يغمد سيفه. اندفع رجال يرتدون بذلات زرقاء اللون من الخطوط الجانبية وألقوا بالجثث على نقالات، وجمعوا الرؤوس وحملوها بواسطة الأوشحة البيضاء التي كانت تغطيها، ثم حملوا المعدمين إلى شاحنتين متوقفتين. تفرق الحشد، وبدأ رجل وحيد بغسل الدماء عن الأرض.

ارتجفت يداي بعنف فسقطت مني السيجارة. رغبت في تحضير بعض القهوة. كانت الساعة الثالثة صباحاً.

بقي رجل سعودي في السادسة والعشرين من عمره، شهد الإعدام عن طريق الخطأ. كان محمد الدين، الذي ولد ونشأ في المدينة، يعرف أنه ينبغي تجنب المرور بهذا المكان في صباح أيام الاثنين، خلال الوقت المخصص لتنفيذ عقوبة الإعدام. ولكنه كان يوم الجمعة، الذي عادةً ما ينشر فيه قائمة بأسماء المدانين في الصحف وحسب. أرسلته أمه لشراء بعض الحاجيات، ولكنه حين وصل إلى السوبر ماركت، وجد أن جميع المتاجر مغلقة. تشتت انتباهه بينما راسل بعضاً من أصدقائه، ليجد نفسه في حشد متجه إلى صلاة الجمعة الإلزامية بعد الظهر. في المملكة العربية السعودية، لا يمكن لغير المؤمن أن يختبئ في الأماكن العامة خلال وقت الصلاة؛ من يعصي الأوامر يرسل إلى السجن أو يحكم عليه بالجلد في مكان عام. في خمس مرات خلال اليوم، وفي كل مدينة وبلدة وقرية سعودية، تجوب دوريات الشرطة الدينية ملوحةً بهراواتها في جميع الأماكن العامة لكي تأمر بإيقاف جميع الأعمال وإغلاق جميع المتاجر حتى انتهاء الصلوات.

تعرفت على مو منذ عامين عبر إحدى غرف الدردشة على منجم. كنت أستخدم الموقع من أجل الترويج لفيلمي على الصعيد الشعبي. كان عليّ أن أنشر الخبر في العالم الإسلامي المنعزل. كانت غرف الدردشة هذه المكان الوحيد الذي يمكنهم «التجمع» فيه، ولكن الأمان الذي كانوا يشعرون به لم يكن

حقيقياً. عرفني مو من صورة ملفي الشخصي وأخبرني أنه شاهد فيلمي جهاد في سبيل الحب بواسطة قرص دي. في. دي. هربه بعض من أصدقائه في الرياض. بقينا على تواصل. طلب مني أن أساعده في التسجيل في جامعة أمريكية - «أي شيء يساعدني على الخروج من هذا المكان اللعين». أخبرني ذات ليلة عن الإعدام. بدا هادئاً على نحو غريب وأعرب عن مفاجئته بخصوص منفذ الإعدام المختار. كان محمد سعد البيشي كبير منفذي الإعدام في المملكة العربية السعودية، الذي نفذ غالباً عمليات قطع الرأس أو اليد في «ساحة القصاص» الشهيرة في الرياض.

في مقابلة مع عرب نيوز أرسلها لي مو، تبجح البيشي بأنه «فخور بأن يؤدي عمل الله» بصفته كبير منفذي الإعدام في المملكة العربية السعودية، وأضاف أنه يبقى السيف الذي كان «هديةً من الملك» حاداً كالشفرة من خلال جلسات الصقل اليومية ليلاً بمساعدة من أطفاله السبعة. وتفاخر في هذه المقابلة أيضاً: «يندهش الناس من سرعتي في قطع الرأس عن الجسم».

قال مو: «يا بارفيز، لن يسمع معظم العالم بهذا الحدث. لقد اختاروا البيشي لتنفيذ هذا الإعدام، مما يعني أنه مهم، ولكن تنفيذه يوم الجمعة في المدينة أمر غريب. لم يكن من المفترض أن أرى هذا يا رجل. لا إعلانات، لا شيء. يجب أن أخرج من هذا المكان بسرعة يا رجل!».

عدت إلى الكمبيوتر مجدداً وبحث في سجل الدردشة بيننا، فوجدت محادثتنا حول الإعدام مع الروابط المتعلقة بالموضوع. عثرت على مقاطع فيديو مصورة عن طريق الهاتف لهذا الإعدام، أو لإعدام مشابه، على موقع لايف ليك. ولكنني لم أستطع العثور على ملف كويك تايم الذي أرسله لي. شغلت الفيديو وشاهدته مراراً وتكراراً. كانت داعش، التي يعرفها البعض باسم IS أو ISIL أو ISIS، على وشك أن تصبح ذات شهرة عالمية بسبب عمليات قطع الرأس والمجازر التي سترتكبها، على الرغم من أنها كانت موجودة قبل أحداث 9/11 حتى. ولكن في الوقت الحالي، هذا ما اشتهر به السعوديون، وأما أنا فسأكون ضيفهم غير المرحب به قريباً.

عدت إلى غرفة النوم وأنا مازلت أتعرق. أنهكني القلق. مدت يدي إلى الطاولة المجاورة لسريري. لم أرغب بصديقي القديم أدفيل الليلي، بل شعرت أنني بحاجة في هذه الليلة إلى أمبيان.

## الفصل الثاني

### فضائي بقدرة استثنائية

هكذا جرت أحداث القصة كما وردت في النصوص الإسلامية: قبل أربعة آلاف عام، طلب الله من النبي إبراهيم (المعروف لدى اليهود والمسيحيين باسم أبراهام) أن يأتي بزوجه المصرية (يدعي البعض أنها أمة) هاجر وابنه البكر منها، إسماعيل (إشمائيل)، للصحاري المهجورة قرب مكة. معنى اسم إسماعيل «الله سيسمع». وضوحاً، كان الله قد سمع حاجة إبراهيم لأن تكون له ذرية. لكنه ربما لم يستمع إلى رغبات هاجر التي يفترض أنها لم تصرح بها (لأنها ليست موثقة) بألا تصبح أمًا وزوجةً مهجورة.

أخبرونا أن اليهود والمسيحيين اعتقدوا أن هاجر هجرت في الصحراء لأن زوجة إبراهيم الأولى، سارة، أرادت التخلص منها. بالنسبة للمسلمين، سمح لهاجر بأن تتفهم بؤسها لأنه بينما كان إبراهيم يتركها هي وابنه البكر الرضيع ليموتا نظرياً، أخبرها بأن الله هو من أمره بفعل ذلك. ويفترض بهذا أن يواسيها. يعتقد العديد من المسلمين أيضاً أن كلاً من هاجر وإسماعيل مدفون إلى جانب الكعبة تماماً في مكة، أقدس بقاع الأرض.

لهاجر دور مركزي في الإسلام، وبالنسبة لي كبالغ، فهي من بين الشخصيات الأقدس، والأكثر فرضاً للإعجاب، والأكثر غموضاً في المعتقد. ولكن، نجدها مهملةً في العديد من الحكايات وفي قصص طفولتنا. الغاية الوحيدة من وجودها أن تلد إسماعيل، الذي سيكون له دور هام إذ سينجب قبيلة (قريش) التي ستأتي بالنبي محمد. ولكن إرثها واسع.

عند هجرها أول مرة، سعت هاجر بين جبلين يدعيان الصفا والمروة، في محاولة يائسة للحصول على الماء لإنقاذ حياة طفلها الرضيع. بعد سعيها لسابع مرة، انبثق نبع مقدس محيٍ يدعى زمزم. تروى القصة بالعديد من الطرق المختلفة، ولكن هذا ما تعلمته. ما تزال مياه زمزم تجري حتى يومنا هذا، وقد اعتنى السعوديون بكثير من الصخب بإحضار «خبراء» عالميين ليشهدوا بنقاها ومحتواها المعدني «فوق العادي».

لم أعلم حتى أصبحت رجلاً يافعاً أن هاجر كانت في الواقع «أم الإسلام». حتى أن أحد أعظم علماء الشيعة في الإسلام، علي شريعتي، تعجب «انظروا كم هي خاصة. اختار الله جاريةً سوداء من كل البشر لتدفن قرب الكعبة! حتى رسولنا لم ينل مكاناً هناك. أعطى الله أحد أضعف وأذل مخلوقاته غرفةً في منزله. لا تنسوها أبداً!«.

في مكة، أدركت أن بعض شعائر الحج الأساسية ذكرى لحياة هاجر الصعبة. لكلمة هجرة (يبدأ التقويم الإسلامي بهجرة محمد من مكة إلى مدينة يثرب، التي أصبحت تسمى المدينة) جذر في اسمها، كما لكلمة مهاجر. حتى زعم بعضهم أن النبي قال «المهاجر الكامل من سلك كهاجر».

لكن معظم من كتب الشريعة الإسلامية كانوا رجالاً، كالدينين التوحديين السابقين له. وقد ساعد هؤلاء الكارهين للنساء أن هاجر لم تذكر في القرآن بشكل مباشر. كانوا يبنون نظاماً أبوياً. وقد حاولوا التقليل من شأنها. حقيقةً، هذه المرأة هي محور الإسلام نفسه. وتجاهلها أمر مستحيل.

لو كتبت النساء تاريخ الإسلام، لنالت هاجر فضل ما هي عليه حقاً: الأم الحاكمة للإسلام، وهي سابقة في الأديان التوحيدية. لو حلت سلوكيات إبراهيم في العصور الحاضرة، لقال الكثيرون أنه كان أباً سيئاً وزوجاً سادياً.

كان إبراهيم أيضاً أباً سلطوياً، لم يقبل رفض أوامره قط. أجبر إسماعيل على طلاق زوجته الأولى ولكنه كان سعيداً بالثانية. كان أباً متغيّباً. ولكن، عندما أمره الله مرةً أخرى، كما كان الحال غالباً على ما يبدو، كان هذا هو الابن الذي أمره بمساعدته في بناء حجرة مكعبة الشكل إلى جوار بئرهِ في زمزم. تلك الحجرة، الكعبة، ستصبح مركز عاصمة تجارية مزدهرة تدعى مكة وهي اليوم النقطة المركزية في ديني.

من المعروف أن إبراهيم حلم أن الله أمره بالتضحية بإسماعيل. عرف مدى إلحاح الأمر، لأن الأنبياء وحدهم من يأتيهم الوحي المقدس في رؤى. حتى الشيطان حاول أن يعدل إبراهيم عن ارتكاب هذه الوحشية. رمى إبراهيم سبع جمرات عليه ثلاث مرات، ليبعده. وافق إسماعيل التقي على أن يضحي به. وما إن رفع إبراهيم سكينه لقتل ابنه البكر، تدخل الله في اللحظة المناسبة تماماً. أخبر الأب وابنه أنهما اجتازا ابتلاءه لإيمانهما، ويمكن لإبراهيم أن يضحي بتيس بدلاً عنه.



كان استعداد الأب لذبح ابنه يفطر قلبي كولد وحيد، يتوق إلى مودة الأهل. هذه الصورة الذهنية، إلى جانب الشوارع الدامية، ساهمت في قلقي قبل احتفال عيد الأضحى، الذي يحتفي بهذا الحدث، وبعده.

بالنسبة للعديد من الرجال الذين يسيطرون على رواية الإسلام، فإن جسم المرأة مساحة متنافس عليها. النساء اللواتي شكلن حياتي وعقلي في مراحل مختلفة من حياتي حاولن بطرقهن الخاصة المحدودة استعادة أجسادهن من الرجال الذين ادعوا ملكيتها لأنفسهم. بهذا المعنى، كانت كل هذه النساء ثائرات. ولكن بالمنطق الوهابي السخيف، على سبيل المثال، ليس هنالك ما هو أخطر بالنسبة لجيش (الرجال) الأتقياء المطيعين ولا أكثر إلهاء لهم من خصلة مكشوفة لشعر امرأة.

في بداية ثمانينيات القرن العشرين، كان محور عيد الفطر المفضل لدي عمة ذات صلة قرابة بعيدة بنا نسميها الخالة. كانت حكيمة وذات تجاعيد ومرحةً وشديدة النحول -تبرز عظامها من ثيابها المتواضعة ذات الألوان الموحدة. وكانت بصفاتها هذه من النحول الشديد، والعظام الناتئة، نقيض والدتي الممتلئة، التي لم تستطع أي دوباتا (شال طويل متعدد الأغراض) كانت تلتف بها في محاولة لإظهار اللياقة أن تخفي انحناءاتها. وكان هذا، ربما، في حالة والدتي، متعمداً. كل ما كان يخص والدتي تقريباً كان تفصيلاً مخططاً له بعناية.

كانت الخالة أعظم راوية قصص عرفتها في حياتي. كانت تحيي عالماً من المغامرات والأبطال (المسلمين حصراً) لشلة الأطفال المتباينين الجالسين حولها. كان رسول الله في أعلى تلك القائمة -وهو الاسم الذي كانت تطلقه على محمد. كنا نعرف أن هذا الاسم يعني «حامل رسالة الله»، وأن هذه الطريقة التي ينبغي أن نذكره بها احتراماً، تجنباً للفظ اسمه. ثم كان علينا أن نلصق العبارة التي تربك ألسنتنا صلى الله عليه وسلم.

سألتها: «ولكن لم علينا أن نتمنى له السلام كل مرة يا خالة؟».

«لأنه سيتمنى الشيء نفسه لك، يا بارفيز».

ثم، «خالة، كيف كان رسول الله يبدو؟»

سؤال سبب الكثير من الفوضى في العالم. ولكن كان لا بأس من طرحه على الخالة. كانت في كل مرة تضيف تفاصيل سحرية جديدة، حتى، بالنسبة لخيالي الطفولي، أصبح محمد حقيقياً. رجل وسيم نوعاً ما - كانت هذه الأوصاف له حتى في عقلي ما قبل الجنسي تثير توقاً محرماً لا يمكنني تفسيره. عرفت بشكل ما أن أي تعبير عن هذا التوق المعقد كان محرماً بما يكفي لأخفيه، حتى عن الخالة.

بدأت أوصاف الخالة للنبي بتذكيرنا بأن الإسلام كان الدين الأفضل لأنه، من بين أشياء جيدة أخرى كثيرة، منعنا أيضاً من أي نوع من عبادة الأوثان. (تخلق هذه الفكرة بكون الإسلام خير الأديان نظرة ثنوية خطيرة للعالم عندما تقع في أيدي لا تشبه خالة طفولتي). كان محرماً علينا للأبد تجسيد محمد، رسول الله، بالصور. كانت العواقب، كما كانت تؤكد، إلهية جسيمة. وللمفارقة، أسألوا أكثر المسلمين التزاماً، وسيستطيعون وصف شكل محمد بتفصيل كبير، شاعري غالباً، ولكنهم يعرفون الحد الذي لا يمكن تجاوزه أبداً. لذا غالباً ما رسمنا كأطفال صور قصص الخالة، ولكننا لم نرسم أبداً صوراً لمحمد.

ما إن اقتنعت الخالة أننا لن نحاول رسم أي صور للنبي، كانت تبدأ. «رسول الله، عليه الصلاة والسلام، كان طويلاً. كانت بنيته قويةً بأطراف طويلة مفتولة العضلات وأصابع مستدقة. كان شعر رأسه طويلاً وكثيفاً و متموجاً، تماماً كخصلاتك، يا بارفيز». عندما كانت تشير إلي مباشرة في هذه القصص، كان شعور هني من الثقة والتأكيد يسري في جسدي. كان هذا يثبت أنني أفضل من بقية الأطفال.

«كانت ناصيته عريضةً وبارزة، وكانت رموشه طويلةً وكثيفةً، وأنفه كان مائلاً، وفمه كان كبيراً، وأسنانه كانت حسنة الاصطفاف. كانت خدوده ممتلئة وكان يمتلك ابتسامة سارة. كانت عيناه كبيرتين وسوداوتين مع شيء من اللون البني. كانت لحيته كثيفةً، وعند وفاته، كان فيها سبع عشرة شعرة شائبة. كان لديه خط رفيع من الشعر فوق رقبته وصدره. وكان أزهر اللون، وبالمجمل بلغ من الوسامة أن أبا بكر، عليه السلام، قال عنه هذين الشطرين: «كما ليس في الليلة القمرية ظلام، كذلك المصطفى (محمد)، باغي الخير، مضى». الآن، يا أطفال، من هو أبو بكر؟».

كنت أرفع يدي قبل أن تنهي طرح السؤال، لأخبر الجميع بأن أبا بكر كان أول خلفائنا («خليفة»)، وأنه كان أيضاً حما النبي وأحد كبار صحابته («أصحابه»). وكانت الخالة تبتسم لي موافقةً. وفي لحظة، كانت فرحة عيدي تتم. في خلال سنوات قليلة فقط، تعلمت أن النسخة التي أعرفها عن تاريخ الإسلام متأثرة بشكل كبير لالفكر السني (الحنفي)، وأن هناك سلالةً مختلفةً من ورثة محمد لدى الشيعة.

في جلساتها الصغيرة، كانت الخالة تتأكد أننا نفهم أن القرآن مقسم إلى فصول تدعى سوراً وأن كل سورة تتكون من أجزاء، وكنا ندعوها آيات. بالكاد كان هذا دراسةً للقرآن. كنت أتعلم فقط الأساسيات والسور الثماني الأساسية. وكان قرآن الخالة منقحاً كثيراً.

أمل الآن أن تكون فخورةً بالرجل الذي أصبحته. كانت تحرص على ألا أنساها أبداً. ولم أفعل قط.

في 1998، انطلقت لأول رحلة حج لما قد أدعوه أرض-الذين-ليسوا-أحراراً-كثيراً. لم نستطع الاتصال بمطار جون إف كينيدي، وجهتنا المقصودة. وبعد القليل من الفوضى، وضعتنا الخطوط الجوية الكويتية في فندق قرب مطار الكويت الدولي لنبيت ليلة لم تكن في الحسبان.

لذا في 17 يونيو، 1998 وطئت قدماي تراب العرب، التراب الذي يرجح أن النبي محمد وطئه يوماً. كانت تلك المرة الثانية فقط التي أخرج فيها من الهند. بالعودة إلى ذلك الزمن، أشعر أن ذلك لم يكن مصادفةً. كان مشهد المطار سريالياً. أعمدة من الرخام والنحاس الأخاذ، وبريق من النظافة حتى يكاد يمكنك تناول الطعام على الأرض. وجال الشيوخ الكويتيون بأثوابهم البيضاء المرفرفة حولنا كأنهم يطوفون على الهواء.

أخذ موظف صارم المنظر جوازات سفرنا وأخبرنا أن بإمكاننا أخذها في الصباح. لم أكن أعرف ذلك، ولكن تلك لن تكون المرة الأولى التي سيصادر فيها نظام عربي سلطوي جواز سفري. اقتدنا إلى باص مكيف، ساقنا في الصحراء الخالية، وتراءى أمامي: أكثر ترفاً من أي شيء رأيته في حياتي. عطش ممالك الخليج الغنية بالبترول اللامتناهي للأبراج الطويلة كان قد بدأ. في المستقبل غير البعيد، أثبت برج خليفة في دبي، أطول بناء في العالم، وبرج المملكة في مكة، ثالث أطول بناء، أن عرب الخليج

يحبون ناطحات السحاب، بالنظر إلى أنهم لم يكن لديهم الكثير من التضاريس أخرى فعلياً. كان لهذه الأبراج البريق الكافي لجذب ربات بيوت بيفرلي هيلز في برنامج (ريل هاوسوايفز أوف بيفرلي هيلز) وهن يتجولن في أرجاء دبي لاحقاً في نهاية أحد مواسم البرنامج. كان للكويت طموح مماثلة في الطول ولكنها لم تجار دبي قط.

كانت غرفتي أرض عجائب لمحدثي النعمة *nouveau riche* من صنادير ذهبية وحمام عملاق للتدوش. في شقتي في دلهي، كنت أستخدم دلوًا للاستحمام. في غضون بضع دقائق من دخولي إلى الغرفة، كنت قد استخدمت الدش البراق بكل خيارات التحكم والضبط الممكنة. ورأيت أيضاً لأول مرة حمام الجاكوزي والشطاف. لم أكن أمتلك أدنى فكرة عن ماهية هذه الأشياء. كانت عجائب غوغل والحاسب المحمول لم تكن قد دخلت بعد إلى حياتي.

كانت نقوش من الذهب المزيف بأسهم تشير إلى مكة محفورة على حوامل الأسرة، كي يعرف المؤمنون إلى أين عليهم أن يتوجهوا لأداء صلواتهم اليومية. لم أكن حينها مسلماً ملتزماً، لذا لم أستجب للدعوات التي انطلقت لصلاة العشاء من عدة مساجد حول الفندق الذي أقيم فيه.

قلبت القنوات على شاشة التلفزيون الضخمة الخاصة بي. كانت شبكة الجزيرة الجديدة تجري مقابلة تستضيف فيها «الجهادي» السعودي أسامة بن لادن. في قناة التلفزيون التي كنت أعمل لديها في دلهي، كانت الجزيرة تراقب باستمرار وكانت هذه الشبكة وحدها تقريباً تجعل أسامة شخصية مشهورة في العالم. كانت شهرته تعود إلى ما أسماه «جهاداً» في أفغانستان ضد الاحتلال السوفييتي، الذي كان قد انتهى منذ زمن. بمعنى ما، كان إرهابياً عاطلاً عن العمل. كانت تحركاته بين أفغانستان وباكستان المكروهة تثير الكثير من الجدل المتخوف بين كبار الصحفيين الذين يصعب تسميتهم بالمحايد في القناة التي أعمل لديها. وكان الجهاد على بعد بضعة أعوام من أن يصبح أشهر الكلمات على الكوكب.

كان إطار الصورة يضع بن لادن خارج المركز ببندق كلاشينكوف موضوعة بعناية. ورغم كونه فيما يبدو كهفًا، فقد كانت له شخصية إعلامية مخططة بعناية. كانت أفكاره تبدو مفككة. ففي لحظة كان يشجب الاحتلال الخاطئة لأراضي المسلمين من قبل الكفار، ثم كان ينتقل إلى الافتخار

بالإصلاحات التي يجريها والده في مكة، في «مكان النبي المقدس»، أي المدينة والأقصى في القدس. تحدث عن ظلم «ذلك» المحتل اليهودي (متعمداً عدم ذكر إسرائيل) للقدس، الفلسطينية، وتعذيب المئات من «أرواح الفلسطينيين المسلمين» البريئة، ثم كان هنالك خطاب مألوف ضد أمريكا وضد بريطانيا.

كنت قد تتبعته قصة بن لادن باهتمام منذ انتشرت على التلفزيون الهندي. كان يبدو أنه يجري المقابلات دائماً. هدهدني صوت أسامة بن لادن المطمئن حتى النوم في تلك الليلة.

«ما الذي أتى بك إلى هنا؟» سألتني موظفة الحدود سوداء البشرة عندما وصلت إلى نيويورك. لم أكن قد رأيت شخصاً أسود حتى تلك اللحظة، إذ كنت قد ترعرعت في الهند العنصرية والطبقية. كانت أولى زياراتي لأمريكا الأسطورية في بدايتها!

«لزيارة عائلتي وللعطلة»، أجبت.

«أهلاً بك في أمريكا، استمتع». كان الأمر كأنها تقدم كوباً ضخماً من الثلجات. ختمت على جواز سفري. وقف رجال غريبو الملابس بمعاطف سوداء طويلة وقبعات طويلة عند حزام الأمتعة. كانت حقائب الخطوط الجوية الكويتية تخرج على حزام تتشارك فيه الخطوط الجوية الإسرائيلية إل عال. لم أكن قد رأيت يهوداً أرثوذكسيين في حياتي ولا التقيت بأي يهودي. لم أشعر بسخرية مشاركة هذا الحزام إلا بالنظر الرجعي.

بعد ذلك بسنوات قال لي ابن عمي الذي أقلني يومها «خرجت وانحنيت لتقبل التربة». أقول دوماً أنني لا أذكر هذا، مع أن جزءاً في عقلي يقول لي أنني ربما فعلت ذلك بشكل درامي شاعري. كانت تربة أمريكا بل كلينتون: أمل ألا يتذكره التاريخ فقط على أنه الرئيس الذي أقيـل بسبب الجنس الفموي.

«إف-أو-بي (اختصار للعبارة الإنجليزية)- هذا ما أنت عليه»، قال ابن عمي. «غر من القارب! لا تعرف شيئاً! سيكون علينا حتى أن نشترى لك ثياباً جديدة! ومزياً للعرق لجعل رائحتك أفضل!» قال ضاحكاً.

أبهرتني نيويورك. وإذا كان الطرح الأساسي لكتاب السر واسع الانتشار حقيقياً، فأنا أمتلك بالتأكيد نيةً فائقة القوة في الكون لأن نيويورك أصبحت بعدها موطني. بدت مانهاتن، بعد سنوات، بشكل غريب كجزيرة أسرتني ولكنها مع ذلك حمتني.

في الليلة التالية، أخذت إلى أول نادٍ للشواذ في حياتي. انضم ابن عمي السوي وأصدقائه الأسوياء إلي. كانوا مرتاحين بما يكفي لتوجهاتهم الجنسية كي لا يشعروا بالتهديد. حشرت أوراق دولار في مؤخرتين تتراقصان على عمود. جرت كل نشاطاتي الشاذة في الهند عندما كانت والدتي على فراش الموت ولذا كانت سريةً، وسريعةً، وفي عقلي، قذرةً. كانت دوماً تخبرني أن الجنس معيب في أحاديثها غير المباشرة عن الموضوع.

تبعث رجلاً أسود البشرة وسيماً إلى حد بعيد المنال إلى ما بدا كغرفة خلفية بستائر سميكة. داخلها كان تعريف والدتي للجنس. قذارة.

في الليلة التالية، انطلقنا أنا وابن عمي إلى البرونكس لحضور لعبة في ملعب فريق يانكي. كان الملعب الذي يسمى أمريكا كبيراً، مضاءً، ومليئاً بقوارير كولا كبيرة وسلالٍ تفيض بالبطاطس المقلية والكوكاكولا. تناولت لقمةً من أول شطيرة هوت دوغ لي ثم سألت وأنا مصدوم، «هل هذا لحم خنزير؟» أكد لي ابن عمي أنه كوشر، النسخة اليهودية من الحلال.

لم أستطع تتبع اللعبة. شرح لي ابن عمي القواعد، ولكن عقلي كان يجول في أولى ذكرياتي لعيد الأضحى وكيف كانت مختلطةً برياضة الهند المفضلة: الكريكت. كانت الكريكت بالنسبة لي رياضةً دموية. صوت ارتطام مضرب البيسبول كان يعيد ذاكرتي إلى زمن ألعاب الكريكت في شبابي، حيث كانت خنوثتي الطفولية تجلب لي الكثير من التمر في كل مرة. يمكن للأطفال أن يكونوا أقسى من أي أحد.

استعدت ذكريات أنهار الدم التي جرت في حي طفولتي عند ذبح المعيز في عيد الأضحى. ثم استحضر عقلي ذكرى احتفال سنوي دموي آخر -حصري للشيعَة- طقوس عاشوراء، اليوم العاشر من الشهر الأول في التقويم الإسلامي، محرم: إذ يجلد رجال شيعة عراة الصدور أنفسهم لتذكر شهادة أحد أعظم أسلافهم، الإمام الحسين، الذي قتل في معركة كربلاء فيما يسمى اليوم العراق. لعب صبية صغار،

العديد منهم أصدقائي، الكريكت في التربة الدامية، التي يسببها الموكب. انضمت إليهم بتردد، مدرّكًا لخوفي وللصدمة الناتجة عن السخرية من عدم قدرتي على التفوق في هذا الهوس الوطني. كان رجال شيعة بلا قمصان، أقوياء البنية وغارقون بالعرق، يعبروننا مشيًا في موكب التعزية السنوي الخاص بهم. كنت أشاهدهم، مدهوشًا، وأشعر ربما بأول انجذاب جنسي لي. كانوا يحملون بأيديهم سلاسل معدنية، يسمونها جنازير (نوع من السلاسل)، وكانوا يجلدون أنفسهم بشكل متكرر وإيقاعي. وكان الجنازير يترك أثرًا داميًا عقب ضرب الجلد، ما كان مثيرًا بشكل غريب. وأنا أحاول التركيز على لعبة الكريكت وأفشل بشكل بائس، لم يكن بإمكانني سوى التحديق في هؤلاء الرجال ذوي البنية العضلية والأجساد المشعرة. غالبًا ما كانت تندلع حوادث شغب طائفية بين السنة والشيعة في ذلك الزمن.

للحظة، كنت قد عدت إلى لعبة البيسبول. كان ابن عمي يشجع اليانكيز، ولاحظت كم كان بعض اللاعبين ضخماً ومثيراً جنسياً. كان ابن عمي قد تكرم بإبعادنا عن المدرجات الرخيصة.

عدت إلى الهند. احتدت النزاعات الهندوسية الإسلامية من جديد. ربطت الأمور بعقلي البالغ تسعة أعوام. وضع بعض الهندوس، كما في سنوات مضت، جثة خنزير -أنجس الحيوانات النجسة- للمسلمين في مسجد محلي، وأشعل المسلمون الغاضبون النيران في بيوت المجتمع الهندوسي في مناطق الطبقات الدنيا بشكل رئيسي. اختلط خوفي من الكريكت بإعجابي بهؤلاء الرجال والعنف الذي سببوه وشكلاً معاً النسيج المؤقت لعقلي الطفولي غير العادي. كانت الكريكت الدين السامي الوحيد الذي تتشاركه الهند وباكستان. اندلعت أحداث شغب عنيفة بشكل خاص قرب مدرستنا عندما اكتشف أن المسلمين كانوا يحتفلون بالحلويات والمفرقات النارية عقب فوز الفريق الباكستاني على الهند. كان أصدقائي في المدرسة يشتموننا بكلمة «كاتوا» -الأوغاد (المختونين)-. كانت كلمة كاتوا بالنسبة لهم الوصمة العرقية للمسلمين.

ترعرعت أجيال من الهنود على الهوس بالكريكت، ولم يكن هناك أكثر إثارةً من مباراة بين الهند وباكستان. وزعت بعض العوائل المسلمة في الحي الحلويات عند فوز باكستان، في حين طلب مني أهلي أن أكون «علمانياً». كنا نشجع الفريق الهندي لأن عدم فعل ذلك أمر غير وطني. ولكنني كنت دوماً أشجع الفريق الباكستاني سرّاً، معجباً بأجسادهم الأطول، وبنظري أكثر ذكورةً.

إلى جانب توجهي مثلي الجنس، كنت أكبر وأنا معتر أيضاً من الجزء المسلم مني.

بعد سنوات، وأنا صحفي في دلهي، كنت قد صادقت مهووساً بالكريكت ذا نظرية بسيطة: الأسباب التي تجعل الباكستانيين يؤدون أحياناً بشكل جيد جداً أمام الفريق الهندي أن تركيزهم مغروس بشكل فريد بالإسلام وحده. أما الهندوس، حسب ما أخبرني، فلم يكن لديهم ذلك الإخلاص وحسب. تحديثه بأسماء المسلمين الهنود في الفريق الوطني. ولكن السؤال ما زال. هل يجعل انضباط الحياة الإسلامية الجيدة لاعب الكريكت الباكستاني أفضل من الهندي الهندوسي؟

«أليس هذا أمتع شيء فعلته في حياتك؟» صرخ ابن عمي ليعلو صوته فوق الصخب.

ابتسمت وحركت رأسي موافقاً. لم أجرو أن أخبره بأنني لم أفهم شيئاً على الإطلاق وأن عقلي بالتالي كان مشغولاً بزيارة أماكن أخرى.

لم تذهب عني قط تقاطعات العنف الشعائري -المصبوغ في عقلي ما قبل المراهقة بصبغة جنسية- مع العنف الحقيقي بين الأديان الذي شهدته والكثير من الاضطرابات الناتجة عن طفولتي الوجدانية.

سألت نفسي: مهما بدا ذلك غير قابل للتصديق، فهل كان انضباط الإسلام والجهاد فعلاً بجزء منه خصلة وراثية متناقلة من مسلم لآخر، عبر رابطة الدم؟

تدفقت دماء الحيوانات والبشر والتفت كالدوامات في عين عقلي عندما أحرز اليانكيز هدفاً آخر.

«لعبة رائعة!» صرخ ابن عمي. «ما شهدته الآن أفضل ما في الرياضة الأمريكية! أفضل حتى من

الكريكت!»

---

خلال الرحلة نفسها في عام 1998، جلب لي ابن عمي تذكراً خاصةً إلى سان فرانسيسكو، التي سرعان ما أدركت أنها بالكاد كانت عاصمة كوكب الشواذ. كشف حجي إلى شارع كاسترو الذي تدور حوله



الكثير من الحكايات عن مجرد مربع سكني صغير في المدينة. مسرح، بضعة مطاعم، مكتبة للشوان، مقهى، وهذا كل شيء.

وصل مفهوم الفخر بالمثلثية الجنسية ووصلت أنا كذلك. اختلطت أمم الهند وباكستان وبنغلادش المتعادية هناك في خيمة واحدة. كانوا كلهم جنوب آسيويين من مجتمع الميم في هذه الأرض التي تحب إطلاق الصفات. أو دسيين («من بلادنا»). بالنسبة لمن ترعرع في الهند، فقد كان من النادر الالتقاء بباكستاني أو بنغالي، على عكس مدينة نيويورك، بوجود سائقي سيارات الأجرة الصفراء الذين تواجدوا بوفرة في موطني المستقبلي.

كانت سان فرانسيسكو دورة تعليمية سريعة لكل ما يخص مجتمع الميم كمصطلحات توينك والدب ودايك. هل كانت هذه الاحتفالات الباخوسية اللامتناهية والمؤخرات المكشوفة، بالإضافة إلى بعض المجسمات الطافية التي ترعاها كبرى الشركات، تحتفي حقاً بأي شيء يدعو للفخر؟

هبط الليل وجلب معه عودةً إلى الهجران الجنسي للغرفة الخلفية المظلمة المليئة بالعرق التي ذهبت إليها في ليلة المرح التي قضيتها في مدينة نيويورك. كانت هذه تدعى باور إكستشينج (تبادل القوة) وكانت دعايتها تقدمها كحمام سوق. لم يسبق لي أن ذهبت إلى واحد. غرف وراء غرف امتدت أمام ناظري. ببيبان مفتوحة جزئياً، انتظر رجال عراة، عادةً بمؤخراتهم المكشوفة. كل ما عليك فعله الدخول. مررت برجل عارٍ في ثياب داخلية جلدية -كان متوضعاً بحيث كانت رجلاه في الهواء. كان هناك صف من رجال شبه عراة ينتظرون. كان الظلام مخيماً ولكن كان من الواضح أن هذا المثلي التحتي (المفعول به) المرتدي للجلد كان عليه دور طويل. لم أنضم للصف. لم أشاهد واقيات ذكرية في أي مكان. بحلول النهار، تخيلت أن هذه الحجرات يمكن أن تتحول بسهولة لمركز اتصال لشركة تقنية.

أثناء الخروج، تساءلت بصوت مرتفع سائلاً صديقي، «ماذا هناك لنفخر به؟»

قتلت والدتي عندما كنت أبلغ إحدى وعشرين عاماً. تمددت لتموت من سرطان أليم في مدينة كالكوفا الهندية. كنت مشغولاً بالخروج في دلهي البعيدة، مهتاجاً جنسياً وغير مبالٍ. تائقاً لتجربة الهندوسية الرثة التي يمكن لأسلوب حياة شذوذ جنسي أن يوفرها في هند العالم الثالث، سافرت لما اعتبر أول مؤتمر

للشواذ في بومباي رغم احتجاجاتها. بالكاد رأيتها في الشهور القليلة الأخيرة. ولم يتسنَّ لي أن أودعها قط.

تحدثت مرةً بتوق عن حجبها الذي لم تحجه، وأهدافها التي لم تحققها. ومكان دعت «بيت الله»، حيث يمكن للذنوب أن تطهر. تساءلت فيما إذا كنت قادراً يوماً على تحقيق أحلامها. تساءلت إذا ما كنا سنتصالح في المساحة الأرضية الفيزيائية أو في الحياة الآخرة. تساءلت ما إذا كنت سأستطيع نشر شعرها بالأوردو في أرض أكثر ترحيباً بلغتها، في باكستان، حيث كانت لغتهم المشتركة.

لم أبكِ في جنازتها. شعرت أن عار توجهي الجنسي قتلها. علمت أنها ماتت غاضبةً. إن ذنب قتل أحد الأبوين حمل يثقل على العاتق. وقد كان حملي ثقيلاً بشكل خاص.

منحتني جامعة كوليبيا في نيويورك القبول دون مساعدة مالية في أول سنة. توسلت رئيس قسم صناعة الأفلام للحصول على منحة دراسية وكان جوابه الصارم بلا يعني أنني لن أستطيع تحمل تكاليف الدخول إلى الجامعة. لذا ذهبت إلى خيارى الثانى، الجامعة الأمريكية في العاصمة واشنطن. في تلك المدينة أمكنني البقاء بشكل مجاني مع بعض أقربائي من غير أسرتي. ولكنهم كانوا تذكراً يوميةً لي بحزني الذي لم أنته منه.

بحلول عام 2001، كنت أتولى ثلاث مهام. كنت طالبةً بدوام كامل في الدراسات العليا، وأستاذةً مساعداً في الجامعة الأمريكية، وموظفاً بدوام جزئي في قسم الإعلام في بنك وورلد بانك في قلب مدينة واشنطن. وهناك رأيت أعمدة الدخان المتصاعدة من البنتاغون كمن يشاهدها على مسرح من مقاعد الصف الأول. اتصلت بابن عمي. وخلال بضع دقائق، انقطع الاستقبال الخليوي.

«عليك أن تأتي مباشرة» / قال لي. «علينا أن نتذكر ما حدث في المدرسة في عام 79». بالطبع فإن الجميع كان يتذكر أزمة الرهائن في إيران، التي ولدت الكراهية في أمريكا كما هو متوقع. تعرض أبناء عمي الذين يرتادون المدرسة إلى التنمر بلا رحمة لأنهم يبدون إيرانيين، فقط بسبب لون بشرتهم. يمكن للأطفال أن يكونوا قساةً بشكل استثنائي. «فقط اذهب إلى المنزل. لحيثك ولون بشرتك سيصعبان الأمور عليك!».

انتشرت الأخبار بسرعة أكبر من المقاتلات النفاثة. اختفى جورج دبليو بوش وعصابته. كانت الطائرتان المخطوفتان تطيران في أرجاء العاصمة واشنطن. ستضرب إحداها مبنى الكابيتول في أي لحظة -الكابيتول الذي كان قريباً مني بشكل مزعج. والأخرى كانت في طريقها لترتطم بالبيت الأبيض. فكرت بآلاف منتجي الفقرات الإخبارية وهم ينازعون لوضع رسومات بيانية دقيقة في الثلث الأدنى من الشاشة لشرح المصيبة الحية التي كانت وقائعها تتراءى أمام الكاميرات مباشرةً. سرعان ما أصبحت الشاشات مقسومة نصفين -البرجان والبنتاغون. علمت أنه وراء ذلك. حتى اليوم لا أفهم كيف تنبأت بذلك.

يبدو واضحاً أن الفدراليين، ولانغلي، وفوغي بوتوم كانوا إما ملاصقين لأكثر محاولات أسامة بن لادن وقعاً درامياً لاكتساب سمعة عالمية سيئة للأبد أو أنهم كانوا مشغولين بالمسارعة إلى منازلهم أو إلى ملاجئ الحكومة. كان أسامة بن لادن قد نجح في تقديم أعظم عرض على كوكب الأرض، دون موارد كالتى كانت الولايات المتحدة تمتلكها. كنت أتساءل إذا ما كان، هو أيضاً، يشاهد الحدث مباشرةً وأي الشبكات الناقلة كانت مفضلة.

انهمر الناس إلى الشوارع من كل الأبراج المكتبية. الشيء الذي كان شائعاً بشكل مخيف: الهواتف الخليوية على الآذان، كانت أعين الجميع تقريباً مثبتة على السماء. كنت في وضع فائق الحساسية، ربما تنبهت أعصابي كالجميع عندما صعدت إلى الخط الأحمر في مترو الأنفاق، الذي كان ما زال يعمل بأعجوبة. هل كان كل هؤلاء الأشخاص المذعورين ينظرون إليّ؟ هل ابتعدت عني تلك المرأة الشقراء عمداً؟ لتعديل وضعيتي في القطار المزدحم بدرجة مستحيلة، وضعت حقيبة ظهري على الأرض للحظة. تصاعدت الهمهمات من كل الزوايا -أم هل كنت أتخيل كل ذلك؟ استعدت حقيبة الظهر بسرعة ووضعتها حيث مكانها.

بحلول الصباح التالي كان الأمر رسمياً. أيدٍ مسلمة ارتكبت ذلك. لن تعود أمريكا آمنة للعديد من بعد تلك اللحظة. سيدعونها 9/11. سينقسم التاريخ من تلك اللحظة وإلى الأبد ليكون الحديث عن قبل وبعد تلك اللحظة.

على بعد كوكب تقريباً عن الأحياء الإسلامية لطفولتي التي كانت تردد فيها نداءات الصلاة خمس مرات في اليوم، أدركت: كانت أيدي الإسلام ملطخة بدماء أمريكية. وهكذا -خلال أقل من أربع وعشرين ساعة- لم يكن لدي خيار: «أشهرت» كوني مسلماً.

«تباً لكم، أيها العرب!» صرخت مجموعة صبية بيض من الجهة المقابلة من ساحة الجامعة الأمريكية. «اذهبوا إلى وطنكم!».

كان الأمر كما لو أن كلمة مسلم وسمت على ناصيتي. وزادت اللحية ولون البشرة الطين بلة. كانت جلبة إشهاري الشذوذ الجنسي في الهند تبدو كأنها من ماضٍ سحيق. كان كره الأجانب دارجاً. أما اللحي، على عكس اليوم، فلم تكن كذلك. متجاهلاً النظرات والتعليقات اليومية، ركزت على متع خاصة جداً كرؤية الثلج لأول مرة في حياتي. مددت لساني لأتذوق ندفة ثلج. كان مذاقها سحرياً. هل كانت رائحتها نقيّة كما تبدو؟

«لم أشعر بالأسف تجاهكم» قالت صديقتي كاتي. «عائنا ما يلقاه ذوو البشرة السوداء يومياً. اضطهاد وعرقية؟ عشنا هذا لعقود». ولكننا اتفقنا، مع ذلك، أن المسلمين كانوا السود الجدد.

كان عام واحد فقط قد مضى على انتقالي إلى العاصمة واشنطن في عام 2000 لأتخذ دوراً مزدوجاً كأستاذ مساعد وطالب ماجستير. كان أحد أصدقائي، فايز، قائداً بالفطرة وأخبرني عن مجموعة يرأسها لما دعاه مسلمي «إل جي بي تي كيو آي»، كان قد أسماها بشكل مستفز تيمناً بسورة في القرآن. وهو اختيار خطير ومثير للاهتمام بنفس الوقت. وفي الوقت نفسه، كنت أحتاج إلى فيلم أقدمه كأطروحة. كان أسامة بن لادن المتحدث باسم الإسلام. فيلم أطروحتي، كما كنت أفكر بخيلاء، كان سيوفر بديلاً. كان أقل الناس الذين يتوقع أن يتحدثوا باسم الإسلام، المسلمون الشواذ والسحاقيات، سيروون قصة الإيمان. وقد بدأت تصوير الفيلم الذي دعي فيما بعد باسم الله. كل سورة في القرآن تبدأ بعبارة بسم الله. أردت، أنا أيضاً، أن أكون مستفزاً، ويمكن أن تكون هذه الطريقة المثالية لذلك.

قال شخص من الظل مصور في الفيلم، «عليكم أن تفهموا كيف تكون حياة شخص شاذ وملون يتزعزع في هذا البلد».

لم يرغب أي من هؤلاء المنتمين إلى مجتمع إل جي بي تي كيو آي أن يظهر وجهه، لذا كنت أصنع فيلمًا في الظلام تتحدث فيه الظلال. وسرعان ما بدأت أشعر أنها فكرة سيئة.

«ما الذي تعنيه عندما تقول "شخص ملون"؟» قلت له. كنت أسأل فعلاً، لأنني لم أكن أدرك ما يقصد.

«لا تعرف معنى شخص ملون؟ هو نعت لتخصيص الهوية في المجتمعات ذات الأغلبية من ذوي البشرة البيضاء. بقيتنا أشخاص ملونون. هناك حركات كاملة مبنية على هذا المبدأ. أنا متفاجئ لأنك لا تعرف هذا»، قال الظل بتعالٍ. برأيي، الأبيض أيضاً لون.

استمر الأشخاص موضوع دراستي، الشواذ الذين يحبون النعوت الذين ولدوا وتربوا في الغرب، بتقديم أنفسهم كمحاربين لإسلام «جامع للأطياف». كانوا يحبون إقامة كل أنواع المؤتمرات، الممولة على الأرجح من قبل نفس الرعاة الذين قدموا لي الرعاية. أصبحت وجهاً مألوفاً. حضرت المؤتمرات في واشنطن، وتورونتو، ولندن. صورتها كلها. طاولات حوار لا تنتهي عن «هوية الشواذ»، وعن «النوع الاجتماعي»، وعن «لاهوت التحرير»، وعن «قراءة محايدة للأنواع المجتمعية للقرآن». ساعات من الأموال ولقطات التصوير المهدرة.

مهما كان سلوكهم في حياتهم اليومية، فقد أصبح هؤلاء المسلمون لمجتمع إل جي بي تي كيو آي الساعون لنعوت جديدة كل يوم متدينين جداً في وقت المؤتمر. كان العديدون، مثلي، يشربون الكحول في حانات الشواذ بعد العشاء (الصلاة الواجبة الأخيرة في اليوم)، ولكن في خلال اليوم، كان وقت المؤتمرات يعني أداء أربع أو خمس صلوات جماعة. كانت الأمور البصرية تهم هؤلاء المسلمين المؤتمرين. صورت ذلك كله. هل ارتبطوا ببعض؟ بشكل متكرر. في الواقع، أشك أن أيًا منهم كان صاحباً من سكره بما يكفي للاستيقاظ في وقت صلاة الفجر، المقامة قبل شروق الشمس. أنا لم أكن كذلك بالتأكيد. كانت مدينة فاضلة غريبة لقوس قزح مبنية في فروع الضواحي لسلسلة فنادق رخيصة. يمكن لأي شخص أن يكون إماماً (يؤم الصلاة)، ثم كان هناك شيء لم أجرو قط على تخيله: الرجال والنساء يصلون معاً! كان هذا عبارة عن أرض ديزني للشواذ لم يكن معظم المسلمين على الكوكب ليقر بها يوماً بل على الأرجح فسيدونها. هل كان أصناف إل جي بي تي كيو آي هؤلاء يدركون ذلك؟

كان ما أزعجني بشكل خاص أن بعض النساء كن يصلين دون أن يغطين رؤوسهن حتى، وأتذكر صدمتي وانزعاجي أيضاً لرؤية العديد من شقوق مؤخرات تلك المسلمات الملتزمات اللواتي يرتدين قمصان الشيال والبناطيل الضيقة. جزء من الصلاة المشابهة لليوغا في الإسلام يتضمن السجود وإراحة الرأس على الأرض. يشكل المصلون صفوفاً مرتبة وراء بعض. كان الإسلام الذي تربيت عليه، بالحد الأدنى، يتطلب حالة من النقاء وتغطية الرأس كإشارة للوجود في مكان مقدس. كان ارتداء الثياب المتواضعة مفروضاً لكل من الرجال والنساء. كان هؤلاء الأشخاص يبدوون كهيبين مسلمين! ربما كنت مفرطاً في السذاجة أو الحكم على الآخرين، بصفتي إف أو بي («غر من القارب»).

كان فيلم أطروحتي، كما هو متوقع، فيلماً عن أشخاص الظل ونقاشات المؤتمرات. لم يكن له أن يعيش على أرض الواقع. كنت أحتاج أن أكون صانع أفلام حقيقياً. واحتجت أن أصنع فيلماً عن أنواع المسلمين الذين أتعرف عليهم بسهولة أكبر. كان الفيلم الآخر جهاد من أجل الحب. نجوت بالكاد من الضياع في البحر اللامتناهي للاختصارات التي تخلقها سياسيو الهوية مثل إل جي بي تي كيو أي إف أو بي بي أو سي.

للذين أتعرف عليهم عبر الإنترنت كنت أيضاً أقدم نفسي بصفتي «شرق أوسطية» لأن الهندي، بالنسبة لي، كانت تعني غير جذاب. من المفاجئ، أن العرب كانوا في ذلك الحين مرغوبين جنسياً بشكل مفرط بكل الأحوال وكانوا يعدون نكهة الشهر المفضلة. وكنت أبدو مثلهم!

حصلت على شهادتي وانتهيت من واشنطن. بدت لي بلدة صغيرة دوت فيها الإسلاموفوبيا والتمييز العرقي بصوت أعلى. بدا أن زملائي المتخرجون كلهم يحصلون على وظائف في الجمعيات غير الربحية وشركات جماعات الضغط. لم يكن هذا المستقبل الذي تصورته لنفسي، رغم أنه يوفر أمان الحصول على راتب شهري. كان يمكنني أن أعود إلى الصحافة، ولكنني لم أرغب بأن أكون مجرد مقدم للمقابلات. كنت أريد أن يطلب الناس مقابلي. كان الوقت قد حان للانتقال إلى ما اعتبرت دوماً مكة أعلامي. المدينة العملاقة التي أذاقت لساني طرفاً من الحرية، والأمل، والرغبة في أول رحلة لي في الولايات المتحدة عام 1998. كنت محتوماً بنيويورك كما كان الملايين مثلي منذ قرنين.

تلقيت عرض عمل كمنتج تلفزيوني لبرنامج الديمقراطية الآن! وكان برنامج تلفزيون وإذاعة يسارياً «تقدمياً» عاماً مقره في نيويورك، مليئاً بخطاب ما بعد 9/11 وناقد لجورج بوش. استضافنا أشخاصاً مثل نورم فينكلشتاين، وأروندهاتي روي، ومايكل مور، وكورنل وست.

كان من المؤلف لبرنامج الديمقراطية الآن! استضافة المتشددین ضد «المحافظين الجدد». ملأت موسيقى قائد الفرقة الموسيقية النيجيري فيلا كوتي تملأ الفواصل الإخبارية (دون رعاة أو دعايات). كان الطاقم مكوناً بمعظمه من محبي الجاز البروكلينيين ذوي البشرة البيضاء الفاعلين-للصواب. من النوع الذي كان سيؤدي فيما بعد دوره المخصص فيما لا يمكنني أن أدعوه سوى عرض ال99-بالمئة قرب وول ستريت. كنت أنا الشخص الذين افتخروا بضمه. رجل مسلم مهاجر ملون شاذ. موظف تنوعي! سرعان ما أصبح هذا الحشد مضجراً.

سمح لي حبيبي الباريسي عن بعد أن أحتل (مجاناً) غرفة صغيرة خامّة في شقة حديقة إيست فيلج التي يستأجرها، والتي كان «يتشاركها» مع رسام يدعى بول. في الحقيقة كان يزورها مرتين فقط في السنة، وكان بول (والآن أنا) يمتلكها لنفسه في أغلب الأحيان. عند العودة بالنظر إلى تلك الأيام، لا أستطيع أن أصدق كم كنت محظوظاً. ثلة فقط من المختارين أمكنهم العيش في شقة حديقة خاصة في أحد أكثر أحياء مدينة نيويورك طلباً لنحو ثلاثة أعوام. ولم يكن كون غرفتي لا تتعدى الحفرة في الجدار أمراً ذا أهمية تذكر.

كان بول مصاباً بفيروس نقص المناعة البشرية، وكنت أذكره دائماً بتناول خليط من الحبوب يومياً. لم أكن مجرد شخص يعتني به بدوام مؤقت ورفيق سكنه. بل كنت أهتم به بصدق، عاطفياً. خضع بول أخيراً لأمراض متعلقة بالإيدز. انفطر قلبي. خسر الباريسي الذي كان سيصبح عما قريب حبيبي السابق إذن الاستئجار الخاص به. في نيويورك كانت خسارة شقة مستأجرة في إيست فيلج كتلك الشقة كأنك فقدت مفاتيح تاج محل. ولكني كنت حينها قد ارتبطت بحبيب جديد اسمه كيث وانتقلنا للسكن معاً.

شملت وظيفتي الجديدة تصوير المظاهرات. وقد سمعت مخاوف مألوفة تتردد مثل «الديكتاتور الرئيس»، «أخرجوا بوش من العراق»، «ماذا نريد؟ السلام! متى نريده؟ الآن!» كان الغضب ملموساً.

ولكنه كان يفتقد إلى قضية أساسية واحدة، صرخة حاشدة، وهو خطأ يرتكبه اليسار الأمريكي (الديمقراطي فرضاً) على الدوام. كان هؤلاء محاربين يساريين غير منظمين. احتشد الآلاف لمسيرة في الجانب الشرقي من مانهاتن، والعديد منهم من بقايا احتجاجات منظمة التجارة العالمية في سياتل عام 1999. كان العديدون من الأناركيين الثوريين المنبوذين، الذين تفوح منهم روائح الحشيش وعرق أجسادهم. هذا سبب هيمنة اليمين في هذا البلد، فكرت لنفسي، وقلت مثل ذلك لزملائي حتى. يرتدون بدلات السلطة ويشكلون جماعات ضغط ويتسامرون مع سماسة النفوذ في العامة واشنطن. كيف يمكن لأي كان أن يعامل هؤلاء اليساريين بجدية بالمقارنة مع أولئك؟ كانت خيمة اللجنة الوطنية للحزب الديمقراطي كبيرة، ولكن مع هذه الأشكال، يمكن أن تنهار بسهولة. بعد سنوات في المستقبل بقي «اليسار» نشازاً غير منظم، غير منضبط، وبلا قائد، مفتقراً للشعارات الرنانة، ودون قضية واحدة فريدة، ما سمح لدونالد ترامب بنيل انتصاره.

كرهت عملي وكنت محظوظاً بإيجاد منتج ومنحة بذرية للفيلم الذي أردت صنعه حقاً. لذا عملت جاهداً لأجعل نفسي غير ضروري بالمرّة في المحطة، وفعلوا بالضبط ما كنت أريده. لقد طردوني من العمل.

مضيت قدماً في تصوير جهاد للحب. كانت مصر أولى محطاتي، عبر فرنسا. لم تكن مرتي الأولى في أي من البلدين. بدأ التصوير بشكل اعتباطي. لم يكن هناك نص واحتجت أعواماً لإيجاد الأشخاص موضوع الفيلم وإقناعهم. أذكر التقاء زياد، وهو هارب من سجن في القاهرة، الذي تحدث عن الراحة التي منحها إياه القرآن عندما كان مسجوناً. على النقيض، فقد جلسنا في لو ديبو، نادٍ جنسي قرب حي ماريه في باريس، نتحدث عن آيات إسلامية.

صورت زوجاً من السحاقيات، مها ومريم -أولاهما مغربية فرنسية محببة من الجيل الثاني من المهاجرين وهي من أكثر المسلمين الذين قابلتهم التزاماً، والثانية شريكها السافرة عن شعرها، والأقل التزاماً دينياً- في القاهرة. فتحت مها بصيرتي بشكل لا يوصف عندما قالت، «يشعر الناس أن المرأة التي ترتدي الحجاب إما متطرفة أو مقموعة، ولكنه بالنسبة لي، يجعلني حرة».



أصبحت مريم صوتاً نسائياً بارزاً خلال ثورة مصر، مع أنها لم تكشف أبداً عن توجهها الجنسي. أخبرتني مها، في الأيام الخوالي، أنها لم تكن تسمح لكلمة «سحاقية» حتى أن تفلت من لسانها. كان العار الذي تشعر به والعنف الروحي التي تعيشه محزناً بشدة. احتاج الأمر عامين حتى سمحت لي مريم بإعداد الكاميرا.

مدعياً أنني سائح، صورتها خلصةً في أحد مقاصد القاهرة السياحية العديدة، هضبة المقطم، المشهورة بمسجد صلاح الدين أو مسجد القلعة. كانتا مسهبتين في الحديث أكثر عندما سجلت مقابليتهما في شقة أحد الأصدقاء في وسط القاهرة. كانت مها تتوق للحج ولكنها اعتقدت أنها لن تستطيع إن لم تجد محرماً بطريقةٍ ما.

تحديث مها بالآية الرابعة والثلاثين من السورة الرابعة في القرآن، النساء. كانت هذه السورة المستفزة تستخدم من قبل كل من علماء الدين المسلمين وكارهي الإسلام. إشارةً إلى كيف على الأزواج أن يعاملوا زوجاتهم، يقول جزء منها «اضربوهن» ضرباً خفيفاً. أشارت مها إلى أن كلمة الضرب كانت تستخدم بطرق عديدة أخرى في القرآن، لذا كانت موضع خلاف. لم تكن أبداً أول مسلم ألتقيه يستخدم علم المعاني وسياق القرن السابع، وهو القرن الذي يرى بعض المسلمين السنة أن جمع النصوص، وكتابتها على الورق، بدأ فيه حسب ما يدعى. بناءً على الروايات المتناقلة بينهم، يقول السنة إن الخليفة الثالث عثمان أشرف على إتمام هذه المهمة الضخمة بعد وفاة محمد بعقدين. أما عند الشيعة، ففي خلال ستة أشهر من وفاة محمد، كان صهره وأول خلفائه، علي، قد أتم مخطوطة مكتوبة كاملة لما بقي حتى ذلك الحين وحياً شفهيّاً بالكامل لمحمد. أخبرت مها كيف شعرت أن الكتاب كان يجب أن يكون غير قابل للتحريف.

في مكتبة مدبولي قرب ساحة التحرير التي أصبحت شهرتها عالميةً بعد ذلك بقليل اشترينا مجلداً سميّاً اسمه فقه السنة، بناءً، للمفاجأة، على توصية مريم غير المتدينة. وجدت لسعادتها إشارةً بعيدة إلى النشاط الجنسي المثلي بين النساء، وقد وجدنا حتى كلمة تصفه -السحاق. كان العقاب «أطلقوهن». أمسكت بيد مها وقالت: «أرأيت، لا وجود لعقاب». أدهشني رد مها: «أحياناً أريد أن أعاقب».

أتيا لاحقاً إلى نيويورك لأنهما كانا يمتلكان الحق بمشاهدة النسخة الأخيرة قبل العرض. أخذتهما إلى مسجد مالكوم إكس في هارلم. سردت لهما تاريخاً موجزاً لحركة أمة الإسلام. أخبرتهما لم أكن سأأخذهما إلى المسجد الرخامي الباهر الذي كلف \$17 مليون دولار بتمويل سعودي جزئياً في الشارع 96. كان إمامه الأول، الشيخ محمد جميعه، مصرياً هرب من الولايات المتحدة بعد ادعائه أن أحداث 11/9 كانت مؤامرةً يهوديةً، مضيفاً، «لو عرف الشعب الأمريكي ذلك، لفعلوا باليهود ما فعله بهم هتلر». بل تبادت معاداته للسامية، واضعاً اللوم على اليهود في نشر «البدع، والمثلية الجنسية، والكحول، والمخدرات». تتشرب عقول المسلمين معاداة السامية منذ نعومة أظفارهم. وكذلك فكرة أن المسلمين والإسلام أسمى من بقية العالم.

احتاج فيلمي أن يروي قصص رجال كزياد أيضاً -أشخاص عايشوا فعلاً عواقب أسلوب حياتهم. كنت أبحث عنهم في البلدان الإسلامية. لم أكن أستطيع أن أطلب إذنًا حكومياً. كنت أصور على طريقة حروب العصابات. كنت خائفاً ولكن متشوقاً لكوني أخوض مغامرة أخذتني إلى اثنتي عشرة دولة. كنت أخفي أشرطتي في أمتعتي بأدعية. لأن هذه كانت لقطات غير ممنتجة، فقد كانت وجوه الذين أقابلهم ما تزال واضحة. في مصر، على سبيل المثال، قد تكون هناك عواقب فعلية لمريم ومها. لأحتاط أكثر، صورت بضع دقائق من اللقطات السياحية في بداية ونهاية كل شريط، في حال حدوث غير المتوقع وعثور موظفي الجمارك في هذه البلدان على الأشرطة ومشاهدتهم لها.

أتى التمويل على دفعات صغيرة. غطت القصص التي صورتها العديد من النطاقات الجغرافية للإسلام، بثقافات مختلفة، ولغات مختلفة، وأنواع مختلفة من المسلمين. لم أكن لأسمح لأعمالي بأن تضفي على الإسلام صبغة إشكالية أحادية الجانب.

بعد سنوات من الأعمال الورقية، عينتني إدارة خدمات الهجرة الأمريكية أخيراً «غريباً ذا إمكانيات استثنائية». لم تكن هذه نكتة -بل صنفاً حقيقياً للفيزا كان الكثيرون يسعون للحصول عليها ولا ينالها سوى القليل. كان جون لينون ويوكو أونو غربيين ذوي قدرات استثنائية مثلي تماماً! كان ظاهرة كرة القدم البرازيلي بيليه كذلك أيضاً.

بدأت بالظهور في منتديات الحوار من جديد، مصنفاً بصفتي «أسمر»، «مسلم»، «مسلم تقدمي»، «صانع أفلام مهاجر»، «ناشط شاذ»، «شخص ملون». تراكمت الدعوات. وصفت في إحدى المنتديات بأنني شخص تناولت أعماله «حقل قوى حرج». شعرت بالإطراء. قالوا إن عملي تناول «التنوع الجنسي للمسلمين، ومجتمعهم، وصوتهم، وحقوقهم» وأنه «يطرح عدداً من الأسئلة الشائكة عن التمثيل السياسي والدعم التجاري». أمور تدفع للنشوة.

كنت العم توم المطيع أو زنجي المنزل للمسلمين الشواذ. كان يمكن عرضي بشكل ملائم كشخص يأتون به في اللحظات الأخيرة لأجل «التنوع» في مناسبات اليساريين التي ما زال البيض يهيمنون عليها بشكل كبير. هل كان «عبء الرجل الأبيض» أمراً حقيقياً؟

لم أكن معجباً بشكل خاص ولا صبوراً على الأبراج العاجية للأكاديميين. ولكنني استغلّيت نفاقاً الاهتمام الذي يأتيني منهم. كنت مفلساً للحقيقة، أعيش فقط على الحظ الذي لا يطلب أجره. ولم أكن حتى قد أثبت نفسي كصانع أفلام بعد. أخفيت عاري بأن أردي بذكاء ثياباً أنيقة معارة من أبناء عمومي في واشنطن.

قد تلازمني العديد من النعوت التي تجعلني طرفة. لذا ففي المؤتمرات التي كانوا يدعونني إليها، قررت عمداً ألا أستخدم «اللهجة الأكاديمية» التي لم يكونوا يعرفون أنني أجيدها. رويت قصصاً بدل ذلك. شاركت بسعادة ذكريات عن متع الاحتفالات الإسلامية كعيد الفطر والعيد الذي كنت أخشاه، عيد الأضحى، بينما كنت أكبر في البلدة الصغيرة مسقط رأسي في شمال الهند، التي كانت على بعد رحلة عشرين دقيقة ركوباً من إحدى أكثر مدارس الإسلام تشدداً.

اغتبط المضيفون لإيجادهم «الشيء الحقيقي». كنت فعلاً قد عشت التجريدات والمفاهيم التي كانت لا توجد بالنسبة لهم إلا في الكتب وعلى موقع ويكيبيديا. وهناك ميزة إضافية هائلة! كنت أتحدث بلكنة! عم توم مسلم؟

قبلنا الأموال التي وفرها لطفاً ممولون يهود ومؤسسات يهودية. طرح المتصفون بأنهم «مسلمون ملونو البشرية من مجتمع إل جي بي تي كيو أي» تساؤلات عن مقاصدي السياسية. كنت جزءاً من الآلة الإعلامية اليهودية، حسب ادعائهم. لم تكن معاداة السامية جديدة علي. ولا على أي أحد نشأ على الإسلام. وإذا

ادعوا أنهم لا يعرفون من أين أتت، فهم إما يكذبون أو جاهلون بالتاريخ المعقد لعلاقة معتقدنا باليهودية. ولكنني تفاجأت أن ذلك أتى بكل تلك الشفافية من اليساريين المتنورين الذين يدعون أنهم يحاربون في المعركة لصالح الخير. كنت فخوراً بتعاوني الإسلامي اليهودي! في حفلات جمع التبرعات التي كنا نعدها للفيلم، كنت أنا وديفيد نتمازح، «نحن تعاون إسلامي يهودي نادر. وهو غير عنيف بمعظمه!» عند قولنا هذا كانت الضحكات دوماً حاضرة بالإضافة إلى، كما نأمل، شيكات أكبر.

«أنت ساذج»، قال المسلمون الساخطون من مجتمع إل جي بي تي كيو آي. «ستلحق ضرراً كبيراً بالمحتوى الإسلامي حقاً لعملك، لأنه سيتهم بأنه مؤامرة يهودية». هؤلاء أنفسهم الأشخاص الذين قالوا لاحقاً إن الفيلم «إسلامي بشكل زائد»!

أصبح عمران، أحد المسلمين المشاركين في المؤتمرات، صديقاً مقرباً. جلسنا يوماً نتشارك قصص أولى مراتنا. «أنت أولاً»، قال لي، «فقصتي ستستغرق إلى الأبد».

«كان لي الاختيار»، أخبرت عمران، وفي لحظة انتقلت إلى الثمانينيات. «كان أمراً طبقياً. كان محمد مسلماً من طبقة أدنى. أرخيت رباط سرواله لأنني أردت ذلك. حرقت شمس الصيف اللاذعة كل شيء بلا رحمة، ولكن غرفتنا البيضاء الصغيرة كانت باردة، ولم يكن هناك شيء أريد فعله أكثر من نزع سرواله الأبيض.

«كانت هناك مشادة كلامية في المنزل وكنت قد ركبت على سكوتر أبي من نوع باجاج إلى ناو غازا بير، مقام صوفي. كانت الحرارة وعجاج الغبار يغمران المكان. لم يجرؤ أحد سوى بضع حمامات مريضة وعطشة على الخروج معي».

«كان ناو غازا بير ضريحاً لأحد الأولياء. تقول الأسطورة إن الولي كان طوله تسعة أمتار. وتقول أخرى إن حجم القبر كان يتغير في كل مرة يقاس فيها. كان الولي رجلاً ساحراً ذا حكمة لامتناهية، كما أخبرتني أمي، لأنه كان هندوسياً ومسلماً في الوقت ذاته. كنت طفلاً شديد المرض، وكانت أمي، ورأسها مغطى بعناية، تحضرني إلى المقام كثيراً لإقامة شعائر تغطية ضريح الولي بقطعة من القماش، على أمل منها بأن يعالج ذلك التهاب القصبات لدي!».

«ثم كان محمد، خادم المقام الوسيم والأشعر. كان يعرفني».

«لم تأت أمك معك» قال لي. فقلت أنني كنت وحيداً لأنني كنت غاضباً. سقاني محمد بعض الماء وتحادثنا».

«والداي يدعوانني خودا بخش، ولكن عليك أن تناديني محمد، لأن هذا اسمي الرسمي». قهقهت، مخبراً إياه أن ذلك بالإنجليزية يصبح «محمد، سامحني يا رب.»

«أوه، أنا دوماً أطلب السماح من الرب»، قال لي، ثم، «أنت تدرس في مدرسة سانت ماري، أليس كذلك؟ هل ستعلمني الإنجليزية، يا بارفيز؟» وعده أنني سأفعل إذا كان سيسمح لي برؤية الحجرة الصغيرة التي يعيش فيها على بعد بضع مئات من الأقدام عن القبر».

«شمل ما فعلناه في الغرفة المتعة والألم. بعمر الثالثة عشر، لم أكن أعرف كيف أميز بين الاثنين. ولكنني علمت أنني كنت أريد محمد بكل خلية من جسدي اليافع. لم أكن أعرف عمره، ولكنني علمت أن الشعور متبادل. لم أكن قد قبلت رجلاً من قبل وقد داعب وجهي بينما كنا مستقلقين في الغرفة، منهكين وعاجزين عن الكلام، وقبلني مرة أخرى».

«تمددت الظلال مع هبوط الشمس. تمتعت عن حاجتي إلى الذهاب ولكنه وضع يدي على شفتي مع عموم آذان العصر على سطوح مئات المساجد في شارانبور ودخوله إلى عالمنا الصغير الخاص عبر نافذة الغرفة الوحيدة».

«يجب أن نصلي، بارفيز»، قال لي.

«أخبرته أنني لم أكن أعرف كيف أؤدي الصلاة بشكل صحيح».

«حسناً، الآن ستتعلم. سأعلمك كيف تؤدي الصلاة النماز كما كان نبينا يؤديها بالضبط، وستعلمني اللغة الإنجليزية. اتفقنا؟»

«اتجهنا إلى الخارج بينما تعالى صوت المؤذن وهو يحث المؤمنين على الصلاة حتى ذروته. وبينما تلاشى العصر حتى الغسق، علمني محمد الطرق الصحيحة لأداء شعائر الوضوء قبل الصلاة،

مؤكدًا أنه بسبب ما فعلناه للتو علينا أن نؤدي الغسل الأطول، وهو اغتسال شعائري لأعضائنا الخاصة، بدل الوضوء المعتاد، الذي كان طقسًا أبسط».

«مد سجادة صلاته الزرقاء والخضراء وجلست خلفه ببضعة أقدام كي أأتم به. كان محمد يؤمني في أول صلاة كاملة لي. لذا كان أول إمام لي، وهذا يعني حرفيًا، رجلًا متعلمًا يعرف كيف يقود المسلمين في الصلاة. تساءلت إذا كان يطلب الغفران. علمت أنه، بالنسبة لي، فإن إثارة ما فعلناه في العصر كان أعظم أثرًا من عاره. عندما انتهيتا، أمسك محمد بيدي».

«لم لم تطهر على سنة النبي، بارفيز؟» بالهندية، كان السؤال فظًا أكثر، ولكن محمد تكلم بالأوردو الأكثر رقيًا مستخدمًا طريقة أكثر رمزية لوصف الختان الذكري الواجب على المسلمين، سنة (إجراءات الختان على سنة النبي)».

«بعد ذلك، كنت دومًا أعذر نفسي عن رغبات أُمي المتكررة بزيارة المقام معًا. بعد بضعة أيام من عصري السري مع محمد، كان عار قضيبى غير المختون قد اكتشف في مبوله عندما كنت في المدرسة. كنت غالبًا ما أعود إلى المنزل باكياً. بقيت خجلًا بقضيبى غير المختون بشكل غريب. في الهند، يمكن أن تختار أي الخيارين. ولكن الصبية الذين غرسوا لدي هذا الشعور بالعار كانوا مختونين. بالنسبة لهم فقد كان هذا تأكيدًا لوضعي «كصبى مؤنث»، وقد مارسوا علي أنواعًا من القسوة لا يمتلكها سوى الأطفال».

«مرت أسابيع ولما تجرأت أخيرًا على إخبار أُمي، منعني عن كشف حالة «عدم ختاني» أبدًا، مضيفة من جديد أن «هذا النوع من الأحاديث قذر.»»

«كان يمكن أن تختار مواجهة أُمي بكلمات أخرى. ولكنها كانت تترجح تحت عبء إرث الشعور بالعار والأسرار الذي نشأت معه. كانت بقية حياتي موصومة به. على سبيل المثال، أتت فكرة كون الجنس معيبًا من أُمي، ولم يستطع العلاج حلها.»

«الطريقة الوحيدة للهروب من طفولة الشعور بالعار هذه كانت مغادرة وطني. وحالما علمت أن ذلك بإمكانني، غادرته. استغرقني الأمر سنوات بعدها لأعي أن بعضنا يرحل طلبًا لتحول نحو نسخ

أفضل من أنفسنا، ولكننا نكتشف أحياناً أننا لم نكن نحتاج مغادرة الوطن من الأصل. منذ آخر ما أستطيع تذكره، كنت دائماً أهرب من الوطن. وفي كل مرة غادرته فيها، كنت أبحث عنه.»

«إن بشكل أساسي، فقد علمتك أولى الأعيبك كيف تصلي»، قال عمران، ضاحكاً.

حيا أولئك المسلمون المحبون للنوع فيلم أطروحتي، بسم الله، الذي عرضناه لاحقاً في ذلك اليوم. عمران كرهه.

«أنت شجاع جداً»، قال شخص أبيض معتنق للإسلام جسمه مغطى بوشوم وثقوب غير إسلامية وهو يصافح يدي. «لقد شاهدت فيلمك». لم أخبره أنني سأخفي للأبد مونولوج ذلك «الفيلم» لظلال المسلمين. وأن عليه أن يغطي ذراعيه!

أتساءل أي شكل من المازوشية جعل هذا القوقازي (المسيحي على ما يفترض؟) يعتنق الإسلام. لم يكن هناك الكثير مما أمكنني قوله، ولكنني لم أشأ أن أفطر قلبه. شكرته وبحثت عن عمران، لأخبره عن هذا اللقاء.

«هل يفهم هؤلاء الأشخاص حتى الأشكال التدميرية للوهابية والديوبندية والمذاهب الأخرى للإسلام، وكمية الضرر الذي تسببت به؟ إن نسختهم من الإسلام قد لا تؤخذ على محمل الجد أبداً من قبل نحو كل المسلمين على الكوكب!»

«ستظل هذه اليوتوبيا في هذا الفندق الريفى!» رد عمران. «حمقى!»

كنت صداقتي مع عمران أمراً ثميناً. أما في موطننا، فلم تكن الهند وباكستان صديقتين حميمتين تماماً.

### الفصل الثالث

#### الملتحى، معتمر العمامة، راعي الإبل، الإرهابي الزنجي

في عام 2005، بدأت بتصوير زاهر في جوهانسبرغ، وهو الذي أطلق على نفسه لقب «إمام المثليين». انضمت إليه وشريكه في رحلة سياحية إلى مصر، انتهت بسفر إلى مكة لأداء العمرة (الحج الأصغر - حج مخفف). وهذا ما فعلته بالإضافة إلى حرصى على تصوير كل ما حدث. بدءاً من صعيد مصر (الذي يقع جنوب البلاد)، سافرنا متجهين نحو مصر السفلى (التي تقع، لغرابة الأمر، في الشمال) على ضفاف النيل. وخلال تجولي عبر البلاد، تعهدت بأنني لن أذهب مجدداً في رحلة نهريّة أو بحرية منظمة - أسبوع حافل بالرعب الذي تسببت به المصائد السياحية التي لا مفر منها. ولكن تاريخاً فرعونياً مشوقاً بعض الشيء في هذه البلاد، عبر أسوان وفيلة والأقصر، تجلّى أمامي بفضل خليط من المرشدين السياحيين الطماعين. كان خوفي من العمرة في مكة يتفاقم. وفي وقت سابق من ذلك العام، بدأت بتصوير مريم ومها في القاهرة. ولغاية الآن، ما يزال زاهر يسمح لي بتصوير رحلته الكبرى.

طال مقامي في الأقصر، وودت لو شاركني في مناقشة حول أي أمر باستثناء القرآن. ولكن زاهر، الذي لم يعرف شيئاً عن السياسة الحديثة وتاريخ الإرهاب الإسلامي، لم يعر الأمر اهتماماً. بدا أن جل ما يعرفه يبدأ بالقرآن وينتهي إليه. وأنا حاولت جاهداً أن اختبر ذكائه فيما يتعلق بالعالم الحقيقي.

«هل تعرف أي إهانة ازدرائية نشأت بعد أحداث 11 سبتمبر؟».

فسألني: «ما الذي تعنيه بإهانة؟».

«كأن يطلق على المسلمين في أمريكا لقب معتمري العمامة والإرهابيين الزنوج. هل يحدث هذا في جوهانسبرغ أيضاً؟». ولسخرية القدر، كنت أرتدي عمامة على رأسي في ذلك اليوم - بسبب موجة من الحر التي اجتاحت الأقصر.

«زنوج بمعنى عبيد؟ بالطبع». نطق زاهر بهذه الإهانة الفاحشة دون أن يبالي.



بالنسبة لشخص عاش (وربما يقول البعض أنه ما يزال يعيش) في ظل الفصل العنصري، يبدو أنه ساذج على نحو يثير الدهشة. بينما كنا نهيم في المنظر الشاسع لمعبد الملكة الفرعونية حتشبسوت، الذي كان مسرحاً للمذبحة المروعة التي وقعت في عام 1997 وراح ضحيتها أكثر من ستين سائحاً ومئات من الجرحى، أخذ يهتمهم حول ضلال مصر قبل الإسلام من وجهة النظر الإسلامية، وأنا أواجه السلطة الأنثوية المطلقة التي لم تكن تاريخياً بدعةً دينيةً أو سياسية.

قال معترفاً: «هذا صحيح».

وشرحت له عن نفي الرئيس المصري حسني مبارك لقادة حركة إسلامية سياسية تدعى الجماعة الإسلامية، وأنهم كانوا وراء هجمات عام 1997.

أخبرته أن الديكتاتور مبارك لطالما خاف من الإسلاميين، إذ سجن مئات من جماعة الإخوان المسلمين التي ارتكزت على التعاليم المتطرفة لأستاذ المدرسة حسن البنا في عشرينيات القرن العشرين. في يوم من الأيام، سيحكم الإخوان مصر لفترة وجيزة، ولكن كان هذا الأمر مستبعداً في ذلك الوقت. وسألته عما إذا كان يعلم أن الإخوان يستخدمون شعارات مثل: «الله غايتنا؛ القرآن دستورنا؛ الرسول زعيمنا؛ الجهاد سبيلنا؛ الموت في سبيل الله أسمى أمانينا». وسألته عما إذا كان يعلم أنهم متهمون بالإرهاب حتى في المملكة العربية السعودية. لم يكن لديه أي فكرة عما قلت أو عما كنت على وشك أن أقوله. تجمع الإخوان علاقة متأرجحة مع الإرهاب، والعديد من الإخوان، بمن فيهم أيمن الظواهري، انشقوا عن صفوفهم للانضمام إلى القاعدة. سألته أيضاً عما إذا كان يعرف أن القاعدة تحملت المسؤولية المالية لهذه المجزرة في نهاية المطاف. هل يستطيع من خلال معرفته بالقرآن أن يرد على العنف والإرهاب الذي يحدث باسمه؟ إنه عالم ما بعد أحداث 11 سبتمبر، وهو يعلم ذلك بلا شك. ولكن كان قرآنه مختلفاً عن قرآن بن لادن بالتأكيد.

قال لي: «أتعلم، أنني أحاول دائماً الابتعاد عن السياسة. من الأفضل أن أترك الأمر لأشخاص مثلك. أنا أستمد حكمتي من القرآن. دعنا نعود إلى القارب، فسيحين موعد صلاة المغرب قريباً».

على الرغم من خيبة ألمي، امتثلت له ولحقت به، وانتهى بنا المطاف حيث بدأنا، في مدينة القاهرة الكبرى والفوضوية. استقلت عربية توكتوك كالتى كنت أراها في بومباي إلى حي غاردين سيتي الجميل. وسألني السائق بلكنة إنكليزية ركيكة عن بلدي الأم.

فأجبت: «من الهند».

قال لي: «مذهل! أميتاب باتشان!»، وهو يستعرض أمامي أقراصاً مدمجةً لنجم بوليوود الكبير يحتفظ بها في عربته. وبخطوة مفاجئة تنم عن سخائه، رفض أن أدفع له مقابل التوصيلة. ذكرتني القاهرة ببومباي، التي أتشبت باسمها متحدياً اليمينيين الهندوسيين الذين غيروه إلى مومباي؛ فاستخدامي لاسم بومباي كان بمثابة اختيار سياسي على الأقل بالنسبة لي. إن القيادة في القاهرة لا تختلف عن بومباي بكل تأكيد: لا قوانين. فالحوادث شائعة الحدوث، ولكن الأمور تسير على ما يرام في المدينة بطريقة أو بأخرى. استقلت العربية للقاء بسام، وهو صحفي وصديق معارض قديم، دمرت آخر أعماله مبارك، إذ ذكر فيها مجرد عينة من جرائمه. وبينما كانت العربية تتمايل، فكرت في الوقت الذي بقي فيه تحت مراقبة مخابرات مبارك، النسخة المصرية من مكتب التحقيقات الفيدرالي. لكل ديكتاتور عربي جهاز مخابرات خاص به، وغالباً ما يختفي الناس إلى الأبد بين عشية وضحاها. إنني قلق دائماً بشأن بسام.

وفي وقت لاحق من تلك الليلة المعتدلة في القاهرة، عدت إلى الفندق، ليخبرني زاهر بأنه علينا أن نبدأ «الاستعداد الروحي» لمحطتنا التالية في مكة لأداء العمرة. ولكن اجتاحني شعور بالخوف وإحساس بالذنب يفوقان الوصف مع اقتراب مغادرتي إلى مكة. اشترينا التذاكر، وحجزنا في الفندق، وأنفقت الدولارات المحدودة التي خصصتها للإنتاج. ولكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على الذهاب إلى وجهتنا النهائية التي خططنا لها في المملكة العربية السعودية.

هذا ما أخبرته لزاهر كل ليلة على متن القارب. والآن، احتدم غيضاً بسبب رفضي -عجزي المطلق- للذهاب إلى مكة.

قلت له: «عليك أن تفهم أزمة الإيمان التي أمر بها!».

«أية أزمة؟ لطالما أردت الذهاب معنا إلى مكة. إنها خطتنا منذ البداية».

«أعلم أنني خذلتك. ولكنني لا أشعر بالالتزام الديني الذي يستقطب ملايين المسلمين إلى مكة».

«سنكون معك. كل شيء سيكون على ما يرام. الكعبة تغير كل من يلمسها».

«عليك أن تفهم. أشعر أنني ذاهب إلى هناك مدفوعاً بالأسباب الخاطئة. إنني ذاهب لتصويرك وليس بدافع الإيمان. وأنا لست ذاهباً لأبحث عن الإيمان أيضاً». إنني أخذت ذكريات والدتي وخالتي بذهابي في هذه الرحلة المهمة دون أن أحمل أي إيمان في قلبي، إذ أن تدنيس ذكريات أمي أهم بكثير من عدم تصويري لزاهر في مكة من أجل مشهد لن يتجاوز دقيقة واحدة في الفيلم.

لذا انسحبت. إنها فرصتي الأولى للذهاب إلى مكة ولكنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لكي أستغلها. ما شعرت به حقاً هو رعب حقيقي - رعب سيتمكن السعوديون من رؤيته، ولن أستطيع الهروب أبداً. سيذهب زاهر وشريكه إلى المملكة العربية السعودية لمدة أسبوعين تقريباً، وهو ما أثار حنق منتجي حين سمع بالأمر، فقال لي: «لن يكون هناك فيلم دون مكة».

وهذا الإمام، أي زاهر، أخبرني أنه يحتاج وثيقة مفصلة تثبت إيماني لكي نتمكن من مواصلة التصوير عند عودته.

فقال لي وهو يحاول أن يقدم لي حلاً ينم عن رحابة صدره: «يمكنك تغيير وجهة تذكرتك والعودة إلى جوهانسبرغ. ستسمح لك مدبرة المنزل بالدخول. سأتصل بها. ابق هناك وتأمل في سبب عدم قدرتك على القيام بهذه الرحلة، وحين أعود سأكون قد وجدت إجابتي وأتمنى أن تجدها أنت أيضاً».

في بادئ الأمر انتابني إحساس مريع بالذنب. لقد تخلّيت عن الكعبة. إن هلاكي أصبح محتوماً.

أمضيت ليلتين إضافيتين في فندق رمسيس هيلتون، الذي ستكون شرفاته كواليس مثالية لكاميرات الجزيرة التي ستصور ما سيجري في ميدان التحرير وجسر قصر النيل القريب مع بداية اندلاع الثورة في شوارع القاهرة بعد خمس سنوات تقريباً في يناير عام 2011. غيرت وجهة تذكرتني بعد رحيل زاهر، ولكن أردت أن أمضي بضعة أيام أخرى في إحدى المدن المفضلة لدي. انتقلت إلى شقة غارث، وهو عامل ومرتقز قديم في القاهرة، والأهم من ذلك أنه صديق عزيز لي. تحدثنا حول العمل الخطير الذي ساعدني فيه خلال رحلة قصيرة في شتاء عام 2001. وكما جرت العادة، حثني على «توخي الحذر». كان غارث مغايراً جنسياً، ولكن نظراً لأنه ساعدني في لقاء أشخاص مثليين قبل بضع سنوات، كنا على يقين بأن هذه المدينة على الأرجح هي الأكثر خطورةً في العالم بالنسبة للمثليين. في صيف عام 2011، تصدرت أعمال العنف التي أمر بها نظام مبارك ضد الرجال المثليين، والتي أصبحت تعرف باسم القاهرة 52، العناوين الإخبارية العالمية. فمن أجل استرضاء المؤسسة الدينية العنيدة، ألقى حسني مبارك القبض على 52 رجلاً في ملهى ليلي عائم يدعى كوين بوت. واجه خمسين منهم تهمة «الاعتداء على ممارسة الفجور» و«السلوك الفاحش»، في حين اتهم اثنين منهم «بازدراء الدين». تعاملوا معهم وكأنهم «إرهابيون»، إذ تعرضوا للتعذيب والاعتصاف بشكل متكرر بعد أن خضعوا «لفحوصات طبية شرعية» لأردافهم. كان زياد، الذي التقيته لاحقاً في باريس، واحداً من بين هؤلاء الرجال الاثنين والخمسين. وعلى الرغم من أنه تمكن أخيراً من النجاة من هذا الرعب، انتهى به المطاف في فرنسا العدائية. (أتمنى أن يعرف جميع طالبي اللجوء أن الغرب ليس «أرض الميعاد»، إذ نادراً ما يكون اللجوء سبيلاً لحياة أسهل). نشرت الصحف المصرية عام 2001 أسماء وعناوين وصور جميع المعتقلين، التي قدمها لهم النظام الديكتاتوري عمداً، وكان زياد واحداً منهم.

أخبرني باكياً: «يا له من عار لأمي الأرملة المسكينة».

نادت تلك العناوين: «عبادة شيطانية». إن رهاب المثلية الجنسية، وكما هو الحال في معظم أنحاء كوكبنا، متأصل في مصر. نجح مبارك في كثير من الأحيان في التذرع «بالأخلاق الإسلامية» ليبقي «رعاياه» المسلمين خائعين. فتارةً يكون الحجاب موضع نقاش، وأما التهديد الأخير للإسلام هو تفشي

المثلية الجنسية. وحتى هذا اليوم، تنشأ المخابرات مواقع إلكترونية، مثل موقع منجم، لتصيد الرجال المثليين و«الإيقاع» بهم. ويقال إن الشرطة تعرف ما إذا كان الشخص مثلياً من لون ملابسه الداخلية، فإن كان أبيض اللون فهو مغاير جنسياً.

تسكنت في مقاهي الزمالك برفقة صديقي القديم حمزة. إنه حي تقطنه أسر عريقة الثراء، لم يكن لدى كثير منهم أي فكرة عن الضائقة الشديدة لسكان حي منشأة ناصر الذي لا يبعد عنهم سوى بضعة أميال، والذي كان يعرف باسم مدينة القمامة. لم يجرؤ سكان الزمالك على الذهاب إلى هناك، ولكن حمزة اصطحبني ذات مرة. لقد كان يعلم، أكثر مني، أن هذه الدولة قنبلة موقوتة. والآن، يصنع حمزة قمصاناً عربيةً أنيقة يتحدث عن طريقها عن التغيير من خلال اللعب باللغة. كتب على ظهر أحدها كلمة حرية، في حين رسم عليه من الأمام إشارة استفهام كبيرة. لقد أهداني هذا القميص.

ما من شيء تغير في الزمالك. تخرج السيدات لتناول الغداء، وكثير منهن زوجات أوروبيات وافدات متزوجات من أثرياء العرب، ويتجمعن في أماكن مثل نادي الجزيرة الرياضي لتحسين الكوكتيل معاً. كانت عضويتهم مرغوبةً، فهن أشبه بنسخة القاهرة للبرنامج التلفزيوني ذا ريل هاوسوايفز (ربات البيوت الحقيقيين). كان عمر انقسام الزمالك هذا عن مصر الحقيقية عقوداً من الزمن.

وفي وقت لاحق، بعد أن عدت إلى مضيقي، ذكرت غارث بتلك المرة التي قابلنا فيها رجلاً «مثلياً» على بعد بضع بنايات من هارديز، وهو المكان الذي سيصبح في غضون سنوات قليلة وحسب مركزاً مهماً للحوادث التي تعرض لها ثوار ميدان التحرير. زرت برفقة غارث الأماكن القديمة التي كنا نتردد إليها، وأخبرني أن الحصول على سبق صحفي في هذه المنطقة أصبح أكثر صعوبةً، أي أنها كانت أوقاتاً عصيبةً من الناحية المالية بالنسبة للموظفين المستقلين أمثاله. وهذا الأمر، أيضاً، سيتغير في غضون سنوات قليلة وحسب.

لطالما كانت القاهرة القلب (المحطم) للشرق الأوسط - نظراً لمركزها السياسي والتاريخي والثقافي وحتى السياسي، على الرغم من حالة الفقر المدقع التي يعيشها غالبية سكانها. والفضل يعود

إلى القاهرة لإنتاجها أهم الأفلام العربية، وحتى البرامج التلفزيونية في وقت لاحق. بالإضافة إلى مسلسلات تيلينوفيل الطويلة الاستعراضية التي تسمى «العروض الرمضانية الخاصة»، والتي تنتج في أستوديوهات تلفزيون القاهرة وتستقطب جماهير عربية كبيرة، ولا سيما في المملكة العربية السعودية المتعطشة للترفيه.

ومن وجهة نظر البعض، إن القاهرة مركز للفكر الإسلامي والعلوم الدينية نظراً لوجود جامعة الأزهر فيها، والتي تعتبر بمثابة هارفرد الإسلامية. ولكن لسوء حظي، لم تكن دار العلوم ديوباند، التي استولى عليها الوهابيون والتي تذكرني بطفولتي، أقل شئناً، فلربما كانت بمثابة برينستون الإسلامية. وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن الأخيرة هي التي ربحت معركة التفوق الديني، نظراً إلى التأثير الهائل للأيدولوجية الوهابية في العالم الإسلامي السني. ولكن تبقى جامعة الأزهر، التي تضم سبع مدارس صوفية في مناهجها الدراسية، الأكبر بينهما. لا يمكن الاستهانة بتأثيرها. إنها تطبق سياسة الفصل بين الجنسين وتحتقر الوهابيين في الوقت ذاته. لطالما تساءلت عما سيختلف تاريخياً لو تصدر «الإسلام الخفيف» نسبياً، الذي يروج له الأزهر، الرأي السني العالمي. في الحرم الجامعي الأكبر للجامعة الأمريكية في القاهرة، لم تطبق سياسة الفصل بين الجنسين، ولكنها لم تزعم أبداً أنها مدرسة دينية.

وجدت بعض الوقت لزيارة حرم الأزهر، حيث فصل الرجال عن النساء كما هو متوقع، على غرار الاختلاط في السعودية. وحسبما أتذكر، نادراً ما رأيت النساء يرتدين العباية الطويلة على الطراز السعودي في القاهرة، ولكن للأسف رأيت كثيراً منها في هذه المرة، إذ أصبحت أكثر شيوعاً بكثير مقارنةً بزياراتي السابقة. كثير من النساء، ولا سيما الأصغر سناً، يرتدين الحجاب فيغطين رأسهن وجزء من الرقبة بشكل عصري، ولا تفصلهن سوى أميال عن النساء اللاتي يرتدين البرقع الطالبناني أو العباية السعودية. والمجلات المطبوعة، مثل *حجاب فاشن وإن ستايل*، كانت أكثر المجلات رواجاً بالنسبة للشابات المحجبات في الجامعة الأمريكية في القاهرة، إذ صورت الملابس الجاهزة مع الحجاب بشكل أنيق. لم تكن زوجات النبي محمد أبداً لتتصور أن ما أمر به بخصوص حشمة اللباس لكلا الجنسين ستتحوّل إلى آخر صيحات الموضة. إنه ليس اضطهاداً؛ من الواضح أن هذه النساء اخترن تغطية أجسادهن، فلم تكن الشريعة سائدة في المنطقة. ولكن كما هو الحال في أي مكان آخر، تعتبر تغطية المرأة لجسدها،

بالنسبة للكثير، علامةً على الفكر المحافظ. فالحجاب بالنسبة للغرب يعتبر بغير حق نوعاً من أنواع التطرف.

نجحت في تأسيس شبكة واسعة من الصحفيين والكتاب والمخرجين في القاهرة. وبعد سنوات، احتضنت هذه الشبكة فيلمي، وأصبح أعضاؤها مصدرًا مهمًا للمعلومات العاجلة حين بدأت بنقل أخبار الثورة المتفاقمة عام 2011. وجميع المعلومات التي حصلت عليها منهم نشرتها في تغريدة أو حالة على الفيسبوك. وفي ذلك الوقت، أي في عام 2005، ضمت شبكتي أحد الأشخاص المحبوبين في دائرة المهرجانات السينمائية، يسري نصر الله. وبينما كنا نحتسي الشاي والقهوة في مكتبه بوسط القاهرة، كان في فترة استراحة بعد ملحمته باب الشمس، فيلمه ذو الأربع ساعات ونصف. إنه مستوحى من الرواية الخرافية للكاتب الشهير إلياس خوري والتي تحمل الاسم نفسه، وأشبه بسيرة تاريخية ملحمة وحية للشعب الفلسطيني. وفي جوهرها تكمن الكلمة التي يعرفها كل مسلم: //النكبة. فمن وجهة نظر المسلمين، إنها الاحتلال العنيف لدولة إسرائيل الحديثة لفلسطين عام 1948. بدءًا بين لادن مرورًا بمبارك ووصولاً إلى آية الله الخميني، استغل كل مسلم متعصب أو سياسي هذه النكبة باعتبارها شكلاً من أشكال الظلم الإسلامي الذي لا ينتهي، أو صرخةً لحشد المسلمين في جميع أنحاء العالم. وبالنسبة للكثيرين، لم تنته النكبة أبدًا.

لو كنت أمتلك القدرة على تنبؤ ما سيحدث بعد عقد من الزمان في المستقبل، لأخرجني يسري من مكتبه مستهزئًا بي. ففي عام 2017، سمى الرئيس الأمريكي الجديد دونالد ترامب المتعصب الأصولي ديفيد فريدمان سفيرًا له في إسرائيل.

وحين توعدوا بكل فخر بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، شعرت بقشعريرة تسري في بدني. هل هذا الرجل وعصابته لا يمتلكون أي أدنى فكرة حقًا عن التداعيات العالمية لهذه الخطوة التحريضية؟ فسيشعر بهذه التداعيات 1.7 مليار مسلم. لا بد من وجود سبب يجعل القدس والضفة الغربية المحتلة وغزة أكثر الأراضي المتنازع عليها في العالم. إن تحويل القدس إلى عاصمة محتملة لإسرائيل هو مجرد قضية واحدة في صلب أصعب مشاكل العالم حلاً. فالقدس موطن لثالث أكثر المساجد قدسيةً بالنسبة

للمسلمين في جميع أنحاء العالم، وهي أكثر رموز القمع الإسلامي والقوة الإمبراطورية التي خسرها المسلمون وضوحًا. هذا ما يتعلمه كثير من المسلمين.

ولكن في تلك الفترة، تقاسمت مع يسري محنتنا المشتركة والمتمثلة في قلة التمويل، وثم أخبرته عن فيلمي الذي لم ينته بعد.

«الإسلام والمثلية الجنسية؟ فيلم؟ سيكون عبارة عن شاشة سوداء!».

التقيت بالعديد من أصدقائي القدامى في كافيه ريتش المفضل لدي في شارع طلعت حرب وسط القاهرة، وتبادلنا القصص حول الأخطار المستقبلية التي نتوقعها. فقال أحد الأصدقاء الكتاب الأكبر سنًا متنبئًا ما سيحدث: «إذا سقط مبارك، سيسقط معه كل شيء!». لم يكن بمقدورنا أن نتخيل أن هذا المقهى بالذات سيصبح مركزًا لفرز الثوار بعد خمس سنوات تقريبًا. لقد حرصت على أن أشتري صندوقًا كبيرًا من المعجنات من أجل غارث من مخبز مقهى غروبي العريق في وسط المدينة. إن تمثال طلعت حرب الشهير، الاقتصادي المصري المعروف في القرن العشرين، يشكل علامةً لموقع مقهى غروبي وإشارةً للاسم الحديث لهذا الميدان. ولكنه ما يزال يعرف باسم ميدان سليمان باشا بالنسبة لمن أطلق عليهم اسم سائقي سيارات الأجرة المخبولين في القاهرة. حتى أوائل خمسينيات القرن الماضي، حملت هذه المنطقة اسم سليمان باشا (الذي كان اسمه عند الولادة جوزيف أنتيلمي سيف، وكان القائد الأعلى للجيش في عهد محمد علي). ولكن غير الجنرال جمال عبد الناصر اسمه إلى ميدان طلعت حرب، إذ كان حريصًا على محو كل أدلة النظام الملكي الذي أطاح به. وأما ميدان التحرير فلا يبعد سوى دقائق قليلة عنه. لم تكن هذه المنطقة غريبةً عن الثورات، بما في ذلك الثورة القادمة.

في إحدى الليالي، أخذني غارث إلى حانة عادية يجتمع فيها معظم مراسلي الشرق الأوسط لتبادل القيل والقال، حريصين على ألا يكشفوا عن السوابق الصحفية خاصتهم. عبرنا سينما أوديون وصولاً إلى حانة أوديون بالاس التي تقع في الطابق الأخير من فندق أوديون في شارع عبد الحميد. لا أدري ما إذا كان هذا المكان آمنًا للقاء المثليين حتى الآن. ولكن أخبرني غارث أنه «المكان المفضل» للعديد من المرتزقين الذين أسسوا جمعية المراسلين الأجانب (غير الرسمية) في القاهرة. لم يعرف هذا المكان



سوى سكان القاهرة. كان مكاناً أبسط وأكبر من أن يكون مطعمًا، إذ ضم أيضًا حانةً رثةً في «حديقة» على سطحه. ولكن كانت تسوده هالة تاريخية. ما من أحد يعرف حقًا ما إذا كان هذا المبنى فندقًا «حقيقيًا».

الصحفيون المغمورون يروجون فعلاً لأفضل أنواع النسيمة. وكما فعلت في كل زيارة لي إلى القاهرة سابقًا، قلت: «هذه المدينة قنبلة موقوتة». وافقني الصحفيون على ذلك، فهذه دولة بوليسية في نهاية المطاف. إن مبارك، الذي يشبه كثيرًا من الديكتاتوريين في المنطقة، ظل في السلطة لأكثر من عقدين من الزمن، محاولًا التوفيق بين النخبة «العلمانية» في القاهرة التي تدين أغليبيتها بجزء كبير من ثروتها الخارجية لنظامه الوحشي، والغالبية الصامتة الفقيرة التي اتخذت من الإسلام سلاحًا لها. وفي أوساط هذه الفئة الثانية، أمضت جماعة الإخوان عقودًا تحاول بناء ألتها السياسية في الخفاء. اعتنى الإخوان باليائسين المنسيين. في حين مبارك، مثل أسلافه الديكتاتوريين جمال عبد الناصر وأنور السادات، فأتقن فن قمع أكثر القوى السياسية تنظيمًا في الشرق الأوسط العربي، أي الإخوان المسلمين. فالعديد من قادة الإخوان، المسلمون الورعون الذين حظوا بالدعم الصامت للجماهير المصرية، مسجونين في غرف تعذيب مبارك منذ عقود.

انتهت هذه المحادثات بنقاش حول آخر القصص عن رجل تدرب ليصبح طبيبًا ولكنه كان أبعد ما يكون عن ذلك، إذ نقل من سجن صنعاء في اليمن إلى سجن طرة الشهير الذي أنشأه مبارك في القاهرة، وذلك بعد أحداث 11 سبتمبر ليقضي عقوبةً بالسجن مدى الحياة. لقب هذا الرجل المفضوح نفسه باسم دكتور فضل ولازمه هذا اللقب منذ ذلك الحين، ولكن كان سيد إمام الشريف اسمه الحقيقي.

كنا حوالي ثمانية أشخاص. وبعد أن أقسمنا على إبقاء اسمه وانتمائه سرًا، مر الصحفي الخليجي أزهر بطاولتنا ووزع علينا مجموعةً من الصفحات المصورة المكتظة بالكلمات، زاعمًا أن ما فيها مزلل. تمكن أزهر بطريقة ما من التواصل مع الطبيب المسجون على نحو منتظم، إذ قال إنه يعرفه منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين. وبحسب أزهر، ما سيقوله يشكل سبقًا صحفيًا. وفي واقع الأمر، معظم ما قاله لنا لم ينكشف علنًا حتى عامي 2007 و2008. أخبرنا أزهر أن هذا الطبيب هو «أب تنظيم

القاعدة»، مضيفاً أن هذه الصفحات ستكون جزءاً من كتاب هام وحاسم يرغب «الشيخ» (فضل) بتسميته وثيقة ترشيد العمل الجهادي في مصر والعالم.

أخبرنا أزهري: «عليكم أن تولوا اهتمامكم لهذا الرجل. ما رأيكم بالعنوان الذي اختاره؟».

ساد جو من الضيق طاولتنا المرحية. لم يرغب أي منا طبعاً أن ينطق حتى بعنوان هذا «الكتاب». لم أخبر أزهري أنني سمعت عن فضل قبل ذلك، ولكن كل من يدرس التطرف والإرهاب الإسلامي يعرف فضل، بالإضافة إلى حسن البناء وسيد قطب. إن بعض الكتب، مثل العمدة في إعداد العدة (المخصص للجهاديين العنيفين) الذي ألفه فضل، أرست الأسس اللاهوتية لتنظيم القاعدة. وكتاب وثيقة ترشيد العمل الجهادي في مصر والعالم المرتقب سيأخذ منعطفاً تاريخياً غير متوقع: سيكون بمثابة انقلاب في استخدام العنف.

إن هذه الكتب ليست مثل الكتب العادية التي تطبعها دور النشر، إذ جرت العادة أن تسافر مئات الآلاف من النسخ المصورة المجموعة لتجنيد الجهاديين العدوانيين المستقبليين – شبكة سرية من الإرهاب الإسلامي. ولكن في يومنا هذا أصبح الويب متوافراً، وكذلك الأمر بالنسبة للقاعدة وداعش. وكما نشر أسامة بن لادن مجلته إنسباير، تمتلك داعش في الوقت الحالي مجلتين خاصتين بها، ولا حاجة لها بأكشاك بيع الصحف والمجلات. نشر كتاب فضل الجديد لأول مرة في صحيفة المصري اليوم مقسماً على ستة أجزاء في شتاء عام 2007. وحرص محتجزو فضل (المخابرات التي تبث الرعب في الناس) على نشر مقابلة مكونة من ستة أجزاء مع فضل، من بين 180 مقابلة يتحدث فيها عن كونه «أب الجهاد» وصولاً إلى ادعائه بأنه داعية للسلام، وذلك في صحيفة الحياة الموالية للسعودية، التي تعتبر نظيراً لصحيفة نيويورك تايمز في الشرق الأوسط. ونظراً لأنها دائماً ما كانت تتوخى الحذر، بقيت صحيفة مغمورة بالمقارنة مع نظيرتها الأمريكية العملاقة، التي سيهاجمها ترامب وأعوانه الحاقدون باعتبارها «صحافة كاذبة» في المستقبل القريب.

كنت متعجباً من الغياب الكلي لاسم هذا الرجل عن الصحافة الغربية، إذ حظي بعد احتجازه ونشره لكتابه العمدة في إعداد العدة باهتمام الصحافة العربية إلى حد كبير. إن وكالة الأمن القومي

الأمريكية تسيء حقاً لنفسها حين تأبى تعقب كل كلمة تنشر في الصحف والمنتديات الإلكترونية باللغة العربية أو الأردنية. ففضل منظر إسلامي حي هيئ العدة للإسلام المتطرف وأيديولوجيته في الجهاد العنيف. إن هذا الرجل هو «الأب» الحقيقي للجهاد العنيف الحديث فعلاً. ووفقاً لما ذكرنا أزهر به، وضع فضل الأساس القرآني للقاعدة في كتابه *العمدة في إعداد العدة* عام 1988، إذ زعم أن الجهاد العنيف هو الحالة الطبيعية لجميع المسلمين، الذين ينبغي أن يكونوا دائماً في صراع مستمر مع غير المؤمنين. ما يزال هذا الكتاب بمثابة الكتاب المقدس للجهاد العنيف حتى يومنا هذا. ولم يصبح هذا الكتاب متوافراً إلا بعد أن قضى فضل وقتاً طويلاً في بيشاور برفقة أسامة بن لادن. ولكن كيف ولد كل هذا النتاج «الأدبي»؟ ولد أمام أنظار الحكومة الباكستانية التي عرفت بكل تأكيد مكان هذين الرجلين.

في هذه الليلة بينما كنت في الطابق الأعلى من فندق أوديون، تساءلت عما استغرقه العالم عموماً والولايات المتحدة خصوصاً كل هذا الوقت لاكتشاف الدكتور فضل، في مقال في مجلة نيويورك ركر بتاريخ 2 يونيو عام 2008، بينما سمع مرتزق خليجي بسيط عنه وعن نتاجه الأدبي الإجرامي الجديد في عام 2005. كان هذا الأب الإيديولوجي للقاعدة يكتب لسنوات (دون عناء) في سجن ديكتاتور حليف للولايات المتحدة.

وعلى حد قول أزهر، انقلبت أيديولوجية فضل 180 درجةً بينما كان يكتب في السجن، وفي بعض الصفحات بين يدينا دليل على ذلك. ونظراً لأنه التقى فضل عدة مرات، أخبرنا أزهر أن زنزانته مليئة بكتب الفكر الإسلامي القديمة بالإضافة إلى كتب الصحاح (الشرعية السنية) وغيرها من الكتب: من الواضح أنه يطبق الصرامة الأكاديمية اللازمة، إذ كان يعلم أن أفكاره ستكون عرضةً لهجوم طلابه السابقين مثل أيمن الظواهري وبن لادن، وبالفعل نشر الظواهري ردّاً شهيراً مؤلفاً من 200 صفحة يسخر فيها من فضل. وفي المستقبل القريب، سيغدو كتابه الجديد الذي انتقل بين أيدينا متاحاً على نطاق واسع بعد موافقة النظام عليه. انتشرت الشائعات في القاهرة – أصبح الكتاب متاحاً للشراء من وزارة الداخلية المصرية مقابل 150,000 جنيه مصري.

أخبرنا أزهر: «عادةً ما أحملها معي في حقيبتي. ليس لدي أي خيار آمن آخر» وهو يخرج نسخاً أخرى من حقيبته. قرأ لنا أزهر مقطعاً يعترف فيه فضل بأن لطالما كان مخطئاً، مستخدماً القرآن ذاته

الذي اقتبس منه لمباركة الجهاد الدموي، فقال: «لا شيء يجلب سخط الرب كسفك الدماء وإتلاف الأموال بغير حق». وفي كتابه، قال إن الإرهاب بجميع أشكاله لا يتوافق مع الشريعة.

ومما أثار غيظ الظواهري وأسامه هو استنكار فضل للقاعدة في كتابه وثيقة ترشيد العمل الجهادي. ففي إشارة مباشرة إلى أحداث 11 سبتمبر، قال إن «تفجير الفنادق والعمارات ووسائل النقل» هو أمر لا يجوز. وبالإضافة إلى ذلك، وضع شروطاً صارمةً للمناسبات «النادرة» التي يصبح فيها الجهاد مطلوباً. والأهم من ذلك أنه أشار إلى «الجهاد الأكبر» - الجهاد الذي لطالما عرفته وانتظرته طويلاً؛ صراع الروح. وبحسب ما ادعى فضل، لا يبارك الإسلام القتل باسم الله، حتى ولو كان الضحايا من غير المسلمين. تبرأ فضل حتى من العقيدة/التكفيرية - أن يشهر مسلم بآخر باعتباره مرتدًا. كان أسامة ذو أيديولوجية وهابية بالفطرة، ولذلك تعتبر وجهة النظر تلك سخيفةً لأنها تنظر إلى أكثر من مليار مسلم على أنهم كفار. من الناحية التاريخية، لطالما كان التكفير والعنف متلازمين، ولكن نظر فضل إلى خاطفي الطائرات في أحداث 11 سبتمبر من زاوية قرآنية، إذ قال إنهم «خانوا العدو» لأن التأشيرات التي منحهم إياها هذا «العدو» كانت بمثابة عقد أمان. أثارت القاعدة، التي بنت أسسها بالاستناد إلى كلماته، حفيظة فضل الذي قال: «أما أتباع بن لادن فدخلوا أميركا بعلمه وبأمره وغدروا بأهلها فقتلوا ودمروا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: [ينصب لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة بقدر غدرته]». أعرب فضل عن غضبه بشأن قرار حكومة بوش بقصف أفغانستان باعتباره عقوبةً تستحقها القاعدة، ولم يتوقف عند هذا الحد فقال: «فالناس يكرهون أميركا والحركات الإسلامية تشعر بالقهر والعج، وأصبح أقصر طريق للشهرة والزعامة عند العرب والمسلمين هو مناطق أميركا، لكن ما فائدة أن تهدم لعدوك عمارةً فيهدم لك دولةً، وما فائدة أن تقتل له رجلاً فيقتل لك ألف رجل؟».

سألت الصحفيين المجتمعين بعد الصدمة التي أصابتنا: «يبدو أن فضل شخص مهم. أليس كذلك؟».

فأجابني أحدهم: «نعم. إنه كذلك، هنا في العالم العربي. أتمنى أن تدرك أميركا الأمر، ولكنها لا تعيره أي اهتمام». بحلول عام 2007، كان العرب يقرأون ويتحدثون عن هذا الأمر الجلل. هل علمت

المخابرات الأمريكية أن فضل هو المؤسس الديني للقاعدة، ناهيك عن أنه مختبأ تحت ناظرهم في أشهر سجن في البلاد التي لطالما اعتبرت حليفاً عربياً على المدى الطويل؟

هل يدرك الأمريكيون أن هذا الشخص الذي كان أب الجهاد الحديث أصبح الآن داعيةً للسلام ومستعداً للتحدث؟ هل استمع البيت الأبيض في عهد بوش لما قاله؟ والأهم من ذلك، هل قرأ أي شخص في وكالة المخابرات المركزية كتابه *العمدة في إعداد العدة* من قبل – أو قضى وقتاً في محاولة قراءة ما بين سطوره أيضاً؟

إن كتاب *وثيقة ترشيد العمل الجهادي في مصر والعالم* بحاجة ماسة إلى ترجمة دقيقة. إنه يجيب على آلاف الأسئلة على لسان من ابتدع الجهاد العنيف. إنه قادر على مساعدتنا في فهم بعض الأمور عن داعش. لم يسمع أحد بهذا الرجل حتى نشرت مجلة نيويورك ركر مقالاً عنه بقلم لورانس رايت في 2 يونيو عام 2008.

ما لفت انتباهي هو أن بعض الدول البوليسية الخبيثة مثل مصر تصرفت وكأنها حراس لعالم الإرهاب المظلم، إذ سجنّت العديد من الرجال مثل فضل. وتاماً كما حصل مع فضل، بدأ البعض بتغيير أفكارهم 180 درجة.

أدركت أنني في حضرة مجموعة من محبي السهر. ففي الساعة الواحدة صباحاً، أصبحوا أكثر مرحاً وثرثرة. فتح إدوارد، وهو يعمل لدى صحيفة بريطانية مهمة، باب النقاش حول البرامج التلفزيونية الشعبية المصرية التي يطلب فيها الجمهور فتاوى. وأخبرنا أن الدكتور عزت عطية من جامعة الأزهر، في إحدى هذه البرامج، أصدر فتوى غريبة رداً على امرأة أرادت أن تعرف ما إذا كان بإمكانها الكشف عن شعرها أمام زملائها الذكور في العمل. ومن خلال استخدامه للمنطق الإسلامي المنحرف، أخبرها عطية أنها تستطيع الكشف عن شعرها إن أرضعت زملاءها خمس مرات! فبذلك يصبح هؤلاء الرجال أقارب لها، فتصبح العلاقة الجنسية بينهم محرمة. أثار الأمر جلبةً كبيرةً، إذ استنكر مفتي الأزهر هذه الفتوى ووصفها بأنها غير إسلامية، وأصدر وزير الأوقاف في عهد مبارك آنذاك، محمود زقزوق، مرسوماً مفاده أن الفتاوى المستقبلية ينبغي أن تتوافق مع «المنطق والطبيعة البشرية». سرعان

ما تراجع عطية عن رأيه قائلاً إنه أخطأ في تفسير أحد الأحاديث. كان هذا النوع من الأخبار هدفاً للمراسلين الأجانب في مصر خلال عهد مبارك، إذ تناقلوها إما بدافع المرح أو الاشمئزاز. فلم تكن الثورة، التي غالباً ما تصدرت نقاشاتهم المخمورة، جزءاً من أعمالهم الصحفية. بدا تضيق مبارك للخناق على المجتمع أمراً لن ينتهي، إذ نفذت مخابراته أعمالاً قذرةً مثل جعل الناس يختفون بين ليلة وضحاها.

عدت إلى جوهانسبرغ الموحشة والقاسية خائفاً. سمحت لي مدبرة المنزل التي تعمل لدى زاهر، والتي تدعى ثامبي، بالدخول إلى القصر ذي الموقع الجيد في حي ساندهيرست ذي الأغلبية البيضاء والغنية، والذي لم يكن زاهر ليتمكن من تحمل تكاليفه لولا زوجه الطبيب الثري. لم يكن في المنزل سوى حمام سباحة واثمبي، إذ لم يكن أمام النساء السود في أفريقيا ما بعد الفصل العنصري أي خيار سوى خدمة الأثرياء البيض أو حتى السود في بعض الأحيان. وفي رحلاتي اللاحقة، تفاجأت بأن جنوب أفريقيا هي واحدة من أكثر الأماكن إجحافاً وعنصريةً وقمعيةً على هذا الكوكب. فعلى الرغم من محاولة الحكومة إخفاء كل الأدلة بسرعة، لم يغيب الفصل العنصري عنها تماماً. كيف يمكن أن تعتبر هذه الأمة داعمةً للمساواة؟ فمن الواضح أن دستورها الذي طال الكلام عنه لا يمكن أن يحاكي عقوداً من الكراهية.

لم تكن ثامبي، التي استخدمت *الكانغا* (حمالة قطنية تفضلها النساء الأفريقيات) لحمل مولودها الجديد وهي تطهو وتنظف وتتسوق، سوى واحدة من الأعراض الواضحة. كانت حمالة من ماركة بيبى بيورن دون مستواها في هذا البلد الذي تسوده اللامساواة. لم نتكلم أنا واثمبي لغةً مشتركةً ولم أتمكن من القيادة، لذا لم نستطع الذهاب إلى أي مكان. قرأت كتب الفكر الإسلامي وعلوم الدين التي اشتريتها من القاهرة.

أعددت وثيقةً مطولةً لأخبر زاهر من خلالها أنه قادر على أن يكون في قلب مجتمع الميم المستمر في التطور في جميع أنحاء العالم الغربي، آملاً أن أمس نرجسيته. ركزت في حجتي على مبدأ الجهاد الأكبر، محاولاً تذكره بأنني سأطلق عليه اسم *الجهاد في سبيل الحب*. بعد أن عاد من مكة، قرأ زاهر ما كتبته وأعجب بالجدد الذي بذلته والبحث الذي قمت به والفكر الذي وظفته في اقتراحي. وافق زاهر على أن يكون جزءاً من الفيلم.

لم أكن أنا أو الإمام في ذلك الوقت نعلم أن هذا الفيلم سيحقق له شهرةً عالميةً، أو أنه سيساعده في العمل على مسيرته الرعوية المستقبلية بعد أن تتوافد عليه جميع أنواع المؤسسات. إنني نادم على طرح فكرة الاجتهاد (التفكير المستقل) في نهاية الفيلم، وهي الفكرة التي يعتبرها زاهر حلاً مناسباً لمشكلة المثلية الجنسية في الإسلام. كانت منطقاً زائفاً. ولكن الجمهور يفضل النهايات السعيدة، لذا قررت أن أقدم لهم ما يريدونه.

إنني متيقن من أن زاهر لم يكن يعلم أن كلاً من القاعدة، ودار آل سعود، وكل أنواع المنطق الوهابي والديوبندي، وربما حتى داعش، يحبون مبدأ الاجتهاد. وأنا لن أقبل أبداً أن أجلس معهم على طاولة واحدة.

تساءلت عما إذا كنت بحاجة إلى تصوير بعض المقابلات لفهم الفوضى التاريخية واللاهوتية التي خلقها الإسلام في علاقته المتأرجحة والغابرة مع المثلية الجنسية. خلال السنوات الأولى للإمبراطورية العباسية في القرن الثامن، وفي منطقة تضم بغداد الحالية، اشتهر الشاعر العربي أبو نواس وكان الشاعر المفضل لدى الخلفاء. كتب أبو نواس شعراً لا يمكن أن يتقبله مجتمع أخلاقي مثل أمريكا بسهولة. نشر باحث يدعى جاي. دبليو. رايت بعضاً من أشعاره المترجمة في كتاب تحت عنوان الشبق المثلي في الأدب العربي الكلاسيكي. وباللغة العربية المنمقة التي ساد استخدامها في عصره، كتب أبو نواس أبيات من شأنها أن تدهش حتى منظمي تظاهرة يوم الفخر المثلي (التي شاركت بها لأول مرة) في سان فرانسيسكو لعام 1998. وقيل أيضاً أن أبا نواس كتب أبيات شعرية قد تعتبر إباحية في أمريكا المتزمتة:

وَمِنْ الرَّاحِ فَاسْقِنِي

يَا سُلَيْمَانُ غَنَّنِي

فِي إِزَارٍ مُتَبَّنٍ

مَا تَرَى الصُّبْحَ قَدْ بَدَأَ

خُذْهَا وَأَعْطِنِي

فَإِنَّا دَارَتِ الزُّجَاغَةُ

عَاطِنِي كَأْسَ سَلَوَةٍ

عَنْ أَدَانَ الْمُؤَدِّنِ

اسْقِنِي الْخَمَرَ جَهْرَةً

وَالْطِنِي وَأَزْنِنِي

تمكنت أبيات أبي نواس الفاضحة منه في نهاية المطاف، إذ لاقى حتفه مسجوناً. خلال فترة خصوبته الشعرية، تجرأ أبو نواس على تحويل الآيتين 17 و22 من السورة 56 في القرآن إلى فنتازيا جنسية مثلية. جاء في الآية 17: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مُخَلَّدُونَ» وكان هؤلاء الولدان ذكوراً بكل تأكيد، في حين جاء في الآية 22: «وَحُورٌ عِينٌ». كتب أبو نواس شعراً جنسياً مثلياً قبل أن يولد هذا المفهوم حتى في العالم الناطق باللغة الإنجليزية. إن الشعر جوهر الإسلام. فما هو القرآن إن لم يكن قصيدةً روحيةً عميقةً مطولةً وبليغةً؟ لطالما لجأ عرب القبائل في عصر محمد إلى الشعر في الأوقات العصيبة، سواءً كان من أفواه الشعراء أو المنشدين المتجولين، ولم يكن هناك أي موضوع محرم بالنسبة لهم. وأما في يومنا هذا، فجميع المسلمين الطيبين، بما في ذلك أولئك الذين يفجرون أنفسهم للفوز بتذكرة مباشرة إلى الجنة للأسف، يرفضون أشعار أبي نواس ويعتبرونها ضرباً من الخيال. على الرغم من ذكر القرآن لسبعين من حور العين اللاتي يطفن «بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ» أكثر من مرة، غالباً ما يتناسى الناس ببساطة أنه سيكون بينهم عدداً كبيراً من الصبيان أيضاً. كان أبو نواس سابقاً لعصره بكل تأكيد، فتحريفه للآيتين 17 و22 من السورة 56 ينم عن عبقريته.

بدأت بتصوير زياد، الذي التقيت به لأول مرة في نادي لو ديبوت الجنسي في باريس. كان زياد ضحية اغتصاب وحشي ومتكرر خلال فترة سجنه، ولم يستخدم مغتصبوه الواقي الذكري. وبعد أن تمكن زياد من الهروب من السجن والفرار من مصر، حصل على حق اللجوء في فرنسا في الفترة التي قابلته فيها لأول مرة. ولكن لسوء الحظ، لم يقدم له النظام الفرنسي أكثر من ذلك. تعرض زياد لمعاملة تحقيرية، وعاش حياته مفلساً في شوارع باريس بينما حاول يائساً أن يتعلم لغة بلده الجديد. وفي ذلك الوقت، لم تكن عودته إلى مصر أمراً معقولاً – وكان جواز السفر الأوروبي حلاً بعيد المنال. وعلى الرغم من أنه كان يعاني حتماً من اضطراب الكرب التالي للصدمة، لم يكن هذا الاضطراب للأسف المرض الوحيد الذي أصابه به النظام في وطنه الأم. فبعد وصوله إلى فرنسا بفترة وجيزة، أثبتت الفحوصات



إصابته بفيروس نقص المناعة البشرية، الذي أصيب به بلا شك نتيجةً للاغتصاب الشرجي المتكرر الذي تعرض له على يد موظفي سجن طرة. خلال تصويرنا للفيلم، نسخنا كل كلمة قالها. كرر زياد القصة ذاتها حرفياً في تقرير ممتاز لهيومن رايتس ووتش حول هذا الموضوع، ولذلك كنت متأكداً من مصداقية ما قاله:

دخلت. أستغفر الله! رأيت شرطياً مخيفاً جالساً على كرسي. كنت ذا مركز مهم قبل اعتقالي، بنظر عائلتي وأبناء الحي الذي أقطنه. كان أهمهم يدعوني أستاذ زياد. وهذا الرجل تحدث إليّ وكأنني طفل. ومن ثم يدخل أسوأ رئيس بينهم، فخري صالح.

«اخلع ثيابك واركع على ركبتيك».

تحدث إليّ كما لو أنني كلب. اتخذت وضعية الركوع. ولكن لا بد من أنني اتخذت الوضعية الخاطئة لأنه قال لي: «لا لا. هذا لا يكفي. يجب أن يكون صدرك إلى الأسفل ومؤخرتك إلى الأعلى».

قلت له وأنا أبكي: «لا أستطيع».

فقال لي: «ما تفعله لن يغير شيء بالنسبة لي. أسرع، لدي أعمال أخرى أقوم بها». رفع ملابسي الداخلية لدرجة أنها كادت تصل إلى أنفي. ثم قال لي: «أحمر، أيها العاهر، أيها الشرموطة! أحمر؟ ألا تعرف؟ الرجال الحقيقيون يرتدون الأبيض أو حتى الأسود أحياناً، أيها الشاذ اللعين». وقال بعدها: «أخرس، فكل شيء واضح أمامنا».

في البداية، نظر إليّ وتحسّسني. ثم فجأةً، دخل ستة أطباء. ما المهم في فتحة شرجي؟ تحسّسوني جميعهم، كل واحد في دوره، يبعدون بين فلقتي مؤخرتي. أحضروا ريشةً وبدأوا بدغدغة فتحة شرجي. وبعد ذلك أدخلوا أصابعهم فيها، ومن ثم بدأوا بإدخال شيء أكبر. توسلتهم طالباً الرحمة، إذ كنت أتألم كثيراً. كنت أشعر بمؤخرتي وهي تنزف، بينما أمر فخري

الرجال بأن يرتدوا قفازات لكيلا يلمسوا الدم. بكيت ولكن لم يشعر هؤلاء الرجال بأي عاطفة اتجاهي على الإطلاق.

قال لي فخري بعد ذلك: «لماذا لم تبكي حين وضع الرجال قضبانهم في مؤخرتك؟». وددت لو كان بإمكانني أن أبصق عليهم، ولكنني كنت أبكي باستمرار.

صدر جهاد في سبيل الحب في أواخر عام 2007 وحقق نجاحًا كبيرًا: مراجعات جيدة وحرية السفر إلى جميع أنحاء العالم. أتاحت لي فرصة السفر إلى اثنتين وعشرين دولة. حاولت تناسي تهديدات القتل ورسائل البريد الإلكتروني والمضايقات والفتاوى التي تنادي بقتلي. سيزيد الأمر سوءًا في المستقبل.

ولكن، لم تتركني لعنتي الروحية وشأني.

علمتني سنوات دراستي أنه ما من أحد يدرك حقًا أن ثورةً جنسيةً ذات أبعاد هائلة اندلعت بين أوساط المسلمين الأوائل، قبل 1,300 عام تقريبًا من أن «يخطر» هذا الأمر على بال الغرب. كانت فكرة التعددية الجنسية هذه ابتكارًا شرقيًا لا يمكن تخيله أو تصويره في العالم المسيحي الذي يخشاه ويهابه. حملت الثورة الإسلامية الجنسية، التي تعود إلى أربعة عشر قرنًا على الأقل، في طياتها مساواةً في الحقوق الجندرية. عقب الاستعمار، استمر الإسلام السياسي بالتصاعد، فضاعت هذه الصراحة الجنسية التقليدية في التقاذف البلاغي الذي نادت به مكبرات الصوت على سطوح المساجد في العديد من المدن من الرياض إلى مراكش وإسلام أباد. وبحسب الروايات، وعلى عكس ما يؤمن به بعض الكاثوليكين في عصرنا، لم يكن الجنس الخطيئة (الأولى) في الإسلام. وبذلك، امتلك المتطرفون المسلمون سببًا آخر للتباهي. إن «رهاب المثلية» الإسلامي، الذي يحتاج الغرب إلى فهمه، هو بناء استعماري آخر تركه بناء الإمبراطورية خلفهم بعد مغادرتهم على عجل عقب الحرب العالمية الثانية. ففي الهند، على سبيل المثال، ازدهر الحكم الإسلامي المتسامح جنسيًا لمدة 400 عام، إذ احتفى الإسلام بالرغبة الجنسية بطرق عدة. ولم يكن هذا الاحتفاء ناشئًا، ويبدو هذا جليًا حين نلقي نظرةً على النصوص الهندوسية التي تعبر عن

كثير من الثقافات الهندية التي قدمت لنا كاماسوترا وخاجوراهو. ولكن جاء المستعمرون البريطانيون ولم يخرجوا قبل 200 عام، مدمرين بدخولهم قرونًا من الحرية الجنسية. وحين هموا بالرحيل أخذين معهم قيمهم المترتبة والفيكتورية التي تعتبر الجنس قذراً، تركوا خلفهم قانوناً جزائياً يعاقب المثلية الجنسية حتى يومنا هذا. وعلى مدار عدة قرون، تحدث الغرب المتزمت، بالاستناد إلى الباحثين الفيكتوريين والإدوارديين المشرقيين عند الكتابة عن الإمبراطورية العثمانية الإسلامية والشعوب الشرقية الأخرى، عن «فسوق» الخلفاء وفجورهم، غاضبين من استخدامهم للفتيان الصغار الوسيمين لإشباع رغباتهم الجنسية. كان الأسلاف الغربيون للمتطرفين البيض واليمينيين، الذين تحدثوا مراراً وتكراراً عن مفاهيم التفوق العنصري، يعتقدون أن كل من ليس قوقازياً ينبغي أن يستعمر أو يدمر.

تخيلت أن معظم العائدين من البلاط الفخم للإمبراطوريات الإسلامية هم مبعوثون أو سفراء عادوا إلى وطنهم محملين بشوق لما تركوه خلفهم. ولكن تحدث هؤلاء العائدون علناً عن المذات الجنسية التي لا تتوافق مع المسيحية والتي انتشرت بين «الشعوب الأقل شأنًا».

خلال جلسات الأسئلة والأجوبة حول فيلمي *جهاد في سبيل الحب* تحدثت عن أخطاء التاريخ. غادر المستعمرون، ولكن بقيت العقوبات الجزائية التي نفرت الناس من الجنس. شهدت المجتمعات الإسلامية إحيائية دينية لم تشهد مثلها من قبل، فولدت حكومات دينية مثل إيران. انتقل النقاش حول الجنس والجنسانية من البلاط والنزوات الشعرية وغيره من الفنون إلى منابر الأئمة الرهيبة. وبذلك، بدأت الدولة، وفي بعض الأحيان الدولة الدينية، بتطبيق المراقبة الأخلاقية. عملت الحكومات الدينية التي علت أصواتها، بالإضافة إلى الأئمة العاديين، على محو قرون من الحرية الجنسية. وذاك الإسلام، الذي تسامح مع المثلية الجنسية بل واحتفى بها صراحةً، أصبح يستخدم مبرراً لأعمال العنف الحكومية ضد الرجال المثليين عام 2011 في مصر – الحليف «المتنور» لأمريكا في الشرق الأوسط.

خلال رحلتي المتعلقة بالفيلم، في شهر ديسمبر عام 2007، تلقيت رسالة نصية من صديق لي في لاهور، يخبرني باغتيال رئيسة الوزراء الباكستانية السابقة بينظير بوتو. عرضت سي. إن. إن. تسجيلاً تظهر فيه في تجمعها الأخير في حديقة لياقت علي بمدينة روالبندي، إذ عرفت من ميكروفونها الذي يحمل اسم العلامة التجارية شهيد، والتي تعني «الشهيد» أيضاً في اللغة الأردية. كان موت بوتو

المسار الأخير في نعيش باكستان السياسي. لم يسبق للعالم أن رأى امرأة مسلمة مثلها. بحسب ما جاء في التقرير الصادر عن الأمم المتحدة، «كان اغتيال السيدة بوتو أمراً يمكن تفاديه في حال اتخاذ التدابير الأمنية الكافية». كانت باكستان أرض الشائعات، إذ قال البعض إن الرئيس في تلك الفترة، برويز مشرف، تعمد أن يتجاهل طلباتها المتكررة بشأن اتخاذ تدابير أمنية إضافية. ولكن نظراً لأن ابن مشرف وزوجة ابنه من أوائل الداعمين لأعمالي، اخترت أن أصدق الشائعة التي تحمل القاعدة مسؤولية الأمر.

كانت بينظير أيقونةً بالنسبة لأمي، وبالتالي بالنسبة لي أيضاً. إن شهرتها وقربها الجغرافي فضلاً عن التأثير الجذاب لامرأة مسلمة جميلة وقوية على عقل ذكر يحاول فهم تكوينه المثلي – كانت جميع هذه العوامل ذات أثر كبير بالنسبة لي. كنت في الخامسة عشر من عمري حين علقت بينظير، التي يعني اسمها «التي لا نظير لها»، في مخيلتي. كانت أمي قد اشترت للتو السيرة الذاتية دختر شرق، أو ابنة الشرق، وأصرت على أن أقرأها بدوري. وسرعان ما انجرفت في عالم من المكائد وعنف النظم الإقطاعية التي أذرت بهلاك والدها، الذي أعدم شنقاً في عهد الديكتاتور المستبد ضياء الحق.

أخبرتني والدتي مراراً عن رغبتها في زيارة باكستان، الأرض التي تخلت عن تاريخ الأجداد وسادت فيها أعمال العنف الطائشة. كل ما حدث في باكستان كان مهماً بالنسبة للهنود، والعكس صحيح أيضاً. بعد سنوات عديدة، حين كنت طالبة في واشنطن العاصمة، تصافحنا أنا والسيدة بوتو (بطريقة غير إسلامية) بعد أن أنهت خطابها في جامعتي. أخبرتها عن أمي الهندية التي تراها أيقونةً.

فأجابتنني بلهجتها الإنجليزية الأوكسفوردية الممتازة: «هذا أمر رائع للغاية».

كانت حياتها شهادةً على القوة الكامنة لدى جميع النساء المسلمات. تولت بينظير حكم باكستان الإسلامية مرتين. وبالنسبة لي، اعتبرت وفاتها خسارة للإسلام. أثبت الدين، على نحو مفاجئ، أن النساء قدرات على قيادة الأمم، وكانت بينظير أول من فعل ذلك. كان هذا الأمر بمثابة بداية فترة من النجاح واليأس معاً بالنسبة لي.

نجونا جميعاً من عهد بوش ووصلنا إلى عام 2008. كان فيلمي *جهاد في سبيل الحب*، الذي حقق نجاحاً عالمياً، يساعدني في كسب بعض من الشهرة.

أرسل لي صديقي أدهم في رسالة نصية حكيمة: «استمتع بها، فلن تدوم». ذات صباح في أواخر شهر أكتوبر، قلبت صفحات القرآن المتهالكة لأثبت وجهة نظري أمام كيث، الذي كان بعيداً كل البعد عن الدين.

قلت له: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، السورة 2، الآية 256. أترى! إنها موجودة! الإسلام لا يجبر أحداً على أن يكون مسلماً أو مؤمناً حتى، فقد بنى محمد أول ديمقراطية دينية وإسلامية في المنطقة».

أجابني بضحكة ساخرة من إصراري على أن يعرف هذه المعلومة. لم أرد سوى أن نكون قادرين على إبطال هذه الشائعة (المتفشية بالفعل) إذا سألنا أحد ما عن هذا الأمر. شارك المرشح الديمقراطي للرئاسة عام 2008 باراك أوباما اسمه الأوسط، حسين، مع الطاغية العراقي صدام ومع الأئمة الشيعة الأكثر شهرة أيضاً. ولذلك، وجه خصمه، جون ماكين، العديد من الأسئلة حول إيمان أوباما، على الرغم من إصرار الأخير على أنه مسيحي.

كنت أعلم أن هذا سيحدث. من خلال النظام الأبوي الإسلامي، يمكن لأي شيخ أن يحتاج بأن الأبناء يرثون دين الأب. ولكن أوباما الأب كان ملحدًا. التقى به باراك مرة واحدة، إذ نشأ على يد أجداده البيض في كانساس بين البروتستانت. إن اتبعنا القواعد الوهابية الصارمة، يمكننا اعتبار الأب والابن مرتدين بسبب تركهما للدين. وفي المملكة العربية السعودية، تعاقب الردة بالإعدام.

في الرابع من شهر نوفمبر عام 2008، في الوقت الذي شعر فيه سكان نيويورك بالغبطة إزاء التغير التاريخي في شوارعها، بدا وكأن الانقسام العرقي قد اختفى دون رجعة. وفي هارلم، كان الشارع رقم 125 يعج بالآلاف الناس، بمن فيهم كيث وأصدقائنا، الذين يحدقون بشاشات التلفزيون العملاقة في بعض الأماكن العامة أو الحانات أو المطاعم. كان الأمر كما لو أن الجميع متحدون وينتظرون فوز أوباما. وأما أنا، فبقيت في المنزل راکعاً أمام التلفزيون. صليت على الطريقة الإسلامية الحقيقية مراراً

وتكراراً من أجل أن يحظى أوباما برضا الله. وفي اللحظة التي أعلنت فيها شبكة إن. بي. سي النتيجة، سمعت مفرقات ناريةً وصرخات الابتهاج التي تدوي في الشوارع. حقق باراك حسين أوباما أكبر فوز رئاسي أمريكي في التاريخ، إذ صوت لصالحه 69.5 مليون شخص.

اعتبر بعض الإنجليين فوزه عودةً للمسيح الدجال. وأما بالنسبة للبعض الآخرين، فاعتبروه يسوع الأسود. ولكن في غضون سنوات قليلة، سيصبح في نظرهم نبياً زائفاً. لطالما اعتقدت أن آخر المعارك البشرية ستخاض على الخطوط الأمامية للعرق والدين. في الوقت الذي حاول فيه كل جمهوري منع أي قرار يتخذه أوباما، أدركت مرةً أخرى مدى عمق التصدعات التحيزية والظلم العنصري في هذا البلد. كان صعود حركتي بيرثرز وحفل الشاي كل ما يحتاج المرء لكي يدرك أن أوباما، الخطيب والتكتيكي والرئيس اللامع والمؤثر، كان عالماً في دوامة من البارانونيا العرقية التي اتخذت من هذه الكيانات الجديدة جبهات لها. لم يكن قد مر على فترة الفصل العنصري سوى بضعة عقود، ورغم ذلك لم يستطع العديد من اليمينيين في أمريكا تحمل وجود عائلة سوداء في البيت الأبيض الذي شارك العبيد في بنائه. بالنسبة للبعض، لم يكن وجود أوباما أمراً مهماً على الإطلاق. ولكن بالنسبة للبعض الآخر، كان أوباما «الزنجي المغرور» وكان على حركة كلوكلوكس كلان أن تعود. وبذلك، ولدت حركتا حفل الشاي وبيرثرز العنصريتين، اللتين اعتبرتتا دونالد ترامب بطلاً.

كان هارلم، الحي الأسود الأشهر في أمريكا، بمثابة وطن بالنسبة لي. ولكن بدأ هارلم بالتغير، إذ بدا وكأن الأزواج الشباب البيض يتوافدون في حشود مع أطفالهم الصغار إلى الجزء الأعلى من المدينة. وجدت أنا وكيث ملصقاً على المبنى الذي نقطنه، إذ كان يحمل علامة «X» المشؤومة بالإضافة إلى عبارة: «أخرجوا البيض من هارلم». لا بد من أنه ليس الملصق الوحيد، ولكننا أزلناه بشق الأنفس وثم رميناه في القمامة.

في الزاوية التي أقطنها من هذا الحي، الذي أسميه مازحاً أحياناً شمال مانهاتن، كنت محاطاً بالسيدات السود اللاتي يرتدن الكنيسة. كانت أياماً مليئةً بالطيش. بالنسبة لي شخصياً، ظننت أن مدينة باراك وميشيل الفاضلة ستترك أثراً لا يزول.

لم يكن من الممكن حينها أن نعرف أن أوباما سيعرف على المدى الطويل بالرئيس الأسود الذي لم يستطع شفاء القلب الأمريكي الأسود الذي كسر منذ زمن بعيد. كيف يمكن لرجل واحد أن يصحح كل هذه الأخطاء التاريخية الجسيمة؟ أكان فوزه كافياً؟ لم يكن بمقدورنا حينها أن نتنبأ بعجزه بعد أن يرفض الجمهوريون ذوو الأغلبية البيضاء التوقيع على أي شيء يحمل اسم أوباما. نجحوا في جعل اسمه مسموماً، وكان عرقه السبب في كل مرة رفض الجمهوريين ما يقترحه. كان صعود أوباما متناسباً طردياً مع تصاعد العنصرية. بدأ اليمينيون بإعادة تنظيم أنفسهم بشكل لم يسبق له مثيل، واختاروا اسماً جديداً جذاباً، حركة حفل الشاي، وكانت فعاليتهم تعج بالأغلبية البيضاء كما كان متوقعاً. وبصفته أول رئيس أسود لهذه الأمة، كان هذا عبء هائل لوحده. نعم، سيتذكره التاريخ، ولكن هل سيتذكره بسبب عرقه وحسب؟ وكيف انعكس هذا الأمر على قدرته على الإنجاز؟

بعد أسبوعين من انتخاب أوباما، جاء عيد الأضحى الذي أهابه. انهال الرصاص على بوليوود التي أحب. حاصر الإرهابيون بومباي، المدينة التي يقطنها 20 مليون شخص، لمدة ثلاث ليال. قتل مائة وأربعة وستين شخصاً. أدخلت موجة القتل الممنهجة هذه الرعب في قلوب الجميع، وأصبحت فيما بعد مخططاً من مخططات الهجمات المستقبلية في بروكسل وباريس.

جاء الإرهابيون من باكستان، وكانت لشكر طيبة (التي تعني «جيش الصفاء» لسخرية القدر)، الجماعة المسؤولة عما حدث، تشارك بعضاً من الأيديولوجية الوهابية مع داعش المستقبلية. شعرت بفجوة بين هويتي الهندية وهويتي المسلمة. أحسست بالسقم حين فكرت أن هؤلاء الرجال قد وقتوا هجومهم ليتزامن مع العيد، الذي يصادف في نهاية موسم الحج. اشتهرت بوليوود بثلاثة نجوم – كلهم مسلمون. سارع كل من شاروخان وأمير خان وسلمان خان إلى التنديد بهذه المذبحة، إذ كانوا حساسين للغاية فيما يخص هويتهم المسلمة العلنية. ولذلك، ارتدوا أربطة سوداء على معاصمهم ولم يحتفلوا بالعيد. في الهند ذات الأغلبية الهندوسية، لم يكن هؤلاء «الخانات» الثلاث محصورين بالدين، إذ لم تعز المقاطع الصوتية التي تحدثوا فيها، كما هو الحال بالنسبة لمئات المسلمين على شاشات التلفزيون، إلى الإسلام بل إلى «مجتمع الأقلية». لطالما كانت هذه العبارة بمثابة طريقة حاذقة ولكن موثوقة لمنع الاضطرابات في الهند ما بعد التقسيم.

زعزع حمام الدم هذا في بومباي كياني برمته. كانت الهند، التي يسكنها أكثر من 140 مليون مسلم، تحتل المرتبة الثالثة على قائمة الدول ذات النسبة المسلمة الأعلى من حيث عدد السكان. كان هذا أقرب ما يكون لأحداث 11 سبتمبر الهندية.

دخلت نيويورك موسم الأعياد باحتفالات لا تنتهي. وفي إحداها، استمعت إلى الكلمات المربعة التي تخرج من فم إحدى الهنديات البارزات وهي تحتسي مشروب دايموند دايكيري، إذ قالت إن الانفجارات في بومباي ستزيد من عوائد شباك التذاكر للفيلم الجديد المفضل لدى الجميع، سلامدوغ مليونير (المليونير المتشر). كانت واحدة من العديد من الهنود والباكستانيين «القلقين بشدة» في تلك الغرفة هذه الليلة، إذ تعهدت إلى جانبهم بتنظيم المسيرات وجمع الإعانات.

يا له من أمر سهل، أن ألقى عظمات وأنا على بعد آلاف من الأميال.

إن بينظير وبومباي، اللتين حطمتا قلبي، أعطيانني الفرصة لكي أتصالح مع جوانب ذاتي التي لطالما كبحتها من أجل أن أبني هويتي العامة. كنت أصلاً أحد أكثر المسلمين المثليين جنسياً شهرةً في العالم، فالأمم المتحدة استدرجتني لأشارك في إلقاء الخطابات، وكذلك الأمر بالنسبة للاتحاد الأوروبي. تمكنت من لقاء ميشيل أوباما. يا لها من مزايا هائلة.

دعنتني جماعة صهيونية في الأمم المتحدة بصفتي دليل حي على مدى سوء الإسلام. كم كنت ساذجاً. جرت هذه الفعالية في جينيف داخل موقع الأمم المتحدة. بعد ساعات من هبوط طيارتي، اكتشفت جدول الأعمال الحقيقي. وبينما شاركت في هذه الحلقة النقاشية التي أرادت من خلالها الجماعة أن تبرزني بصفتي واحداً من المسلمين المضطهدين المشاركين، بدأت في الحديث عن سبب معارضة مضيقي لأي رأي أو من به حول فلسطين وإسرائيل. طرحت حججاً قويةً ضد الاحتلال، فطلب مني بأدب أن أغادر. كان الأمر بمثابة دورة مكثفة حول مدى تأثير كلماتي وضرورة أن أستخدمها على نحو مسؤول.



ولكن سبقتني سمعتي السيئة بين أوساط المسلمين المحافظين. كنت رجلاً لافتاً للنظر – عرفت علناً بالكافر بسبب حجتى الكافرة التي تقول إنه يمكن للإسلام والمثلية الجنسية أن يتعايشا معاً. بعد عرض الفيلم، اتهمتنى بعض الأصوات الدينية بارتكاب إثم الردة. وفي إحدى الفتاوى، جاء دليل قرآني شامل مقتبس من قسم «الحكم على المرتدين» في المناهج المستخدمة في المدارس السعودية:

يستتاب المرتد في السجن لثلاثة أيام. وإن لم يفعل، يقتل لأنه ارتد عن دينه الصحيح، فلا فائدة من حياته.

ورداً على هذه الفتوى وعليّ أنا وعلى فيلمي، نشر أحد المعلقين على موقع سعودي: «لو كان بإمكانى أن أقتله بيدي لفعلت. ولكنني متيقن من أن الله سيتدبر أمره».

كنت أبلي بلاءً حسناً ضمن دائرة المتحدثين، ولكنني سئمت أيضاً من عبارة «المسلم المثلي» التي لطالما سبقت اسمي.

إن عزلتي الداخلية عن المسرح النشاطي، واغتيال بوتو، والهجمات على بومباي وغيرها من الأمور، جميعها جعلتني أشعر بأنني بعيد عن إرثي المسلم. أدركت أنه ينبغي عليّ أن أفعل شيئاً ما حيال ذلك. شعرت أنني من الأقليات على كثير من الأصعدة. كنت مثلياً في أوساط المسلمين الرافضين. وكنت مسلماً بين الأمريكيين الكارهين للأجانب. وكنت مسلماً وسط المثليين الذين لن يتمكنوا أبداً من فهم قوة الإيمان التي تشتعل في داخلي، على الرغم من وصفي بالكافر على لسان كثير من الشيوخ، وهي المعصية الكبرى في الإسلام.

قررت أن الوقت سيحين قريباً لتنفيذ قراري الذي اتخذته في بيروت عام 2010: أن أؤدي فريضة الحج.

كان المسلمون المشاركون في فيلمي يتوقون إلى الحج ويخشونه. شعرت كما لو أنني أدين لنفسي ولهم بالذهاب. لا شك في أن ملايين المثليين أدوا فريضة الحج على مر القرون، ولكن ما من أحد

منهم أنتج فيمًا عنها باستخدام هاتف آيفون بصورة رئيسية ودون الحصول على إذن حكومي من نظام يتمنى أن يسجنني أو يقطع رأسي. إذا تمكنت من تحقيق ذلك، ستكون سابقة لا مثيل لها. ثمة مئات الآلاف من مقاطع الفيديو التي تصور الحج على الإنترنت ولكن إنتاج فيلم أثناء التواجد بين 3.5 مليون شخص بمفردي هو أحد أخطر الأشياء التي فعلتها على الإطلاق. كانت أجندة فيلمي جلية: سأكشف عن حقيقة ما كان يعتبر حتى ذلك الوقت «سريًا» إلى حد ما - الحج. سأقول الحقيقة دون رقيب أو وسيط أو طاقم سعودي. وإذا نجحت في مهمتي، يجب أن يكون الفيلم لا يشبه أي فيلم شاهدته العالم من قبل. سيكون نتاج جهدي الجهد خلال رحلتي في الحج. سيكون عن المملكة العربية السعودية التي لا يريد آل سعود أن تروها.

ليس هناك سوى عدد قليل جدًا من الروايات المرئية، التي يزعم أنها أفلام، حول الحج. أما أنا، مثل العديد من الصحفيين الآخرين، أسميهم بشكل أدق «أفلام الرحل المجانية». إنها ليست سوى استعراض سعودي. إنني أعلم كيف تجري هذه الأمور. أولاً، تأكدوا من أن طاقمكم لا يضم سوى المسلمين. وثم حصلوا على الأوراق التي «تأذن» لكم بالتصوير بعد إبراز هوياتكم والتظاهر بأنكم صحفيون حقيقيون وتقديم خطابات متزلفة للتصريح عن نواياكم: ترسل جميع هذه الأمور إلى وزارة الحج (المكروهة عالميًا). وأما النتيجة النهائية - «فيلم» حول الحج تمامًا كما يريد السعوديون للعالم أن يرى: أعظم عرض على وجه الأرض، وهم (النظام الملكي السعودي) من ينجحون في تقديمه كل عام. في واحد من هذه الأفلام، عرضت مقابلات مع أشخاص من أقسام مختلفة من الأجهزة البيروقراطية السعودية، بما في ذلك وزارة الحج المحورية. وكما تجري العادة، يصور «صناع الأفلام» هؤلاء هذه الفيديوهات برفقة رقيب.

كنت متأكدًا من أن السعوديين وضعوا اسمي على قائمة ما للممنوعين من السفر. لم أتمكن من الدخول إلا لأنهم مشغولون بملايين التأشيرات في فترة الحج. لن يخطر على بال أحد أن الرجل الذي أنتج أول فيلم في العالم عن الإسلام والمثلية الجنسية، والذي أثار ضجة كبيرة (يمكن الوصول لها من خلال بحث على غوغل)، سيتجه إلى المملكة العربية السعودية التي كان قطع الرؤوس فيها طقسًا أسبوعيًا لمعاقبة بعض الجرائم مثل المثلية الجنسية (بالإضافة إلى استيفاء بعض الشروط الشرعية).

وها أنا ذا، قررت أن أفعل ذلك بالضبط. بالنظر إلى هويتي الإسلامية، كنت على وشك البدء بأعظم رحلة في حياتي. وأما من وجهة نظر هويتي الأخرى باعتباري صانع أفلام، لن أترك فرصة تصويره تضيع من بين يدي.

كان هناك أمر آخر أكثر إلحاحاً وخصوصيةً على المحك. على مدار أعوام طويلة، شعرت وكأنني آثم لأنني اعتقدت أنني «قتلت» والدتي بعد أن ألحق به عاراً بسبب ميولي الجنسية. سأقوم بهذا الحج على شرفها. فهل لربما تستطيع (وأنا أستطيع) أن تغفر لي بعد هذه الرحلة إلى مكة؟ ستكون أيضاً بمثابة وسيلة لإسكات المسلمين الذين ينتقدونني ويصفونني بالكافر. كان *جهاد في سبيل الحب* بمثابة إعلان عن فخري بكوني مثلي أمام العالم، وهذا الحج سيكون بمثابة إعلاني عن فخري الأكبر بكوني مسلماً. لطالما عرفت بأنني مثير للمشاكل، لذا كان توقيت رحلتي إلى الحج مثاليًا، بعد أشهر قليلة من بدء الربيع العربي ووفاة بن لادن. كنت أجد على نفسي المتاعب بكل تحد وإرادة، مرةً أخرى. لطالما كان هذا الهوس بالوقوع في المخاطر الحقيقية الصرفة جزءاً من تكويني. كان السعوديون محقين في خوفهم من أن يصاب شعبهم بعدوى الثورات. وأنا كنت أنوي أن أكون هناك في حال حدوث ذلك. ففي نهاية المطاف، يوحد الحج ملايين الناس.

ولكن في البداية، كان ينبغي أن أتعامل مع بعض الأمور.

أخبرتني محاميتي أنه سيكون من الأفضل أن أتزوج من كيث. إن احتمالية أن «يكشف أمري» في المملكة العربية السعودية قائمة، وأما العواقب فلا يمكن حتى تصورها. كنا نعلم أن السفارة الهندية لن تفعل أي شيء لحمايتي. لذا أخبرتني محاميتي أن زواجي بالإضافة إلى تأشيرة «الأجانب ذوو القدرات الخاصة» قد يساعداني في جذب انتباه القنصلية الأمريكية في جدة في حال ساءت الأمور. وبطريقة أو بأخرى، كنت أمتثل لنصيحة الإسلام بالزواج قبل الحج. «سأفي بكل الالتزامات الدنيوية».

تمكنت أنا وكيث من عقد قراننا في قاعة مدينة مانهاتن في اليوم التاريخي الأول الذي أصبح فيه زواجنا قانونياً. لم أكن أنا أو كيث نبالي بهذا الزواج. اقترب منا مراسل صحفي يعرفني، وبعد أن وافق على عدم الكشف عن هوياتنا أخبرته أنا وكيث: «نحن نقوم بذلك من أجل الضرائب وحسب!». نشر هذا الاقتباس فعلاً. شعرت بالذعر، وبدأت الرغبة في العودة إلى الخفاء تتسلل إلى داخلي. كانت

تأشيرة دخولي إلى السعودية قيد التنفيذ، لذا وجب عليّ أن أحرص على ألا ينشر عني أي صورة أو خبر يشير إلى كوني مسلم مثلي. فجميع المعاصي التي ارتكبتها كانت على بعد بحث بسيط على غوغل.

في يوم زفافي، حملت قرآنًا قديمًا بداخله صورة جواز سفر أُمي. ما حدث في هذا اليوم يتناقض تمامًا مع اللهو الذي يحدث عادةً في احتفالات فخر المثليين. فالأخير لم يتضمن سوى الحديث عن القضبان الكبيرة والمؤخرات المستديرة والعضلات ورعاية الشركات. أما هذا اليوم فكان مليئًا بالالتزام والحكمة والحب والتاريخ.

بكل فخر، عرضت على كيث صورة أُمي المخبئة داخل القرآن.

فقال لي: «لم تكن لتوافق، كما تعلم، ولا حتى هذا الكتاب».

أجبتة باقتضاب: «إنه ليس مجرد كتاب».

فوضع ذراعه حول كتفي وقال: «أعلم. ولكنني لن أفهم أبدًا حاجتك إليه».

تبادلنا القبل لأول مرة في مكان عام. على الرغم من ارتباطنا الذي دام ثماني سنوات، كان هذا أول تعبير علني عن مشاعرنا. شعرت بالأمان، وأحسست بالحب.

وفي تلك اللحظة عرفت أين سيكون موطني الأبدي؛ أينما كان كيث موجودًا.

ولكن التحضير لأداء فريضة الحج أثار الرعب في داخلي.

كانت منصة القطار الأول في محطة الشارع 125 أحد الأماكن الأقرب إلى قلبي في مانهاتن. إنها مرتفعة عن الأرض، لذلك في الشتاء حين يتساقط الثلج بنعومة، تنتابني أحياناً رغبة في النزول فيها دون أي سبب على الإطلاق. يخلق الثلج تأثيراً يجعلني أشعر كما لو أن الشقق حولي تطفو في الهواء وتكاد تلمس المنصة. وأنا أنظر إلى النوافذ، أرى الطلاب الشباب اللطيفين في جامعة كولومبيا غير مدركين أنني أستطيع رؤيتهم وهم يحدقون في أجهزة الكمبيوتر المحمولة خاصتهم.

ولكن هذا ما يحدث في الشتاء وحسب. في صباح يوم حار جداً في شهر أغسطس عام 2011، كنت متجهاً إلى وسط المدينة لأسلم نفسي للإسلام بكل طاعة وبأقصى الطرق الممكنة. خطت بحرص لكي يتزامن الموعد مع العيد.

مدينة نيويورك هي مكة الحرية الأسطورية. دوى صوت قطاراتها تحت الأرض في أعظم مثال عن التنوع في العالم. وأما طرقها فكانت مثلاً عن الجغرافيا التي لطالما تحولت بسهولة إلى حقائق ودول مختلفة على أرض الواقع. وفي مترو الأنفاق، تماماً كما هي أمة محمد، كان الجميع سواسية.

على متن قطار وسط المدينة رقم 1، كان المشهد النيويوركي حياً على الدوام. ففي بعض الأحيان، نجد الآباء المثاليين يقلون أطفالهم من وإلى المدرسة، يؤدون الأدوار الملزمين بها، فهم ناس عاديون وأطفالهم هم موروثةم الوحيد. فكرت بشيء من الغطرسة: هل سيتركون بصمتهم في التاريخ، أم أنهم سيكونون مثلي؟

وبينما كنت أستمع إلى القرآن من خلال سماعاتي، اختلست بضع نظرات إلى الأولاد البيض متحسراً، إذ كانوا قد صعدوا لتوهم كاشفين عن لون بشرتهم النضير والسامي تحت وطأة آخر أيام الصيف. هل كانوا غير مدركين حقاً لجمالهم النضير؟

في نهاية كل يوم، كنت أجلس وأضفي طابعاً إسلامياً على الآيفون الجديد خاصتي، الذي جلبته معي باعتباره أمني الأساسي وأكثر سبل التصوير سهولة. ولكن مع الأسف، استبدلت بصورة شاشة التوقف التي كانت تجمعني مع كيث (على الرغم من أنني احتفظت بالعديد من الصور في تطبيق الصور الخاص بي) صورةً للعلم السعودي الأخضر (لون الإسلام) – ذلك الذي يحوي على السيف والشهادة. لم قد تختار هذه الأمة وضع أداة تمثل العنف المطلق على رمزها القومي الأساسي؟ يقال إنه كان بمثابة دليل مرئي على مدى صرامة الدولة في تطبيق الشريعة الوهابية. لأسباب تتعلق بالسلامة، بدأت أملأ قائمة الأغاني على الآيفون الخاص بي بتلاوات لسور قرآنية مختلفة عوضاً عن موسيقى الهيب هوب التي تستخدم كلمات نابية.

وبينما كنت أبادل ممتلكاتي الدنيوية لتصبح حلاً، أدركت من جديد أن مشرط الحلاقة الذي يستخدمه الإسلام لتهديب الجنسية أغفل عن شعرة لي حين كنت طفلاً. تمكنت من التنصل من حد

هذه الشفرة بسبب بعض «المشاكل الطبية» التي ماتزال غير مفهومة. أرهبتني الأبحاث التي قمت بها. انهال عليّ غوغل بكثير من المعلومات الغريبة والموثوقة. زعم أحد المواقع أن النبي قد قال: «اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»، وفي أكثر من حديث سني مغمور قيل إنه لا ينبغي على المرء أن يصلي على مسلم ميت ما لم يكن مختوناً.

باعتباري سنياً، لم يكن قراري بأن أذهب إلى الحج برفقة الشيعة أمراً مألوفاً. من وجهة نظر الوهابيين، الشيعة أسوأ حتى من أولاد الحرام المسلمين - كفار، مثلي تماماً، ولكن لأسباب مختلفة. الشعور متبادل. ولكن حتى هم، الكافرون مثلي، يتفقدون مع مضطهديهم السنة على أمر وحيد: الذكر المسلم غير المختون هالك. ولذلك، سمعت أكثر رأي ديني بث الرعب في داخلي على لسان آية الله العظمى علي السيستاني، الذي يمثل السلطة الشيعية العليا في العراق. خلال العام الذي سبق رحلتي إلى الحج، أعلن أن جميع المثليين في العراق الذي تحتله الولايات المتحدة سيواجهون عقوبة الإعدام، وبسبب ذلك انتشرت أعمال العنف التي استمرت لسنوات عديدة. ولسوء الحظ، تجرأت وحققت وكتبت على الملأ عن مطالبة آية الله بقتل الرجال المثليين.

أما بخصوص موضوع الختان، صرح آية الله قائلاً: «إذا طاف /المحرم غير مختون بالغاً كان أو صبيّاً مميّزاً فلا يجتزئ بطوافه فإن لم يعده مختوناً فهو كتارك /الطواف مطلقاً على الأحوط». إن الطواف هو الدوران الإجباري عكس اتجاه عقارب الساعة حول الكعبة، ويتكرر عدة مرات خلال الحج. بالنسبة للشيعة الذين سيرافقونني في رحلة الحج، عادةً ما يعتبر كلام السيستاني كلاماً مقدساً. وللسيستاني فتوى شهيرة أخرى حول تجسيد محمد:

«إذا روعي فيه مستلزمات التعظيم والتبجيل، ولم يشتمل على ما يسيء إلى صورهم المقدسة في النفوس، فلا مانع». ما من سني يجرؤ على قول هذا.

قد يكون القضيب غير المختون أمراً خطيراً في البلدة الهندية الصغيرة التي نشأت فيها. نادراً ما لاحت معالم التعصب في أوساط المجتمعات الهندوسية والمسلمة التي لطالما تعايشت مع بعضها البعض لأجيال من الزمن. ولكن في إحدى المرات، بدأت أعمال الشغب بالتصاعد. وفي خضم هذه الفوضى، حاصرنا أنفسنا، وبدأ الكبار يهمسون بين بعضهم حول الرعاع من كلتا الديانتين الذين اختاروا من سيقتلون من الطرفين. كان جدي يقيم معنا خلال فترة من فترات الاشتباكات التي استهلها رعاع من الهندوس بعد أن ألقوا جثة خنزير في أحد المساجد، فرد المسلمون بذبح بقرة على باب أحد المعابد. عاصر جدي مسلسل الموت الذي دام طيلة فترة تقسيم الهند وباكستان، فروى لعائتي كيف جردوا اثنين من أعز أصدقائه من ثيابهم وعرفوا أنهما مسلمان من قضيبيهما، فقطعهما إرباً إرباً وقتلوهما. أما أنا فاخترتُ لكي أستمع لهذه القصة المصنفة للكبار فقط.

حين ارتفع صوت صرير القطار قبل أن يتوقف في محطة الشارع 86، حدث أمر ذكرني بأسلوب وقح بالغرض من رحلتي. سعدت امرأة منقبة إلى القطار مع طفلتها الصغيرة التي كانت ترتدي ملابس بهيجة. إنه العيد في نهاية المطاف. نهضت على الفور لأعرض عليهما مقعدي، ولكن لم يتسن لي أن أعرف ما إذا كانت تبتسم لي ممتنة؛ فلم أستطع أن أرى وجهها. ولكن الآثم دائماً ما يسرح بخياله بعيداً. وبينما استمعت إلى الإمام يتلو القرآن منغمماً بواسطة سماعاتي، حدقت بشهوانية في فتى جذاب وعصري آخر.

أخبرني طبيب المسالك البولية، الدكتور شتاين، أنني «رجل شجاع». وفي تلك اللحظة المؤلمة، حين بدأ بالإجراء الجراحي، شعرت بالأمان فأخبرته بما لم أخبره لأحد باستثناء كيث. خلال الحج، سأرتدي الإحرام، وهو عبارة عن قطعتين من القماش الأبيض دون ملابس داخلية تحته. في كثير من كوابيسي، رأيت الإحرام يسقط عن جسدي في مكة، فيرى الحجاج الغافلين قضيب غير إسلامي.

ضحك الدكتور شتاين وقال: «ينبغي أن يكون مفعول الفاليوم والبيركوسيت اللذين أعطيتهما لك قد بدأ». ثم سألني وهو يشكني بإبرة في ما يبدو أنه قضيب: «هل يشعرك هذا بالألم؟». صرخت من شدة الألم، ولكن سرعان ما دخلت في ما يشبه حلم اليقظة.

في اللغة العربية، كلمة إسلام تعني «التسليم». وبالنسبة لاتباع الإسلام المطيعين، الإسلام دين الانضباط الحثيث. يشعر جهاديو أسامة بن لادن أنهم متفوقون على جميع المسلمين الآخرين، إذ يؤمنون أنهم وحدهم من يعرفون كيفية العيش في ظل أشد قيود ديننا. كان أحد أعمامي غير المقربين يرفض أن يبلغ لعبه خلال شهر رمضان، واعتاد أن يحاضرنا حين كنا أطفالاً: «نحن متفوقون على جميع الناس».

كان عمي هذا القريب الوحيد في عائلتي الذي بقي غير متزوج بحسب معرفتي، والآن أتساءل عما إذا كان استمساكه بالعقائدي ببعض أقسى القيود الإسلامي مجرد وسيلة لإخفاء عار حياته الجنسية، التي أعتقد أنه لم يرضخ لها أبداً. تخضع المبادئ الأخلاقية المتعلقة بالجنس لرقابة صارمة في الإسلام، كما هو الحال في جميع الأنظمة الأبوية التي تعتبر جسد المرأة هدفاً أساسياً. بالإضافة إلى ذلك، تخضع القضبان والملابس الذكرية عملياً (المتواضعة - دون أكمام مشمرة) للرقابة أيضاً. كنت حاجاً خائفاً في طريقه إلى الأرض المقدسة. إن كانت ميولي الجنسية معصيتي الأساسية، فمن المؤكد أن قضيبتي، الذي فشلت في ضبطه، هو أكثر الأدلة عليها وضوحاً. وربما كانت هذه فرصتي للتراجع عن بعض المعاصي التي ارتكبتها قضيبتي، أن أغيره بشكل لا رجعة فيه.

أخبرني الدكتور شتاين: «لديك الآن قضيب جديد يا بارفيز. إنه يبدو مثالياً. ولكنك غير مضطر لرؤيته فوراً».

حملت ضجيج حياتي في القرن الحادي والعشرين معي إلى المملكة العربية السعودية التي كانت ماتزال تعيش في القرن السابع. رافقتني سيرتي، بالإضافة إلى قضيبتي الجديد أيضاً. كل ما تبقى على هاتفي (الإسلامي) هو صورة مخفية لكيت.

أخبرني الدكتور شتاين: «سيستغرق الأمر ثمانية أسابيع قبل أن يبدو شكله طبيعياً».

أما أصدقائي فأخبروني بأن ختاني أثبت لهم أنني «مجنون»، وأنهم لن يتخذوا قراراً حاسماً ومصيرياً كهذا بتاتاً. ولكن لم يكن أمامي خيار آخر.



والآن بعد أن أصبح قضيتي حلاً، حان الوقت لأنهي الاستعدادات القليلة الأخيرة قبل رحلتي إلى مكة. أصبحت المشروبات الكحولية أمراً محلاً، ولم يتبق خيار أمامي سوى أن أمضي ليلي الأرق التي أعيشها محاولاً البحث في غوغل عن كل الفضاءات السعودية المحتملة. وكان لا بد أيضاً من دورة مكثفة حول الشريعة الشيعية الضخمة. توفي أحد الأنبياء الذين أوّمن بهم، ستيف جوبز، قبل أيام قليلة من رحلتي، ولكنه ترك لي هدية أخيرةً سترافقني في رحلتي - آيفون فور إس، الذي سأتمكن من خلاله من توثيق رحلتي آملاً أن أستطيع استخدام ما صورته لإنتاج فيلم وثائقي جديد. بدأت الأمور بين إيران والسعودية بالتصاعد بسبب مؤامرة إيرانية مزعومة لاغتيال سفير المملكة العربية السعودية في الولايات المتحدة عادل الجبير. وقبل مغادرتي بيوم واحد، اغتيل معمر القذافي. لعلها إشارات تحاول إخباري بأن أبقى.

حاولت أن أذكر نفسي بالغرض من رحلتي الروحية. هدأت مخاوفي بعد أن قرأت تأملات الباحث الإيراني الشهير علي شريعتي حول الحج. حمل الكتاب الأصلي المكتوب باللغة الفارسية عنواناً بسيطاً /الحج وترجم إلى لغات عديدة. كان علي شريعتي بمثابة الأب الأيديولوجي للثورة الإيرانية، ويعتبر واحداً من أهم المفكرين التقدميين في التاريخ الإسلامي الحديث. يخبرنا علي شريعتي في كتابه:

اخلع ثيابك الآن عند الميقات، وارقد الكفن المؤلف من قماش أبيض خالص. أصبحت ثيابك مثل ثياب أي فرد، وبدا الجميع في الزي الموحد، تحولت إلى جزء ينضم إلى الكتلة العريضة، وإلى قطرة تدخل في المحيط.

اكتسب علي شريعتي شهرةً أكبر لأنه كان أحد أوائل الباحثين الإيرانيين الذين نظروا إلى الدين الشيعي من خلال عدسة ثورية، وهذا ما جعله بمثابة «أب» لمفهوم الإسلام السياسي الشيعي. عدسة ثورية لرؤية دين بأكمله؟ بقي هذا الأمر عالقاً في ذهني، فأنا أيضاً كنت ثورياً، وكان هذا الحج جهادي.

منذ سنوات، عرفتني إحدى صديقاتي، التي غادرت فرنسا للحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة أوكسفورد في المملكة المتحدة، على أعمال علي شريعتي. لطالما أعجبت بها. بدأت أتذكر شاهيناز حين كنت أعيد قراءة أعماله. أرسلت لها رسالة بريد إلكتروني لأسألها عن إمكانية ما، فأسعدتني إجابتها.

## الفصل الرابع

### جنة البقيع

هنا نينجا

هناك نينجا

وفي كل مكان نينجا!

دندنت أنشودتي المختلقة في رأسي، وأنا محاط بهم. النينجا. ليس النوع المقاتل منهم، بل النسخة السعودية. فبعض النساء في رحلي لم يعدن من النساء! إنه لباس الحج الخاص بهن – فالعباءات السوداء قد غطت كل شبر من أجسادهن. أعي أن النساء في المملكة العربية السعودية يُؤمرن بتغطية أجسادهن، لكن لماذا؟ لماذا، في هذه الشمس الحارقة، يُرغمن على ارتداء ملابس سوداء بالكامل؟ هل هؤلاء النساء الأجنيات مازوخيات أم أن الخوف من العقاب على التراب السعودي أجبرهن على المعاناة بهذه الطريقة؟ بدا الرجال مرتاحين نسبياً بملابسهم المدنية، إذ ليسوا بحاجة إلى تغييرها، على الأقل حتى يدخلوا منطقة الميقات (وهي مواضع عديدة خارج مكة يجب ارتداء لباس الإحرام فيها) في مكة. بالإضافة إلى ذلك، كنا نحلق بالطائرة إلى المدينة أولاً. القرآن ذاته دعا فقط إلى الاحتشام في اللباس لكل من الرجال والنساء. ولم ترد في الكتاب إشارات إلى هذه العباءات السوداء (أو الزرقاء عند طالبان) التي تشبه الخيام، ومسألة اللباس هذه خاضعة لنقاش حديث محتدم. أولئك الذين فرضوا فضيلة الحجاب استشهدوا بأجزاء مختلفة من القرآن، مثل الآية 59 من الأحزاب، السورة 33:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

كانت هناك غرف للصلاة مجهزة بستائر بجوار دورات المياه مباشرة. قرر عديدون في مجموعتي الصلاة. وفق أي منطقة زمنية؟ أي صلاة؟ أما أنا فبقيت في مكاني، إذ اعتقدت أنه من السخف الصلاة على متن طائرة، لكن شاشة تلفازي ذكرتني، بواسطة سهم مكة، بأي شطر أوجه دعواتي إذا غلبتني حاجة إلى التباهي بتقواي.

وزع قائد مجموعتي الشيعية شفيق منشورات وكتب أدعية. فالشيعية سيدخلون أرضاً مهدامة. لقد دمر الوهابيون مساحات شاسعة من تاريخ الشيعة وثقافتهم، أبرزها أضرحة أسلافهم. وقد زدونا بخرائط تحدد أسماء هذه الأضرحة ومواقعها. كان هذا لافتاً. فهو من إنجازات رسم الخرائط السري والمتقن.

قبل أسبوع من ختاني، أرسلت بريداً إلكترونياً إلى صديقتي شاهيناز في لندن وطلبت منها الانضمام إلي. وقد وافقت لأنها من النوع المغامر. شاهيناز صديقة قديمة صورتها أيضاً في أول فيلم وثائقي لي. فهي، مثلي، مثلية. كانت «تتقي الله» كوالديها الصوماليين في باريس، لكن تضحيقات الإسلام لم تكن لها. هاجروا إلى فرنسا عندما كانت في الخامسة من عمرها. إنها ابنة عمي الشيعية الأفريقية الفرنسية! وكنت أقدمها دائماً على أنها «ابنة عمي» اللندنية. قُدر لنا لاحقاً أن نصبح زوجاً وزوجة على الطريقة السعودية.

تلك كانت «كارما» أن ابن عمها في برمنغهام قادم للحج في نفس العام مع بعثة المملكة المتحدة التابعة لنفس مجموعتي المتجهة للحج – وسنغدو جميعاً مجموعة واحدة كبيرة عند الوصول. ما احتمال ذلك! شعرنا كلانا أن ذلك كان مقدراً له أن يحدث. لا سيما أنه أصبح محرماً لها أو وصياً ذكرًا عليها نظراً إلى كونه ابن عمها – وهي ممارسة ما تزال تتبعها العديد من مجموعات الحج للسماح للمرأة بأداء فريضة الحج. وفي بعض الممارسات الشيعية والسنية الحديثة، لا يعد هذا ضرورياً، إذ يصبح قائد المجموعة محرماً للنساء اللاتي «لا مرافق معهن». لقد دفعت تكاليف حج شاهيناز – وكان ذلك منصفاً. فهي تعلم أنني أخطط للتصوير وتأليف كتاب أيضاً.

اجتمعتُ بشاهيناز في مطار الدوحة الدولي حيث انضمت إلينا البعثة البريطانية. لم نتمكن من الجلوس معاً في رحلة الربط، لكننا غالباً ما كنا نطمئن على بعضنا.

كان مطار المدينة قذراً قديماً الطراز، ولا يضم سوى عدد قليل من دواب الأمتعة المصدرة للصيرير – وهو ليس بالعرض المتفاخر للترف السعودي الذي توقعته. اصطف الرجال والنساء بشكل منفصل لاستلام أمتعتهم.

بالنسبة لي وكثيرين من أفراد مجموعتي، بدأ الحج عند هبوط الطائرة. ومع أن مناسك الحج كاملة تستغرق خمسة أيام فقط، فقد بدأت رحلتي الروحية هنا.

اعتراني خوف سافر وأنا أسير باتجاه مكتب الهجرة السعودي. تساءلت هل أنا مسلم بما يكفي ليسمحوا لي بالدخول. فقد كنت على أبواب الأمة التي أخافها أشد خوف وأمقتها أشد مقت: أرض الوهابية. تعد الوهابية الشكل العنيف والمتشدد لإسلام القرن الثامن عشر الذي يمارسه السعوديون. ففي عام 1744، أبرم شيخ مناضل من الصحراء كان قد تعرض للسخرية يدعى محمد بن عبد الوهاب اتفاقاً مع

زعيم عشائري مناضل أيضًا يُدعى محمد بن سعود. سيُسمح لمحمد بن عبد الوهاب بجعل نسخته من الإسلام شريعة للأرض التي كان ابن سعود يحاول إنشائها. وسيقبل هو وأتباعه في المقابل بالعقيدة الوهابية كشريعة سعودية. ستكون الأرض والدولة التي ستُنشأ نظامًا ملكيًا يضم دار آل سعود. إنهم ينفذون عقوبة الإعدام على أشخاص مثلي. إما بقطع الرأس وإما بالرمي من فوق بناء شاهق.

لقد جلبني الإيمان الكبير إلى هنا. فقد كنت ألي ندائي الأسى كمسلم للشروع في أداء فريضة الحج. كانت هذه رحلتي الروحية. ودعوتُ ليُسمح لي بإكمال مناسكها.

قال حرس الحدود الأضلع ممعنا النظر في جواز سفري الهندي: «مسلم؟».

أجبت بثقة لم أشعر بها: «نعم». فكتب في حاسوب يُرثى له. هل بحث عني في غوغل وعرف مسبقًا من أكون؟

ختم جواز سفري بأصابعه الوضيعة قائلًا: «هلاً حجي». اعتقدت أنها سابقة لأوانها. فالتحية مخصصة لأولئك الذين أتموا نداء الإسلام الأسى.

أجبت: «إن شاء الله». فابتسم. انطوى ردي على بعض التحفظ - فأنا لم أشعر بعد بأني حاج حقيقي.

خشيت هذه اللحظة لأشهر، خوفًا من أن تمنعني حالتي كرجل مثلي مفصح عن ميوله المثلية من دخول الأرض المقدسة. ونسجت في خيالي سيناريوهات كثيرة لهذه اللحظة، فبدا الحدث الفعلي مخيبًا للآمال. إذ لم ألقَ في السجن ولم أُنمَ من الدخول.

بدلاً من ذلك، شعرت بترحيب الحارس الدافئ كما لو أنه ختم كلمة «مسلم» على جبتي.

قرأت رسالة نصية من أدهم: «صباح الخير، يا سيدي! أهلاً بك في أرض المكرهين».

رددت ممازحًا: «إن شاء الله، سأقابل الله!».

«إن شاء الله، على كل شيء! إنه العذر الأمثل للمسلمين على الإطلاق!».

أجبت: «ضع كل شيء بين يدي الله ههههه!».

في ذلك الوقت، شكرت الراحل ستيف جوبز على خدمة أي مسج في هاتفي آيفون 4 إس. فقد حصلت على رسائل نصية مجانية غير محدودة على أكبر شبكة في المملكة، هي موبايلي. وأنشأت مجموعة لرسائل الوسائط المتعددة مع كيث وأدهم وشاهيناز للرسائل النصية العامة.

كتب كيث في رسالة نصية: «سيكون كل شيء على ما يرام. أحبك». لقد تعامل مع هول مخاوفي السابقة لهذا الحج. فحبه سيمنحني القوة في الأسابيع القادمة.

سأل أدهم: «ألم يأخذوا جوازات سفركم بعد؟».

بعد بضع دقائق، أخذوا جوازاتنا ونحن في الحافلة.

في الصباح التالي، استغرقت في النوم وفاتي الفجر، وهي الصلاة الأولى في اليوم. يا له من خطأ فادح. كنت قد عرضت نفسي مسبقًا لتعالى شركائي في السكن لعدم اكتراثي بالطقوس. شكل هؤلاء الرجال المصدرون للأحكام في غرفتي زمرة كالتى في باحة المدرسة عند الإفطار. إذ أقصوني بدهاء من صداقتهم الحميمة. كنت أتظاهر بالنوم، فأسمع أحيانًا محادثاتهم. كان أحدهم، وهو مصاب بالهجاس يُدعى عبد الله، يحمل كيسًا مليئًا بالأدوية وأقلام الإيبنفرين. قال ذات صباح إنه إذا استشهد في مكة، فإنه يعتبر نفسه وعائلته بأكملها مباركين. وفي وقت سابق نظر إلي باستنكار عندما صليت على الطريقة السنية. لذلك أبقيت عيني مغمضتين. همس للآخرين بصوت مسموع أنه يعمل في الجيش الأمريكي في ولاية فرجينيا حيث يعيش مع زوجته وابنه حديث الولادة. إنه يشغل طائرات دون طيار فوق وطنه باكستان.

سأل أحد الشركاء في السكن: «وما أدراك أنك لا تقتل إخوانك الشيعة؟».

«لا أعرف على وجه اليقين، لكني آمل دائمًا أن يكونوا من الجهاديين السنة الأشرار وليس أحدًا من أبناء جلدتي».

مشيت أنا وشاهيناز باتجاه قلب المدينة، حيث كان المسجد النبوي على الجانب الآخر من الطريق. في ضوء النهار، بدا أخرويًا. من المستحيل ألا يفكر شخص من جيلي بتاتوين، وهو الكوكب الصحراوي الذي يكتشف فيه الشاب لوك سكاي ووكر مصيره. إنها الرمال والحرارة اللتان تستحضران تاتوين إلى الذهن، بالإضافة أيضًا إلى العمارة والناس.

ضربنا مطوع قائلًا: «متزوجان؟».

صرخ كلانا: «نعم، بالتأكيد!».

قال مزمجراً: «الإثبات؟».

قدمنا عرضًا رائعًا في البحث عن أغراضنا ثم قلنا إننا قد تركناها في الفندق. «ما عليك سوى أن تصدقنا، يا أخي. لِمَ قد نكذب في المدينة؟». من المحتمل أنه كان أميًا، فقد تركنا شأننا، وشرعت شاهيناز في البحث عن أماكن تجمعات النساء.

إن ربع البشرية مسلمون، وقد اجتمعوا هنا من كل أرجاء العالم خلال موسم الحج. فمكة والمدينة هما الأمم المتحدة للإسلام، إذ تعرضان تنوع الدين الأسرع نموًا في العالم. أما باقي المملكة العربية السعودية فهي أحادية الثقافة بعبايات على طراز «النينجا» للنساء والـدشدشة أو الثوب، وهو رداء طويل فضفاض عادة ما يكون أبيض اللون، للرجال. هنا، اجتمع قوس قزح من الألوان والأنماط. فقد رأيت رجالاً صينيين يرتدون سترات زرقاء مخضرة وقبعات بيضاء، ونساء كينيات بأوشحة وردية زاهية، وصوماليات يرتدين قمماشًا بزخارف كبيرة مبهرة. كانت كل مجموعة مرمزة بالألوان حتى يتمكن أفرادها من العثور على بعضهم بسهولة بين الحشود. في مكان كوسموبوليتي كهذا، ليس سهلاً دائماً على السعوديين فرض قواعد لباس صارمة. فالامتداد الشاسع للحج يبشر بحرية غريبة لا يمكن أن تنبثق إلا من كثرة العدد والتخفي تحت مرأى الجميع. تظهر من حين لآخر امرأة متشحة بعباءة سوداء تطوف في الأرجاء، لكن هذه حقاً ألوان الإسلام المتحدة. شرعت في التقاط الصور خلسة، بهدف توثيق أنماط اللباس هذه على تمبلرمتخيل سأسميه «أزياء الحج»، لكنني تذكرت لاحقاً أنه من الممكن أن أُنَج في السجن لالتقاط صور للنساء هنا. ومن سخرية القدر أنه في بلد مهووس بتويتر، كنت خائفاً من إرسال تغريدات من حجي، لأن ذلك سيكون طريقة مؤكدة لجذب انتباه النوع الخاطئ من السعوديين – في حالتي، هي وزارتهم الداخلية ومخابراتهم. وكان أكبر مصدر قلق لي: أنني لست مواطناً أمريكياً بل مواطناً هندیًا. وكل من السعوديين والهنود سيرغبون في رحيل شخص مثلي. عند استذكار الماضي، يبدو كأنه خوف تافه ضئيل، لكن واقعه آنذاك بدا مهولاً. احتمال ذلك؟ مناصفة.

تفتحت المظلات الضخمة القابلة للسحب فوق رؤوسنا من الأعمدة الرخامية المتواضعة لتقينا برحمة من شمس منتصف الصباح. وكنا نُرش دورياً برذاذ من الماء البارد، تمامًا كتجربتي في بالم سبرينغز! كل هذا عبر أميال من الرخام البكر. لم تكن المغالاة في الخليج جديدة علي، لكن هذا كان مشهداً متفرداً.

هل يعلم إخواني الحجاج أن هذا المناخ الأصغري المريح قد جاء بثمن باهظ؟ ففي المدينتين المقدستين، تواطأت عائلة بن لادن مع آل سعود في أكبر مشروع إعادة إعمار في تاريخ الإسلام. وسُوي على الأرض عدد لا يحصى من القطع الأثرية ومواقع الدفن والأشياء التي أحياها النبي والهياكل التاريخية لإفساح المجال أمام التكنولوجيا الفائقة والبهرجة المبتذلة والرخام. من الصعب تخيل مأساة للمحو الثقافي أوسع من هذه في التاريخ الحديث. فآل سعود سلّموا مشروع إعادة إعمار مكة والمدينة، كما هو متوقع، لواحدة من أغنى شركات البناء في العالم، وهي مجموعة بن لادن. يُدعى أحد أبناء الأسرة الكثر أسامة الذي عمل لفترة وجيزة في مكتب مكة للإشراف على أعمال الهدم، ثم تحسر لاحقاً على كل ما هدمه آل سعود، ولم يذكر عائلته التي نفدت في الواقع أعمال الهدم.

هذا هو المسجد النبوي. إذ دُفن النبي هنا، وجسدت المدينة بالنسبة لي، بصفتي تلميذًا في الإسلام، مهد الديمقراطية الإسلامية. فمحمد قد أرسى أسس أول دستور للدين بعد أن نفتته قبيلته من مكة. وكان في مركزه مبدأ التوحيد، أي وحدانية الله. كانت هذه المدينة /لمنورة، بشكل أساسي لأن محمدًا بنى أول مجتمع إسلامي يسوده السلام والتسامح داخل حدودها. ففي يثرب في القرن السابع الميلادي، كما كانت تسمى المدينة آنذاك، تمتعت المرأة بحقوق حقيقية. وكان اليهود متعايشين بانسجام مع المسلمين. إن أوائل المسلمين، وهم الذين أوصينا دائمًا بالافتداء بهم، جاؤوا من المدينة التي أطلقوا عليها اسم مدينة السكون («السلام»). ألا وهو سلام الروح.

داخل المسجد، امتدت أمامي متاهة من القناطر المخططة. وتردد صدى الأذان الشجي المطول لصلاة الظهر في الأروقة. هذا هو الشكل الوحيد المسموح به للموسيقى في البلد بأكمله. وكل شيء سواه ممنوع. بلد بلا موسيقى؟ قد يكون هذا غير ممكن تصوره بالنسبة لكثيرين. أما الشباب السعودي، فيمكن أن تكون الموسيقى سرًّا دفينًا يُضبط على صوت منخفض دائمًا.

لقد أتيت للحج وأنا على أكمل استعداد. فقد كان التاريخ بين المملكة العربية السعودية وإيران والصدامات السنية الشيعية عبر القرون جزءًا من بحثي طوال فترة مراهقتي.

كانت ليلة الدعاء الشيعي، دعاء كميل الطويل، وهو دعاء لرجل كان بالنسبة لهم أتقى أتباع صهر النبي الإمام علي. وعليّ في نظر جميع الشيعة الخليفة الشرعي للنبي لأنه كان متزوجًا ابنة النبي الصغرى فاطمة التي أنجبت الإمامين التاليين، الحسن والحسين، إذ تستمر الخلافة عند الشيعة من أهل البيت (آل محمد). وبالنسبة للسنة، كان خليفة النبي صحابيًا (رقيقًا مقربًا) يُدعى أبا بكر. وقد فرّق هذا الخلاف على الخلافة بين الشيعة والسنة إلى الأبد.

يتحدث خادم علي المؤمن كميل في هذا الدعاء الشيعي عنه. يدعو المؤمنون بهذا الدعاء لتحقيق الرغبات «المشروعة» وكفاية شر الأعداء ومغفرة الذنوب وفتح باب الرزق وغير ذلك. سار معي صديقي الجديد في المجموعة حسين نحو هذا المشهد المهيّب بثقة لم أشعر بها. لقد كان إيرانيًا، وكما يحدث غالبًا، بُنيت صداقتنا على لفافة تبغ.

في طقوس هذا الدعاء عنصر سياسي. إذ يتجمع الإيرانيون بأعداد كبيرة بشكل مخطط له لقراءة الدعاء الطويل بالقرب من المسجد النبوي في المدينة. إنه دعاء يُقرأ كل ليلة جمعة. في تلك الليلة، احتشد نحو 2,000 إيراني حسب تقديري. ومن المفارقات أن عددًا أكبر بكثير من رجال شرطة مكافحة الشغب السعودية قد طوقوهم. فاحتجاج الشيعة سيكون حكم غوغاء لا يطاق. وغالبًا ما استغل الحجاج الإيرانيون



ما بعد الثورة للاحتجاج على العديد من الأمور، من ضمنها دار آل سعود. لهذا يُمنع الإيرانيون في أحيان كثيرة من أداء فريضة الحج، إما من طرف حكومتهم وإما من طرف آل سعود الذين يخشونهم.

لقد تجسد أعمق انشقاق في الإسلام في مَنْ سيخلف النبي في حكمته الذي ما كان ليعترف بالإسلام الطائفي في يومنا هذا. وأبرز رموز هذا الانقسام هما المملكة العربية السعودية السنية وإيران الشيعية. ولطالما كان الشرق الأوسط الكبير ملعهم. لقد ترك المستعمرون الفارون في منتصف القرن العشرين البلاد نزيهة ومثخنة بالجراح في أعقابهم. وحتى يومنا هذا، تتنافس كل من إيران والمملكة العربية السعودية على الهيمنة في دول مثل العراق والأردن ولبنان وفي الآونة الأخيرة سوريا واليمن. قرنت إيران الثورية في عام 1979 بين السلطة السياسية والدين، ما أدى إلى بث الرعب في نفوس آل سعود. ففي اليوتوبيا التي أنشئوها من زواج بين الوهابيين وآل سعود، يظل رجال الدين مستقلين ما دام النظام الملكي في السلطة. حتى أن زعماء رجال الدين هؤلاء أصدروا فتاوى بشأن القيادة لتمكين النظام الملكي من الاستمرار في ممارسة السلطة السياسية. لكن الثورة الإيرانية قلبت منطقتنا كهذا رأسًا على عقب لأنها، وهذا هو الأهم، أطاحت بالملكية – شاه الأسرة البهلوية التي حكمت إيران منذ عام 1925. وإذا كان هذا ممكن حدوثه في دولة ذات نظام ملكي منذ 2,500 عام، فماذا سيحل بآل سعود إذا هبت رياح الثورة ذاتها على الجانب السعودي؟

في ستينيات القرن العشرين، أرسل الشاه الإيراني سلسلة من الرسائل المفتوحة إلى الملك السعودي فيصل. واشتهر بأنه قال في إحداها: «أرجوك يا أخي، واكب الحداثة. انفتح ببلادك على الآخرين. واجعل المدارس مختلطة بين الذكور والإناث. دع النساء يرتدين التنانير القصيرة. واسمح بفتح المراقص الليلية. كن حداثيًا. وإلا، فإنني لا أضمن لك البقاء على عرشك». حُظرت التنانير القصيرة إلى الأبد من عقول الإيرانيين بعد عقد واحد فقط. على أي حال، كان السعوديون شديدي التقلب بسبب التاريخ. في شتاء 1979، بينما كان الثوار الإيرانيون يحتجزون السفارة الأمريكية كرهينة، اجتاح الثوار المسجد الحرام في مكة. كانوا بقيادة جهيمان العتيبي الذي أعلن ظهور المهدي (مخلص الإسلام؛ في هذه الحالة هو صهره).

أريقَت الدماء في هذه المدينة التي حرم النبي فيها حتى قتل حشرة. استمرت الفوضى أسبوعين حتى أنهت القوات الفرنسية الكافرة الحصار. وقد أثار هذا الاستيلاء على الكعبة وسط ابتهاج إيران الثورية رعبًا أبدئيًا في آل سعود.

تحدث آية الله الخميني المعين حديثًا على راديو طهران في 21 نوفمبر 1979: «بمجرد التخمين ندرك أن هذا من صنع الإمبريالية الأمريكية الإجرامية والصهيونية العالمية». كان يعلم أنه قد بدأ خطابًا هجائيًا سيدوم عقودًا ضد «الشیطان الشرير» الذي جسد غالبًا الولايات المتحدة والصهيونية. في إيران، تعاضم الخطاب المعادي للغرب. وفي الوقت نفسه، عززت المملكة العربية السعودية علاقاتها مع الولايات المتحدة.

لم يكن آية الله يعرب عن الكراهية التي يكنها ثواره في السفارة الأمريكية في طهران فحسب، بل كان أيضًا خلال تلك الفترة من الفتاوى اليومية الكثيرة يدعي أن نظامًا ملكيًا كهيكل الحكومة في المملكة العربية السعودية غير إسلامي. كان صعود الخميني لولاية /الفقيه ممثلًا لتسليم الملك السعودي خالد السلطة لمفتي الوهابيين الأكبر.

في علم آخر الزمان الإسلامي، يشير ظهور المهدي إلى اقتراب قيام الساعة. ويؤمن كل من الشيعة والسنة بنهاية الزمان مع وصول هذا المهدي. لكن بالنسبة لمعظم السنة، لم يظهر المهدي بعد ويوجد كمفهوم لاهوتي ونظري فقط. أما الشيعة «الاثنا عشرية»، فيعتقدون أن المهدي (في الأساس إمامهم الثاني عشر والأخير) ما زال موجودًا حتى الآن ويمكن أن يظهر في أي وقت (مع المسيح) - فقد دخل في حالة من الغيبة منذ 1,200 عام. يسميه كل من الشيعة والسنة محمد المهدي على اسم النبي. وما يثير الاهتمام أن بعض الشيعة يعتقدون بوجود علائم على ظهور المهدي، من ضمنها الحرب العظمى في سوريا وتدميرها، وخوف شعب العراق وقتله. أود معرفة شعور إرهابيي داعش المستلهمين من الوهابيين عندما يعلمون أن الشيعة المحتقرين يشاركونهم الاعتقاد حول هذه الحقيقة الحاسمة التي نعيشها في الواقع.

إن إيران والمملكة العربية السعودية من أبرز الأمثلة على الشريعة الإسلامية في العالم، ومع ذلك إنهما مختلفتان جدًا. لم يتخل المتعصبون الإيرانيون أبدًا عن فكرة ثورتهم اليوتوبية الإسلامية الشاملة التي يمجتها السعوديون. وكان القتال على كل من النفط والأيديولوجية. ففي الحرب العراقية الإيرانية، دعم السعوديون صدام بمبلغ 25 مليار دولار. وكان حبه الموقت لصدام خداعًا. لقد أبقي بطريقة ملائمة الأغلبية الشيعية في البلاد تحت السيطرة، مع المحافظة على فجوة جغرافية وثقافية كبيرة بينهم وإيران. في عام 1984، كانت الدول على شفا حفرة من الحرب، إذ حلقت الطائرات الإيرانية فوق الأراضي السعودية. والخميني، الذي لم يته عن فمه الكلام أبدًا، أعلن قائلًا: «هؤلاء الوهابيون الأندال الكفار كالخناجر التي لطالما طعنت قلوب المسلمين غدراً». باستخدام فكرة /التكفير (الحرمان الإسلامي، إذ يتهم مسلم آخر بأنه كافر، أي غير مؤمن) المألوفة والمثبتة فعاليتها عبر الوقت، ادعى أن مكة كانت في أيدي «فرقة من المبتدعين». لقد نال جميع ملوك السعودية عظيم الفخر واكتسبوا معظم شرعيتهم بإلحاق أسمائهم بلقب «خادم الحرمين الشريفين». كان آية الله يهاجم ذلك المبدأ الأساسي.

منذ عام 1981، ينظم الإيرانيون احتجاجات الحج السنوية ضد الولايات المتحدة وإسرائيل في مكة. وقد تسامح السعوديون مع ذلك. لكن القوات في عام 1987 اتجهت لمنعهم، ما أدى إلى اندلاع أعمال شغب أسفرت عن مقتل 400 شخص. ألقى السعوديون على نحو ملائم اللوم على /الشرك (عبادة الأوثان). فعمد المتظاهرون الساخطون، الذين دائمًا ما تستحضرهم شرطة الدين الإيرانية (البسيج) بسهولة، إلى نهب

السفارة السعودية في طهران. مُنع جميع الإيرانيين من الحج حتى ذوبان الجليد في العلاقات بين الطرفين عام 1991.

في وقت لاحق في مكة، أَرانا مطوّف مجموعتنا (دليل الحج) الجسر العلوي الذي وقعت عليه الاشتباكات. وعلى غرار خرائطهم الاستثنائية للمراقدين غير المُعرّفة بأصحابها، سيتوارث الشيعة ذكرى ما حدث على هذا الجسر.

كان آية الله الخميني السبب الوحيد الذي جعل الروائي الهندي سلمان رشدي (آيات شيطانية) يكتسب شهرة عالمية. فعندما أصدرت عصابة الفقهاء الإيرانيين بقيادة الخميني حكمًا بإعدام رشدي، أراد السعوديون نصيبًا من هذا الإجراء أيضًا. فأعلن الوهابيون السعوديون أنه يجب على رشدي المثول أمام محكمة تعتمد الشريعة قبل إصدار حكم بحقه. إنه تصرف في منتهى حماقة – فكلا البلدين يحاول التفوق على الآخر في توجيه الإدانة الإسلامية الصالحة لرشدي.

في عام 1988، دعا الملك فهد إلى وقف جميع الحملات الإعلامية المناهضة لإيران. فهل كان ذلك انفراجًا؟ من الواضح أن آل سعود تحكموا في ما يُعرض على الإعلام السعودي. حتى أنهم في وقت لاحق بذلوا قصارى جهدهم لإطلاق قناة العربية، ردًا على قناة الجزيرة التي يقع مقرها في قطر وغالبًا ما تكون مناهضة للسعودية. وفي عام 1990، رفض كلا البلدين استخدام القوة في الخليج العربي ووقفًا بقوة ضد غزو صدام حسين للكويت. أهو انفراج مجددًا؟ نعم، ولوقت قصير هذه المرة. إذ عادت العلاقات الرسمية بين البلدين إلى طبيعتها في عام 1991. وزار الرياض وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي. التُقطت الصور وتصافحت الأيدي.

يأتي الدليل الحقيقي على الوفاق من الحج. فالحج يعمل بنظام الحصص. تدعي المملكة العربية السعودية أن تأشيرات الحج من بلدان مختلفة تتناسب طرديًا مع عدد سكانها المسلمين. وإيران دولة تضم أكثر من 80 مليون مسلم. والمملكة العربية السعودية، بالمقارنة معها، لديها نحو 30 مليون. في عام 1988، خصص الملك المصمم فهد لإيران 45,000 حاج فقط. واحتجاجًا على هذه الحصة، قاطعت إيران الحج. وهكذا، باستعراض عسكري مهيب، أعلن السعوديون سماحهم بدخول 115,000 حاج إيراني في عام 1991. تبسم آية الله.

في المدينة لاحقًا، ليلة دعاء كميل، لم يسعني إلا أن ألمح للأعلام الإيرانية خارج بعض الفنادق.

قال مرشدي في الحج لما سألت في إحدى /المجالس اليومية: «ذلك هو المكان الذي يقيم فيه الإيرانيون، إنهم يضعون الأعلام حتى يتمكنوا من العثور على بعضهم». واعتادت مجموعتي، مثل جميع

الشيعة، على رفعها في الأماكن حيث فُجِعوا على المظالم المرتكبة بحقهم على أيدي السنة وخلدوا ذكرى أئمتهم العظماء، منهم سبط النبي الحسين الذي يكون الثاني على خط الخلافة بعد والده علي. إنهم سيكون على ذبح الحسين ومقتله في معركة كربلاء في القرن السابع كأن ذلك حدث أمس. في الهند، كما في إيران، كان عطلة وطنية. كنت أجلس على الجانب أبذل قصارى جهدي لأظهر رثائي.

تساءلت هل مجلس جماعتي الخوجة مشابه لمجالس الشيعة الأخرى؟ يعد الخوجة مثالاً آخر على التنوع الكبير للإسلام. وهم إحدى المجموعات الفرعية العديدة للمسلمين الشيعة التي تنحدر من غرب الهند وشرق إفريقيا. بدا أن مجموعتي تضم كلاً من الخوجة الاثني عشرية والخوجة النزاريين. يؤمن الخوجة الاثني عشرية باثني عشر إماماً، آخرهم في الغيبة ومن المقرر أن يعاود الظهور كمهدي يحكم لمدة خمسة أعوام أو سبعة أعوام أو تسعة أعوام أو تسعة عشر عاماً (وفقاً لمن تتحدث معهم) قبل يوم القيامة وتخليص العالم من كل الشرور.

ركز الخوجة النزاريون في مجموعتي تركيزاً كبيراً على مبدأ الاجتهاد في الإسلام، أو الاستدلال المستقل. وكنت دائماً منجذباً إلى نقاشاتهم طوال فترة الحج. لقد بدوا مجموعة عاقلة وتساءلت – هل سيخضعون أيضاً مثلتي الجنسية للاجتهاد الذي يقدسونه كثيراً، لو أنهم اكتشفوها؟

في نظر المؤسسة السلفية الوهابية، إن جميع الشيعة، ومن ضمنهم السنة مثلي الذين اختاروا السفر مع الشيعة، كانوا كفاراً. لقد طرأ تغيير كبير منذ تلك الأيام العنيفة في عام 1991، عندما وافق السعوديون أيضاً على طلب إيراني للسماح لـ 5,000 شخص من أقارب وأصدقاء «الشهداء» في أعمال الشغب عام 1987 البالغ عددهم 412 بأداء فريضة الحج. طُلب من مجموعتنا أن ترتص ببعضها وتسير تحت العلم الكندي – إذ إن رفع العلم الأمريكي أو البريطاني في أثناء الحج غير وارد إطلاقاً. هل كان الرؤساء الأمريكيون المقربون من السعوديين يعرفون هذا؟ فجميع الحجاج من الجنسيات الأخرى، ومنهم الإيرانيون (المحتقرون)، ساروا في أثناء الحج رافعين أعلامهم الوطنية.

ولدهشة العالم، جاء الرئيس الإيراني محمد خاتمي في زيارة رسمية عام 1998، وهي الأولى منذ ثورة عام 1979. وفي فبراير 2007، كانت المفاجأة الكبرى على الإطلاق – فقد أدى الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد المكروه غالباً مناسك الحج بدعوة من الملك عبد الله. لقد أتيت إلى الحج كحاج مثقف. فأنا قررت متعمداً الوجود هناك في عام 2011، عام الانتفاضات العربية – التي أبلغت عنها علناً (خاصة من القاهرة) – وموت أسامة بن لادن. قبل أقل من أسبوع من مغادرتي، كشف مكتب التحقيقات الفيدرالي عن مؤامرة إيرانية لاغتيال السفير السعودي في الولايات المتحدة عادل الجبير. وتصدرت «عملية التحالف الأحمر»،

كما أسماها مكتب التحقيقات الفيدرالي، عناوين الصحف. وكانت الدودة الحاسوبية الخبيثة ستوكسنت قد ضربت إيران حديثاً.

رغبت المنطقة السياسية في دماغي في معرفة هل تسللت الاضطرابات الشيعية في الجزء الشرقي من المملكة إلى مكة والمدينة. بالنسبة للسعوديين، من الطبيعي أن تطلق على 10 في المائة من السكان المصطلح المبهين *الرافضة*، وهي الكلمة الازدرائية العربية الأكثر استخداماً ضد الشيعة في المنطقة. يتركز الشيعة السعوديون في الشرق، بشكل غير ملائم قرب حقول النفط الرئيسية. في لعنة المملكة العربية السعودية الجغرافية، يوجد النفط والشيعة المكروهون على نفس الأرض. يشعر آل سعود بأنهم أكثر سيطرة على ما كان في السابق منطقة الحجاز الغربية التي تضم مكة والمدينة، وحتى نجد المجاورة. لكنهم يخشون الشيعة في المنطقة الشرقية. حتى أدهم كتب لي في رسالة نصية أن كل شيعة القطيف، في إشارة إلى المحافظة في المنطقة الشرقية، «مثيرون للشغب». لقد تعمق تلقين هذا النوع من الكراهية الداخلية. فجغرافية القطيف غير مناسبة لقربها الشديد من العراق وإيران والخليج العربي المتنافس عليه بالنسبة للنظام الملكي السعودي المتوتر في أغلب الأوقات. وبحلول عام 2015، فرض السعوديون على الحجاج أن يذكروا هل هم شيعة أم سنة في طلبات تأشيرات الحج – إنه في الأساس أبارتيد ديني على الطراز السعودي. بعد اختتام مناسك الحج، ساعدوا إلى الديار ساخرًا ومشمئزًا من الآلة السعودية الوهابية وسألتقف كل خبر يأتي من المنطقة. لكن في هذه الليلة، مع اجتماع كل هذه الأحداث التاريخية في ذهني، سرت بإصرار مع حسين، تواقًا إلى أن أكون جزءًا من الدعاء الإيراني.

في عام 2011، عندما دخلت المملكة العربية السعودية، احتج شبان شيعة في الشوارع شرق البلاد. إن مجموعة تعرضت للتجاهل والإساءة وتتمتع باتصال فائق ومكونة من أغلبية تحت سن الخامسة والعشرين هي مزيج قابل للاشتعال بدرجة كبيرة؛ ويمكن لحدث واحد فقط أن يشعل نارًا ثورية. كان إطلاق سراح السجناء السياسيين وإنهاء سنوات الطائفية التي ترعاها الدولة المطالب الأساسية للمحتجين. لقد شاهدت مقاطع فيديو للاحتجاجات وقرأت عن السكان الشيعة السعوديين الجزعين. قبل الحج، راودتني رؤى لاستكشاف القطيف ومعارضتها. وعندما وصلت إلى هناك، أصبحت سجينًا لدى النظام السعودي. فأنا كحاج بلا جواز سفر، لا يمكنني الذهاب إلى أي مكان سوى مكة والمدينة ومطار جدة.

لقد علمت بالحركة السرية للشيعة السعوديين بشكل غريب من خلال الأصدقاء في طهران. تقليديًا، يتبع العديد من الشيعة مرجع *التقليد*. وفي إيران، ذلك الشخص هو آية الله خامنئي، وهو مثل سلفه الخميني يجعل ولاية *الفقيه* نقطة ارتكاز الحوكمة وكل السياسة الخارجية. أما الشيعة السعوديون،

فمرجعهم هو آية الله علي السيستاني الأقل نفوذًا، الذي أصابني فتواه عن القضيب بالذعر. وبما أنه يخطب من النجف في العراق، فهو قريب بشكل غير مريح بالنسبة للسعوديين.

كان رجل الدين السعودي المؤثر محمد العريفي قد وصف السيستاني ذات مرة بالزنديق وغير الإسلامي والفاجر. ورد العالم الشيعي بغضب متوقع. لكن رجل الدين الذي كان آل سعود يخشونه بحق هو الشيخ نمر النمر الذي كان يخطب من أرضهم في العوامية بمحافظة القطيف. بعد تعرض نمر للسجن عدة مرات، دعا إلى إنهاء النظام وإجراء انتخابات حرة وحتى انفصال المنطقة الشرقية. واعتبره الشباب الشيعة الذين شكلوا الجزء الأكبر من قاعدة دعمه «إصلاحياً علمانياً». بدأت أتابع آراء نمر الصريحة على تويتر بعناية منذ عام 2010. وقد خشيت الرياض أن يثير/الفتنة (وهي حالة إسلامية غير مرغوب فيها من النزاع الأهلي). في الحقيقة، كان سلامياً يستمد إلهامه من القرآن، ويحشد المحتجين «لإستخدام قوة الكلمة» بدلاً من العنف. و«الكلمة» في الإسلام تعني دائماً القرآن.

في المدينة، في ليلة ذلك الدعاء، مررت مع صديقي الإيراني المدخن حسين بقبر النبي في طريقنا إلى جموع الإيرانيين، وكنا نقرب من مقبرة جنة البقيع – موقع الاشتباكات الكبرى بين الشيعة والسنة في عام 2009 حين ضُبط المطوعون وهم يصورون نساء شيعيات يصلين عند القبور. نفت شرطة الدين ذلك، قائلة إنها لا تتغاضى عن التصوير من أي نوع، وأن تصوير النساء فعل مريع. دُفن هنا العديد من الشخصيات الدينية التي يعلن الشيعة الحداد عليهم وقد دمر السعوديون المراقد إلى الأبد.

بعد الاشتباكات، ألقى نمر خطبة تحريضية انتشرت كالنار في الهشيم، قائلاً: «لقد رُهنت كرامتنا، وإذا لم نستعدها، فسنتطالب بالانفصال. إن كرامتنا أعلى من وحدة هذه الأرض». أصبح نمر «إصلاحياً شيعياً سعودياً بارزاً».

بعد عامين من أداء الحج، في أكتوبر 2014، حُكم على نمر بالإعدام. في عام 2015، أعدم السعوديون رقمًا قياسيًا بلغ 157 شخصًا، معظمهم قُطع رأسه بالسيف. وكان إصدار حكم نمر ظاهرة شيعية عالمية. في 2 يناير 2016، أعدم السعوديون سبعة وأربعين شخصًا وذكروا عرضًا أن نمر كان بينهم. تصدر الخبر عناوين الصحف وتسببت الصدمة في احتجاجات عالمية. في طهران، نهب المتظاهرون السفارة السعودية باستخدام تكتيكات مألوفة في الوقت الحالي. ورد على الفور من أسميم شيوخ المملكة العربية السعودية على تويتر المتزايد عددهم بطرق مختلفة، اعتمادًا على مصالح من يخدمونهم. تجرأ المتظاهرون في القطيف على رفع شعار «يسقط آل سعود» الذي نادرًا ما رفعوه. كان نمر شخصية يلتف حولها الجموع. وخشي الكثيرون من نكوص الشباب الشيعة إلى حالة من الرضا يمكن التنبؤ بها. بالمصطلحات السعودية، ذلك يعني عادةً عدم التشكيك في السلطة العليا للملك، وإنما الشكوى علنًا من كل شيء آخر – على تويتر

ويوتيوب عادةً. عند رؤية الكثير من التغريدات ومقاطع الفيديو على اليوتيوب، توقعت اندلاع ثورة في تلك الليلة مع تجمع آلاف الإيرانيين. لكنني كنت مخطئًا.

كان تجمع الإيرانيين لدعاء كميل بالقرب من المسجد النبوي في المدينة محاطًا بالشرطة السعودية لمكافحة الشغب. اصطدم حسين بثقة بكتيبة الأمن.

قال بالعربية لأحد الحراس السعوديين المحيطين بحشد المتضرعين الإيرانيين «دعونا نمر». نحن إيرانيون». أخذ بيدي وقادني بتحد متجاوزًا حلقة الشرطة السعودية. لقد أمضيت شهرًا أدرس الإسلام الشيعي. كان الأمر أشبه بتعلم دين جديد. لكن هذا الدعاء يمكن أن يستغرق قرابة الساعة. لم ألقن الدعاء بما يكفي، لذلك تمت بالقليل الذي تذكرته منه وطأطأت رأسي لتفادي النظرات المشبوهة. شعرت بأنني واحد من الإيرانيين. وقد كنت كافرًا مثلهم. لحسن الحظ، لم يعرف الإيرانيون السبب، وإلا كانوا سيرفضوني بسهولة كما رفضهم السعوديون. قال حسين: «لقد تشاركنا شيئًا بالغ الأهمية، لذا يجب أن أخبرك سرًا – لقد كنت منخرطًا في ما كنتم أمها الرفاق في أمريكا تسمونه الثورة الخضراء في عام 2009». اعتصرت يده بقوة، وأنا أعلم كم سيستغرق الأمر ليخبرني بذلك.

لم يكن هناك جدوى من النوم في تلك الليلة. فالسعوديون يفتحون البوابات إلى مقبرة جنة البقيع في الساعة 4:30 صباحًا. هل سميت جنة لأن جميع نزلاتها غير المذكورة أسماؤهم مستقرون بشكل راسخ هناك؟ انتظرنا على وقع صوت شيعي يزعم متضرعًا. أكان هؤلاء المعززون الوديعون «محاربين» ثورة آية الله الخميني التي خشبها آل سعود كثيرًا؟ كان لا بد لي أن أضحك.

قال حسين: «انتموها لهذه»، ضاربًا إياي بخريطته. «إن أماكن كهذه هي التي نحتاجها حقًا». استللت خريطتي من حقيبتي.

كنت على اطلاع بالتاريخ. توجد المقبرة منذ عهد النبي. ودُفن هنا العديد من الشخصيات الدينية التي يعلن الشيعة عليها الحداد، وقد هدمت قوات الإخوان الوهابية من السعوديين جميع المراقد بحلول عام 1926. واستحالت البقيع المدنسة حرمتها حطامًا. ضمت المقبرة رفات العديد من أوائل المسلمين، من ضمنهم من أهل البيت المبجلين (عائلة محمد المباشرة). وظل هدم شواهد الأضرحة، كما تفعل داعش اليوم، هواية وهابية مفضلة.

أخيرًا، فُتحت الأبواب المؤدية إلى «الجنة» وهرع آلاف الحجاج عبرها. كان من الصعب اجتياز تشكيل المطوعين. فهذه المخلوقات المرعبة تصدت للإيرانيين النائحين كما في المواجهة. كان هذا الخط الأمامي للانقسام الذي لم أفهمه في السابق إلا من الناحية النظرية.

صاحوا قائلين: «بدعة!»، ثم أضافوا: «شرك!» من أجل إضافة تأثير جيد. تعني الأولى «زندقة». وتعني الثانية «عبادة الأصنام». بالنسبة لهؤلاء الوهابيين، إن مجرد محاولة الصلاة بجوار القبر عبادةً للأصنام. فهم يشيرون إلى هدم محمد للأصنام الوثنية التي كانت موجودة في الكعبة. يجادل الشيعة بأنهم لا يصلون حرفياً إلى القبور. وإنما يصلون إلى الله عند القبر. وهذا فارق مهم. لكن بالنسبة للمطوعين، فإن هؤلاء الكفار المكروهين يصلون إلى القبور. الأمر أشبه بعدد المسيحيين البروتستانت الحديثين الذين يمتنعون عن تزيين منازلهم بالصلبان بخلاف إخوانهم الكاثوليك. لكنك لا ترى في كثير من الأحيان البروتستانت يحرسون الصلاة الكاثوليكية. ويزيد المطوعون على ذلك أن: أي تصوير للشكل البشري يعتبر غير إسلامي.

يندرج نحو 4,000 من هؤلاء الرجال الأميين ضمن كشوف المرتبات، لكن الآلاف سواهم يطوفون الشوارع للحراسة كمتطوعين. هذا ما يحدث عندما تلتقي سنوات من التلقين الوهابي مع البطالة. هدفهم هو ضمان الامتثال الكامل للأيدولوجية الوهابية. فالعديد منهم شباب وساخطون، وبمنحهم السلطة لأول مرة في حياتهم من المتوقع أن يسيئوا استخدامها. إنه مزيج خطير. إنهم يفرضون الغرامات على الناس ويسجنونهم دون دليل، ويمكن أن تؤدي اتهاماتهم بالردة إلى الإعدام. بدت سلطتهم بلا حدود، وذكّرت نفسي بتوخي الحذر، لأن بطاقتي الخضراء لن تحميني في محكمة شرعية. سأختبر إرهابهم قريباً. كل ما يعرفه هؤلاء السفاحون هو آيات متفرقة من القرآن. وهم يوجهون الكثير من حنقهم تجاه النساء المؤديات لأعمالهن اليومية اللائي يجرؤن على إظهار أجزاء من الجسم أو الشعر، عن قصد أو بغير قصد. وبالتالي كان ما أسميه النينجا.

لقد بحثت في غوغل عن المطوعين وكنت مذهولاً مسبقاً. فبريرتهم الفاضحة معروضة بالكامل على شبكة الإنترنت. وكل ما تحتاجه هو كتابة «حريق المدرسة في مكة» كمصطلحات للبحث. في عام 2002، اندلعت النيران في مدرسة للبنات في مكة. واشتعلت أيضاً وسائل الإعلام العالمية. فما أعقب كان مأساة عالمية وفشلاً ذريعاً في العلاقات العامة من جانب النظام الملكي. سدّ المطوعون الأبواب مانعين الفتيات من الهرب، لأنهن لا يرتدين لباساً شرعياً مناسباً، ومنعوا رجال الدفاع المدني من إنقاذ الفتيات، إذ زعموا أن الاتصال المباشر بأجساد الفتيات سيثير الرجال جنسياً. وهكذا، بدلاً من المخاطرة بهذا السلوك غير اللائق، دفع المطوعون الفتيات اللائي حاولن الهرب إلى النار المستعرة مجدداً. تفحمت خمس عشرة فتاة منهم. وأصيب أكثر من خمسين فتاة بحروق شديدة. أجد صعوبة في تخيل مثال أبشع عن تعصب يشجع أتباعه على اتباع نص القانون على حساب روحه. تلا ذلك غضب عالمي صاخب، إذ شهدت الحادثة إحدى اللحظات النادرة التي وبخت فيها الحكومة الأمريكية السعودية علناً.



كنت قد نشأت على الفصل بين الجنسين. وأمضيت وقتًا في الدول التي تحرس الأخلاق. حتى الشرطة الدينية المفزعة في إيران، الباسيج، بدت باهتة بمقارنتها ببربرية المطوعين. ففي عام 2007، ضرب المطوعون رجلًا حتى الموت حين قبضوا عليه يبيع الخمر في الرياض. وفي عام 2013، لقي رجلان حتفهما بخروج سيارتهما عن الجسر في أثناء مطاردة المطوعين لهما لغناء أغان وطنية عن بلدهما. ينتشر على موقع يوتيوب الكثير من مقاطع الفيديو لانتهاكات المطوعين.

مع طلوع الفجر فوق المراقد، ظهرت في الأفق قبة قبر النبي الخضراء التي يحاول السعوديون تدميرها منذ سنوات. انطلقت أسراب الحمام في سماء الصحراء. كان المعزون النادبون قد غادروا المكان، وحل هدوء رهيب مكان الجلبة. هُمسست الصلوات التي سمعتها الآن. ناقش رفاقي جودة الإضاءة لصور المناظر المثيرة للقلق. ابتعدت عنهم، باحثًا عن عزلة ملاءمة في بقعة الموت هذه. كان تجري مراسم لدفن أحد الحجاج المساكين، الذي لا بد أنه مات هنا. في تلك اللحظة خطر ببالي أنه ما من أحد في عائلة هذا الرجل سيعرف مكان رفاتة. فهذه ليست أرضًا لشواهد القبور.

اعتقدت أنني فقدت قدرتي على البكاء إلى الأبد بعد جنازة والدتي. لقد أتيت جزئيًا إلى هذه الأرض الغريبة للبحث عن تلك الدموع المفقودة. وكنت سعيدًا لأنني وحدي.

اختار محمد، للعديد من المسلمين، المكان حيث توجد البقيع الشاسعة اليوم. وتساءلت هل ما زال السعوديون يعبثون بها؟ في ذلك الصباح بدت كأنها مدينة الموتى. تختلف المدارس الإسلامية بشأن المكان الذي دُفنت فيه ابنة النبي فاطمة بالقرب من هنا. لم يحظ محمد بورثة ذكور، لذا يعد وجود فاطمة في ذرية الإسلام أساسيًا. يعتقد البعض أنها دُفنت تحت القبة الخضراء. ويجادل آخرون أنها دُفنت في البقيع. مشيت عائداً إلى المسجد النبوي. صليت الفجر. شعرت أنني منسجم مع إيماني أكثر مما شعرت به منذ فترة طويلة. لقد كان من المفترض أن أكون هنا.

بعد أخذ غفوة، ذهبت أنا وشاهيناز (لحسن الحظ دون وقوع مشاكل) إلى المسجد مرة أخرى لأداء صلاة الظهر. لكن سعادتنا لم تدم طويلاً. وسرعان ما ظهر مطوع يقول إنه لا يمكنها الجلوس معي. متجاهلاً اعتراضاتي والقانون الوهابي بشأن عدم لمس النساء الغربيات، اجتذبا وأخذها بعيداً.

أرسلت لي رسالة نصية تقول: «لا بأس، دعنا نتراسل بعد الظهر، وسنجد بعضنا مجدداً».

في منطقة تاتوين، بدا أن الرجال والنساء يمكنهم المشي معاً. وما بدا كأنه أميال من السقف أغلق لوقاية الحجاج من شمس الصباح دون إصدار أي صرير. ونُصب المزيد من أدوات بن لادن لضمان راحتنا. هنا، كان نظام الإسلام مرئياً بالكامل. فص صفوف المصلين امتدت على نفس السوية بشكل مثالي لأميال. كنا

نفتدي بسنة النبي، وهي أسلوب حياته، التي يتعلمها جميع المسلمين الصالحين. لا بد أن النبي أو أحدًا من صحابته قد أمر بأنه لا ينبغي حتى على مؤمن واحد أن يختلف عن الصف جسدًا، ومن ثم روحًا. في هذا الوقت، لاحظت أن جميع النساء، ومن بينهن شاهيناز، قد اختفين فجأة.

بقيت عند القبة الخضراء التي دفن تحتها محمد. لقد كان وجودها موضع جدل منذ القرن الثامن عشر، ومع ذلك ما زالت صامدة. اعتقدت أن هذا هو العمل الإلهي.

اجتمعت ثانية مع شاهيناز واستكشفنا المكان المحيط بنا. يعد المسجد النبوي ثاني أقدس مسجد في الإسلام. فالأول هو بوضوح المسجد الحرام عند نقطة الصفر في الكعبة في مكة. عندما كنت طفلًا، كنت أعرف أن هناك رسائل وعلامات سرية في الأعمدة المخططة بكثافة المحيطة بقبر محمد. فقد كانت هذه شيفرة دا فينشي في الإسلام. بالنسبة للشيعة، كان الأمر في بالغ الأهمية: فابنة النبي فاطمة التي ستضع ذرية الإسلام من زوجها وإمامهم الأول علي، كانت «غرفتها» هنا. تقع أسس بيت محمد في المدينة ضمن هذا المسجد.

يعتقد السنة أن الورثة الشرعيين لإرث محمد، وهما أول خليفتين اختيرا من أقرب أصحابه -أبو بكر وعمر- دفنا هناك أيضًا.

همست لشاهيناز: «بالنسبة لي، هذا ليس مجرد مسجد». فهو المكان الذي أصبحت فيه الذكريات المنسية منذ زمن طويل مقدسة. وهو المكان الذي أقيمت فيه أول أمة ومجتمع إسلامي ينطوي على أقرب مفهوم للديمقراطية يمكن أن يوجد في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع. خلال حياة محمد كان بيتًا، وكان مركزًا لتجمع المجتمع، وجامعة، ومكانًا يلجأ إليه المشردون، ونعم، كان مسجدًا أيضًا.

وصف مرشدنا في الحج فتوى من التسعينيات صدرت عن مفتي السعودية ابن باز الطاغي خصوصًا. وقد نصت بتحيز على:

لقد طرح من يعبد القبور (في إشارة إلى الشيعة) حجة خادعة، وهي تحديدًا الحقيقة بأن قبر النبي يقع في مسجده... لا يجوز للمسلم أن يتخذ ذلك دليلًا على أن المساجد قد بُنيت على القبور، أو أن الناس قد يُدفنون داخل المساجد، لأن ذلك مخالف لتقاليد النبي، ولأنه وسيلة قد تؤدي إلى الشرك...

جاء باز في سلسلة وهابية أيديولوجية مدمرة طويلة. فقد استولى أبو «الدولة السعودية الثالثة»، ابن سعود، على الحجاز (التي تضم مكة والمدينة) في عام 1925. وسخر/خوأنه الشبهيون بداعش وحشيتهم

لهدم تقريبًا كل قبر أو قبة في المدينة لمنع تبجيلها. أُنجز العمل في 21 أبريل 1926، في يوم يسميه بعض الشيعة يوم الغم. لكنهم لم يجرؤوا على لمس قبر النبي الذي يتدافع الحجاج المصممون على لمسه.

يعتقد العديد من المسلمين أن القبر الفارغ بجوار قبر محمد محجوز ليسوع الذي سيعود مع اقتراب يوم القيامة لقتل الدجال (عدو المسيح، المسيح الكذاب). تحيط بهذه المنطقة أعمدة مطلية بالذهب على الطراز العثماني بآيات قرآنية مرصعة بالذهب. القبر ذاته غير مرئي لأنه مغطى بشبكة ذهبية وستائر سوداء.

وصف مرشدنا في الحج أيضًا كتيبًا وقع عليه المفتي العام الشيخ خلال موسم الحج عام 2007. جاء فيه أن «القبة الخضراء ستمد والقبور الثلاثة في المسجد النبوي ستسوى». كان نفاق آل سعود جليًا. إذ قالوا لا تزيين بالجواهر. لكن هذا ما كان: ضريح بمزيج كره من الذهب الزائف والرخام وغيرهما. لماذا لا يصلي المسلم لنبيه في هذا الضريح المزخرف؟ يزعم آل بن لادن أنهم أنفقوا 6 مليارات هنا. ضحكنا خفية أنا وشاهيناز على نتائجهم الزائفة المهرجة. فكلانا يعلم أن آل سعود يخشون من الاحتجاج العالمي الذي سيسببه تدمير هذه القبة وقبر النبي (الشبيه بالضريح).

أضعتُ شاهيناز إذ انقلب الانتظام إلى حماس ديني بالقرب من قبره. كان المطوعون يضربون بالعصي الحجاج الذين يتجرؤون على الدعاء للحظات بجوار القبر، ومع ذلك أصروا على الاقتراب. شعرت بالسلام في خضم الهرج والمرج. فكل مؤمن يود الاقتراب قدر الإمكان من القبر. لقد اتحدنا في توقنا المحرم. وحتى المضايقات المستمرة للمطوعين لم تستطع سلب ذلك منا.

أرسلت شاهيناز في رسالة نصية «لنلتقي بعد البقيع في الفندق. أنا بأمان».

تفرق الحشد. كانت الحرارة لا تطاق. تحدثنا أنا وشاهيناز على الغداء في مطعم البيك الذي يعد كنتاكي السعودية. وقع حادث مروع: لقد أصيبت امرأة في خيمتها بالإسهال وبدأت دورتها الشهرية في وقت واحد. فأتسخ كيس نومها. باستثناء شاهيناز التي أعطتها الإيموديوم، كانت تُعامل كمنبوذة. ساعدتها شاهيناز على التحرك وتنظيف نفسها. يجب استبدال كيس النوم وقائد المجموعة لديه واحد. أين الشفقة البسيطة؟ فالتقوى تتطلبها. بدا أن لا أحد يتصف بها سوى شاهيناز. وقالت إن بضع نساء فقط بالكاد يعرفن القراءة والكتابة، وربما كن نتاج «زواج مدبر».

يمكن وصف الحياة في المملكة العربية السعودية بجملة واحدة. صلاة متواصلة تُقطع دوريًا من أجل الحياة اليومية وقطع الرؤوس. لكن إقحام الدين بالقوة في حناجر الناس لم ينجح قط. أخبرتُ شاهيناز بما قاله أدهم. كان غالبية الشباب السعودي يكرهون الصلاة، ومع ذلك كانت منسوجة بتعقيد في حياتهم. من الأفضل ألا يُقبض عليك خارج البيت في أثناء وقت الصلاة، في أي مكان. استغرقت في النوم خلال الفجر

في يومي الأول، ومع ذلك، لم تخبط قوات العاصفة باب غرفتي بالفندق. لكننا كنا نختبر رفقاء الحج المطلقين للأحكام. أخبرت امرأة شاهيناز أن عليها ارتداء الجوارب والقفازات عند خروجها. ذات مرة، حين كنت أصلي خارج غرفتي المكتظة بالفندق، قال رجلان: «الصلاة في الممر حرام». أنا أعرف أن: الضحك في الصلاة حرام – أي ممنوعة.

كان راداري للتعرف على أبناء بلدي (desi-dar) يطلق إشارات بين الفينة والأخرى. تعني ديسي *desi* حرفياً «من الوطن»، أي جنوب آسيا. كان العديد من العمال غير المهرة هنا ديسي. جلستُ لاحقاً بجوار رجل شاب أدركت على الفور أنه باكستاني من شكل لحيته القصيرة ولون بشرته الأفصح. لقد تطابقت درجة بشرته مع بشرتي. فالهنود المسلمون، وبالتالي الباكستانيون، يحظون عمومًا ببشرة أفصح من جيرانهم الهندوس.

حيَّته على الطريقة الإسلامية قائلاً: «السلام عليكم».

فأجاب: «الحمد لله».

قلت بعد أن تعرفنا على أسماء بعضنا: «اسمك يعني الرحيم. فهل يعاملك السعوديون برحمة؟».

ابتسم رحمن. «أنا محظوظ لأنني أعمل هنا بالقرب من قبر النبي».

تقصيتُ أكثر. «كيف وجدت العمل لدى السعوديين؟».

قال بهدوء: «جحيماً». أخبرني أنهم أخذوا جواز سفره منذ خمس سنوات حين دخل المملكة. في المقابل، حصل على الإقامة، أي تصريح بالعمل. تستشري هذه العبودية القانونية في جميع دول الخليج. لم يتمكن رحمن من زيارة أسرته منذ سنوات. فقد كان عمله عبودية بعقد.

في هذا لم يكن رحمن وغيره من العمال المهاجرين مختلفين عن المواطنين في المملكة العربية السعودية اللائي يحتجن إلى «تأشيرات خروج» بعد الحصول على «إذن بالسفر» من أولياء أمورهن الذكور – كالزوج أو الأب أو الابن. إنهن سجينات في وطنهن، وضحايا عبودية أبوية. وقد بات كثيرون معتادين على السجن. تختبئ النساء السعوديات في قصور مسورة. بينما يعيش رحمن في كوخ.

قال: «نحن ستة أشخاص ننام في غرفة واحدة. وفي كثير من الأحيان لا تتوفر لدينا مياه جارية». كان رحمن ينام أربع ساعات على الأكثر كل ليلة، ويعمل في نوبات عديدة لكسب مال كاف يرسله إلى عائلته. في الليل كان يكنس أرضيات المسجد الرخامية، وفي النهار كان يعمل في محل صغير لبيع الساعات والهواتف المحمولة. سيدخر ما يقرب من أجر أسبوع لشراء بطاقات هاتفية للاتصال بعائلته. في رأيي، كان رحمن إثباتاً

على السر الصغير القذر للدول الغنية بالنفط. فرغم الاستعراض المنتشر للثروة والاستهلاك التفاخري بين النخبة في المملكة، يعيش الكثيرون تحت خط الفقر. وتتألف غالبية هذه الفئة السكانية من المهاجرين المسلوبين من جوازات سفرهم، أمثال رحمن.

تساءلت أكان يلمح أي بصيص من الإيمان بالتغيير السياسي. هل رأى أي كتابات على الجدران تلمح للمعارضة؟ أصبح متكتمًا. لابد أنه خشي أن أكون مخبرًا.

قال رحمن: «تجول حول فندقك. وستجد ما تريد رؤيته». ذلك كل ما قاله.

سألته هل لديه حساب على فيسبوك في بلد الويب الاجتماعي المفرط. فليديه هاتف جوال في النهاية. رد قائلاً: «ما هذا؟». تودعنا. كنت أعرف أنه يعرف.

كان من السهل البحث عن تقاريري الشاملة بشأن الربيع العربي على شبكة الإنترنت. هل كنت ساذجًا لآمل أن أجد أشخاصًا يتوقعون إلى أن يصورهم أو يتحدث إليهم أحد على علم بالمعارضة السعودية؟ كان صديقي بالرسائل النصية أدهم «المصدر» الحقيقي الوحيد لدي هنا. تمكنت معه ومع شبكة معارفه من التصوير بسهولة في جدة والرياض. لكن الوصول إلى القطيف، حيث يعيش الشيعة السعوديون المحتجون، سيكون أصعب. دون جواز سفر في حوزتي، لم يكن بإمكانني فعل شيء خارج مكة والمدينة، وقد كانت عدستي عدسة دينية.

تفقدت باستمرار أخبار شيوخ وصناع رأي سعوديين أتابعهم على تويتر. تحظى المملكة بأكثف قاعدة من المستخدمين على تويتر في العالم العربي. أما بالنسبة لمصر، فقد حاولتُ من خلال كتاباتي توضيح المفهوم الخاطئ أن القاهرة عام 2011 كانت «ثورة على وسائل التواصل الاجتماعي». تعد مصر البلد الأفقر في المنطقة، إذ يعيش أكثر من ربع سكانها تحت خط الفقر. وكان العديد من الثوار أفقر من أن يمتلكوا هواتف ذكية أو حتى يتمكنوا من الوصول إلى وسائل التواصل الاجتماعي. لا شك أن عددًا كبيرًا منهم استخدم وسائل التواصل الاجتماعي، لكن جعلها المحفز الأساسي للثورة كان خادعًا. تعد المملكة العربية السعودية، من ناحية أخرى، البلد العربي الأغنى، والهواتف الذكية تتغلغل فيه على نطاق واسع. وقد سمح آل سعود المتخوفون من الانتفاضة باستخدام تويتر وغيره. تتيح معظم الأماكن، من ضمنها أقدس مسجدين في الإسلام، الاتصال بشبكة الواي فاي التي تعمل في بعض الأحيان. ويعد موقع تويتر من الأماكن النادرة التي كان الاختلاط بين الجنسين «موجودًا» فيها بحرية. يمضي الوقت هنا الرجال والنساء على قدم المساواة. ويدرك آل سعود أهمية إبقاء الأغلبية في بلادهم تحت سن الخامسة والعشرين سعيدة. من الأميرة حتى الفقيرة، الجميع قد صعد على متن قطار الويب الاجتماعي أو يحاول القفز عليه.

أُعلن عن «يوم الغضب» السعودي على فيسبوك ليصادف 11 مارس 2011. كان التوقيت متعمداً لأنه يوم جمعة. فكما في القاهرة، كان يُنظر إلى المساجد بحق على أنها أماكن تجمع للصلاة الجماعية المفروضة مرة واحدة في الأسبوع. وذكرت بعض التقارير أن متظاهراً واحداً فقط، يدعى خالد الجني، قد ظهر في الرياض. حُكم عليه بالسجن مدة ثمانية عشر شهراً. ظل أدهم، الذي كان في الرياض، يطلعني على آخر المستجدات كل ساعة. كان وجود الشرطة غير مسبوق بمروحيات تحلق في السماء. وفتشت الشرطة السيارات والأفراد المتجهين إلى المساجد. كانت أيام الجمعة في المساجد خطرة. لذلك سارعت الأنظمة من تونس إلى طرابلس إلى دمشق إلى مراقبة مجموعة متنوعة من آلاف المتدينين المحتمل تحريضهم يوم الجمعة. في القاهرة، سخر الأئمة الثوار خطب الجمعة لحشد المؤمنين ضد نظام مبارك «غير الإسلامي».

أفتى المفتي العام في الرياض بطاعة آل سعود «ينهى الإسلام بشدة عن الاحتجاجات في المملكة لأن الحاكم هنا يحكم بإذن الله». استحضر الفتنة المعتادة (الفوضى). وغرد العلماء المنصاعون أيضاً (علماء الدين) بهذا الشأن.

تزايدت أعداد المحتجين في المدن الشيعية كالعوامية في شرق القطيف. ووفقاً لأدهم، فقد تعرض الناس للتغريم والجلد ومصادرة جوازاتهم السفر وحتى نفيمهم في الشرق الشيعي. كنت سأفعل المستحيل للذهاب إلى هناك والتصوير.

في عامي 2009 و2010، حصلت فيضانات هائلة في جدة، ما أدى إلى ارتفاع عدد الضحايا وما تلاه من تصاعد في المشاعر المناهضة للحكومة. انتشر هاشتاغ في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية: «هاشتاغ جدة تغرق (#JeddahIsDrowning)» الذي عبر عن غضب واسع النطاق من طريقة تعامل النظام مع الفيضانات. ومع ذلك، لم يفض إلى أي احتجاجات في الشوارع. فهل كان السعوديون خائفين أم راضين؟ في الحال، اندلعت الاحتجاجات في البحرين والكويت واليمن، مستقطبةً اهتمام وسائل الإعلام العالمية.

لم يكن الملك السعودي عبد الله يرغب في مصير كمصير مبارك. وكالعادة، أغدق المال ببساطة على المشكلة، كاشفاً النقاب عن برنامج للرعاية الاجتماعية بقيمة 37 مليار دولار. وظهرت اللافتات المتملقة للترحيب بعبد الله العائد إلى البلاد من رحلته الطبية إلى مدينة نيويورك: «مرحباً بك، يا ملك الإنسانية»، «إذا كنت بخير، فنحن جميعاً بخير». أصبح سلمان، وهو الثاني بين الأخوة السديريين الأقوياء، ملكاً بعد وفاة عبد الله في عام 2015.

وجدتُ بعض الرسومات على الجدران في زقاق بالقرب من فندقنا. لم يكن أي منها سياسياً. ربما استحال وعد الربيع العربي شتاءً إسلامياً مغماً.

بقينا في المدينة بضعة أيام، وبينما كنا جالسين في الحافلة كريهة الرائحة، حاولتُ أن أغطي على صوت مرشدنا في الحج بسماعاتي التي تشغل بهدوء صوتًا شجيًا لقارئ غير معروف. كان يتلو الآية المدنية رقم 21 من السورة 33 (الأحزاب). أحببت تجويده. توجد موسيقى في الإسلام الوهابي، حتى لو كانت تقتصر على تلاوات الصلاة والأذان.

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا». شرد ذهني حين أخذتني التلاوات إلى فضاء من التأمل الهادئ.

في هذا الجزء الصغير المحلّل من تلاوة القارئ كلُّ الأدلة التي سيحتاجها المسلم للاقتداء بحياة الرسول وتقاليده التي تشكل السنة. لكن أولئك الذين يبحثون عن الانحراف عرفوا بالضبط أين ينظرون، حتى شباب داعش الذين لم يعرفوا كيفية الصلاة الصحيحة. انتقل إلى الآية رقم 64 من نفس السورة واستجد: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا».

لحسن الحظ حصل مراسل شاب مضني يعمل لدى فوكس نيوز على علاوة بعد العثور على سورة كهذه. لا بد أنها تطلبت الكثير من البحث على ويكيبيديا. يُقال إن شان هانيتي من شبكة فوكس زعم أن القرآن يمنع المسلمين من اتخاذ اليهود والمسيحيين أصدقاء. يقدم غدرًا كل من هانيتي وترامب والكارهين للإسلام عمومًا مادة تجنيد لا نهائية لداعش وبوكو حرام في العالم.

شرد ذهني أيضًا في التاريخ الذي درسته. إنهم الجاهليون في قريش (الجاهلون ما قبل الإسلام) الذين عبدوا الأصنام (الشرك، والمشركون هم الذين يرتكبون الشرك) والذين شرعوا في الحرب مع محمد. نجا من محاولات الاغتيال. وتعرض أتباعه دوريًا للاغتصاب والقتل والتعذيب. وصفوه بالمجنون، وفي أثناء سيره في الشوارع، ألقوا عليه الفضلات البشرية. بعد وفاة خديجة، أُجبر محمد مكسور القلب –المنبوذ آنذاك وليس النبي– على الفرار من مكة، وهي المدينة التي ولد فيها. كان رجلًا مطاردًا يهرب كالجبان بخزي في عتمة الليل. وقد مر هذا الدخيل والمنبوذ بسنوات من الكراهية والاستهزاء. وجد في المدينة مأوى وشرع في بناء أول مجتمع للمسلمين الذين تضاعفت أعدادهم فقط. كان أعداؤه في حيرة من أمرهم.

وماذا عن الكتاب؟ يزعم الكثيرون أن القرآن يدعو فقط للقتال دفاعًا عن النفس. يمكن القول إن المسلمين قاتلوا تاريخيًا جيوشًا ملكية، وليس مدنية. فهل اقتدت بهذا جزئيًا داعش الكارهة لآل سعود؟

لقد تعلمت أن أحمل حقيقتي المتوسعة من الأدلة الكتابية إلى مناسباتي الخطابية. فلطالما أردت أن أقدم لجمهوري إثباتًا على التعددية الإسلامية كما في الآية رقم 62 من السورة الثانية في القرآن/البقرة:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (بالقرآن) وَالَّذِينَ هَادُوا (الكتب المقدسة) وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

اليهود والمسيحيون والمسلمون يكافؤون بالتساوي في القرآن.

توقفت فجأة حافلة المدينة التي سرحت فيها فعاد ذهني إلى الحاضر. كنا عالقين في طريق مسدود.  
مئات من الحافلات الساكنة. بالنسبة لي، كان ذلك دليلاً إضافياً على عدم اكتراث السعوديين براحة الحجاج.

كان مطوفنا يتحدث عن مدى مثالية حياة محمد. وبالصدفة استخدم سورة تذكرتها من طفولتي  
مع الخالة. مع أن محمداً ذكر بشكل مباشر في القرآن أربع مرات فقط، إنه يكمن في صميمه. فلولا محمد  
ما كان هناك قرآن. وجميع طقوس الإسلام وتقاليده تستند إلى أسلاف مثله. فالمسلمون مطالبون بالاعتداء  
بحياته، وبالتالي السنة. تقول الآية رقم 21 من السورة المدنية 33: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ  
(في السلوك) لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا».

بعد ساعات، وصلنا إلى مسجد قباء، أول مسجد أسطوري بناه النبي. ليس هذا بكيان طائفي، لكنه  
مذكور في القرآن والسنة. قيل إن مجرد صلاة ركعتين هنا تعادل ثواب عمرة كاملة، وهي الحج الأصغر. لقد  
دمر السعوديون المسجد الأصلي. فهذه كانت نسخة وهابية متشددة.

من المتوقع أن بضعة متلكنين في مجموعتي صلّوا إلى ما يشبه قبورًا بلا شواهد خارج إحدى  
الأضرحة. فسارع المطوعون في الوصول إلى هؤلاء الكفار وتفريقهم. كنت أسجل.

قال وهو ينتشل هاتفه الآيفون: «شرك». «ما هي كلمة المرور؟» لم يكن لدي خيار سوى إعطائها.

كانت هذه الأيام الأولى، لكن هذا المطوع الشرير تصفح بشكل منهجي تسجيلاتي وحذف كل مقاطع  
الفيديو والصور. ثم وجّه بقوة يده اليمنى والهاتف إلى وجهي، كأنه يريد التأكد من أنني سأفقد توازني.  
وبالفعل فقدت توازني وسقطت إلى الخلف، لحسن الحظ على الكثبان الرملية الصغيرة التي خففت تأثير  
الصدمة.

هرع قائد مجموعتنا نحوي وساعدني في النهوض.

نصحتني قائلاً: «إياك والعبث مع هؤلاء الرجال. ستتمكن حالاً من التعرف عليهم لأن لحاهم  
وملابسهم مميزة. مهما كلف الأمر، تحاشاهم وتجنب عصيهم»، ثم أضاف: «مهما فعلت، لا تسجل مقاطع  
الفيديو أو تلتقط الصور في أماكن كهذه!».

بثت لحظات العنف هذه الرعب في قلبي.



رد أدهم بعد أن راسلته بما حدث.

«تذكر حبيبي، هذه ليست القاهرة الجميلة. كن حذرًا».

«لماذا؟».

«عليك أن تتذكر أن تلك الرياح القادمة من النيل لا تهب هنا. لا شيء يتغير. نحن لا نغير شيئًا خصوصًا هؤلاء المطوعين الكريهين، ليس لديك أدنى فكرة، يا بارفيز. كن حذرًا».

جلست شاهيناز بجانبني في الحافلة لتهدّئي. همس قائد المجموعة بصوت مسموع: «يمكنكما الجلوس معًا الآن، ولكنكما ستُفصلان في معظم الأوقات».

عندما أمسك المطوع بهاتفي ودفعني أرضًا، كان يلقني درسًا مبكرًا عن مدى قسوة القبضة الوهابية وصرامتها وتغلغلها في هذا البلد. فبيادقها المخيفون المكلفون بمراقبة تطبيق الأخلاق لهم حرية التحرك والتصرف على الأرض. كانت المبادئ الوهابية التي تحرّم تصوير الشكل البشري جليّة، إلا أنه في وقت لاحق في مكة بات من المستحيل عليهم السيطرة على الملايين الذين يلتقطون صور السيلفي في الحج. اختبأتُ على مرأى من الجميع، ومع ذلك واجهت المشاكل في كثير من الأحيان. فتسجيل لقطة لفيلم مرجو يتطلب حركة أكثر تأنٍ وتعمدًا للكاميرا مقارنة بالتقاط صور السيلفي الخاطفة.

كانت محطتنا التالية مسجد القبلتين، وهو المسجد الأسطوري حيث غيّر النبي القبلة (اتجاه الصلاة) من القدس إلى مكة. لطالما كان الأقصى (جبل الهيكل في القدس) «المسجد الأبعد» في الأرض الأكثر تنازعًا عليها في العالم، القدس بالعربية وأورشليم بالنسبة للذين اعترفوا بوجود إسرائيل. ولطالما حزن المسلمون في جميع أنحاء العالم على «خسارة» القدس. لما كنت أبلغ مبلغ الرجال، ألقى كبار المحنكين السياسيين اللوم في مصادرتها على «خيانة العرب الفاسدين». على مدى ثلاثة عشر قرنًا، حكم المسلمون القدس ولم يدمروا عمدًا مواقع المسيحيين واليهود المقدسة في المدينة باسم الإسلام. فهل كان المثال الأفضل في العالم للتعددية الدينية التي كانت موجودة ذات يوم بين المعتقدات الثلاثة؟

لقد سمعتُ بالأقصى منذ الصغر. ففي القدس، في عام 621، صعد النبي إلى الجنة عدة مرات وتفاوض مع الله في ليلة يحتفل فيها المسلمون باسم ليلة المعراج (الرحلة الليلية) وصلى أكثر للحصول على نقاط البراوي الإضافية من الله. ركب محمد على فرس سماوي يسمى البراق، من مكة إلى أورشليم (القدس) ثم إلى السماء عدة مرات. حصان طائر؟ إنه لأمر عجيب لأي طفل. لطالما كان هناك الكثير من التونغ (وهي عربات على الطراز الجنوب آسيوي يقودها حصان) في شوارع سهارنبور، وعندما كنت طفلًا، كنت أطلب صاحبًا بركوبها، وأتساءل هل بإمكانها أيضًا الصعود إلى السماوات مثل البراق. لكنني شعرت بالإحباط على

الدوام لأن السفر في التونغا هو ما يلجأ إليه «الفقراء». من بين كل قصص الإسلام التي نشأت عليها، كانت هذه قصتي المفضلة. تجسدت مهمة محمد في أن يكون رئيس المفاوضين لدينا مع الله، كي يتمكن من خفض عدد الصلوات المفروضة من خمسين صلاة لا تُطاق إلى خمس.

صرخت شاهيناز حين أخبرتها: «خمسون؟ يا إلهي!».

قيل إن محمدًا البراغماتي التقى في طريقه عيسى وموسى وإبراهيم وحتى آدم وناقش معهم بعض الأمور. عرف محمد أن هذه الشخصيات مهمة. واحتاجهم إلى جانبه. في ذلك اليوم، مكثت في مسجد القبلتين ما استطعت، إذ أدركت أنني قد لا أتمكن من زيارة القدس الحديثة أبدًا.

كان محمد رجلًا حاذقًا وحكيمًا ومعتدلًا وكان بإمكانه أن يكون دبلوماسيًا محنكًا عند الحاجة، إذ لم يكن يؤمن بالإساءة. كانت حياته فترة من الاحترام للديانات التوحيدية الأخرى، واعتمد الوحي القرآني عليها في بناء النص المتوسع والشعري للقرآن. لم يكن اليهود والمسيحيون مكروهين - إذ يجب احترامهم باعتبارهم «أهل الكتاب». ويمكن للرجل المسلم أن يتزوج يهودية أو مسيحية. ويمكن لجميع المسلمين أن يأكلوا الطعام اليهودي، إذ جعل القرآن الطعام الحلال والكوشر أخوين موحدين. تساءلت كيف ستكون ردة فعل الإنجيليين المختلين في الوطن إذا علموا أن يسوع قد ورد ذكره في القرآن أكثر من محمد. وكلها إشارات إيجابية.

كان اليوم الرابع في المدينة، وكنت حذرًا من التصوير. نُظِّمت رحلات السياحة الروحية، وكنت ممتنًا للشم، فقد كان لدي الكثير لأتشاركه مع شاهيناز. أخبرني أن شجارًا اندلع في خيمتها بين معسكرين: أحدهما يعتقد أن النقاب ضروري. وقال الآخر إنه يجب الكشف عن الوجه كما أمر النبي. لم يكن هناك انفراج. نزلنا في أحد حيث خسر المحارب المتردد محمد. وفي غزوته الأخرى الوحيدة في بدر المجاورة، انتصر. أما الثالثة «غزوة الخندق»، أكانت غزوة أم لم تكن، ذلك يعتمد على من تتحدث إليهم.

أُحيطت منطقة بمساحة نصف ملعب كرة قدم بسور. واحتوت على ما يشبه القبر. كل ما يمكنك فعله هو التحديق من خلال شبكة بسيطة. وقفت مجموعات الشيعة من كلا الجنسين تذرف الدموع. شعرت بمشقة النساء اللواتي يرتدين العباءة، فقد كانت درجة الحرارة حارقة. ويبدو أن الصحابة المهمين للنبي الذين استشهدوا في غزوة أُحُد قد دُفِنوا هناك.

قال قائد مجموعتي شفيق مشجعًا: «صوّر هذا»، ثم أضاف: «نحن بحاجة إلى كل الأدلة التي يمكننا الحصول عليها، فحتى هذا سيدمره عما قريب». وعدهته بمشاركة التسجيلات معه. لكنني حتى اليوم أخشى أن يكتشف أحد أنني من أدى الحج مع المجموعة في ذلك العام، فلم أشاركها أبدًا.

ركزتُ على النساء. مريم بن حاج إيراني يرتدي قميصًا وبنطالًا ويحمل مسجلة كاسيت تذكرني بمدينة نيويورك شديدة الانقسام في الثمانينيات، إذ استُخدمت عبارة «غيتو بلاستر» المشحونة عنصريًا لوصف هذه الآلات الغريبة. وتردد الصوت منها: بتلاوات للمراثي الشيعية الطويلة. فجأة، اقتربت مجموعة من المطوعين من النساء الناحيات – انشغل واحد منهم بمصادرة مسجلة الإيراني. ولما بدا أن أحدهم لاحظني، وضعت الهاتف على عجل في حقيبتي التي تحيط بخصري، والتي ستؤدي في غضون أيام قليلة وظيفة مزدوجة كحزام للإحرام، وابتعدت بأسرع ما يمكن. استخدم المطوعون الآخرون عصيهم الخشبية المألوفة دونما اكتراث لضرب النساء المرتديات للعباءات. من الواضح أن هؤلاء الماديين الأميين قد فاتتهم العديد من الرسائل الإسلامية حول عدم ازدراء المرأة.

على الرغم من وجود هؤلاء البرابرة، من الغريب أنني شعرت بأمان لم أعهده. أرسلت رسالة نصية إلى مجموعتي لرسائل الوسائط المتعددة تقول: «يصعب شرح ذلك، لكن إحاطتي بملايين المسلمين من كل دولة على وجه الأرض تمنحني إحساسًا بالأمان لم أشعر به قط. حتى أنني لست خائفًا من المطوعين!».

حينها تلقيت رسالة نصية غير متوقعة من حسين، صديقي في ليلة دعاء كميل في جنة البقيع. «أرجوك يا بارفيز. لا تذكر شيئًا عن الثورة الخضراء لأي شخص. إنها سرنا».

أجبتة: «بالتأكيد».

## الفصل الخامس

### أطلق رصاصتك هنا

هلعت السعودية من جديد بسبب «هؤلاء الإيرانيين الملاحين، دائماً يسببون المشكلات»، بحسب ما أرسل إلي أدهم ذات صيف. كادت إيران أن تذوق طعم «الثورة» الحلو مرة أخرى في يونيو 2009. كان هذا بعد ثلاثة عقود من عودة آية الله الخميني من منفاه في فرنسا، عندما هرب رضا شاه، آخر ملك بهلوي دعمته الولايات المتحدة الأمريكية، من بلد لن يعود كما كان أبداً. أقام آية الله المنتصر حكومة ثيوقراطية اعتقد بعض الناس أنها كانت ستسقط فيما عُرف بـ«الثورة الخضراء» عام 2009. تدفّق آلاف الناس إلى الشوارع معارضين لإعادة انتخاب محمود أحمدي نجاد. قال المحتجون إنه سرق الانتخابات من خصمه الإصلاحي مير حسين موسوي. يُقال إنه قُتل في هذه الثورة 1,500 محتجاً عندما جاء الباسيج الإيرانيون (وهم النسخة الإيرانية من المطوعين السعوديين)، مع ميليشياتهم العربية ليقمعوا المحتجين. تُوفيت أمام الكاميرا فتاة شابة اسمها ندى آغا سلطان، في شارع كارغار في طهران. لم يزل الفيديو الذي يصورها متداولاً إلى اليوم.

لدعم المتظاهرين، كان الطهرازيون يجتمعون على سطوح المنازل عند الغسق ليصرخوا بذكاء الله أكبر. كانوا بذلك يستولون على الدين الذي أكرهوا عليه ثلاثة قرون، ليعبروا عن استنكارهم التام. مرگ بر ديكتاتور! («الموت للديكتاتور!») وتكاثرات شعارات أخرى تتحدى النظام. كُتب على إحدى اللائحات في المظاهرات، في إشارة مباشرة إلى حزب الله وحماس، «لم تكف غزة ولبنان، لقد وجدوا الآن اليمن ليرسلوا إليها المال!». لظالما اشتكى الإيرانيون أن أموالهم التي يدفعونها في الضرائب تستعمل لتمويل الشيعة في لبنان واليمن وغيرهما.

رويت قصّة هذه الانتفاضة الوجيهة بعيون أصدقائي الذين كانوا محتشدين في شوارع طهران. كانت بانتظارهم أحكام طويلة بالسجن، ولكن الأمر بدا مستحيلاً حينها. لقد شعر المتظاهرون بنصر وشيك. من أصدقائي رجل شاعر عمره أربعون عاماً واسمه آرّش، كان يكتب لي بين الفينة والأخر من مخدمات البروكسي. (كان النظام طبعاً يحاول التحكم بالإنترنت.)

يعيش الشعب الإيراني واحدة من أوسع الحركات المدنية في العصر الحديث. كل يوم، عند اقتراب انتهاء التظاهرات، يُعلم الناس بالحركة التالية ومكان التظاهر التالي. بكلمة الفم شفاهاً، إذ كانت كلمة الفم أوثق طرق التواصل المتاحة، كانت الخطة أن يجتمع الناس في ساحة هفت تير، ويسيروا إلى ساحة ولي عصر في الخامسة مساءً، يوم الأربعاء السابع عشر من يونيو 2009.

لقد كان تمرّداً بكلمة الفم.

في وقت لاحق، قال آرش إن رجلاً شاباً ألصق على صدره ورقة كتب عليها: «أطلق رصاصتك هنا». ارتدى الرياضيون الأولمبيون الإيرانيون في ذلك العالم ثياباً خضراً تضامناً مع الحركة في بلادهم.

قال آرش إن من أشيع اللافتات:

- «صوتي الأخضر لم يكن لاسمك الأسود!!»
- «كذاب، أين الـ63%؟»
- «حذار يا أحمدى نجاد، فنحن شعب، لا مجرمون.»
- «نريد ثواراً، لا نظاراً»
- «أين صوتي؟»
- «لم يزل صدى نشيد المقتولين يتردد في أرواحنا»
- «إيران ترثي أبطالها.»
- «هنيئاً للقنلة.»
- «نحن خارج الزمان، وفي ظهورنا خنجر مسموم.»

كما بدأت الثورة الثانية بسرعة، ماتت بسرعة. ذلك أنها لم تكن ثورة أصلاً. نجحت الثورة الإسلامية التي قادها الخميني عام 1979 لأن ملايين من الناس أرادوها. أما هذه الثورة المضادة الوجيزة في القرن الواحد والعشرين فقد كان همها الأول الحرمان. اعتقد أنصار مير حسين موسوي أن أحمدى نجاد سرق الانتخابات. ولكنهم لم يحملوا الحماسة والروح الثورية التي اشتعلت ضد الشاه في 1979 وأتت بأية الله الخميني وباسم جديد للبلد، بل ببلد جديد حقاً: الجمهورية الإسلامية الإيرانية. كان من أول ما فعلته هذه الدولة الجديدة حصار السفارة الأمريكية.

بعد أن صليت عدة مرات في النسخة السعودية من مسجد النبي، في صباح موحش، عُدت إلى جنة البقيع، وهي المقبرة التاريخية المجاورة للمسجد. كانت روحانيتي عالية. شعرت كما لو أن أُمي سامحتني وأُنني سامحتها. بدا لي أن قضية ميلي الجنسي بعيدة وواهنة في بيئة مثل هذه.

«لم يهتم أي أحد بالجنس الذي أفضّله؟» سألت النبي محمداً وأنا أمشي في الأرض الخربة. كان الجواب الذي جاءني بسيطاً. «ليس هذا الأمر شأن أحد غيرك، وإذا أردت حلاً دينياً، فقد فتح الإسلام الطريق لنا جميعاً. سر إلى الله مباشرة ودع الوسطاء». جلستُ في مسجد النبي ساعات. بدا كأن الوقت قد توقف. فجأة سمعت صوت حسين مرة أخرى، يقول إنه من الغريب أننا نلتقي مرة بعد أخرى. تساءلت إن كان يعرف من أنا ويتبعني. وعلى كل حال، مضينا إلى فندقنا لنستريح، وتواعدنا أن نلتقي في البهو في نصف ساعة.

قال الرجل لي بسرّية، «أريد أن أريك شيئاً».

كان فندقنا الرث ذو النجمتين، الإشراق، قريباً من فندق رامادا، على بعد كتلة منه. ولكن الأمر كان أمر موقع، لأننا كنا أمام مسجد النبي. ومن أجل ذلك شعرت بالإجرام عندما لم أستيقظ لصلاة الفجر في اليومين السابقين. ومع أن المصعدين كانا يتأرجحان بخطر، فإن الفندق كان يعمل. كانت الغرف المشتركة وسخة. كان في غرفتنا 4 أفراد. حافظت عموماً على الصمت حولهم. لم تكن الصداقة هدفاً لي. وإذا بحث عني هؤلاء في غوغل، كانوا ليجدوا نتائج كارثية.

تأملت في بريد إلكتروني جماعي من قائد حجّنا قبل أن أترك الغرفة:

عندي أفكار كثيرة أريد أن أشارككم إياها في هذا البريد ولكنني أسعى في تحضيراتي الآن... إن شاء الله نتكلم كثيراً في رحلتنا. ولكنني أريد أن أبدأ الرحلة بسجلّ نظيف. لذا إخوتي وأخواتي، إذا قلت أي شيء أو ألمح كلامي إلى أي شيء أزعجكم، فأرجو أن تسامحوني لأن هذا جزء مهم في الرحلة.

كان مُحققاً جداً. لا بد من أن يكون السجل نظيفاً، والمسامحة دورها أساسي. بدا لي، مرّة أخرى، أن مثليتي الجنسية لم تكن مشكلة عند الله أو رسوله.

«هل تستطيعون أن تذهبوا إلى إيران؟ هل يعرفون أنك كنت من المحتجين في شوارع طهران عام 2009، محتجاً على إعادة انتخاب أحمددي نجاد؟» أمطرت حسين بالأسئلة حالما رأيته يدخّن في الطابق السفلي. أكّد لي حسين شكوكي وقال إنه يرجو لو أن اسمه لم يكن في القائمة. ولكنه ذكرني بما كنت أعرفه من قبل: نادراً ما تجد إيرانيّاً في طهران ليس له سجل عند الشرطة من نوع أو آخر. كانت قائمة المخالفات المستحقة للعقوبة طويلة، وغبية، ومعقدة. كان حسين يعيش حياة مزدوجة بين أمستردام وطهران، وكان في الأخيرة زوجته وأولاده. وكان يأمل أن يخرجهم من تلك «الحفرة اللعينة»، مضيفاً أنه هو الرجل الذي كتب «أطلق النار هنا» على صدره في احتجاجات 2009.

كنت أريد أن أغيّر الموضوع، الذي بدا أنه قد ينحدر بسهولة إلى نقاش إشكالي. ويبدو أنه كان مثلي. أخبرته أنني لاحظت في طريقي إلى المصعد الممتلئ دائماً رجلاً يضع ممتلكاته في حقيبة بودفيزر، عليها شعار شركة الخمرة وهي ممتلئة بزجاجاتها. ضحكنا على عواقب فعله إذا كانت الزجاجات فعلاً تحوي المشروب المحرّم.

قال حسين، «لم يخاف الناس العاديون أمثالنا من هذه الحكومات اللعينة؟». بقيت صامتاً.

مشينا في شارع المناخة الذي تصطف فيه المحال التي تباع كل ما يخطر في البال من الساعات إلى أثواب الإحراق والعباءات ومحافظ المال والعطر. ولو أن هذا الأخير سريعاً ما مُنع.

كثرت الأعلام الإيرانية. مررنا أمام فندق المدينة موفنبيك.

«هنا يعيش أثرياء الإيرانيين أصحاب المال، أما نحن ففي الطبقة الثانية!» ضحك حسين، قرب فندق زوار الذي كان يرفع كذلك العلم الإيراني.

«يبدو هذا كساحة ولي عصر في طهران»، ضاحكتُ حسين، الذي سعدَ عندما عرف أنني زرت إيران وأعرف ذلك الشارع الكبير الذي يقسم المدينة. ولأكسب حسن ظنه كذبت وجعلت ليلتي اللتين قضيتهما في إيران أسبوعاً. «بصعوبة! فذلك أطول شارع في الشرق الأوسط». استغربت من تعبيره، لأن معظم الإيرانيين لا يعدّون إيران من الشرق الأوسط.

ثم صعدنا الدرج المتحرك في فندق مكارم، الذي جعل فندق الإشراق يبدو مخزياً. كنت متأكداً أن هذا الجزء من المدينة مراقب جداً. أكد حسين شكّي وقال، «نحن مراقبون». شعرت بالتهوّر.

طرقنا الباب ودخلنا الغرفة 701. كانت الغرفة بالأجرة. بالمقارنة مع غرفتي كانت وسائل الراحة فخمة هنا. كان في الغرفة سريران مزدوجان.

كان في الغرفة عشرة رجال. معظمهم من الإيرانيين الشباب أصحاب المنظر الغربي. وكان بعضهم يحتسي القهوة -مرتين- ما اكتشفت بعد ذلك أنه الزي الإيراني التقليدي للحج الكُرب- ولا أثواب ساذجة لهم. كان الرجال يرتدون خاكيات وقمصاناً بلا ياقة، على طريقة أحمدى نجاد.

وكان في الغرفة رجلان جذبا تركيز الجميع. كانا يرتديان عمامات سوداً وأثواباً لطالما رأيتها على المراجع الشيعة أو السادة. ولكن وجودهم في الغرفة 701 كان غالباً يدل على أنهم مجرد ملالي. قدمت نفسي عمداً باسمي برويز حسين، مستعملاً اسمي الأوسط. سريعاً ما أصبح اسمي عند الإيرانيين برويز-وهو اسم فارسي يعني القوة. وجعلني اسمي واحداً منهم. ولو كنت تجرأت أن أقول إني سنيّ في الغرفة 701، لم تكن العواقب لتكون سليمة. قعدت مع حسين على الأرض. وبدا أنهم كانوا في نقاش عميق وكان دورنا أن نسأل أسئلة ربما، ولكن من دون أن نتحداهم.

رأى سكاّن الغرفة أن الوهابيين،/النافقين الحقيقيين، دمّروا التاريخ الشيعي. قال الرجلان، كونوا أقوياء. إننا نستطيع أن نرى سلوكهم من الآن في البقيع وفي دعاء كميل اليوم. وشجعونا أن نحذر من الأسئلة الملوّمة التي ستأتينا من المطوعين. قال صاحب العمامة الأول، إنهم يريدون أن يعرفوا إن كنت شيعياً أو سنياً. قال صاحب العمامة الثاني أنهم يتوصلون إلى ذلك بأسئلة منها، أين تعيش؟ كيف تصلي؟ ما اسمك؟ هل تسمع الموسيقى؟ وأي نوع من الموسيقى؟

كالآخرين الذين التقيتهم في مكة، كان الجو ممتلئاً بالتوجّس. قال صاحب العمامة الثاني، «سيواجه إخوتنا الشيعة في العراق والشام واليمن ولبنان والبحرين والعراق مخاطر شديدة قريباً. يجب أن نساعدهم. اقترب الأمر». بعد عام واحد، كان الدواعش أتباع الإسلام الوهابي يستعملون كل هذه الأسئلة وغيرها لمعرفة الأبرياء الشيعة وقتلهم أمام الكاميرات، لترفع الفيديوهات بعد ذلك على اليوتيوب.

في ذلك الوقت سألت نفسي، كيف عرفوا ما سيأتي؟ ولم أكن أعلم، ولكن هاجس داعش نفسه أتاني مرة أخرى في الحج. بصوت مرتجف، سألت صاحب العمامة الأول، «أيها المرجع الشريف...»

ضحك صاحب العمامة الأول، وقاطعني. «هو المرجع، أما أنا فمجرد سيّد». ثم لدقيقة من الزمان لعب صاحب العمامة لعبة//تعارف الإيرانية وهي لعبة نصف زائفة نصف حقيقية من الحقارة والدمائة، يعرفها كل إيراني التقيته. أخيراً، نظر نحوي صاحب العمامة الثاني.

بدأت قائلاً، وما زلت مرتجفاً، «قال المرجع الأشرف الإمام الخميني، قائدنا الأعلى، نحن في وحدة مع المسلمية السنة. نحن إخوة. يجب على كل المسلمين أن يحافظوا على الوحدة».

ثم سألت، «فلم يستعمل بعض الإيرانيين العاديين شتائم مثل عربي سوسمارخور (العرب آكلو السحالي)، ويقولون إن الولايات المتحدة تدعم الوهابيين، وهم يسموننا//الرافضة؟ وفي الهند وباكستان يسمّون إخوتنا الشيعة ختمالات (أي حشرات الفراش)».

كنت فخوراً أنني اقتبست كلام القائد الأعلى، الرهبر («القائد») الخميني.

ولكن صاحب العمامة الثاني لم يكن سعيداً، إذ أمعن في النظر بازدراء. «اسمك برويز، صح؟» أشرت برأسي موافقاً. «في هذه المسائل، علينا أن نطيع قائدنا دائماً. وهو رجل تُنسب إليه اقتباسات كثيرة يصعب أحياناً أن نفرّق بين الحق منها والباطل. أريدك أن تعلم أننا نحن الشيعة قاعدون الآن في أرض أعدائنا». وعندما قال «أعدائنا» استعمل كلمة من آلاف الكلمات المشتركة بين الفارسية والأردو، التي هي لغتي الأصلية، دشمان. كان بين الفترة والأخرى يعلن أحد أعضاء المجموعة أنه قد حان وقت //الصلوات أو درود شريف، وهي الصلاة على النبي. تعلّمت هذه الصلاة بالطريقة التكرارية العربية قبل أن أترك المكان، عالماً أن الشيعة يكررونها كل الوقت. تقول هذه الصلاة: «اللهم صل على محمد وآل محمد».

جاء بالشاي. شربناها على الطريقة الإيرانية بوضع مكعب سكر في أفواهنا. كانت الليلة طويلة. وتناقشت العمامتان كثيراً. كان اشمئزازهم من مضيفيهم الوهابيين ظاهراً تماماً. ونسبوا إليهم أفعالاً هي أشنع من مجرد أكل السحالي. وكان ذلك أيضاً مناسبةً لذكر شرور الشيطان الأكبر، أمريكا وعلاقاتها التي لا تنفك بهؤلاء الوحوش



السعوديين. ذُكر عام 1987، عندما قتلت الاشتباكات السنية الشيعية في مكة 400 نسمة، بتفصيل كبير. كما ذُكرت حروب واشتباكات أخرى جرت في الحج، أكبرها: إيران والعراق.

همس صاحب العمامة الأول لنا، «كما تعلمون، كثير من إخواننا البيروتيين قاطنون في فندق أنوار الزهراء وفندق دار الرحمة. هم المحاربون الحقيقيون الذين سيجتمعون غداً».

كنت أعلم أن «الإخوة البيروتيين» رمز بسيط لحزب الله.

جاء وقت الصلاة على النبي وآله مرة أخرى. ثم قال صاحب العمامة الثاني بسرّية، «علينا أن نحمي هويتهم مهما كلفنا الأمر. سنلتقيهم فقط في أوقات مثل هذه، ولا بد أن نجد وقتاً لنقعد معاً ونخطط خططاً صحيحة، لا شيء مثل المحادثة المباشرة».

صلاة أخرى على النبي وآله! إلى اليوم، لم أندم على محاولتي الوصول إلى الاجتماع التالي.

بدا أن الشباب في الغرفة كان لهم اهتمامات أخرى.

سأل أحدهم، «كم لبثنا من الوقت بعيدين عن زوجاتنا؟»

صب صاحب العمامة الأول سيلاً غاضباً بالفارسية على السائل، الذي بدا مستعداً للاختفاء. كان صاحب العمامة، حسب ما فهمت، يستعمل مزيجاً من أحكام الشريعة، وآية أو آيتين من القرآن، واقتباسات من قائمة من الأحكام. ثم أضاف، «تذكر أن عليك أن تعمل في الانتظار». وهي كلمة لها المعنى نفسه بالفارسية والأردو والعربية.

منذ وصولي، صرت أكثر ملاحظات على هاتفي وأحياناً على الورق (بالهندية-احتياطاً إذا اكتشفوا). أما في هذه الغرفة هذه الليلة فلم أجزؤ على كتابة كلمة. عرفت أن عملاء حزب الله كانوا يستعملون الحج ليلتقوا داعمهم الإيرانيين، ومنهم هذان الرجلان اللذان يبدوان عالياً المستوى. هل كانت القاعدة تفعل مثل هذا؟

جاء مزيد من الشاي والصلاة على النبي بعد ذلك، وجرى خلاف حول الزيارة. قال صاحب العمامة الأول إن عنده نظرية يقبلها حتى القائد الأعلى. كانت زيارة الأماكن المقدسة، جزءاً محورياً في الهوية الإيرانية، كما كانت في جنوب آسيا حيث ترعرعت. يستعمل الإيرانيون الزيارة لكل شيء. من زيارة كربلاء، المشهورة بأن فيها ضريح الإمام الحسين، وبأنها أكثر حجٍ يقصده الشيعة، إلى ضريح فاطمة المعصومة في قم، ثاني أقدس مدينة في إيران بعد مشهد. اعتادت أُمِّي أن تأخذني، وقد كنتُ طفلاً كثير المرض كثيراً ما أصاب بالالتهاب الشعبي، في زيارة إلى ضريح شيخ صوفي، يسمى شيخ الأمطار التسعة. على الزائر في كل زيارة أن يغطي القبر بتسعة أمتار من القماش الصقيل. وعليه أيضاً أن يشعل بخوراً ويصلي. يقدّس الهندوس والمسلمون الأضرحة هذه، لذلك تشيع في أنحار جنوب آسيا. وهي

موجودة في إيران وباكستان وأجزاء أخرى من العالم المسلم. ولكن هنا، في أرض الوهابيين، مجرد لفظك لكلمة «زيارة» قد يرميك في السجن. يرى صاحب العمامة الأول وكثير من الشيعة أن الحج زيارة تبدأ بالمدينة وتنتهي في مكة.

يقبل شيوخ السعودية كارهو القبور المنطقة شبه الدائرية المعلقة بحائط قرب العمود الثالث للكعبة في مكة، بوصفها «حجر هاجر»، عالمين تمامًا أن معظم العالم المسلم يرى أن هذا هو المكان الذي دُفنت فيه هاجر وابنها إسماعيل، الذي بدأ سلالة الإسلام. إذا حاول الوهابيون تدمير هذه القبور سيواجهون معارضة عالمية. وهو السبب الذي منعهم كذلك من تدمير قبر النبي. يرى كثير من الشيعة أن «حجر هاجر»، المعروف باسم الحطيم بالعربية، يحوي كذلك قبوراً أخرى كثيرة من أسلاف الإسلام. لذا عند الشيعة، كما قال صاحب العمامة الأول، قداسة هذا القبر أساسية وهو مستحق للزيارة. يعرف الوهابيون هذا، وفي كل حج يتهمون الشيعة بالشرك في المسجد الحرام (أقدس مسجد في الإسلام، الذي يحوي الكعبة. كلمة حرام بمدّ الألف أصبحت كلمة تدل على كل شيء محرّم في الإسلام.

قرر صاحب العمامة الثاني أن يقتبس من كلام الخميني، وذكرنا بما قاله، «حتى إذا سامحنا صدام حسين، وحتى لو نسينا القدس وسامحنا إسرائيل، وحتى لو سامحنا جرائم أمريكا، لن نسامح آل سعود».

أرسلت ثلاثة رسائل إلى مجموعة أصدقائي الآمنة، التي تشمل أدم وكيث وشاهيناز: «أنتم هنا؟ أنا خارج مع جماعة حزب الله!»

ردّ أدهم، «أتمنى لو كنت هنا. أنا في حفلة موسيقية رائعة في جدة. البيرة تتدفق مثل زمزم!»

حبست ضحكتي عندما قرأت إشارته هذه لأقدس ماء في الإسلام. أما رد كيث فأيقظني مما كنت فيه.

«لا تفعل كل هذا، حبيبي. لا أستطيع النوم من قلقي. أتمم حجك واخرج من هناك. ابتعد عن السياسة، أرجوك.»

ولكنني أعرف أنه يعرف أنني أحب الخطر والسياسة.

ساد هدوء مؤقت، ثم نظر شاب طهراني الشكل، يبدو كأنه أكره على المجيء (وتبين بعد ذلك أنه كان مكرهاً فعلاً)، إليّ وإلى حسين.

«حسين، هل قلت لبرويز ماذا سيحدث في رمي الجمار؟»

كنت أعلم أن رمي الجمار كان واحداً من آخر الشعائر وأخوفها وأقفلها. لقد مات فيه آلاف الناس. يرمي الحجّاج أعمدة صخرية تمثل الشياطين، ممثلين ما فعله النبي إبراهيم برأيهم. كان التدافع والإصابات والموت (بالرجم حرفياً) أموراً شائعة.

«آه!» ضحك حسين. أخبرني حسين أن للحجاج مدارس للتدريب على الحج في إيران. عندما كانوا يُعلّمون كيفية الرجم، كان يُقال لهم أن يقولوا «الموت لأمريكا» عند أكبر عمود، و«الموت لإسرائيل» عند الثاني، و«الموت لبريطانيا» عند الثالث الأصغر. ضحك من في الغرفة جميعاً. وضحكت أنا. أخبرني حسين بعد ذلك أن بعض الإيرانيين «المساكين» يفعلون ذلك فعلاً عند رمي الجمار.

في الغرفة 701، لم يبد أن أحداً سيغادر، كان كل واحد منا ينظر إلى هاتفه الذكي المضيء، كأني أحد على الكوكب. اعتذرت بأنه قد حان وقت وضوئي للفجر، وتمنوا لي السلامة جميعاً. كانت هذه الليلة تثبت ما كنت أشك فيه دائماً. إن الحج الإيراني، كالحج الشيعي، عمل سياسي وروحي. عدت إلى غرفتي صانعاً للأفلام، ومثلياً جنسياً. لو أن أحد صاحبي العمامة بحث عني في غوغل، لكان حال الغرفة 701 مختلفاً تماماً. ولكنني مع هذا شعرت بالتضامن معهم.

قال حسين، «أمر حزب الله صحيح، برويز». قد يكون صحيحاً حقاً. فالمدينة ومكة عند الحج، عندما يصدر السعوديون ملايين تذاكر السفر، هما المكان والزمان المناسب للمسلمين «السيئتين» أن يجتمعوا ويتحدثوا. لوهلة من الزمن، رأيت أنه يجب أن أعترف لحسين وأقول له أمر شاهيناز. ولكن الجزء العقلاني مني قال لي إن صداقتنا ستكون قصيرة: أصدقاء حج في المدينة، ولكننا سنبتعد مع تقدّم الحج.

كان أماننا ساعتان قبل الفجر. انضممت إلي شاهيناز ودخّنا سيجارة خطيرة، مختبئين في زقاق. لو كان أحد المطوعين ماراً في تلك الساعة، لقلت إنها أختي. لم أكن حذراً جداً—كنت في تلك الأيام الأولى مبتدئاً. لقد فعلنا ما لا يستطيع أحد التفكير فيه! رجل مثلي وامرأة كاشفة الرأس يتشاركان سيجارة. تناقشنا بأمر زملائنا في السكن. وقالت إن أوقح اللواتي في غرفتها أخذت السرير الأكبر وادعت أنها أتقى من البقية. «تجعلني أريد الاستفراغ!» قبل ذلك، أرسلت إلي رسالة، «هنا نصلّي في الخيمة 7/24، ولكنهن بعد ذلك يجتمعن في زمر صغيرة ويغتاب بعضهن بعضاً».

كانت شاهيناز عيوني وآذاني للنظر في العالم المحرم. كنت حريصاً على أن أعرف ماذا يجري للنساء في الحج. لم نتخيل هذا القدر من الفصل. سألتني إذا كان حمل الدين يصبح أخفّ عليّ. كنت أنا وإيّاها طرفي نقيض. هي مثل كيث، ليس في جسمها عظمة دينية. كانت تحترم مخاطرتي بحياتي وجسمي، لذلك أتت لـ«تحمي ظهري». لم نلبث أن أدركنا كم كان ذلك مستحيلاً. لقد كانت السيجارة التي تشاركنها في «ليلة حزب الله» تلك، لحظة احتجنا إليها لكي نخفف عن أنفسنا. عانت شاهيناز أكثر بكثير، لأنها امرأة مدخّنة في الحج. في أفضل الأحيان، حتى في الهند، يُسخر من النساء المدخنات ويُعيّرُن.

اقترب مطوّع مخيف من الظلام. أسعدني أن شاهيناز لها منظر صغير صبياني وشعر جعد كشعر الأفارقة. قد تبدو من بعيد كأنها صبي. ركضنا معًا. ولم يستطع هذا المطوع المسكين المناوب أن يستعمل عصاه ويكتب تقريرًا. أو أن يرمي بنا في زنزانة سعودية.

كان الصباح التالي مليئًا بالنشاط. ركض الحجاج الشباب بين غرف الحجاج مرة ثانية. لقد جاء يومنا. يجب أن نرتدي ثوب الإحرام، وهو الثوب المفروض على الحجاج الذكور وهو قطعتان من منشفة بيضاء غير مخيطتان. قطعتان، كل واحدة لنصف من البدن. كلا النصفين طوله نحو مترين. كان ربط التي تغطي الجزء الأسفل من الجسد صعبًا جدًا. أما الجزء الأعلى فكان سهلًا كوضع شال. الثياب الداخلية ممنوعة، لذا كان النصف الأسفل صعبًا. لم يكن ختاني قد شُفي تمامًا. كان خوفي من أن يظهر بالخطأ فظيئًا. حركة خاطئة واحدة ويصبح خزبي معلنًا. دعاني عم لطيف إلى غرفته، كان مرتديًا ثياب الحج الكاملة. بدا العم مرتاحًا، يرتدي الثوب حول وسطه، إلى كاحليه، اللذين يجب أن يظهرًا. كان ثوبه مثبتًا بقماش مطوي من دون عقدة.

قال، «هذه هي الطريقة البورمية، وهي أسهل لأنك لست سمينًا جدًا». أراني الرجل الطريقة، ولف الثوب فوق بنطالي.

همس العم لي: «سيقولون لك لا تترد حزام المال حولها، لأن هذا ليس من السنة، ولكن لا تستمع إليهم. ستحتاج إلى المال حتى لو لبست هذا الثوب يومًا واحدًا. فافعل ذلك سرًا حين لا ينظر أحد». كلمات حكيم لأنها صحيحة. لقد اشتريت كثيرًا منها. في مكة، انتشر خبر أن برويز عنده زيادة من الحقائق الحزامية. لم يكن ذلك يوم كريسماس. ولكنني شعرت أننا سانتا كلاوز يوزّع هذه الحقائق للرجال الذين يكاد ثوب إحرامهم أن يقع.

بعد أن ارتديت الجزء الأدنى من ثوب الإحرام، بعد القيام بكل الشعائر وخلع الثياب الداخلية، أدركت الاحتمال الجنسي لتلامس القضيب غير المغطى بهذا القماش المصنوع في الصين.

أرسلت إلى شاهيناز، «رجل مثلي يحب أصحاب الشكل الشرقي الأوسطي سيرى هذا المكان جنة، بوجود رائحة الرجال والفروج المكشوفة»، وردّت هي، «لقد قامت هنا حروب البرقع والحجاب والنقاب والعباية يا عزيزي!»

طردت الأفكار من رأسي، التي تدور على المقتضيات الجنسية لكون كل رجل حولي لا يفصله عن العري إلا منشفة. لقد كان منظرنا كمنظر الرجال الذين رأيتهم في ساونات المثليين في أول رحلة لي إلى الولايات المتحدة عام 1998. كذلك كان العطر جزءًا من القائمة الطويلة للمحرمات في الإحرام، وهو ما جعل الحج نتنًا على نحو مزعج.

ركزت على الجانب الروحاني. إن ثوب الإحرام ليس مجرد ثوب. إن معه قائمة طويلة من المحرمات. أعلم أن النبي جعل هذا الثوب ثوبًا للحج لأنه تخيل أمة متساوية، بالأبيض، يرتدي الجميع فيه الثوب نفسه، متجهين إلى الله،

عراً في يوم القيامة. كان القصد من الإحرام التعبير عن حج محمد المتساوي. لقد سمعت وأنا أكبر آراءً كثيرة عن ثوب الإحرام. قال بعض الشيوخ إن كلمة الإحرام تعني الترك -ترك الحرب، والصيد، والأمور الجنسية، وأشياء كثيرة أخرى. ارتديت هذا الثوب، ودخلت حالة من النعمة والتقوى تفوق الوصف. لقد جاء بي الدين إلى هنا، وسيحميني في الأسابيع التي أنتظرها. من هنا إلى نهاية الحج، حتى قتل حشرة حرام.

إن المشي أميلاً مع عطش ومن دون ثياب داخلية، بفخذين يحتكّان في طقس رطب يظن الواحد فيه أنه في عام 100، رُعبٌ لا يعرفه أحد. من هذا المشي بالفخذين الذين يرقّقهما الاحتكاك، السعي في الحج جحيم على الأرض. تمنيت لو أنني أعلم أن السعوديين منذ 2007 يقدمون خيار «البناتيل غير المخططة». كتبت *الجريدة السعودية (ساودي غازيت)* قطعة عن هذه البناتيل في 16 يوليو 2007، جاء فيها، «يشتكى الحجاج عادة من تقرّح الفخذين من الاحتكاك بسبب المشي الكثير. هذا البنطال سيحمي الفخذين.»

أرسلت إلى شاهيناز، «ما هو ثوبك للحج، سيدتي؟ بلا ثياب داخلية؟»

ردّت شاهيناز بوقاحة، «سأترك هذا لخيالك الخصب عزيزي».

لقد كنا بريئين، هي وأنا. لم يجرؤ أحد أن يخبرنا بالفظائع التي تظهر عندما تحتك الرجال بأجسام مئات آلاف النساء، إذ لا فصل بين الجنسين في المسجد الحرام في مكة. في وقت الذروة، كان الطواف عنيقاً. كان معظم الرجال قريبين جداً من أجسام النساء. وليس كل حاجٍ ذكراً تقيّاً.

بدأت أول طواف لي بثيابي الجديدة، والتقطت صورة سيلفي وأرسلتها إلى مجموعتي التي أرسلها. نظر إلي حاج أكبر مني مستنكراً. تجاهلته. لم يكن ممكناً أبداً أن أذهب إلى الحج من دون سجايري. ومن حسن الحظ لم أكن الوحيد الذي يحمل التبغ في عقله ونفسه.

## الفصل السادس

### المؤمن العاري

الموضوع: عاجل!!! تيم هورتونز!

أود أن أشكر أخًا على إعطائي هذه المعلومات

السلام عليكم أيها الأخوة والأخوات.

سألت مديري عما إذا كان الكابتشينو المثلج يحتوي على كحول أم لا. فأعطاني رقمًا محددًا لأتصل به لأنه غير متأكد. لذا اتصلت بهذا الرقم. فأتضح أن الكابتشينو المثلج يحتوي على «كحول إيثيلي»، وهو نفس الشيء المستخدم في المشروبات الكحولية. لذا تأكد أن الكابتشينو المثلج حرام علينا نحن المسلمين. وقالوا إن أي شيء يحتوي عادةً على أي نكهات صناعية في تيم هورتونز يحتمل أن يحتوي على بعض آثار الكحول الإيثيلي.

سألتهم أيضًا عن جميع المنتجات الأخرى مثل العصائر، وشراب الليمون، والفانيلا الفرنسية والشوكولاتة الساخنة. قالوا إن جميعها تحوي نكهات صناعية، ما ينتهي إلى احتواء كل المشروبات على الكحول أيضًا. فسألتهم بعدها عن جميع المخبوزات (الدونات، التيم بيتس، البيغل وغيرها). فأعطوني قائمة، انظروا من فضلكم إلى القائمة لتعرفوا.

الحمد لله رب العالمين على أننا سننال جميعًا مكانًا في الجنة إن شاء الله لاتباعنا شرائع الإسلام. سننال جميعًا أجرًا إن شاء الله.

عصير التوت المخلوط

أي شيء في علبة أو زجاجة

الطعام:

بيغل بالحبوب الاثني عشر

قمح وعسل

بيغل ببذور السمسم

جميع الدونات / التيم بيتس حلال باستثناء التالي:

دونات كعكة الليمون

دونات التفاح والقرفة

دونات سمورز

دونات مع رشات ورقة القيقب الحمراء

كانت رضية سلطنة، مؤلفة هذه الرسالة الإلكترونية المحررة، مهاجرة متزوجة حديثاً في كندا، التي «أجبرت» زوجها رشيد على القدوم إلى الحج. جلسنا بجانب بعضنا على متن الطائرة من الدوحة إلى المدينة المنورة. وحرص رشيد على جلوسه في المنتصف. كان هذا الزوجان الودودان قد اكتسبا بالفعل الـ«إيه» الكندية والأسلوب الجاد البشوش الذي لطالما أعجبني في شعب وطنهم المتبنى. أخبرني أنه غير مؤمن وأنها أجبرته على القدوم حتى يتمكن من الإقلاع عن التدخين. فلامته رضية، التي بدت متدينة حتى العظم، مرتديةً درع النينجا المعتم المؤلف من عباءتها السوداء القاتمة، بلطف من خلال نقابها الذي غطى كامل وجهها. فحدقت إلى الأمام مباشرةً.

لما حطت الطائرة في المملكة العربية السعودية، وحالما انتقلت رضية لمعالجة بياناتها في طابور الحاجات، سألني راشد إن كان بإمكانه مشاركتي بعض السجائر.

«لا تخبرها. سندخن سرّاً عندما لا تكون النساء حولنا». وكأن شاهيناز لم تكن كافية، أصبح لدي الآن عبء إضافي يتمثل في مدخن سري آخر ومن الجنس الآخر للأسف الذي قد يواجه عواقب لا يمكن تصورها إن قبض عليه.

فقد اتضح أن النساء، في معظم حجننا، يحشدن بعيداً عن المنال.

أخبرت رضية أنها شاركت اسمها مع ملكة محاربة هندية تاريخية، مُثلت في دور مثالي مغري في فيلم بوليوودي شهير من الثمانينيات. بحلول هذا الوقت، أصبحنا رشيد وأنا رفيقي تدخين وعرفت أنه كان في الخمسين من عمره وأن لديه زوجة أخرى وابنتان، بعمر رضية التي تصغره بكثير. قال إنها لم تعلم بوجودهم. فقد تزوج من زوجته الأولى لأسباب تتعلق بالهجرة فقط، ثم وجد والديه له رضية في بومباي. ومع جواز سفر كندي كان عازباً مؤهلاً، شريك مثالي. لم أخبر رضية. ولم أخبرها أيضاً أن سَمِيَّتْها المشهورة اتخذت العديد من النساء كحبيبات في أثناء فترة حكمها القصيرة ولكن المضطربة في الهند. ولحسن الحظ، لم تشاهد رضية الفيلم وإلا لكانت تذكرت سلسلة أغاني مستفزة تحمم فيها الشابات الحريم الممثلة المسلمة المثيرة بارفين بابي بحليب الإبل، واللاتي كن، مثل ملكتهن، في مراحل مختلفة من العري. في هذه الأثناء، ارتدت رضية الحقيقية قفازات سوداء، فكانت متطرفة حتى بالمعايير السعودية.

لا يفصل الرجال عن النساء في الحرم الشريف بمكة، سمي كذلك لاحتوائه على قبلة الإسلام، الكعبة. إذ يتساوى الجنسان عند مقابلة الله هنا في «منزله». اختارت العديد من النساء حول الكعبة في أثناء حجبنا تحدي فتوى الرسول نفسه بعدم التحجب. وربما انتشر خبر الإهانات التي عانت منها النساء من حجاج ذكور لا يرتدون ملابس داخلية، الذين لم يكن معظمهن على مقربة من هذا العدد الكبير من النساء. وقرب انتهاء حجبنا، كانت رضية، مثل الكثير من النساء الأخريات، تقترب من الكعبة مغطاةً بالغمد الأسود حتى الجوارب!

بعد مغادرتنا الأرض المقدسة بستة أيام، أنا إلى أمريكا ورشيد ورضية إلى كندا، بدأت رضية خدمة قائمة بريد إلكترونية. فجعلتها بعض الأنشطة مثل دراسات الحرام والحلال في قائمة تيم هورتونز أكثر الناشرين فيها إنتاجاً وجعلتني ربما أكثر قراءها ولاءً.

يعلم جميع المسلمين أنه لا يسمح لمعظم دول العالم بأداء الحج أبداً. ظلت مكة، الواقعة على مفترق طرق مثالي بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، لقرون مدينة تنسج فيها قبائل الصحراء قوافلها للتجارة والصلاة. ولطالما رحبت المدينة بالعطشى، والمرهقين، والمؤمنين والتجار الذين كان المال دينهم الأساسي. وقيل إنه لم يرد أحد على أبواب مكة. لكن ليست مكة التي ذهبت إليها.



حج محمد مرة واحدة فقط في حياته. بعد عودته منتصرًا كنبي إلى المدينة التي طرد منها، ومصحوبًا بمئة ألف مسلم حديث العهد، قضى ليلته في واحة صحراوية تسمى ذو الحليفة، حيث استحم ولبس إحرامه. ثم توجه مباشرةً إلى المسجد القديم، ولما رأى الكعبة جثًا على ركبتيه مناديًا: «اللهم أنت سلام. ومنك سلام. أحينا ربنا بالسلام». ومع ذلك، لم تكن أفعاله التالية سلمية تمامًا، إذ شرع في تدمير منهجي للأوثان الموضوعة والمعبودة في المكعب لمئات السنين. فقد احتاج إلى إرساء أسس الإسلام: وجب أن تختفي الأصنام. وعلم أن قدسية الدين الفتى الذى جلبه لسكان هذه المدينة تحتاج إلى الحماية. فجلب غير المسلمين الأصنام معهم.

عند استعدادي للرحيل، كنت ممتنًا لشجاعة والدتي التى تسرى فى عروقى. لكننى أيضًا قضيت معظم حياتى الراشدة خائفًا من إيماني، ومعذبًا بما اعتقدت أنه مؤكد: لم أكن مسلمًا كفايةً ليسمح لى بدخول الأرض المقدسة. بالنسبة لى، كان الإسلام دائمًا إيمان خوف. وربما كنت هنا للتغلب على خوفى من الإيمان. إذ يخضع الوصول إلى المملكة العربية السعودية فى القرن الحادى والعشرين لرقابة مشددة، وتعد مكة على الأرجح إحدى أكثر مدن العالم سرية.

توجد لافتات كبيرة على كل الطرق المؤدية إلى مكة تحذر «للمسلمين فقط». وتحرص الخارج المحددة جيدًا للخروج من هذا الطريق السريع الإسلامى إلى الجنة على مغادرة جميع الكفار العقلاء قبل فوات الأوان. لكننى عرفت مسبقًا أن عمال البناء الصينيين، مثلًا، قد تحولوا إلى الإسلام سريعًا حتى يسمح لهم بدخولها، تمامًا مثل الجنود الفرنسيين الذين حرروا المسجد الحرام فى عام 1979. وقد ساعد على هذا أن عهد الإيمان فى الإسلام، الشهادة، يستغرق أقل من دقيقة لنطقه: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله». تتعلق أيام الحج الخمسة بمكة، حيث يُفترض أن تتاح مفاتيح الجنة لكل حاج. لكن بالنسبة لى، مثل الكثيرين، كانت كل لحظة قضيناها على الأراضي السعودية حجاجًا، وخصوصًا فى المدينة المنورة.

انطلقت حافلتنا المليئة بالشيعة نحو مكة. اعتقدت حينها أنني السنى الوحيد فى مجموعتي فى الحج. فشاركته هذا السر مع قائد مجموعتنا. لكنى لم أجرؤ على مشاركة سري الأكبر. الذى ظل فى خزانة الحج الخاصة بى.

قال شفيق: «نحن الشيعة نرحب بك يا أخي بارفيز». «لكن لو كان العكس، فلن يحدث هذا أبداً. حاج شيعي في جماعة سنية؟ مطلقاً!»

جلست أنا وشاهيناز معاً في مؤخرة الحافلة. وكما في المدينة المنورة، أردت إثبات أنها ابنة عمي. تشاركنا مخاوفنا بشأن ما ينتظرنا. كانت تشبه النينجا تقريباً، لكنها كانت بيضاء عملياً على الأقل، وأفضل ما في الأمر أنها كشفت عن وجهها، كما أمر الرسول. كان ابن عمها الحقيقي عبد الله من برمنغهام يشخر بهدوء بجانبها.

في منتصف الليلة، وبينما امتلأت حافلتى المتوجهة إلى مكة المكرمة بالزملاء الحاج، أعلننا جميعاً وصولنا إلى الله في منزله بهتاف: «لبيك اللهم لبيك!» («ها أنا ذا، يا الله، ها أنا ذا») ولمّا عبرنا بسلاسة جميع نقاط التفتيش الإسلامية، أضاء قلبي. لم يجرؤ أحد على منعي من دخول مكة.

كان الرسول الذي أعرفه، محمد الذي جنّت إلى هنا أناشده، سيقاقل ببسالة لمنع الانقسام بين الشيعة والسنة، الذي ينتهك كل مبدأ من مبادئ الأمة الإسلامية الموحدة التي عمل جاهداً على إنشائها. وكلما هتفنا، أدركت أنه كما أن الإسلام لا يخص سوى مؤمنيه، فإن محمداً وقرآنه، لحسن الحظ، يخصان جميع المسلمين. كنت أتبع خطى محمد، بدخولي مدينة محرمة بطرق عديدة على جميع من في الحافلة، تماماً كما حرمت عليه، لمحاولة استعادة ملكية الإسلام. ربما كان حجبنا نفسه عملاً تقويضياً؟ وشعرت براحة غريبة عند معرفتي أن زملائي الحاج الذين شاركوني الحافلة كانوا، مثلي، غرباء عن الإسلام.

ومع ذلك، هناك عدة حقائق غير مريحة. فمن الجلي لمعظم المسلمين أن العديد من خاطفي طائرات 11 سبتمبر، الذين تدربوا على نوع الإسلام الذي يأمر به النظام الملكي السعودي ويستمر بسببه، قد أدوا فريضة الحج هذه. لماذا؟ لأنهم كانوا سعوديين، وهذا ما يفعله السعوديون (المتدينون).

التزمت بالصلوات الخمس لأشهر، لكن ذلك بالكاد هيئني لما ينتظرني. كانت الساعة 3:40 صباحاً عندما وصلنا. بقينا في الحافلة ثمان ساعات مرهقة. تستغرق الرحلة من المدينة المنورة في الظروف العادية -وليس في أثناء الحج- نحو خمسة ساعات. بعد أن ترجلنا، اقتربنا رشيد، ورضية، وشاهيناز، وعبد الله وأنا من الحرم الشريف معاً، على أمل ميئوس منه أن نؤدي ذلك معاً. ولكن اتضح

خلال بضع دقائق أنه لا يمكن أن نبقي كمجموعة، واختفى الأزواج في كتلة بشرية مستعجلة أكبر من أي شيء رأيته في حياتي. حاولت الإمساك بشاهيناز بقدر ما استطعت.

ثم تركت وحيداً. كانت وحدتي بين الملايين حولي متناقضة وهائلة.

ارتديت إحرامي على الطريقة البورمية. تمحور الإحرام حول ديمقراطية رؤية محمد للأمة. ولكن، أصبح الحج السعودي في القرن الحادي والعشرين حجاً غير متكافئ. فهو يتم بالنسبة للكثيرين براحة خمس نجوم فاخرة. لما دخلت حدود المسجد الحرام الذي يعد موطن الكعبة، شعرت بإحساس عميق بالإنجاز. كنت هنا كمتنرد، لا يسمح الإسلام السعودي، المزهري على عدم المساواة والقمع، بدخوله أبداً،

طبعت صورة الكعبة على كل سجادة صلاة رأيته على الإطلاق. ومثل معظم المسلمين، حفرت هذه الصورة في ذاكرتي منذ الطفولة. فبالنسبة لدين لا يحب الصور، كانت صورة الكعبة هي الأقدس. فكرت أولاً أنه لا يفترض أن أكون هنا. ثم تذكرت مجدداً، مذهولاً بمشهد المكعب، أنه مجرد غرفة فارغة. ضمنت هندستها ألا يكون لها اتجاه. وبدلاً من ذلك، أمر سدس البشرية بمواجهتها خمس مرات يومياً طوال حياتهم. هل كانت هذه هي مركز إيماني، وصلاتي، ومحبتي، مركز الحياة والموت؟

لما نظرت في هذه الليلة إلى المكعب الأسود لأول مرة في حياتي، انتحبت. عادت الدموع التي سُرقت مني في جنازة والدتي في موجة عنيفة لا تُوقف. انتحبت كطفل وليد. لكن ها هي ذي، تحتضني بتلف، في عناق كامل ومحبة من أنواع القبول النهائي. وتهمس لي كم تحبني. في لحظة الحزن والاعتراف والفقد والاكتشاف تلك، لم أدرك أنني كنت على وشك البدء بأعنف ليلة في حياتي. أعلنت نيتي الرسمية في أداء الحج. ثم انضمت إلى الكتلة المتحركة، مثل قطرة تدخل المحيط.

يطبق آلاف المطوعين القواعد الإسلامية الصارمة هنا في مكة. وتمكنت أيضاً من مشاهدة هذه اللحى البرتقالية - إذ صبغ بعضهم ذقونهم بالحناء - في فترة ما بعد المدينة المنورة يضعون عمامتهم الحمراء الفضفاضة، ويتجولون بين الحشود مع عصيهم الخشبية الرفيعة، مستعدين لاعتقال أي شخص يخالف القواعد - من قواعد اللباس حتى مخالفات الأفعال الجنسية، وحياسة الكحول، واستهلاك

وسائل الإعلام غير الإسلامية، وأشكال السلوك الغربي المختلفة الأخرى بما فيها التدخين. رغم ممارستهم الأخير بسعادة.

يفرض المطوعون أيضاً مواقيت الصلاة. فقد رأيتهم يعملون فيتجولون ويتأكدون من إغلاق جميع متاجر الفن الهابط مصاريعها خمس مرات يومياً، ويتأكدون من أن كل واحد منا يصلي «بالطريقة الصحيحة».

وجب عليهم التأكد من حفاظنا على الوضعية السليمة في أثناء الصلاة اليومية، وحتى في أثناء أوقات الانتظار التي تمتد لساعات أحياناً قبل تلك الصلوات. وفقاً للمطوعين، وجب أن تنتهي قدمي اليمنى بشكل مستقيم تحت ردفتي اليمنى وأن تمدد قدمي اليسرى أفقياً بين طقوس الصلاة المختلفة. كان هذا عذاباً لجسدي غير المعتاد، وكلما طالت مدة ركوعي في أثناء صلاتي اليومية، أصبح ألمي أكثر حدةً -وألفة. أدركت مؤخراً أنني أعاني من انتكاس ناسور شعري قديم، الذي تطور قبل عامين بعد جلوسي بوضعية سيئة لساعات لا تحصى أمام حاسوبي. سمي هذا المرض في أثناء الحرب العالمية الثانية «مرض جيب»، لكونه نتيجة مؤلمة لركوب سيارات جيب متخبطة لفترات طويلة. احتجت إلى جرعة مكثفة من المضادات الحيوية وبعض الفوط الصحية النسائية تحسباً لأي نزيف، والأهم من ذلك كله، وجب علي تخفيف الضغط عن عصعصي. لم يكن لدي أي من هذه الخيارات في هذه اللحظة، لحظة اقترابي من الكعبة، التي بنيت في بلايين العقول المسلمة مثل عقلي بوصفها لحظة تعادل عمراً بأكمله.

قبضت في يدي اليمنى تسبيح، مسبحة صلاة يفضلها المسلمون. صنعت في الصين أيضاً. تكونت هذه المسبحة من تسعة وتسعون خرزة بلاستيكية بشعة. لكن المسبحة التي علقت على مقبض خزانة والدتي احتوت على مئة خرزة. كانت والدتي تقول إن الخرزة المئة لتذكرك فقط أنك شخص طيب ومبارك للغاية لإكمالك دورة من تلاوة أسماء الله التسعة والتسعين.

لم أعرف أسماء الله التسعة والتسعين. وكنت بأفضل حالاتي قادراً على استجماع ثمانية أو تسعة. لم أكن اليوم بأفضل حالاتي أبداً. لذا قررت الماضي مع ما أجيده. فتمتعت *الله أكبر* بضراوة لم أعرف أنني أملكها. كانت ضراوة هامسة وغير مسموعة تقريباً. وكان يمكن أن تتضخم، بل أن تصل

حتى مستوى الصراخ، رغم أن تلك اللحظة لم تأت بعد. تحتاج أحياناً إلى أن تصرخ بأعلى صوتك حتى يسمع الله إيمانك.

وجب علي الطواف سبع جولات حسب التكليف. ولأنني كنت أؤدي الحج الشيعي، علمت أنه يتعين علي الاقتراب قدر المستطاع إلى الدوائر القليلة الأولى، ومنافسة مئات آلاف الحجاج المتدافعين للحصول على مكان. لقد تمكنت من رؤية النساء يتعرضن للتحرش وسمعت صراخهن حتى.

سرعان أصبحت حبات مسبحتي زلقة بالعرق. وكذلك بقية جسمي. وبدا أن خطأ من العرق تشكل حول قضيبتي الذي لم يشفى بعد. ثم شعرت بشيء يسيل في أسفل ظهري، ببطء ودون انقطاع وعلانية. تمنيت ألا يكون دمًا.

لا يمكن أن يكون هناك دم. سيلطخ إحرامي الأبيض وينجسه. نفس الإحرام الذي يفترض أن يكون أضمن رمز لديمقراطية الإسلام المثالية. وسأضطر بعدها، مجددًا، إلى أداء الغسل المعقد، أو طقوس الاغتسال والتطهير. وسيتوجب علي بطريقة ما إيجاد سبيل للعودة إلى الفندق وإعادة كل خطوات الوضوء العديدة، كل لحظة موصوفة ومكتوبة. والدعاء لكل قطرة ماء مباحة إلهيًا ومطهرة على جسدي. كنت قد أمضيت أسابيع أحفظ الأدعية الشيعة الصحيحة للحظة التي أمرر فيها يدي اليمنى فوق سرتي، لغسل ذراعي بالطريقة الصحيحة تمامًا. حاولت جاهدًا أن أفهم ذلك بشكل صحيح، أن أفهمه تمامًا بحيث لا استجوب لاحقًا، عندما أصبح هنا علنًا، حول نواياي أو شرعية رحلتي. لكن الإحرام المدمى سيكون دليلًا على قذارتني وخطيئتي.

لم يكن الإحرام مجرد قطعتين غير مدروستين من القماش الأبيض. كان حالة ذهنية. فقد لقنا كمسلمين أن هذه الملابس البيضاء البسيطة تهدف إلى جعل الجميع يبدوون متشابهين أمام أعين الله. أظهرت هذه التعاليم، بلا شك، ديموقراطية الأمة الإسلامية، أخوة المؤمنين العالمية، ووحدتها المتباهي بهما كثيرًا.

اعتادت والدتي على القول بأن الإحرام هو الكفن. وأن خوض هذه الرحلة هو تحضير للموت. وإذا كنا محظوظين كفايةً لنموت في حالة الإحرام، فسنحظى بتذكرة زهاب إلى الجنة بدفننا في الأرض

المقدسة. أوضحت أنه إذا عاد الشخص حيًّا، وجب عليه إحضار إحرامه والحفاظ عليه، لاستخدامه عند الموت فقط ليدفن فيه. سيكون الدم عارًا أعظم مما يمكن أن أتخيل.

ساعدتني /التكبيرات/ على التركيز. إذ شكلت كل تكبيرة لحظة كاملة وطويلة للغاية، ركزت على عظمة الله فحسب. وبهذه الطريقة دربت عقلي في أشهر الاستعداد الحقيقي السبعة الماضية. بهدوء، وآمل، وبشكل غير ملحوظ، حركت يدي اليسرى ببطء إلى مؤخرتي. لقد كنت غارقًا في العرق. لكن لم يكن هناك دم. خرجت /التكبيرات/ القليلة التالية من شفتي مرتجفةً بامتنان.

قادني غروري، الذي تمنيت أن أفقده أو أنساه أو أتركه في مكان ما هنا، إلى تخيل أن كل زوج من ملايين العيون هذه كان قادرًا على اختراق روعي الآثمة وقراءة كل رعدة شك خيمت على وجهي المنسق بعناية. لم أدرك حينها أن مسألة الحصول على رضا الله حافلة واستحواذية ولا تفضي إلا إلى نوع من الهوس بالنفس فقط. لم أدرك أن إظهار الإيمان فحسب لا يكفي أبدًا وأنه بالنسبة للعديد من المتعبدين حولي كان الانشغال بعمر الخطايا عملاً بدوام كامل.

في شroud خاطف من الترديدات المركزة، تذكرت تحقيق صحفي قدمته مراسلة جريئة قبل 11 سبتمبر بفترة طويلة، التي زارت سجنًا أمريكيًا ووجدت أنه يسمح للنزلاء المسلمين استخدام مسابح الصلاة من أجل آثارها العلاجية. قالت المراسلة إن الخصائص التأملية لقبض مسبحة الصلاة قد استخدمت في التسعينيات من أجل تحقيق «تعافي ناجح» لآلاف المساجين. وأضافت أن الأمر أصبح مثيرًا للجدل عندما بدأ أفراد العصابات في حمل مسابح بألوان مختلفة داخل السجون للتعريف بأنفسهم. إن فكرة استخدام السجناء المسلمين وأعضاء العصابات في الولايات المتحدة للمسبحة، التي اشتروها بلا شك من بعض متاجر وول مارت في معقل مدمني الميث، في نوع من طقوس التطهير الإسلامية، رسمت ابتسامة على وجهي.

أضاء جهاززي الآيفون. في دولة لا تستطيع المرأة الوصول إلى مقعد السائق حتى وتحرم إلى حد كبير من أي شكل من أشكال التصويت، فإن سيرري الثرثرة ستكون ثورية. المشكلة أنها لم تتحدث كثيرًا مؤخرًا - فهي تحتاج إلى شبكة واي فاي لتعمل. لكنها وجدت الآن، فجأةً، شبكة إنترنت: سميت «مجموعة ابن لادن السعودية». شغلت نفسي بمحاولة تسجيل الدخول. فجربت كلمات مرور مختلفة.

أسامة، جهاد، جهاد911، كافر، كافر786، توحيد1432، وغيرها الكثير، استحضرت كل التركيبات الإسلامية الغربية التي أمكنني التفكير فيها. لم ينجح شيء وكان ما يزال هناك الكثير لأفعله في تلك الليلة. لكنني وجدت بديلاً آخر لمجموعة إشادة ابن لادن، التي انضمت إليها وكانت مجانية. فاتني التحدث إلى سيري، ولكن، سمحت بمزيد من الإلهاء لزحم عقلي حتى مع مواصلي غمغمة الله أكبر، فتساءلت عما إذا كانت سيري الذكية جداً تعلم أن هذا الصمت الأنثوي الوقور هو طريقة التصرف المناسبة في الأرض المقدسة.

راسلت زوجي، «أنا هنا، حبيبي. غريب لكن الكعبة تحميني من الآن فصاعداً. قد لا أرسلك في الساعات القليلة القادمة ولكن لا تقلق. سأكون بأمان».

رد كيث، «أحبك. جداً، جداً، جداً».

مرت دقيقة واحدة فقط في نيويورك على الأرجح بينما كنت واقفاً هناك أكتب على هاتفي مع ذهني المزدحم. إن الدقيقة في نيويورك لن تعني لي نفس المدة مجدداً. فقد بدا أن كل ثانية تستمر عمراً هذه الأيام. وغالباً كنت، بعد هذه الليلة الأطول وربما الأكثر إعجازاً في حياتي على هذا الكوكب، سأقيس حياتي وفقاً لدقائق مكة.

وبعد ذلك انغمرت متعمداً في محيط المؤمنين. وفي ليلة السحر والعذاب هذه، لم أكن وحدي رغم كل شيء. قبضت يد والدتي بيدي اليمنى، وحملت صورة جواز سفرها، مع شعرها المكشوف بتحدٍ بيدي اليسرى. لكنها كانت ترتدي الليلة وشاح دوباتا أحمر فاتح ملفوف بإحكام حول رأسها. كان السرطان الذي عصف بجسدها المتباهي سابقاً قد سلب كل شعرها أيضاً. ورغم أنه لم يبق لديها شعر لتخفيه، نفس الشعر الذي اعتبر قوياً بشكل خطيراً كفاية لإلهاء المؤمنين حولنا عن مهامهم الإيمانية الشاقة في هذه الليلة الطويلة، أخذت نفساً وعدلت وشاحها. فابتسمت لمعرفة أنني قد آمنت أخيراً. كنت الابن القدير الذي أوصلها إلى مكان الإيمان والشعر والشوق هذا. ولما شدت على يدي، شعرت بالفخر يمر من خلال يدها الضعيفة إلى يدي.

تمكنت من رؤية البرقع الأسود، المرصع بالذهب بآيات قرآنية، الذي يغطي باب الكعبة. ماج نهر البشرية الجامح المحيط بي نحوه محاولاً لمسه والوصول إليه وتقيله. كانت هذه بؤرة تدافع الإسلام.

والتي أصبحت، بالنسبة لي، في الليلة الأولى تلك مساحةً مشبعةً بالعنف أكثر من أي فكرة روحانية. كنت سأخسر الكثير في هذه الليلة الطويلة. حاولت دون جدوى لمس الكعبة. فعادت الدموع التي اعتقدت أنني لم أعد أملكها، عندما كادت أنفاسي تلامس سطح الحجر الأسود. سطح جعله الملايين أملساً، الذين أمل كل منهم في هذه اللمسة التي قد تطهر نجاسة أيديهم وأرواحهم الآثمة. كان الحجاج الموفقون حولي يفركون أيديهم بيأس على السطح، وحتى ممتلكاتهم الشخصية الثمينة أحياناً، أملين أيضاً أن يحملوا معهم بعضاً من قوة هذا السطح إلى الوطن معهم. لقد عملنا جاهدين لنقترب حتى هذا الحد.

لكن فرض إسلام الشهداء الشيعي لمجموعتي أعمال حرمان ذاتي عديدة. وقد تعجبت في الليالي والأيام التالية، من مقدار المتعة التي يمكن أن يستمدّها المسلم الشيعي من الزهد والحرمان. بدت الشهادة مناسبة لهم تماماً. وفي بؤرة تدافع الإسلام هذه، تجلّى الفقه الشيعي. فقد وجب علينا الاقتراب قدر الإمكان، ولكن، على عكس السنة، وجب أن نمتنع عن لمس الحجر أو حتى النظر إليه. كانت والدتي، التي لطالما سمّيت الشيعة «ختمال» -حشرات الفراش، التي تتكاثر بكثرة بطرق شريرة وسرية- ما تزال بجانبني ولمست الحجر الأسود لثانية عابرة. لكنني لم أستطع.

واجهت الكعبة ببساطة وأديت استلامي المفروض، تحية تشبه القبلة الطائرة للمكعب، مع بدء كل جولة جديدة من الطواف. كان الفجر ينبثق حين انتهائي من ركعتين بالقرب من مقام إبراهيم، مكان وقوف النبي إبراهيم، الذي يتميز بكشك ذهبي صغير. صلينا معاً، الأم والابن. كان هذا المسجد الوحيد في العالم الذي لم يفصل بين المؤمنين والمؤمنات. وفي هذه اللحظة، أحنيت رأسي في ما كان ينبغي أن يكون صلاة استبطان، فتلقيت ضربة غير مقدسة من عصا المطوع. إذ وجب علي التقدم.

في تدافع جنوني، دفعت إلى طقسي التالي، السعي (طقس المشي)، في تلال الصفا والمروة. تماماً مثل هاجر، الأم اليائسة التي بحثت منذ قرون عن المياه بين هذه التلال لتتمكن من إنقاذ حياة ابنها إسماعيل، مشيت بهمة بين التلال عاصياً، كما أمرت النساء أن تفعلن «احتشاماً». كان يفترض أن يركض الرجال في نفس المنطقة من ذلك القسم التي وضحتها مصابيح الفلوريسنت الخضراء. وبينما كانت والدتي تسير معي، عرفت أنها، مثل هاجر، كانت تحاول إنقاذ حياتي. بعد كيلومترين، أصبحت كلتا التلتان مغطاتين بأقفاص زجاجية ولم يعد بإمكان الحجاج، خاصة الشيعة منا، لمسها.



شعرت بيدها تنزلق بعيداً. ولما فقدت توازني وسقطت، توقف رجل وساعدني، ودفعني هذه المرة بلطف إلى الهرولة المفروضة. فهرولنا المسافة معاً. لكنني فقدت صورة والدتي.

مكسوراً ومطارداً، بحثت عنها عندما غادرت. فقدت إحدى أغلى ممتلكاتي في تلك الكتلة البشرية، التي أملت أن تلمس الكعبة معي. تساءلت لاحقاً عما إن كان يفترض حقاً أن يتم الأمر هكذا. فقد كانت تنتمي إلى هناك وتركتها هناك، حيث يحتمل أن تكون قد سحقتها أقدام الحجاج المهووسين إلى مليون قطعة. ربما رغبت في ترك صورتها هناك، بالقرب من الكعبة التي طاردتها.

رفعت نظري إلى السماء، ولو للحظة للهروب من الجنون حولي. وبحثت عن دليل لإثبات صحة نظرية الطفولة. فقد اعتاد كبار السن على القول بأنه حتى الطيور لا تجربوا أبداً على التحليق فوق الكعبة. كانت مجموعات الحمام في مكة تستيقظ وتطير. وكما توقعوا تماماً، لم تطر فوق المكعب، لكنها مثلنا نحن الحجاج، دارت حوله.

كان الفجر ينبثق، فدوت الأذان معه، أذان الصلاة، بالرخامة التي وعدت بها عندما كنت طفلاً. تحظر الموسيقى في المملكة العربية السعودية، وهي إحدى المحظورات العديدة في قائمة طويلة تدعي السلطات أنها محظورة «إسلامياً». في تلك اللحظة، شعرت أن هؤلاء السعوديين غير الموسيقيين تمكنوا من تأليف أغنية رائعة في الأذان. كان صوت المؤذن عالياً وواضحاً وجميلاً، وحول كل كلمة عربية إلى لحن:

الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمداً رسول الله.

حي على الصلاة. حي على الفلاح.

الصلاة خير من النوم.

يصف الوهابيون الموسيقى بأنها غير إسلامية. هل يفهمون أن أذان الصلاة وتلاوة القرآن تعد موسيقى لأذان الملايين من المسلمين؟ هل نسوا بسهولة التاريخ الموسيقي الغني في هذه الرمال؟ كنت سأقتل لرؤية المطوع يؤدي هارلم شيك في إحدى الحفلات الموسيقية المزدهرة تحت الأرض في جدة.

## الفصل السابع

### الآيات الشيطانية

«هل وصلت؟» راسلت شاهيناز.

أجابت «بالكاد».

«تحدث أدهم عن متجر باسكن-روبنز في المجمع التجاري الكبير مقابل الحرم. أنلتقي هناك في العاشرة صباحاً؟» كانت شاهيناز أيضاً في درشة جماعية فيها أنا وكيث وأدهم، لذلك عرفته معرفة جيدة.

«أظن أن باب الملك فهد مناسب أكثر».

«حسنًا. لننم ثلاث ساعات ثم نلتقي هناك».

كانت الشمس القاسية قد أشرقت بصورة كاملة في العاشرة صباحاً حيث اتفقنا أنا وشاهيناز على اللقاء عند باب الملك فهد. ولعل محاولاتها لمنع تسلل أي خصلة من تحت الحجاب كانت فكاهية، تقريباً. تمنيت لها صباحاً خيراً.

«لا خير فيه يا عزيزي»، أجابت، «اليوم عيد ميلادي وانظر كيف حالي!».

لقد صُغت عندما أخبرتها أن العقيدة الوهابية قد سرقت بهجة هذا الطقس السنوي من الأطفال منذ أجيال. إذ ارتأت أن الاحتفال بأعياد الميلاد بدعة، أو اختراعاً غير إسلامي. حتى الاحتفال بالمولد النبوي كان محرماً، خلافاً لما هو عليه الحال في معظم أجزاء العالم الإسلامي.

كان هذا بالنسبة إلي أكبر مثال على الحقد الوهابي: أن تُحرم طفولة كاملة من بهجة أعياد الميلاد وبالوناته وحلوياته وهداياه. ومن تجراً فعلاً على الاحتفال قام به سرّاً. ظهرت مع مطلع الألفية منشورات موقعة من «السلطة العليا» تقول إن الاحتفال بأعياد الميلاد وغيرها من المناسبات السنوية «هرطقة».

بدأنا بالسير سويةً نحو مول أبراج البيت المقابل للكعبة. اقترب منا أحد المطوعين. «محرّم؟» سألت بطريقة مشؤومة.

«إننا أقرباء»، قلت له. طلب منا إظهار الهويات. وعلى نحو متهور أحدثنا مرة أخرى جلبةً خلال بحثنا عنها، مخبرين إياه أننا تركناها في الفندق. أريناه حقيبتَي سفرنا المتشابهتين والمصنوعتين من الدنيم، وما فيهما من معلومات كاملة عن مجموعة الحج. دوّن بعض الملاحظات بأصابعه القذرة ثم سمح لنا بالذهاب. كما لو أنه نوى فعلاً التحقق منها، سخرنا منه لاحقاً. ألم أعد خائفاً منهم؟

دخلنا المول المُحدَث والمبهر كأننا أليس عندما دخلت أرض العجائب. أدركت أن ما كان قبيحاً ومستهجناً بالنسبة إلينا نحن الحجاج المتعلمين كان حادثةً وتجربةً روحيةً غنيةً بالرفاهية للحجاج القادمين من دول مثل السودان والصومال. كانت رحلة الحج لكثيرين أول رحلة على الإطلاق. ولآخرين كان السلم المتحرك شيئاً جديداً لم يروه من قبل. دون نسيان محلات باسكن-روبنز ودانكن دونتس وهارديز التي تنافست على جذب الانتباه مع متاجر شانيل وجيفنشي. كل ما مقتناه أنا وشاهيناز كان رائعاً لهم. وفوق كل ذلك، ستاربكس! لم أعرف حينها أنني سأتردد مرات عدة إلى هذا المكان، والذي قُسم إلى قسمين، للعائلات وآخر للأفراد. ذهبنا إلى قسم العائلات متيقنين من أنها لن تستطيع أبداً دخول قسم الأفراد.

انهالت انتقاداتي على أخطاء هذه البلاد قاطبةً. جميع هذه المراكز التجارية والآلات الرافعة الضخمة التي شيدت شققاً بملايين الدولارات مطلّة على الكعبة قد بُنيت على تاريخ مدمر. دار الأقرم، أول مدرسة علّم فيها الرسول، سوّي بالأرض تحت بلاط رخامي. أما بيت المولد حيث وُلد، فقد هُدم لبناء «مكتبة». واستبدل بمنزل أحد أعظم طغاة قريش المعارضين لمحمد (شرعاً، كما قال البعض) دورات مياه. وقيل إن القبة التي تغطي البئر الأصلي لمياه زمزم قد هُدمت أيضاً. حتى أبراج البيت نفسها تربعت على أنقاض قلعة عثمانية. إضافةً إلى نصف العديد من الزخارف المعمارية العثمانية بالديناميت إلى قطع صغيرة. لقد رأينا هذا في المدينة المنورة.

قالت شاهيناز، في أقل الأوقات ملاءمةً، إن دورتها الشهرية قد بدأت. تنوعت الآراء في هذا الشأن، بما فيها حرمان الحائض من أي شيء تقريباً بما في ذلك الوصول إلى الكعبة. وهذا ما حرّمه الكتاب التشريعي المؤثر صحيح البخاري صراحةً. هل تحقق إجماع طائفي حول ذلك؟

اشتكت: «أوغاد كارهون النساء». في وقت لاحق من الحج أخبرتني أن النساء الحوائض يعاملن معاملةً سيئةً في الخيام في منى، ويوضعن بمعزل عن الآخرين كأنهن مصابات بالإيولا ويمنعن من المشاركة في الأنشطة الدينية. كانت منى مدينة خيام ذات أبعاد تفوق الوصف تقبع على مشارف مكة، وتُستخدم فقط للحج. اشتهرت أيضاً بخطورتها، إذ اندلعت حرائق كثيرة فيها أسفرت عن مقتل مئات الحجاج.

قررنا معاً كتمان موضوع دورتها الشهرية عن قائد مجموعتها. ربما كنا نلعب بالنار أو بالمعونية المطلقة على أقل تقدير. لكن احتجاجها عدة أيام كأن الطاعون أصابها لم يكن أمراً وارداً على الإطلاق.

بدا الغضب على شاهيناز في أثناء ارتشافنا الفرابتشينو احتفالاً بعيد ميلادها. «طاهرة؟ ما هذا الهراء. أنا طاهرة، في الدورة الشهرية أو خارجها! إنها جزء من كوني امرأة».

لقد اندهشنا من شعار ستاربكس المعدل - أزيلت منه حورية البحر. تأكد السعوديون من امتثال هذه الشركة العملاقة لمنطقهم الديني السخيف بشأن النساء مجهولات الهوية. هل كانت حورية البحر امرأة أساساً؟ لقد وضعوا الشعار المعدل أيضاً على أكواب القهوة التي كانوا يبيعونها وكتبوا عليها «ستاربكس مكة».

من ناحية أخرى، كنت أنزف بوضوح الآن. احتاجت ملابس إحرامي إلى فوط صحية. تبادلنا الرسائل النصية وحملتها شاهيناز في حقيبتها. أخفيتها في حقيبتي قبل خوض عملية معقدة تضمنت فك الإحرام، ووضع الفوطة بطريقة صحيحة كما علمتني، ثم إعادة ارتداء الملابس ذات الطراز البورمي مرةً أخرى. جرى هذا كله في حجرة حمام ستاربكس. ولحسن الحظ لم يعلم الكثير من الحجاج بشأن هذه الحمامات البراقة التي توضع فيها مرات عدة قبل الصلاة.

«كم مضى على غيابي؟» سألتها بعد أن خرجت مرتدياً فوطتي المريحة.

قالت: «أوه، نحو نصف ساعة».

"Je suis désolé"، أجبتها معتذراً بلغتها الأم الفرنسية.

«لا تقلق. مع كيسك الغريب، ستكتشف الآن ما يعنيه كونك امرأة تنزف مرةً كل شهر!»

غامرنا بالخروج من المول إلى بازار أرخص يباع فيه إجمالاً حُلَى إسلامية رخيصة صينية الصنع. ومع ازدياد فضولنا، رأينا متجرًا يبيع العباءات النسائية الملونة يحمل اسم «حج الكاريبي». باع متجر آخر أقمصاً حملت عبارة "I heart NY" أي «أنا أحب نيويورك». إضافةً إلى ألعاب بلاستيكية رخيصة مثل الحافلات والقطارات المتجهة إلى مكة. كان التجار حريصين على عدم عرض أي بضاعة تظهر وجهاً بشرياً، خاصة إن كان وجه امرأة، ومع ذلك مررنا بواجهة متجر يبيع بكل وقاحة ملابس داخلية مقلدة لماركة فيكتوريا سيكريت التجارية، مُستهدفاً على الأرجح الحجاج الأكثر فقراً. ربما وُجدت مثل هذه المحلات في مراكز تسوق السعوديين المتلائة، لكن هذا البلد، مثل الحج، اتسم بالتفاوت وعدم المساواة. هنا، حمالات الصدر الأرجوانية، والحمراء، والوردية معلقة على الملاء في ما تخيلته عرضاً فاضحاً معادياً للإسلام بالنسبة إلى الوهابيين. هل رأى المطوّع ذلك؟ هل تمت رشوته لإسكاته؟ ذهبت شاهيناز إلى المتجر بمفردها.

قالت وهي تخرج: «لن تصدق ذلك». بدا أن مجموعات من الواقيات الذكرية والسدادات القطنية والفوط الصحية قد عُرضت بوضوح تحت غطاء زجاجي في الخلف.

دعانا صاحب متجر إلى متجر رتيب للملابس والحقائب. لقد كان مشروعاً مكياً حقيقياً في الظاهر - شكّلت هذه المدينة على مدى أربعة عشر قرناً على الأقل موطناً لطبقة من التجار شديدة التنافس. وبدوره مثّل هذا البائع دليلاً على ذلك. في الخلف امتلك آلات تصوير وتحميض ومسح ضوئي، إضافةً إلى شاشة هوليت باكارد مسطحة. تحدث أيضاً العربية بطلاقة، أو أرابلش كما اعتدت أن أسميها.

«أنت لست محرمها؟ بإمكانني جعل الحياة أسهل لك».

طلب 500 ريال أي نحو 50 دولاراً أمريكياً. وأخذ صوراً عن جواز السفر. في غضون دقائق، عاد مع ما يشبه بطاقتي هوية سعوديتين أصليتين. قالت شاهيناز، التي كانت قراءتها العربية أفضل من قراءتي، إنها تبدو حقيقية.

«من هذا اليوم، بارفيز حسين، أصبحت أنا، شاهيناز، زوجتك!»

لم أصدق ذلك. يمكننا البقاء سوياً طوال الوقت. لم نخبر ابن عمها عبد الله عن زواجنا المزيف، أي بقيت صديقاً لها بنظره. أما بالنسبة إلى مجموعة الحج، كنت مثله، أحد أقاربها (وعبد الله فهم سبب الكذب). والآن أمام هؤلاء اللصوص السعوديين، كنا زوجاً وزوجة مع بطاقات هوية تثبت ذلك!

ذات يوم جلست مع شاهيناز في بقعة ظليلة وأنا أفكر في الكعبة، بدأت أروي لها قصة نبي مشكوك في أمره. ورغم كونها غير متدينة، علمت أنها مهتمة بالجدال الفكري حول ما كان أكاديمياً لها وروحياً لي.

كانت إحدى ليالي المحاق عام 610 لتاجر مكّي بلغ من العمر أربعين عاماً يدعى محمد؛ جالساً يتأمل في كهف يسمى غار حراء على جبل يسمى جبل النور. في الأردية، تعني حراء «الماس». كان محمد يعاني منذ شهور مما قد يشخصه طبيب نفسي في العصر الحديث بأنه اكتئاب ثنائي القطب مصحوب بالهلوسة. اعتاد محمد المشي بانتظام مدة ساعتين إلى هذا الكهف للتأمل في سكون تام. يخبرنا تاريخ الإسلام الشفوي والمكتوب أن محمداً أخذ معه بعض الماء والطعام البسيط.

كان سكان مكة /الجاهلين منشغلين بعبادة 360 صنماً، جميعهم داخل غرفة مكعبة سوداء بناها إبراهيم وإسماعيل. ستصبح هذه الغرفة لاحقاً مركزاً لدين لم يُنزل حتى ذلك الوقت على هذا الرجل الأمي الذي لم يُدعى نبياً بعد.

في ليلة عصبية بطريقة خاصة، جاءه الملك جبريل.

«اقرأ!» أمر جبريل. /اقرأ! دُعر محمد بطبيعة وأخبر الملك أنه أُمي. قبض جبريل على محمد قبضة خانقة، وأمره أن يقرأ. أخيراً، قال الملك الآية مستهلاً مسيرة ثلاثة وعشرين عاماً من الوحي. ستصبح هذه السورة السادسة والتسعين من القرآن، سورة العلق.

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ \*

كما كنت في طفولتي، فُتنت شاهيناز بفكرة أمر رجل أُمي بالقراءة. أخبرتها أنني كشخص بالغ سأ تأمل في مغزى الوحي الأول من نواحٍ عديدة تتعلق بالمعرفة والتعليم. تقول الآية إن الله «عَلَّمَ بِالْقَلَمِ». ومن المؤكد أن الدين الذي سيتبعها سيتمحور حول الفكر ومحو الأمية والحرية والحكمة. ومن ثم فإن نزول هذه الآية أولاً ليس من قبيل الصدفة. لأن الإسلام سيحتاج إلى خضوع فكري لله. هل فُقدت قوة هذا القلم إلى الأبد؟

فهمت شاهيناز أن الإسلام جاء بفكر القلم.

بعد نزول الوحي عليه في غار حراء، ليس بعيداً عنا، أخبرتها كيف عَلَّمَ محمد أنه لن يجرؤ على إبلاغ أي شخص في مجتمعه القرشي. ركض من الكهف إلى أحضان زوجته خديجة البالغة من العمر خمسة وستين عاماً، وتوسل إليها «لتغطيته». كان حينها زوجاً شاباً يطلب الحماية من زوجته الأكبر سناً والمعيلة في مجتمع لا حقوق للزوجات فيه، مجتمع حكمه رجال متعددون الزوجات. تعيّن عليه إبقاء وحيه المخزي سراً في تلك الليلة، عن الجميع ما عداها. لقد صدّقه، كما فعلت دائماً وظلت حتى نهاية حياتها. أخبرت شاهيناز أن قصة حب محمد وخديجة تكمن أبداً في صميم ميلاد الإسلام.

نقاشنا التالي كان أشبه بدخول منطقة خطر هنا. وتناول قصة غير متداولة كثيراً. يُزعم أن قريش عبدت ثلاث إلهات: اللات، والعزى، ومناة. في ذلك الوقت، كانت الشخصيات الرئيسية في حياة محمد جميعها نساء. استرشد ربما بطاقتهم الأنثوية، وتوجه إلى الكعبة المشرفة في ليلة باردة عام 616، على أمل وحي جديد، للمعتنقين الجدد.

قيل إنه وجد نفسه يردد بعض الآيات عن بنات الله الثلاث: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى \* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى تلك الغرائيق العلى، وإن شفاعتهن تترضى». كانت هذه آيات مستهجنة - وخلص كتاب سيرة محمد اللاحقون، ومعظمهم من الذكور، إلى أن الشيطان ألقاها على لسانه. دبّ الحماس في صفوف قريش وباتت مستعدة لاعتناق هذا الدين الجديد الذي يعترف بالإلهات الثلاث المحبوبات. لكن محمداً ظل منزعاً لأن قريش لم تتعلم التواضع والخضوع والديمقراطية من دينه الجديد.

يُزعم أن جبريل رجع إليه وقال «ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتيك به من عند الله». كان محمد نادماً، وقال جبريل إن جميع الأنبياء السابقين قد ارتكبوا أخطاءً «شيطانية»، أخطاء يمكن تصحيحها بسهولة.

يُقال للمسلمين القلائل الذين يعرفون هذه القصة إن السورة الثانية والعشرين قد نزلت هنا: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». وبذلك تظهر سابقة مهمة لكون الوحي تقديمياً. أي أن الله قد يعدّل الوحي.

يدعي كُتّاب السيرة أن محمداً هنا يعاقب قريش. لماذا نسبوا البنات إلى الله وهم يفضلون الأبناء؟ كانت هذه الآلهة المزعومة محض افتراءات وأسماء جوفاء. وهكذا، مُحيت هذه «الآيات الشيطانية» إلى الأبد من الشريعة، ولم يعد بإمكان المسلمين الآن بعد أربع سنوات من الإسلام أن يأخذوا الوثنية على محمل الجد.

«أوغاد أبويون»، غمغمت شاهيناز مرة أخرى، وما زلت حائراً اهتمامها.

قلت لها إن الله الذي اختبره المسلمون كان قاسياً وقوياً، «مثل النيزك». بعد فترة وجيزة من التنصل من تلك الآيات الشيطانية، نزلت السورة رقم 112 من القرآن وفيها: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ \* اللَّهُ الصَّمَدُ \* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ \* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». جسدت السورة جوهر الروحانية الإسلامية: مبدأ التوحيد. لم تكن محض تلخيص ميتافيزيقي لتفرد الإله؛ بل دعوة للعمل. تحمل الله مسؤولية الآثام السابقة وكان يوعز ويأمر، "قل".

يذكر كُتّاب السيرة أن محمداً احترم النساء في مجتمع لم يمتلك فيه شيئاً. والدليل على ذلك تعامله باحترام مع زوجاته العشر. فالأرامل والمطلقات اللواتي تزوجهن ربما أصبحن ثمالة المجتمع دونه.

«لا أستطيع تقبل الزوجات العشرة»، قاطعتني شاهيناز، «بقدر عدم تقبلي تعدد الزوجات في المورمونية». أخبرتها أن ذلك كان وليد العصر، لكنها ظلت غير مقتنعة.

لسوء الحظ، فإن الرجال الذين طمسوا الآيات الشيطانية من الشريعة الإسلامية أنفسهم كتبوا تاريخ الإسلام. جالسين هناك، تساءلنا إن كان وضع المسلمين مثلي ومثلاً أفضل في الإسلام لو سُمح للنساء المؤمنات بالتحكم في مصيره. إن أسلافنا المسلمات، بخلاف هاجر، التي احتُفل بها غالباً في الحج، بتن منسيات. أما النساء القليلات اللواتي نجحن بالصمود في هذا السرد الذكوري لم يُذكرن إلا لأسباب محددة للغاية. العذارى مثلاً، تنسجن تماماً مع قصة المرأة المسلمة المثالية لأن حياتهن الجنسية خاضعة للتحكم والمراقبة وعليه أصبحن نموذجاً للفضيلة. بالنسبة للسنة الذين نشأت معهم، فإن عائشة زوجة الرسول الثانية، أصبحت زوجته المفضلة بعد وفاة خديجة. أدرك كلانا أن السعوديين لم يتقبلوا زواج خديجة ومحمد التائر.



في نظر معظم السنة، عائشة هي أعظم امرأة في عصرها ويطلق عليها اسم أم المؤمنين، وهي أهم امرأة في أهل البيت، الأساس المقدس لعائلة النبي. إن عذرية عائشة وقت زواجها من النبي تجعلها في موضع تبجيل كبير. لكنها تبقى أيضاً شخصية خلافية.

ذكرتني شاهيناز أن الشيعة لا يشملون عائشة أبداً ضمن أهل البيت. ويُعدّون أكثر النساء تبجيلاً في بيت النبي ابنته فاطمة، التي تزوجت خليفته الشرعي، والإمام الأول للشيعة، ابن عمه علي، وأنجبت منه حفيديه المحبوبين، الحسن والحسين، اللذين كانا سيخلفان والدهما أيضاً، بصفتها إمامين وخليفتين شرعيين. وقد حرص اللاهوت الشيوعي، الذي يدور جوهره حول قدر كبير من الحداد العام، على التأكيد من بكاء النساء في مجموعة شاهيناز علناً في الليل عند رواية حديث مشهور يسمى حديث الكساء. إنه حديث مؤثر بصورة خاصة. يأخذ محمد ابنته فاطمة، وصهره علي، وابنيهما تحت عباءته، ويرفع يده اليمنى، ويكلم الله:

اللَّهُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلَ بَيْتِي وَخَاصَّتِي وَحَامَّتِي لَحْمُهُمْ لَحْمِي وَدَمُهُمْ دَمِي يُؤْلِمُنِي مَا يُؤْلِمُهُمْ وَيَحْزُنُنِي مَا يَحْزُنُهُمْ، أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ وَسَلَمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمْ وَعَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُمْ وَمُحِبٌّ لِمَنْ أَحَبَّهُمْ، إِنَّهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ فَاجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ وَغُفْرَانَكَ وَرِضْوَانَكَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ، وَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً.

أخبرتني لماذا كان هذا الحديث بليغاً بالنسبة إلي. وكيف ينقل صورةً بصريةً جليةً لرجل يحمي عائلته ويطالب بها بكل قوة باستخدام عباءة تشبه البطانية. لقد تحدث بنوع من الدفاء الباعث على أمان الوالدين الذي لم أعرفه مطلقاً في طفولتي.

وفي خضم حديثنا، سار مئات من الأولاد الصغار يجرون الكراسي المدولبة (لن ترغب أبداً باعتراض طريقهم) أمامنا، ما سمح لكبار السن والعجزة بأداء طوافهم في الطابق الثاني من هذا المسجد الضخم، والذي تربع على تسعين فداناً تقريباً حسب مجموعة بن لادن التي تولت مهمة توسيع حرمه. كان طوافهم حضارياً، إذ استحال دخولهم في بؤر التدافع التي ضمت الآلاف حول الكعبة. أضحك انتقاء كلماتي شاهيناز. وبعد استراحة ماء زمزم، عدنا إلى طاولتنا التي ظلت متاحةً بأعجوبة في ستاربكس.

منتقلين إلى موضوع آخر، تحدثنا عن معاناة فرنسا التي نشأت فيها، والتي كانت ذات يوم قوة استعمارية عنيفة، مثل الكثير من دول أوروبا، مما كنت أسميه دائماً «الاستعمار العكسي». في بريطانيا، التي استعمرت أرض أجدادي، تجلّى الاستعمار العكسي في أكبر أقلية فيها: المهاجرون من شبه القارة الهندية. أما فيضان المهاجرين في فرنسا فقد انبثق من الروح المستعمرة لشمال إفريقيا، قالت شاهيناز.

إن الذاكرة التاريخية قصيرة. وإلا كيف يصعب محو ظلال الأهوال التي أعقبت جمهورية فايمار في ألمانيا؟ بدا أن أوروبا حينها نسيت أن صفوف المهاجرين ضمت أرواحاً محرومة هاربة من شياطين الفقر والجهل والأمية - منتجات ثانوية لنوع معين من الإسلام لم يعاود الظهور إلا بعد تخلي المستعمرين عن شعوبهم للتمتع بأشكال مبهمة من الحريات. لم أخطئ في استباقي المعرفة. ففي غضون سنوات قليلة فقط، رأيت طوفان البائسين الفارين من داعش ورعبها، مقبلين على ألم لا يوصف.

لم يكن رهاب الأجانب أمراً جديداً على أوروبا. وكوصف لهذا الرعب المرتقب، اخترع الإعلام المصطلح الجذاب «عوروبا». قبل أقل من قرن من الزمن، صدّت أوروبا العثمانيين التوسعيين العازمين على إقامة أكبر خلافة إسلامية، والذين بدا إيقافهم مستحيلاً حينها. وعليه ارتأى النقاد المذعورون على شاشات التلفزيون أن الصرح المسيحي القوقازي المبني بعناية والمكتسي غالباً زي العلمانية قد يُدمر بلا رجعة بسبب موجة جديدة من المهاجرين السمر من تركيا وشمال إفريقيا - ورثة للعثمانيين المتعطشين للدماء والذين كانوا أقوياء في يوم من الأيام!

بالنسبة لأسامة وداعش لاحقاً، كانت مخاوف الهلاك المرتقب والمصاحب لـ«عوروبا» جديدة بمثابة هبة من السماء: إعادة تأكيد غريبة للمنطق المنحرف والرغبة المعلنة باستعادة المجد الإسلامي المفقود.

ذكرتني شاهيناز كيف بدأت تصويرها عام 2005 في فيلم «جهاد من أجل الحب». كنت قد وصلت بعد فترة وجيزة من أعمال الشغب التي أعقبت صقع اثنين من المراهقين الفرنسيين المسلمين العاطلين عن العمل بالكهرباء في محطة كهرباء فرعية في باريس، خلال فرارهما من أفراد شرطة كارهين للأجانب أحبوا مطاردة الشباب المسلمين في الشوارع.

كانت القصة مادة لأسطورة حضرية. لاحقاً في جولة في بقايا الدمار المحترق، قرر نيكولا ساركوزي، وزير الداخلية آنذاك، الاستجداء بالكاتب والفيلسوف الفرنسي الموقر ألبير كامو، الذي نشأ في الجزائر المستعمرة. في أكثر أعماله تأثيراً واستمرارية «الطاعون»، كتب كامو: «إذا وضعنا كل هؤلاء الحثالة في السجن، يمكن للشرفاء أن يتنفسوا». أشار كامو إلى هؤلاء «الحثالة» بكلمة *racaille* الفرنسية. وكامو، وهو من أمهر الكتاب وأكثرهم تأثيراً في العالم، يجد اقتباسه خالداً في معجم *Le Petit Robert* المرجعي، معرّفاً الكلمة على نحو مختلف بمعنى «جمهور محتقر»، و«مرفوض من المجتمع»، وأكثر من ذلك.

وقد اختير ساركوزي بالفعل من قبل كثيرين بصفته الوريث الأكفأ، وإن كان مثيراً للجدل، للرئيس الفرنسي جاك شيراك، بالتزامن مع قيامه بجولة في ضاحية أرجنتوي المضطربة. والتي كانت في يوم من الأيام ملاذاً ريفياً للباريسيين الأثرياء، خلّده كلود مونيه في لوحاته، مع غيره من المشاهير الآخرين. لم يكن مونيه ليتعرف على أرجنتوي الحديثة، حيث ساء أصبح زائراً متردداً بكثرة لكان أصبح لجميع النوايا والمقاصد أكبر الأحياء الفقيرة في أوروبا ومأوى

«حتالة» المسلمين في البلاد. ميل بعد ميل فيما شابه «المشاريع» في نيويورك، باتت أرجنتوي مرجلاً يفيض باستياء المهاجرين، الذين يُزعم أنهم الآن أتباع أشرار لمعارضة منظمة.

في عام 2005، ومن مكان محفوف بالمخاطر على شرفة أحد أبراج الإسكان العامة التي قام ساركوزي بجولة فيها، نادى أحد القاطنين الذي ربما شعر بالحنين إلى أرجنتوي مونييه، مخاطباً الرئيس المستقبلي: «متى ستتخلص من هذه الحتالة؟»

بأسلوب الحملات الانتخابية الذي أتقنه دائماً، ومدرّكاً تماماً فوزه القادم، لم يتردد ساركوزي معلناً: «سئمت من هذه المجموعة من الحتالة؟ حسناً، سوف نتخلص نحن منهم لأجلك».

في هذا الـ«نحن» شبه الملكية تجلى يقينه المتغطرس بتشكيله حكومة الجمهورية خلال فترة ليست ببعيدة. بإعادة تطرقه إلى إشكالية كلمة racaille ومعناها، نجح ساركوزي برسم صورة رمزية جديدة كلياً: الرئيس الذي سينفذ هذه الأمة من الدين (والقصد هو الإسلام) ونجاسة العقيدة الأجنبية التي كانت تنضح مثل الطاعون من معازل جمهورية خامسة متزعزعة بصورة متزايدة ولم تعد منزهة كما مضى.

لكننا هنا كنا في حج عام 1432 (2011)، في قلب الإسلام. ذكرتني شاهيناز بما قلته في باريس: «سيصبح جزء من الإسلام الذي يعيش في أوروبا مشكلة». لكنني لم أرغب بلعن ديني هنا في مكة، فأضفت: «هل نسيت فرنسا ماضيها الثوري الأخير؟ كان اليعاقبة المتوحشون يستخدمون المقصلة لقطع الرؤوس في نهاية القرن الثامن عشر عندما بلغ الإسلام أعلى مراتبه الفكرية!».

«واو، لا شك أن الوضع هنا سينفجر»، قلت ذات مرة لصديق كان يأخذني بجولة في السيارة حول مرسيليا قبل أحداث 11 سبتمبر. لقد كنت متوجساً على نحو غريب، لكنني أردت شرح وجهة نظري حول الأعداد الهائلة من الأفراد الساخطين والعاطلين عن العمل، وخاصة الرجال من شمال إفريقيا الذين قضوا وقتهم بالتسكع في الساحات، وتشارك السجائر، والموضة، والتوق الدائم للجنس مع النساء؛ هذا ما لم لا توافق عليه أمهاتهم. هؤلاء كانوا مواطنين شرعيين. فهم وُلدوا في فرنسا. ووفرت لهم مساعدات «الحماية الاجتماعية»، رغم تشربها بالبيروقراطية الاشتراكية، شيكاً شهرياً جيداً بما فيه الكفاية. من يحتاج إلى عمل في تلك الظروف؟ على عكس آبائهم وأجدادهم، لم يكن هؤلاء «لاجئين» يضطرون إلى الكفاح لانتزاع جوازات سفرهم من موظفي اللجوء والمعاملات الرسمية المعقدة. وحتى المساجد في الكثير من مناطقهم نُقلت إلى الطوابق السفلية، ولم يظهروا أصلاً اهتماماً يُذكر بها رغم أمانهم أمهاتهم بارتياحهم إياها. بدت حياتهم غير هادفة. ومثل عائلاتهم، عاشوا دائماً تحت خط الفقر في مساكن بالية في ضواحي مخفية جيداً ملأت الرسومات جدرانها. إن الدول الحاضنة مثل فرنسا تضع الطعام على مائدتك والسقف فوق رأسك. من الواضح أن أوروبا كانت مهياًةً «للتجنيد».

ذكّرت شاهيناز كيف التقينا لأول مرة. في صباح بارد في أواخر شهر ديسمبر، نزلت من محطة مترو باريس المسماة باربيس-روشوشوار، على بعد مسافة قصيرة سيراً على الأقدام من سوق ديجان، وهو سوق معروف في الهواء الطلق، غني بالروائح والنكهات من المغرب العربي، بلد يقبع شمال إفريقيا وغرب مصر.

هذا الحي، الذي كان، كعادته، يعج بصيحات التجار وصفيرهم في محاولة لجذب الزبائن، يُطلق عليه اسم *La goutte d'or*، أي «قطرة الذهب». يسميه الفرنسيون أفريقيا الصغيرة. وسوق الهواء الطلق هذا ليس الميزة الشهيرة الوحيدة في هذا الحي، الذي نال مدحاً كبيراً في أدلة الرحالة إلى أوروبا. ومع ذلك، لا يذكر معظمهم سماته الخاصة الأخرى بخلاف المهاجرين الجريئين الذين يبدو أنهم يصورون الحي غنياً بما يكفي لإدراجه ضمن مسارات الجولات السياحية. ستتضمن هذه السمات تجارة الكوكايين المزدهرة ومعدل الجريمة المرتفع: كلها علامات ظاهرة للعيان أخافت بعض السكان الأصليين القوقازيين.

ببساطة، كان الحي مكتظاً بتشكيلة كبيرة ملونة من الحثالة.

المرأة التي التقيتها قدمت نفسها إليّ بسؤال: «بارفيز، هل أنا أول حثالة قابلتها على الإطلاق؟»

مثل العديد من أصدقائها الفرنسيين الشباب المحرومين من حقوقهم، كانت قد استأثرت هذا المصطلح المهين. لم أخبرها أنه لم يسبق لأحد أن قدم نفسه لي بهذه الطريقة من قبل. شاهيناز، التي وُلدت في الصومال، امتلكت تحت شعرها اللافت المجدع مثل المسحة والشبيهة بتسريحة بالأفرو طاقة حياة معدية. أصبحت دليلي لجميع أماكن تسكع الحثالة في مدينتها المضطربة والمتوسعة باستمرار.

نشأت شاهيناز في هذه النسخة الباريسية من المشاريع. مثل معظم المهاجرين في أي مكان في العالم، وصلت عائلتها إلى فرنسا في موجات، إذ ساعد أفراد أسرتها المستقرين سابقاً الوافدين الجدد. تمكن بعض أبناء عموماتها الأصغر سناً من تطوير مهارات جري ملحوظة شحذها رجال الشرطة الفرنسيون العازمون على مطاردتهم.

لكن شاهيناز كانت جريئة. كانت قادرة على الاستفادة من ذكائها، ما جعل الكثير من النخبويين في مجتمعها مدهوشين من امرأة مع خلفيتها. ومن ثم أصبح كونها حثالة نقطة قوة لها. إضافةً إلى ذلك، فإن صورة المسلمة الفصيحة وغير المحجبة في بلد حظر منذ فترة وجيزة الحجاب الإسلامي، جعلتها المسلمة المثالية التي يمكن تحويلها إلى صليبية. لم تتحدث مثل الحثالة أو حتى تلبس مثل نساءهن، ومن ثم كان من السهل فهمها ومن الأمن السماح لها بالدخول إلى قاعات الاجتماعات ومناسبات حقوق الإنسان.

«ها!» ضحكت، ونحن جالسون في مكة. «انظر إلى ما جعلتني الآن. النينجا الخاصة بك!».

في عام 2006، أخبرتني شاهيناز أنها خُتنت بأفطع الطرق في طفولتها، عقب عودة والديها من الحج، وتحولهما بتأثير الإسلام الوهابي المتشدد الذي اختبراه. بدأ أنهما حددا لنفسيهما هدفاً إسلامياً جديداً باتخاذهما قرار الهجرة إلى فرنسا، بعد فترة وجيزة من ختانها.

«لقد وزعوا الحلويات عندما أخبرتهم أنني ذاهبة إلى الحج»، قالت لي ذلك المساء في مكة.

أخبرتها أنني أعجبت بها منذ ذلك الحين.

امتلكت هذه المرأة الشابة قدرة مذهلة على التعبير ودمج قصة حياتها في سياقات تاريخية معقدة.

بعد أشهر من اجتماعنا الأول، وبجملة واحدة بسيطة باللغة العربية، فهمت شاهيناز مغزى فيلمي والسؤال المستعصي الذي حاولت الإجابة عليه لمعرفة إمكانية تعايش الإسلام والمثلية الجنسية بسلام. مخاطبةً الكاميرا، قالت: «يا الله. يا واحد. يا أحد. أنا حبيت بس»

كان أسلوبها في الوصف والتعبير استثنائياً. وهي تجيب عن سؤالي المعقد نسبياً حول المحادثة التي قد ترغب بخوضها مع الله يوم القيامة. إن التوحيد عنصر جوهري في الإسلام. والشهادة، شهادة الإيمان التي تجعل المرء مسلماً، تؤكد هذا المفهوم: «أشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». لا شيء في الإسلام أكثر قداسةً من هذا المبدأ القائم على وجود كيان إلهي واحد لا يتكرر في أي شكل آخر.

شاهيناز، في هذه الجملة المذهلة، لم يقتصر استخدامها مفهوم التوحيد المقدس على تأكيد إيمانها كمسلمة، بل ظهر أيضاً في كلمة «بس»، أي «فقط»، لإقرار حبها المحظور. من المؤكد أن الله القاسي الذي عرفناه في طفولتنا سيجد صعوبة في إبعاد هذه المرأة الجميلة البليغة عن أبواب الجنة. «يا الله يا واحد يا أحد، لقد أحببت فقط». خلال الصلاة، أو النماز، مهما اخترت تسميتها، توجد دائماً لحظة مخصصة للتوحيد، عندما يرفع المتضرع سبابته اليمنى نحو السماء هامساً: لا إله إلا الله.

بحكمتها الفذة، نظرت شاهيناز إلى ختانها بفطنة سياسية وضعت في صلب جدال عالق حتى الآن. وصفته بالاغتصاب، ليس لجسدها فحسب، بل لبراءتها أيضاً. وأكدت أنه لم يحدث برضاها قطعاً وأنه مثل رمزاً ظاهراً راسخاً للأبوية القمعية التي ترفض امتلاك النساء كياناً جنسياً.

أما تشويه أعضائي التناسلية، الذي حدث منذ سنوات وقت تصوير فيلم *جهاد* في 2005-2006، فقد كان، على عكس تجربتها وتجربة معظم الآخرين، فعلاً طوعياً. وسيغدو أهم العلامات المفتعلة والواضحة لخضوعي الكامل والمتعمد لمبادئ إيماني كافة. شكّل هذا أيضاً أكثر خطواتي راديكاليةً على الإطلاق في سبيل ترويض الأداة الرئيسية لنفسني الخطاءة. كان الإسلام استسلاماً. والاستسلام هو ما فعلت.

أخبرتها كم شعرت بالبركة بوجودها معي في الحج. كانت تعرف مسبقاً أدهم، رفيقي بالمراسلة، وكيث، الذي أعجبها إلحاده.

ثم أخبرتها عن ختاني الأخير. وقالت إن تديني «رائع» وإنها لا تستطيع تخيل شخص بالغ يقدم على شيء متطرف كهذا لإثبات ذلك. قلت لها أنني لم أمتلك الخيار. أمسكت يدي. اقترب منا مطوع مخيف الهيئة. لكن هوياتنا المزيفة كانت جاهزة هذه المرة. ليختفي مثل كلب يجر ذيله بين ساقيه. لم يعد بمقدور أي مطوع المساس ببارفيز حسين وشاهيناز موسوي! كانا متزوجين!

في وقت لاحق، قالت شاهيناز إن النبي كان بلا شك ألطف مع النساء، وأجسادهن، وأرواحهن مقارنة بكتاب سيرته الذكور.

قالت إن إيمانها كان دائماً إما صاحباً أو غائباً. فإذا قررت أن تصبح «متدينة طوال الوقت»، دبّ فيها توق إلى زمن تراه أكثر فترات الدين رمزية، حينها بلغت شهرة النبي محمد ذروتها، وكان قادراً وهو على قيد الحياة على إملاء الأوامر الإلهية بصفته وسيطاً عانى الأمرين، ومن ثم الماضي قدماً لخلق إيمان قائم على العدل، وسابق عصره بكثير. لم يشبه تصورهما عن هذا النبي أي أفكار سبق لي سماعها. لقد احترمتها لأنني لم أتجراً أبداً على قول الأشياء التي كانت تقولها بمنتهى السهولة. رأيت أنه لم يكن يسمح بختانها على الإطلاق.

«محمد كان نسوياً»، كما قالت ذات مرة في فرنسا، وكررت هنا في مكة.

لم أسمع أبداً أي مسلم يقول شيئاً عظيماً كهذا. لم أعرف كيف أجاب. لكنني حرصت على تصويرها وعرض لقطاتها في باريس منذ سنوات ضمن فيلمي.

قلت: «نحن بحاجة إلى إيجاد ما يثبت نسويته يوماً ما». أو مأت برأسها.

وبعد ذلك، عندما بدأت الدعوة إلى صلاة المغرب، تجنبنا جلسة طقوس الضوء الثقيلة. كنا سنتلکاً فيها على الأرجح. صلينا بجوار بعضنا، مواجهين الكعبة طبعاً - الكعبة الحقيقية. هل لاحظ الله؟ رجل مسلم مثلي الجنس علناً (ينزف بصورة متقطعة) يصلي بجوار مثلية حائض كانت زوجته المزيفة. هنا تساوى المسلمون جميعاً، والروح السائدة في تلك اللحظة عنت أن الله قبل وجودنا. شعرت وكأن مثليتي الجنسية باتت عبء أخف. من اهتم؟ كنت بحاجة إلى الظهور كمسلم. وفي كل لحظة هنا، تمكنت من ذلك.

«إنهم يقودونني إلى الجنون»، هكذا كتبت لي شاهيناز في رسالة نصية في الليلة التالية. «أشعر أنني وسط شلل كثيرة الضحك في المدرسة. وبطريقة ما لست مدعوة للانضمام إلى أي منها. صادفت امرأة مثيرة حقًا، متزوجة طبعًا ؛-). لكننا نتسكع مع ذلك. زوجها يضربها. اسمه محمد؛ أمر بديهي. أخبرني إذا وجدته!».

إنه الاسم الأول الأكثر استخدامًا على هذا الكوكب. ربما أسماء نصف مجموعتي كانت محمد.

في الإسلام، يملك الله تسعة وتسعين اسمًا مع أنه واحد أحد. يستطيع كثيرون هنا سردها في أقل من دقيقة بينما لم أتمكن أنا من حفظها أبدًا. أمّا النبي محمد فعادةً ما حمل اسمه فقط.

## الفصل الثامن

### مكة فيجاس

منذ تلك اللحظة أضحي وجودي مع شاهيناز صعبًا بشكل متزايد. فالأمر يبدو كما لو أنهم يبعدون النساء عني عمدًا. وأرسلت لي شاهيناز برقيات متكررة من مجموعات النساء – إذ حكّت لي عن النساء اللاتي يفشين أسرار بعضهن بعضًا وسرعان ما يأزرن بعضهن بعضًا في أوقات الشدة، مثل دورة حيض عادية. وقالت إنهن يقمن مجالس شيعية بانتظام، وتنهمر منهن الدموع بغزارة. وفي هذا الصباح، لم تكن شاهيناز برفقتي – فقد أخذوها إلى جولة «للنساء فقط» لمشاهدة التدمير السعودي لمكة، وكان لنا نحن الرجال أيضًا جولة بعدها بوقت قصير. ولم ألبث أن صرت أتجنب الجولات المخصصة للرجال.

وبدت المرأة الأخرى في حياتي، سيري، مرتبكة. فقد كنت أنا وهي نعتمد على شبكة الإنترنت اللاسلكية غير المحمية بكلمة سر التي تكرمت عائلة أسامة بن لادن بتزويدها لنا، وهي من بين أكبر تكتلات شركات البناء في الأرض المقدسة. كانت سيري تثرثر بشأن جهلها بالموقع الجغرافي للمكان الذي نحن فيه. وقد انتهيت أنا تَوًّا من مكالمة مرئية مع كيث في نيويورك، مؤكدًا إليه أنني ما زلت آمنًا. ثم وقفت مذهولًا أمام مشهد عتيق – مئات الآلاف من الحجاج الهاتفين من كل أمة تقريبًا وهم يدورون حول الكعبة. بدا الحجاج لي من نقطة المراقبة التي أقف فيها، في الطابق الثاني من أكبر مسجد في العالم، المسجد الحرام، كما لو أنهم عائمون. وقد تعني كلمة حرام «محظورًا» أو «مقدسًا» على حسب الطريقة التي تُنطق بها.

حينئذٍ كنت أتلّف إلى شرب فنجان من القهوة. فقد كان الوقت باكراً على صلاة العصر. سعدت على السلم المتحرك متجهًا للأسفل، ومررت بجانب مجموعة متجهة للأعلى من النساء يرتدين العباءات، ومن المرجح أنهن في طريقهن للحصول على تذكرة زهاب فقط إلى السماء، فضلًا على الحسنات التي سيحصلن عليها من الله. ولم أجروا أن أقول لهن إنهن يخالفن تعاليم الرسول عن السلوك في مكة. فمن المفترض أن النساء والرجال متساوون. بل يجب على النساء أن يكشفن عن وجوههن، حتى يراهن الله!



ولكن هذه أرض وهابية. وحين نزلت من على السلم المتحرك لاحظت لافتة تقول: «انتبه للعباءة». لا بد من أن مهندساً ذا بصيرة حادة فكر في الخطر المستمر الذي يلاحق هؤلاء النساء على تلك المصاعد بعباءاتهن التي تتدلى على نحو خطير أسفل كعوبهن التي لا يُسمح لهن بكشفها. ارتعشت قليلاً من تلك الفكرة. في الأمس كنت أدرش مع رجل يماني يكبرني في السن يُدعى محمد في مطعم البيك، أو النسخة السعودية من كنتاكي أو بوباى للدجاج المقلي. وأخبرته عن الشهرة التي حظيت بها عائلة بن لادن بسبب طفل واحد فقط من بين أطفالها الخمسين. وقد أشار إلى أسامة بلقب «الشيخ أسامة». والشيخ لقب يقتصر غالباً على الرجال المسلمين المتعلمين. فسألته عن سبب ذلك. وعلمت حينها مرة أخرى أن إرهابياً عند قوم هو مقاتل من أجل الحرية عند قوم آخرين.

ثم أخبرني أن والد أسامة كان يمنيّاً. وارتقى حتى صار رجلاً تبلغ ثروته عدة مليارات، والصديق الصدوق لآل سعود. ثم سألتُه: «ما رأيك في برج المملكة الجديد؟» مشيراً إلى تلك البناية الفاحشة التي يصغر أمامها كل شيء في مكة. «ألا يبدو ذلك مثل قضيب الملك عبد الله المنتصب؟» ضحك محمد، ثم قال: «ولكن تذكر يا بارفيز - لقد دمر الشيخ أسامة أكبر قضيبين منتصبين في أمريكا». لكنني واجهت صعوبة في مشاركته فرحته.

ثم سألني «كيف لك أن تعيش في هذا البلد وأنت مسلم؟». تفاديت الإجابة عن ذلك وانتقلت إلى موضوع آخر ثم افترقنا. وفي هذا اليوم الذي خرجتُ فيه من المسجد، شعرت وكأنني داخل ساحة ديستوبية خارجة من إحدى روايات آين راند. فقد وقفت أمامي دزينات من ناطحات السحب وحلق فوقى عدد لا يحصى من الرافعات في السماء. وبدت حشود الحجاج، التي تحولت حينها إلى حشود من المتسوقين المتلهفين، غافلة تماماً عن الطمس الذي يحدث للتاريخ الإسلامي الذي تقوم عليه كل تلك الإنشاءات الحديثة. وكان العمال الصينيون، الذين اعتنقوا الإسلام على عجلة، من بين جيوش البنائين المتنامية. وكدح المزيد من الخدم العاملين بالسخرة من الهند، الذين سُرقت منهم جوازات سفرهم وآمالهم، هنا أيضاً. وفي العقود الخمسة الأخيرة، زُعم أن السلطات السعودية دمرت أكثر من 90 في المائة من تاريخ مكة الإسلامي في صورة مباني، ومقابر، وآثار. وشيدوا صفّاً من المراحض فوق البيوت التي شاركها النبي مع زوجته الأولى، خديجة. وفي التسعينيات، كافح المعماري السعودي سامي

أنجاي من أجل إنقاذ بيته. وبذل عدة محاولات للحفاظ عليه، حتى أنه قدم التماساً مباشراً إلى الملك نفسه. ولكن نفوذ عائلة بن لادن المولعة بالجرافات لم يكن نداءً لاعتراض رجل واحد.

كان أسامة بن لادن في شبابه المدير التنفيذي لأعمال عائلته في مكة لفترة قصيرة. وقد أشرف على المراحل الأولى من الهدم الذي اضطلعت به عائلته. وبعدها بعدة أعوام، حين استجمع الشجاعة الكافية للاعتراض علناً على طمس تاريخ الإسلام الذي يموله آل سعود، أسقط أسامة تلك المعلومة الخطيرة من كلامه. وفي الوقت الذي نمت فيه قائمة المظالم الموجهة ضد آل سعود، لم يذكر أسامة الوقت الذي قضاه في مكة أبداً. يتمسك ملك السعودية بلقب «خادم الحرمين الشريفين». وهذه هي طريقته الوحيدة لفرض نفوذه على العالم الإسلامي بأكمله. ويمارس آل سعود، وبنائوهم، آل بن لادن، نوع من النفوذ الملكي على تلك الأراضي المقدسة، التي من المفترض أنها تنتمي لكل المسلمين. لا محالة من التغيير، ولكن التغيير الذي يأتي على حساب التاريخ هو أمر مأساوي.

يزعم آل بن لادن أنهم يفسحون المكان. ولا بأس في ذلك. فأنا بالطبع أفهم الحاجة إلى زيادة المساحات المفتوحة، وتوفير المزيد من وسائل النقل والمساكن. ولكن لا فعل أفضع من مشروع حكومي وهابي متعمد لإعادة كتابة تاريخ الإسلام. فالقطارات الجديدة التي تنقل الحجاج عبر الصحراء كانت متاحة حصراً لمواطني مجلس التعاون الخليجي، بأسلوب الفصل العنصري السعودي المعتاد. ومعظم البنايات الجديدة مخصصة للأثرياء الذين يقدمون الجزء الأكبر من دولارات السياحة. ومن الأمثلة الأخرى: قصر هائل لآل سعود، بمهابط مروحية، يختبئ وراء حائط ضخ من الخرسانة على بعد بضعة مئات الأمتار من الكعبة. لم عسى آل سعود أن يكونوا في حاجة إلى قصر قريب جداً من الكعبة رغم أن بحوزتهم مفاتيحها – ولا يفتحون أبوابها سوى لضيوفهم «المميزين»؟

كنت أعتقد قبل وصولي إلى مكة أن كل أشكال البذخ والملاذات لدى العائلة السعودية الحاكمة كانت محصورة في الجرائد الشهوانية التي تنشر الإشاعات. ولكن السعوديين مولعون بإطلاق تلك الإشاعات على الملوك، ومصدر معظم تلك الإشاعات هي أفعال ابن الملك سلمان، الذي يحمل اسم والده. لاحقاً في نفس اليوم، حين كانت شاهيناز لا تزال غائبة عني، دخلت إلى قسم العُزْب في مقهى ستارباكس في صالة السينما الضخمة الغليظة هذه. ولم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك مجدداً

على شعار الشركة. فقد أُستبدلت حورية البحر المثيرة للشهوة بنجمة تسطح فوق بحر. لا بد من أن هذا الحجب التام كان أفضل من وضع عباءة على الحورية، أو هكذا ظننت. وبعدها ببضعة أعوام منع فرع من فروع ستارباكس في الرياض النساء من الدخول، ووضع لافتة تقول: «رجاءً عدم دخول النساء، أرسلني سائقك فقط للطلبات. شكرًا»، وذلك بعد أن انهار حائط الفصل الجنسي حرفيًا.

أيقظني أحد زملائي الحجاج من شرودي طالبًا مني أن أشعل له سيجارة. كان اسمه عبد الله. وترابطنا على مشاكلنا المشتركة مع سيرري. فهي كانت تأبى الكلام مع أي أحد منا. وكرر عبد الله عليّ ما كنت أدركه بالفعل، وهو أن النساء اللاتي بغير رفقة الرجال لا يجرؤن على دخول أي مكان عام هنا. ثم قال لي: «هيا بنا ندخل إلى قسم العائلات. أريدك أن تقابل زوجتي عائشة وأختها».

فاعترضت قائلاً: «ولكنني لست فرداً من العائلة».

فوضع ذراعه حول كتفي وقال: «كلنا إخوة في الحج».

كانت زوجة عبد الله عائشة، التي لم تكن بالطبع عذراء مثل قرينتها في القرن السابع، حُبلى بوضوح. تُعد العذرية فضيلة في جميع الديانات التوحيدية الثلاثة. وبالنسبة إلى معظم المسلمين السنة، ثاني أطهر امرأة هي مريم العذراء، التي يرد ذكر ابنها يسوع في القرآن أكثر مما يرد ذكر محمد. وتحظى مريم بسبعين مرة يرد فيها ذكرها في القرآن، متفوقاً بذلك على العهد الجديد، وهي المرأة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القرآن مباشرةً. يجهل الكثير من المسيحيين التقدير العظيم الذي يكنه القرآن لهما.

كانت عائشة تلك ترتدي نقاباً يخفي الجزء السفلي من وجهها. وكنت أتساءل في حيرة كيف يمكن لها أن ترتشف قهوتها من تحت هذا الوشاح. وكانت أختها مريم ترتدي ثياباً مشابهة. وقد قرر هذا الثلاثي أن يشرعوا في رحلة الحج حين اكتشفوا أن عائشة حُبلى. ووصفوا لي رحلتهم الطويلة بالسيارة من الشارقة إلى فندق فيرمونت في مكة. ولا شك في وجود أموال خليجية فاعلة هنا. ولكن السيدتين لم تشبعا فضولي – فقد ظلت أكوأبهما على الطاولة، ولم يرتشفا منها رشفة واحدة!

أخبرني عبد الله عن ليلته الأولى في المسجد الحرام. فقد شرع الثلاثي في طوافهما المقدس فور وصولهم إلى مكة. وقد انفصل عن عائشة ومريم في مرحلة مبكرة. وسرعان ما فهمت مخاوفه.

ثم أخبرتهم قائلاً: «كانت تلك أعنف ليلة في حياتي كلها». فقد تدافعت حشود الحجاج نحو الكعبة في محاولة منهم للاقتراب منها، وحتى لمسها، دون أن يتركوا أي مساحة لضعيفي الإرادة. الأمر كان أشبه بحفلة موسيقية مزدحمة. أو وضع يكون فيه البقاء للأصلح. ومعظم هؤلاء الرجال لم يسبق لهم أن يكونوا على مقربة شديدة من العديد من النساء في حياتهم، أو هكذا ظننت. ولا تزال صرخات النساء التي كانت تتصاعد من بين الهاتفات القرآنية في تلك الليلة تطاردني إلى الآن. ووصف عبد الله تجربته بالتفصيل. فقد كان عاجزاً عن العثور على عائشة ومريم لساعات. ودعا ربه أن تكون تقواهما حامية لهما. وقال لي وهو يهز رأسه: «ثمة أمور كثيرة منافية للإسلام تحدث هناك يا أخي». «منافية للإسلام». التزمت عائشة ومريم الصمت. وحين وصل الشاي باللبن الخاص بي إلى الطاولة، بادر عبد الله بالانتقال إلى موضوع آخر. وقال لي: «مريم طالبة غير متزوجة». «يجدر بك أن تحدثها بشأن نيويورك. إنها مذهشة».

أكان يحاول أن يكون وسيطاً للزواج؟ شعرت بالرضا عن نفسي وهممت بوصف أحياء نيويورك الخمسة. ولكن السيدتين، حتى وإن شعرا بالدهشة، فهما لم ينطقا بكلمة واحدة. ابتسم عبد الله. وعلى أي حال، من الواضح أن مظهر الحج الرجولي لدي كان ناجحاً في عمله. وما لبثنا أن صدح صوت أذان صلاة العصر في موعدها. وتوقعت أن تتجول الشرطة الدينية في كل مكان بعصيانهم لإغلاق كل المتاجر، ولكنني كنت مخطئاً. فكما الحال في الهند، كان لهذا المركز التجاري نظامه الطبقي الخاص به. ولن يجرؤ أحد أفراد الشرطة الدينية على دخول متجر شانيل.

يقع هذا المركز التجاري تماماً فوق قلعة أجياد العثمانية من القرن الثامن عشر. وكانت تركيا من بين البلاد الإسلامية القليلة التي تجرأت على الاعتراض على تدميرها. فقد نجح السعوديون في إذلال معظم بلاد العالم الإسلامي وجعلهم يصمتون. ويقع المركز التجاري داخل برج الساعة ذو المائة وعشرين طابقاً، الذي يحتل المرتبة الرابعة عشر من بين أطول المباني في العالم. وهو يتميز بأكبر أوجه ساعة في العالم. إذ تحتوي أوجه الساعة الأربعة على 98 مليون قطعة من الزجاج المدمجة داخلها.

وبجانب المركز التجاري، يحتوي هذا البرج أيضاً على فندق خمسة نجوم وشقق بالغة الترف يبلغ ثمنها رقماً من ثمان خانات، وتظهر إعلاناتها في صحف مثل *n/ غارديان* باعتبارها أكثر عقارات إسلامية مرغوب فيها في العالم. قد يبلغ ثمن قضاء ليلة واحدة في أحد تلك الفنادق قرابة 6,000 دولار. تحتوي مكة على بعض من أغلى قطع الأرض في العالم، إذ يبلغ ثمن عشرة أقدام مربعة في بعض المناطق أكثر من 100,000 دولار.

واعتبرت مجموعة الشيعة المتعلمة لديّ ذلك فاحشاً بصورة خاصة. فقد أبدوا استياءهم الشديد من رمز الرأسمالية المتوحشة هذا بالسنتهم في جولاتنا الجماعية حول المدينة. وفي الدوامة الدائرية التي تطوف حول الكعبة، يبدو كما لو أن الناس يصلون لهذا البرج المخيم عليهم عوضاً عن الكعبة. ولكن من ناحية أخرى، يؤدي برج الساعة هذا دور منارة هداية نظراً لأنه مرئي من أي مكان في مكة وأي مكان حولها على بعد أميال. ففي معظم الأوقات كنت تائهاً، وكان هذا البرج، لا سيري، هو من أرشدني إلى الطريق الصحيح.

لقد أدركت أن وجهة نظري بشأن تلك الاستهلاكية الفظة من ضمن الأقلية. فأنا كنت أنتهج نهجاً حاسماً مع مكة. إذ أن متاجر جوتشي والسلام الكهربائية كانت منظرًا اعتيادياً بالنسبة إليّ. ولكن بالنسبة إلى حاج فقير من الصومال نزل توّاً من أول رحلة طيران له أو لها، لا يُعد ذلك نوعاً من الرفاهيات التي تفوق الخيال وحسب، بل سيعتبرها علامات مشجعة على صعود الإسلام.

لقد أضحى حج المساواة لمحمد في حالة يرثى لها، وذلك بفعل أيادي آل سعود. فمن المفترض أننا جميعاً نقف أمام الله سواسية في رداء أبيض، حيث يصلي أغنى الناس بجانب أفقر الناس، والجميع يأدون الطقوس ذاتها. ولكن الآن صار بوسع الديكتاتوريين الغاشمين أن يستأجروا أجنحة بأكملها في فندق فيرمونت في برج ساعة مكة الملكي. ويروج الموقع الإلكتروني للفندق قائلاً: يقدم فندق برج ساعة مكة الملكي ضيافة لا مثيل لها في تجربة الفندق الحصرية مع فيرمونت جولد، حيث يمكن لضيوفنا المتميزين أن يتمتعوا بميزة اختيار الغرف التي تتميز بمناظر لا مثيل لها للكعبة، أو المسجد الحرام، أو مدينة مكة المقدسة. وتعهدت صالات الجاكوزي والساونا وغرف البخار لديهم بتقديم «طريقة مضمونة

لإذابة التوتر». كانت تجربة الحج هذه مختلفة تماماً عن تجربتي، ناهيك عن تجربة الحجاج الفقراء، الذين نام الكثيرون منهم في الشوارع طيلة فترة الحج.

تصادف عبد الله، كما فعلت أنا، بحمامات ستارباكس ناصعة البياض، وتوضأنا معاً. ثم قال لي: «هيا أعلمك طريقة الصلاة داخل المركز التجاري».

فرددت عليه قائلاً: «ولكن الكعبة هنا مباشرة» مشيراً إلى مدخل المركز التجاري.

قال لي: «إن الجو حار في الخارج. لا ينبغي أن نصلي أمام الكعبة دائماً في كل الأوقات». ثم وجدنا ملاذاً نصلي فيه في المركز التجاري مكيف الهواء، وركعنا مع غيرنا في صفوف مرتبة خلف لوحات نيون ساطعة. كنت في وئام مع الحجاج الكسالى الذين يصلون داخل المركز التجاري.

ولاحقاً، التزمتُ بالقاعدة التي فرضتها على نفسي: حين تكون في مكة، اتجه دائماً إلى الكعبة. فالحج فريضة شاقة تنطوي بالضرورة على الإيمان والإذعان. وكانت اللحظات التي قضيتها أصلي إلى الكعبة وأتأمل فيها عوناً عظيماً. فقد حولت أيادي الآثمين الجائعة سطح الكعبة الخشن الجرانيتي، على مر القرون، إلى وعاء من الغفران. وقد كانت الكعبة تشع بقوة ملأتني. وكنت أعود لها دائماً في الليالي المؤرقة، كما لو كانت تجذبني مثل المغناطيس. لو كان هناك سبيل للتوبة في الإسلام للحجاج الآثمين، فلا بد من أنه موجود هنا تماماً.

«بارفيز؟» كان هذا صوت يونس، طبيب وقور وحسن الطباع من مونتجومري، ألاباما، وكان فرداً من مجموعتي. أعجبتُ به غريزياً فور رؤيته – وصرنا رفاقاً في الحج. وتعجبنا للحظة من أننا وجدنا بعضنا بعضاً من بين كل تلك الحشود الهائلة. وقال لي: «لدي ما أود إخبارك به». ومضى يعلن عن كونه مسلماً سنياً.

فقلت له: «ولكني كنت أظن أن زوجتك وأمها من الشيعة».

فرد عليّ قائلاً: «أجل، إنها زيجة لا تصدق، ولكنها قوية للغاية». وسألني عما إذا كنت أعرف كيفية الصلاة على الطريقة الشيعية. فأخبرته أنني قضيت شهوراً أتعلم تقاليدهم قبل مجيئي إلى هناك.

وحيث كنت برفقة المجموعة الشيعية، كنت أصلي مثلهم. وحيث كنت وحدي، كنت أصلي بطريقة سنية مختلفة قليلاً.

قال لي: «إن ذلك حل وسط جيد». «فمن الأفضل لك ألا تظهر بمظهر دخيل هنا». كنت أعلم بالفعل أن يونس ينتقي كلماته جيداً. وتساءلت عما إذا كان يعلم بأمر السر المخزي الذي أحمله. ومكثنا في صمت تأملي لبرهة من الوقت. لقد تعلمت دائماً أن كل مكان أجلس فيه هو بيت الله. واعتادت أُمِّي أن تقول لي إن الله يمقت الكذابين. أضحى عبء الخداع الذي أحمله ثقيلاً فجأة.

بعدها وشوشتُ إليه قائلاً: «لدي ما أود إخبارك به أنا أيضاً». «أنا مثلي الجنس». كانت تلك ثلاث كلمات لم أكن أجروُ حتى أن أقولها لأبي.

فقال لي: «كنتُ أعلم». ثم عم الصمت. ومرت دهور طويلة من الزمن. ثم وضع يونس ذراعه برفق حول كتفي. وقال لي: «لماذا تريد أن تكون جزءاً من شيء لا يرغب في أن يكون جزءاً منك؟».

وهبتني الكعبة الشجاعة الكافية لأفصح عن ميولي، وأردتُ أن أخبره. وأقرت بادرته اللطيفة بوجودي. لقد غيرت الليالي المؤرقة التي قضيتها هنا نفسي. والآن صرت أؤمن بأنني حصلت على موافقة من قوة أسمى من أولئك الذين يحرسون تلك الجدران بالبنادق والهراوات. والآن، تغير إسلامي إلى الأبد. لم يعد إيماني يتسم بالخوف. ولم يعد الأمر يتعلق بما إذا كان الإسلام سيقبلني. بل كان الأمر يتعلق بما إذا كنت سأقبل الإسلام. فعلتُ ذلك حقاً.

## الفصل التاسع

### معسكر إسلامي

في ليلتي السادسة في مكة، كان الوقت قد حان لأبدا طقوس الحج الفعلية. كل شيء حتى هذه اللحظة كان استعداداً عاطفياً وسياحةً روحانية. كان شهر ذي الحجة في التقويم الإسلامي («شهر الحج»). يؤدي الحج في الثامن والتاسع والعاشر من هذا الشهر. بحلول هذا الوقت، كنت قد أضعت الحس بالتقويم الغربي الميلادي، وإلى حد ما - كل الإحساس بالوقت. كان كل أفراد فوجي يتحدثون منذ أسبوعين باستخدام التقويم الإسلامي. ساهم هذا الأثر المثير للقلق في خلق شعور أعمق بانعدام الزمن في هذا المكان، كما لو أنه يوجد في عالمه الروحاني الخاص.

احتجت نصف ساعة لإتمام *الغسل*، وهو التطهير الشعائري الذي يتطلب إتقاناً ويجب أدائه قبل الإحرام، الفعل الذي أديته بمجرد دخولي إلى مكة لأول مرة. في الإسلام، ينظم كل فعل دقيق، حتى عدد مرات غسل إبطك، بشعائر محددة. ولكن بحلول هذا الوقت كنت قد صرت خبيراً. في الحمام، بعيداً عن أعين بقية فوجي الشيعية، أدت شعائر التطهر الخاصة بي على الطريقة السنية. كنت في هذه اللحظة أخرج اللحم التي حافظت عليها معهم منذ وصولنا إلى المدينة المنورة.

علي أن أعترف هنا بأنني أدت طقساً آخر في هذا المكان المقدس، قبل أداء الغسل. لم يكن هذا الطقس جزءاً من حجي. في الحقيقة، فهو محرم في الفقه الشيعي. لقد أدت *الاستمنا*: استمنيت، وهو ما بررته بأنه لا بأس به، ما دمت قد أتبعته بالتطهير الشعائري. كانت شهور قد مرت منذ أن مارست أي اتصال جنسي، ولم أكن أرغب بالمزيد من الامتناع. إما الآن أو أبداً.

عدت إلى المسجد الحرام لإعادة الطواف والسعي. هذه المرة، حاولت أن أمس «حجر هاجر»، حيث دفنت هاجر وإسماعيل، وفقاً لكل من السنة والشيعية. منعني الحشود الهائلة الباحثة عن استحقاق المزيد من الحسنات عند الله من الاقتراب إليه مطلقاً. بمضي ليلة، على ما بدا، تضخمت الحشود بقدم الحجاج. تضاعف عدد السكان، وفق تقديري، ثلاثة أضعاف منذ وصولي. كانت مكة تكاد تنفجر بمن



فيها، وكانت الحشود مدفوعة بإلحاح أقوى، ما أدى إلى تجربة حج بعيدة بشكل كبير عما أمر به النبي محمد. كان يرى أن هذه التجربة مقدسة ويجب أن تؤدي بحالة من الطهارة («النقاء»). بدل ذلك، ضُربت بالأكواع، ودُفعت، وسُحبت طيلة اليوم. كان الأمر أسوأ حتى على النساء. كانت صرخاتهن تبدو أحياناً أعلى مما قبل.

ما أن خرجت من بؤرة التدافع المقدسة للإسلام، أضاء جهاز آيفون الخاص بي. كان كيث، الذي شعر ولا بد بمخاوفي. أخبرته أن شعائر الحج الفعلية التي تمتد لخمسـة أيام كانت تبدأ للتو.

وأنا أمشي خارجاً، شكرت بصمت آل بن لادن لشبكة واي-فاي التي كانت مجانيةً للمفاجأة في هذا المكان. عملت هذه الشبكة غير الخالية من العيوب في بعض الأماكن. كنت أستطيع أحياناً إجراء اتصال فيديو عبر فيس تايم إلى جانب مئات آلاف المستخدمين الآخرين الذين يرسلون الرسائل النصية ورسائل البريد الإلكتروني والتغريدات وغير ذلك.

عطشاً ومرهقاً، وجدت إحدى حافظات المياه المنتشرة في أرجاء مساحة المسجد. كانت هذه الصنابير تخرج ماء زمزم المقدس، المسمى نسبةً إلى النبع السحري الذي أنقذ حياة إسماعيل. كان الحجاج يأخذون معهم إلى البيت غالونات من ماء زمزم «الشافى» لأحبابهم. يستخدم في طقوس المباركة في الأعراس ومناسبات الولادة. كانت لدي شكوكي بأن تكون كل هذه المياه صادرةً من بئر واحد. بحثت على جوجل بما يكفي لأعرف بأن وكالة معايير الغذاء البريطانية ادعت أن المياه تحتوي على مستويات خطيرة من الزرنيخ. يشجب السعوديون هذا الادعاء بوصفه جزءاً من بروباجاندا معادية للإسلام. شربت ما يكفيني، مذكراً نفسي بالأأخرج مرةً أخرى دون مياه شرب معبأة مختومة. في ذلك الوقت، لم يكن يمكنني تخيل ندرة H2O التي كانت تنتظرني.

كان الحجاج السنة قد غادروا بالآلاف أثناء النهار، ولكن تعاليم شيعية لم أفهمها كانت تملي بأن نرحل في الليل. تحت غطاء الظلام، اتجهنا إلى الصعيد الترابي الذي يدعى عرفات يقبع عند قاعدة جبل الرحمة. قفزت إلى حافلة لرحلة خمس عشرة دقيقةً. ما كنت أظنه نزهةً قصيرةً كان كابوساً استغرق سبع ساعات تتلاصق فيه مصدات السيارات وراء بعض. فضل آل بن لادن، كالمخططين الأمريكيين الذين درسوهم، بناء طرق سيارات بدلاً من النقل العام، لذا تصاب هذه المنطقة بانعدام

السير في كل موسم حج. وقفت في الحافلة طيلة الوقت. لم يرأف زملائي الحجاج بحالي. كان كل حاج معنيًا بنفسه فقط.

عرفات شديد الأهمية في التفاسير الإسلامية. أدى النبي خطبة وداعه لأوائل المسلمين هنا. يرادف هذا المكان يوم القيامة. هناك أهمية كبرى لعرفات وشعور بالقدسية الشديدة. يتفق معظم علماء المسلمين بأن هذا أحد أهم شعائر الحج. النبي محمد نفسه قال، «الحج عرفة». كان للحجاج فقط حتى ما قبل غروب الشمس ليصلوا طلبًا للمغفرة. وقف السنة تحت الشمس التي لا ترحم طيلة اليوم، ممسكين أحيانًا بالمظلات التي تحمل شعار شركة زين، ثاني أكبر شركة اتصالات سعودية. اختلف الشيعة في طريقة أدائهم للشعيرة. بقينا في الخيام، حيث قاد رئيس الفوج بقيتنا في إنشاد بكائي.

كان كل تفصيل دقيق في الحج مفصلاً في دليلين مكتفين للحج أعطيناها في البداية. كان كل ما هو واجب مكتوبًا هناك وكان هناك إسهاب كبير عما ليس واجبًا. ربيت على الخوف من الكثير من الأشياء التي يؤديها المسلمون الصالحون فرضًا. كان يبدو أن الشيعة يعيشون في عالم مشابه أسود وأبيض من الواجب والفرص. أصبح هذان الكتابان رفيقي الذين استخدمتهما كثيرًا في صراعي لأداء حج مقبول. دعوت للحصول على الكثير من دعوات حجًا مبرورًا من زملائي الحجاج والمسلمين عند عودتي إلى الوطن. لم يكن أي شيء آخر سيكفي في صراعي للوصول إلى رتبة مسلم صالح.

ذكرني قائد فوجي بأهمية هذا اليوم. سألته عن الحديث الذي روي لي وأنا طفل عن عودة من كان حجه مقبولاً طفلاً حديث الولادة.

«طالما تبعت هذه»، قال لي، مشيرًا إلى الكتابين. في الكتاب الأول، أشار إلى الصفحة 48: «الوقوف هناك لهذه المدة واجب ومن لا يفعل ذلك مختارًا يرتكب إثماً». الوقوف، شعيرة محورية في الحج، تعني حرفيًا البقاء في مكان واحد لمدة. في مصطلحات الحج فذلك يعني صعيد عرفة.

لم أجروا على سؤاله إن كان وقوف الشيعة كوقوف السنة، الذي يعني كان يعني في الشعر الذي يتحدث غالبًا على لسان الإسلام «التوقف لتأمل المقدس».

تصفحت الكتاب بسرعة. كان هناك نحو عشرين صفحة عن عرفات ذاتها. وكانت هناك عدة «قواعد»، الفرض الذي كنت أخشاه كثيراً في طفولتي. في مكان ما كتب أن من المفروض علينا أن نردد:

100 مرة الله أكبر

100 مرة الحمد لله

100 مرة سبحان الله

100 مرة سورة الإخلاص

وأدعية من اختيارك

لم يكن بإمكانني أبداً أن أحفظ كل ذلك.

كانت سورة الإخلاص المكية من مفضلاتي، مع ذلك، فكان تردادها سهلاً علي. الإخلاص يعني «الإيمان الخالص»، لذلك كانت دائماً محببةً لقلبي.

بسم الله الرحمن الرحيم.

قل هو الله أحد.

الله الصمد.

لم يلد ولم يولد.

ولم يكن له كفواً أحد.

لن أتأكد أبداً إن كنت أدت 100 من هذا و100 من ذاك كما أمرت فوج الحجاج خلال أدعيتي في ذلك اليوم. ولكنني متأكد أنني وجدت خلاصاً وعزاءً عظيمين لروحي بتريديد سورة الإخلاص نحو مئة مرة.

انطلق شاب جول الخيام، موزعاً منشورات ورقية بنص عربي على جهة وإنجليزي على الأخرى. كان ابن أحد رجال فوجنا. كان دائماً يطوف حول قادة الفوج، مؤدياً مهمات صغيرة كهذه. كان يبدو

ويسلك كمحبيب الأستاذ - النوع الذي تريد نوعاً ما أن تتنمر عليه دون أن يمسكوك. أعطاني إحدى أوراقه وجلس إلى جانبي.

«أعلم أنك سني»، همس لي كمن يتآمر. «دعني أفسر هذا».

قلبت الورقة.

«هذه أدعية خاصة»، أردف قائلاً. «لو كنت شيعياً، تكتب اسمك قبل المغرب وأنت تطلب من الله كل أمانيك في هذا اليوم الخاص. ثم تدفنها، وستتحقق أمانيك». وهكذا فعلت.

كان مفروضاً على كل السنة الصعود إلى أعلى جبل الرحمة. سلك فوجي الطريق السهل، بالدعاء الباكي في الظل البارد نسبياً لخيامهم. لم يتح لي الذهاب إلى جبل الرحمة. انضمت إلى زملائي الحجاج في الدعاء بالمغفرة. بدأ الإنشاد من جديد. نحب قائد الفوج باللغة الإنجليزية، وهو يصرخ فعلياً، إلى جانب صوت عربي عذب يذكر كل سلالة المسلمين الشيعة، بدءاً من ابن أخي النبي وصهره علي، راجين السلام لأبرز أسلاف الشيعة. لو كنا في خيمة للسنة، لم يكونوا ليجرؤوا على نطق هذه الأدعية.

تحدث قائد الفوج بين الأناشيد العربية، متضرعاً إلى إله طفولتي عديم الرحمة:

اللهم، اغفر خطايا آبائنا، وأبنائنا.

فات الأوان على اعتذاري، اقبلني، سأكون أفضل.

ثم يقول الله، «انظروا إلى بئس المصير، مصير مريع فظيع».

ولكن الصلاة انتهت برجاء أكثر أملاً، مع قول إن كل شخص منا، بعد أداء الحج، بالنية الصحيحة، سيتنعم بتبوؤ مكان خاص في الجنة. طبعاً، كان التلميح أن هنالك «مصيراً بائساً» سيلحق بغير المؤمنين كاليهود والمسيحيين. ستعطى هذه المجموعات على وجه الخصوص بوضع خاص في الجنة وفق تفاسير إسلامية أكثر لطفاً، لأنهم أهل الكتاب.

للحظة بدا أن الغفران يتردد في المكان بأسره، ورغم ذلك شعرت بالنقص. لو عرف أي من هؤلاء من أكون، لم يكونوا ليتمنوا لي السلام، ولا ليتصوروني إلى جوارهم في الجنة. في وقت الغسق غادرت

عرفات متسائلاً إذا ما كنت مسلماً صالحاً. قال أحد إنه كان تاسع أيام ذي الحجة. كنت قد فقدت أي إحساس بالوقت، سواءً بالتقويم الإسلامي أو الغريغوري.

أخيراً، وصلنا إلى سهل مزدلفة المفتوح لجمع تسع وأربعين حصاةً لرجم الشيطان في مكانه في الجمرات (حيث ترمى الحصى). وزع قائد فوجي حقائب صغيرة لنجمع جمراتنا وشجعنا على جمع سبعين، لأننا قد نفقد بعضها على طريقنا إلى الشيطان. في الجانب الآخر من الطريق السريع كان هناك سهل آخر للنساء حصراً ليجمعن حصاهن. تساءلت – إذا كانت هذه الشعيرة تؤدي من قبل ملايين الأشخاص كل عام لقرون، فكيف لم تخلُ مزدلفة بعد من الحصى؟ هل يجدد السعوديون الحصى كل عام، معيدين الجمار «المستخدمة» من مكان الشيطان في الجمرات بواسطة الشاحنات؟

كنت بحاجة شديدة للتبول. لم يوفر السعوديون، فيما يبدو الآن تجاهلاً نمطياً لراحة الحجاج، ستة مراحيض فقط ليقضي فيها آلاف الحجاج حاجاتهم. كنت أخشى حتى من الدخول – كانت الرائحة النتنة تملأ المكان. التفت إلى أحد أصدقائي من فوج الحجاج.

«الأمة التي تبول معاً تبقى معاً»، قلت. ضحك. كتمنا أنوفنا وبقينا ننتظر الدور. علمت أنه بحلول الفجر، كان الدخول إلى دورات المياه مستحيلاً، لأن كل الأجسام النائمة حولي ستكون مستيقظة وعلى استعداد للتبول الصباحي. يحب الكثير من المسلمين أن يعتقدوا بأنهم أنظف وأطهر شعب على الأرض. في تلك اللحظة، وأنا ألتقط أنفاسي، كان صعباً علي تصديق ذلك.

كانت عدة آلاف من الأجسام المغطاة متناثرة على السهل، يستلقي العديد منها في أكياس النوم. بالنسبة لي، لن يكون هناك نوم في هذه الليلة. كانت مضاءة بآلاف شاشات الهواتف الذكية التي تستخدم كمصابيح للمساعدة على البحث عن الحصى. أعطت هذه الأجهزة الأرض إحساساً غريباً مستقبلياً.

الاعتراف هو الخطوة الأولى على طريق المغفرة، وللاثمين طريقة في إيجاد بعضهم. هذه أرض أسرار، ووجدت أن العديد يرتاحون هنا للانتمان بالأغراب. في هذه الليلة حالكة الظلام، عثرت على محمد معاصر، كانت آثامه، برأيي، لا تغتفر. كان هذا الحاج يصلي وينتحب. يعتبر هذا غير إسلامي. أردت تذكيره بذلك كي لا يعترضه المطوعون.

«لماذا تبكي؟» سألته. تعرفنا على أسماء بعض. كان اسمه محمد، محمد بشير، من لاهور، باكستان.

«أخي بارفيز، لا بدك أنك سمعت أن هناك حوادث قتل في باكستان بداعي حفظ شرف العائلة»، قال، والإثم مكتوب على جبينه.

«لم أفهم، يا أخ»، أجبته.

«عندما يقتل شخص بداعي الشرف، أخي».

«نعم»، قلت. «سمعت بذلك وهو يدعوني للشعور بالأسف». كنت أخشى وجهة هذا الحديث. «ولكنه القرن الحادي والعشرين. أتظن أن جرائم القتل تحدث في هذا الزمان؟».

كنت أعلم بالطبع أنها تحدث. جرت أشهر جرائم الشرف في المملكة العربية السعودية في عام 1977، حين أعدمت الأميرة مشاعل بنت فهد، ابنة أخي الملك خالد، في ساحة عامة لعلاقتها برجل أعمال لبناني اسمه خالد الشاعر المهلهل. عصبت عيناها، وأجبرت على الركوع، وأطلق عليها الرصاص. أجبر عشيقها على مشاهدتها ثم قطع رأسه إلى جانب جثتها النازفة. وفي وقت أقرب، ذكرت صحف بريطانية في عام 3008 أن امرأة قتلها زوجها بسبب تحدثها مع رجل آخر على فيس بوك.

وفقاً لمعظم تفاسير الشريعة، فإن تهم الزنا لا يمكن إطلاقها إلا إذا شهد أربعة شهود ذكور على الادعاء. وينطبق مثل ذلك على فعل «اللواط»، الذي يوازي غالباً المثلية الجنسية. في عام 2008، أطلق النار على طالب تركي يبلغ ستة وعشرين عاماً من قبل أبيه الكردي المحافظ خمس مرات عندما غادر الشاب شقيقته للحصول على بعض المتلجات. في أثناء تصوير جهاد لأجل الحب، زرت مقاهي للمثليين في إسطنبول، ومع ذلك تغلغت روح التعصب عميقاً في البلد. في المملكة العربية السعودية، يجلد المثليون بشكل معتاد، ويسجنون، ويعدمون من قبل المطوعين. وتطبيق العدالة من قبل المواطنين شائع أيضاً.

أكد محمد أن جرائم الشرف شائعة في باكستان. «أعرف شخصياً أنها تحدث، يا سيد. هذا سبب وجودي هنا. جرى ذلك في منزلي. كلما حاولت أن أصلي، أرى وجهها. أرى وجهها عندما أنظر إلى ابني أخي. لم يرد أخي المجيء إلى الحج. لا يعتقد أنه ارتكب فعلاً آثماً. ولكن كان علي فعل ذلك». «من هي؟» سألته.

«زوجة أخي. كان اسمها ياسمين. عائلتها تطلب دية دمها. لا أعلم ماذا سنفعل».

«هل شاركت أنت؟»

«نعم سيدي. هذا سبب كوني هنا في الحج». أدركت أنني كنت أجلس إلى جوار قاتل. لم يبق لي شيء أقوله له. لم أعرف كيف أعزيه. لم أكن أريد ذلك.

في الصباح التالي، مشينا من المزدلفة إلى منى، أكبر مدينة خيام في العالم. هنا توجد أكثر من 100,000 خيمة مكيفة تنتشر على امتداد عشرين كيلومتراً مربعاً. تاريخياً، كان الحجاج يحضرون خيمهم الخاصة. في تسعينيات القرن العشرين، هبت النيران في أجزاء من المدينة، لذا كانت الخيم التي أراها مصنوعة من الألياف الزجاجية المغطاة بالتفلون.

راودني شعور مريع. لم نستحم منذ ثلاثة أيام ومشينا أميالاً في الجو الغابر. مشينا مقوسي أرجلنا لكي نتفادى زيادة الاحتكاك بين أفخاذنا من الداخل. فقدت ملابس إحرامنا البيضاء ألقتها الذي خرجت به من بلاد صنعها في الصين. لم أعد أكل وأشرب ما يكفيني لأنني كنت خائفاً من فكرة الاضطرار لاستخدام مرحاض سعودي آخر مفرط الاستعمال، أقرف مرحاض رأته عيناى في العالم. كوني متمرساً في السفر، فقد سافرت لأكثر من ثلاثين بلداً بالإضافة لكوني آتياً من الهند، التي اخترعت عملياً «المراحيض المقرفة»، وهي الفكرة التي كرس في التاريخ السينمائي من خلال المشهد الافتتاحي لفيلم سلامدوغ مليونير. اخشوشنت أقدامنا بسبب ارتداء الصنادل المفتوحة عند الأصابع كما يفرض علينا الحج. إذا كانت جيدة بما يكفي ليرتديها النبي، فيفترض أن تكون جيدة بما يكفي لنا.

قسمت منى إلى مخيمات تمثل كل دولة. «أهلاً بالحجاج الروس» كتب أمام أحدها. «حج الكاريبي»، كتب أمام الآخر. لاحظت أعلاماً من كل أنحاء العالم، من فيجي إلى المالديف، ورغم ذلك كان

هناك ثلاث مفقودات بارزة: لا وجود لعلم الولايات المتحدة ذي النجوم والخطوط، ولا علم الاتحاد البريطاني، ولا نجمة داود. سارت مجموعتي ذات الأغلبية الأمريكية تحت ورقة القيقب غير المؤذية لجارتنا الأقل إثارة للجدل.

أقيم أذان الظهر الذي لا مفر من سماعه. لأجل أن أصلي، سيكون علي الوضوء، ولكن ذلك يعني زيارة المراحيض السعودية الكريهة. تخيلوا مرحاضاً محمولاً دون مقعد – حفرة في الأرض. في ذلك المرفق، يفترض أن يتبرز الحجاج ويتبولوا ثم يستحموا. لا ورق مراحيض، ولا سيفون. عند الاستحمام، تكون واقفاً في بركة راكدة من المياه المائلة للون البني. هي ببساطة قذارة ورمال ممن كان قبلك، أو شيء أسوأ؟ تنهمر المياه القذرة من غرف الاستحمام المجاورة فوق رأسك، ولا يمكنك سوى أن تأمل أن يكون جيرانك بالنظافة التي تتخيل نفسك بها. هذه من أكثر الظروف غير الصحية في العالم المتحضر. تتردد مخاوف انتشار الأوبئة مرتبطةً بالحج في كل عام. الصوت المرافق لتجربة الحج هو نشار العطاس، والسعال، والتهوع. يرتدي العديد من الحجاج والحرس السعودي كمادات طبية. بشيء من الشعور بالذنب، اخترت خلافاً للدين تخطي الوضوء. ادعيت أنني أديته بأن مشيت قليلاً. ربما أكون قد خالفت حرفية الشرعية الإسلامية بأن تملصت من شعائر الطهارة، ولكن برأيي فقد كنت أنظف لأنني فعلت ذلك في هذه الحالة.

أرسلت لي شاهيناز رسالة نصيةً عن كيفية تهريبها لسيجارة دخنتها في الصباح الباكر، عقب صلاة الفجر، في إحدى «المراحيض-حمامات التدوش الآتية من الجحيم» كما أسماها كلانا. في مرحلة ما خلال الحج، توقفت عن الأكل فقط لكيلا أضطر لاستخدام الحمامات لأي شيء عدا التبول – كانت كريهةً.

في أثناء استراحتي للتدخين خارج خيمتي، اقترب مني عبد الله جعفر، الطبيب البريطاني في مجموعتي، بوجه عابس.

«أخ بارفيز»، قال لي. «هل تدرك الشبكة العالمية للدخان؟»

«نعم»، قلت له. «هناك مدخون في كل مكان».



انخفض صوته، «دعني أرك كيف تعمل». رسم خريطة للكرة الأرضية في الهواء بأصابعه، موضحاً المؤامرة التي يتحدث عنها. «هنا أمريكا. وهنا بريطانيا. وهنا البرازيل. كل هذه الدول تصنع التبغ. هل تعلم أين يؤول به الأمر؟» لوح بيده على الخريطة باتجاه الشرق الأوسط وجنوب آسيا. «أترى؟ حيث يعيش معظم المسلمون؟»

تركت الأحقق يرغى ويزبد كما يشاء.

رسم الطبيب مساراً بين هذه البلدان، وأشار إلى تدفق تأمري للتبغ من الدول غير الإسلامية نحو قلب الإسلام. «أترى؟» ابتسم، وكأن منطقته الذي لا يمكن إنكاره أصاب مقتلاً بوضوح. «إنها مؤامرة من يهود أمريكا».

حاولت أن أمنع عيني أن يبديا تدمري.

«يريدون للمسلمين أن يموتوا بسرطان الرئة». ارتفع صوته. «كل الأمور متصلة ببعض! انتبه، أخي. ليس لأجل صحتك فحسب، بل لأجل الإسلام أيضاً!»

أطفأت سيجارتي بسرعة.

تمتد الأزقة القذرة بين خيم منى لأميال. الخيم نفسها متطابقة، والطريقة الوحيدة لتمييز إحداها عن الأخرى تفحص الأعلام وأسماء المجموعات. بالعودة إلى الخيمة تجرأت على أداء الصلاة على الطريقة السنية أمام كل أعضاء مجموعتي الشيعية. في تلك اللحظة كنت قد فقدت رغبتى بالاندماج، وكان عنادي في التحدي مرئياً للجميع. حدق الناس وتهامسوا بين بعض. تجاهلت أصواتهم وركزت على الغاية الأسمى التي جلبتنا إلى هنا في المقام الأول.

كما حدث عدة مرات حتى الآن، بدا أن النساء اختفين فجأة ودونما إنذار. لا بد أن خيمهن الخاصة كانت بعيدة عن أزواجهن أو «أوليائهن» من الذكور. تساءلت إذا ما كانت تلك النساء تعرف بشأن النقاشات المحترمة الغاضبة المندلعة في المملكة عن حقوق النساء، والفصل، والمساواة.

خلال تواجدي في منى، قرأت تغريدة للوليد بن طلال، أحد الأمراء الإصلاحيين حسب ما يدعو نفسه، تجادل بأن النساء يجب أن يسمح لهن بقيادة السيارات لإنهاء العمل غير الشرعي للمهاجرين

غير المسجلين. ادعى أن هذا سيؤدي إلى انخفاض عدد السائقين الأجانب بمقدار 500,000 سائق. صرخ الناقدون، كما يفعلون دائماً، بغضب أمام هذه التغريدة. غالباً ما ظهر الشيوخ على التلفزيون السعودي مستنكرين قيادة النساء للسيارة: «إذا بدأت النساء بقيادة السيارة، فماذا ستفعلن إذا تعطلت سيارتهن؟ سيُغتصبن!». ما تزال هذه العقلية وعقليات مشابهة لها تمنع المملكة العربية السعودية من دخول القرن الحادي والعشرين.

تلك الليلة ذهبت مشياً في نزهة قصيرة، لأنني كنت أشعر بالخوف من الأماكن الضيقة. كان الرجال حولي يأخذون أكثر من حصتهم العادلة من المكان. شعرت أنني لم أكن قادراً على التنفس. ولكن الشوارع لم ترحني كثيراً. القذارة، والنفايات، وأصوات ضجيج صافرات الإنذار، وعدد لا يحصى من المزيد من الحجاج الذين ينامون في الشوارع. كانت هذه طبقة أخرى من الحجاج – أولئك الذين اضطروا للمجيء إلى المملكة دون وثائق رسمية خلال موسم الحج. أتوا باحثين عن عمل. وجد العديد منهم عملاً، ولكن عدداً كبيراً أيضاً لم يجد. لذا فقد كانوا يمضون أيامهما كيفما اتفق، يتسولون غالباً. كان للعديد من المتسولين أطراف مفقودة: افترضت أنه قد أمسك بهم وهم يسرقون. بدا المشهد كيوم يتلو معركة دامية، بعدد لا يحصى من الجثث، كثير منها محطمة، تتلوى وتتمدد على امتداد النظر. كان هناك حج مواز يحدث.

التقيت صدفةً بأحد قادة فوج الحجاج الخاص بي، والذي أصبح بحلول هذه اللحظة رقيقاً معتاداً في التدخين. اشتكيت له عن رفقائي في الخيمة. «كانت أُمي تقول لي إن كل المسلمين الصالحين يجب أن يحتلوا مساحة تابوت. كما تعلم، لا أن يحتلوا المساحة الشخصية لمن حولهم من الناس» قلت له.

«لسوء الحظ، لا يحمل الجميع تلك الأخلاقيات»، أجابني.

«وماذا بشأن تلك الشوارع؟ هل يدركون حتى أن أناساً مثلنا ينامون في خيم مكيفة؟ هذا ليس حج التساوي الذي تصوره النبي».

«أنت محق»، قال لي. «أنا أحضر أفواجاً إلى هنا منذ خمسة عشر عاماً. تغير الكثير حتى في هذه الفترة القصيرة. لا يملك هؤلاء فيزا. لا يمكنني أن أخبرك حتى بالأشياء التي رأيتها».

«ماذا سيحل لهم بعد انتهاء موسم الحج؟»

«إما أنهم سيجدون أعمالاً غير شرعية أو يؤول بهم الأمر في السجون السعودية ليرحلوهم فيما

بعد».

نظر، وهو يدوس على سيجارته ليطفئها، إلى الأفق. «أنا سعيد جداً لأنهم لا يسمحون لغير المسلمين بالدخول. لا يجب أن يسمح للغرب أن يرى هذا الجانب منا».

أتى يوم رجم الشيطان مع الصباح التالي. في هذا اليوم كان يجب علينا أن نواجه الشيطان بإعادة تمثيل رمزية لمواجهة إبراهيم للشيطان. عندما غادر إبراهيم منى، ظهر له الشيطان ثلاث مرات. في كل مرة، كان الملاك جبريل يظهر ويأمر إبراهيم بأن يرمي الشيطان بالحجارة، ما جعله يختفي. تعلم هذه اللحظات الثلاث التي واجه فيها إبراهيم الشيطان بنجاح بثلاث أعمدة في الجمرات. وفق بعض الروايات التقليدية، فإن الأعمدة في النقاط الثلاث المحددة التي رمى فيها إبراهيم الشيطان بالحجارة وهي بالتالي تمثل الإغواءات التي كان عليه أن يتغلب عليها لينال رضا الله.

نسقنا قائد الفوج في مجموعات من نحو عشرين شخصاً. عينت قائداً لمجموعتي وأعطيت علماً كندياً صغيراً لألوح به. بدأنا نردد وراء عشرات آلاف المسلمين، *لبيك اللهم لبيك*:

*لبيك اللهم لبيك.*

*لبيك لا شريك لك لبيك.*

*إن الحمد والنعمة*

*لك والملك.*

*لا شريك لك.*

دخلنا سلسلة من الأنفاق، بطول أميال، تخترق تلال مكة العديدة. لم تتوقف أبداً – ضجة أصوات الصياح المرافقة للتلبية التي تتردد في هذه الأماكن الضيقة العشوائية. لم تكن شاهيناز معي. كانت قد

ادعت المرض لتتهرب من هذه البربرية. هذا كان مثلاً واحداً فقط عن الجحيم المصنوع من السعوديين بالكامل.

«لم يعد بإمكانني الاستمرار في فعل ذلك»، توسلت. فهمتتها وشعرت بالذنب. من الحسن أن النساء اللواتي يكثرن إصدار الأحكام عليها سيذهبن طيلة اليوم.

«تناولي حبة زاناكس ونامي بضع ساعات»، نصحتها.

«ممتاز»، أجابت.

لنحو ثلاث ساعات سرنا في الأنفاق ووسط الصياح الهائل. كانت هناك لحظات يشيع فيها السلوك الوحشي في التدافعات المصغرة التي كانت تحدث بين الأنفاق. كانت أجساد ترتمي على الصخور، معظمها بسبب الجفاف أو مشاكل طبية أخرى. كانوا يحاولون تجنب سيول رماة الجمار العازمين وحماسهم الكبير.

«أحتاج إلى الماء. سأموت» قالت امرأة تحمل طفلاً في حقيبة بيبي بيورن لحمل الأطفال. من الواضح أنها كانت تعيش في بلد غربي. كنت قد اشتريت العديد من أكياس الترطيب من النوع المستخدم من قبل الرياضيين، وقد وزعت معظمها على آخرين. كان هذا الكيس الأخير وأعطيتها إياه، متوسلاً أن تستخدمه باقتصاد. «ألا يجدر بهم أن يؤمنوا لنا المياه النظيفة؟» قالت. أومأت برأسي إيجاباً، مساعداً إياها على النهوض. أضعتها بعد قليل. كان مسيري الطويل نحو الشيطان مسير جفاف لم يسبق أن شعرت به. في الأمام كانت صناديق من قوارير المياه ترمى من شاحنة في وضع يشبه حالات الشغب. كنت سأصرف بشكل متوحش مثلهم. التقطت قارورتين وخبأتهم في حقيبة الظهر الخاصة بي.

مررتا بأكشاك تباع كل أنواع التذكارات الإسلامية. ولكن لم يبع ولا واحد منها المياه. هل كان هذا صنيعاً شيطانياً متعمداً من السعوديين. بدأ العديد من مجموعتي يصرخون طلباً للماء. لم يمكن إيجاده في أي مكان بعد تلك الشاحنة، التي أوّمن أنها كانت مرسلّة من الإله.

كانت مجموعة من الحجاج الأفقر بشكل واضح تنتحب حول جثة. «كان عمي»، صرخ رجل شاب. «دفع ولم يكن لديه ماء. كان الأمر فوق تحمله»، شرح أحد اليافعين، «ولكننا أضعنا الجميع وزوجته».

«إنها نعمة أن تموت في المدينة المقدسة»، قال أحدهم بصوت عالٍ، دون إبداء أي تعاطف.

بحثت عن أحد حراس الأمن وأريته الجثة. أتى الشرطة لموقع الحادثة ووضعوا الجثة في صندوق سيارتهم. لم يسمح لابن أخيه بالذهاب معهم. سينسى هذا الرجل المتوفي للأبد في إحدى حفر جثثهم الخالية من الشواهد.

كانت هذه بيئة مثالية للتدافع، التي تحتم تكرار حدوثها كل سنتين. في 2015، أكثر من 2,000 حاج مات دوسًا بالأقدام في هذا المكان. إذا كان من المفترض لهذا الجزء المحدد من الحج أن يبدو كمسير نحو الجحيم، فقد نجح السعوديون في بناء البيئة المثالية. ذكرني الشعور العام المرافق للمكان بأغنية الهيفي-ميتال «دخان على الماء – Smoke on the Water» من فرقة ديب بربل. لطالما كانت نعمة الغيتار الحاقد الأجش ترد العقل إلى استحضار وجود الشر.

في منتصف التسعينيات، حظيت بفرصة مشاهدة ديب بربل يعزفون في ملعب نهرو في دلهي. بحلول ذلك الوقت، لم تكن الفرقة رائجة في الغرب منذ عدة أجيال، ولكن ذلك لا ينطبق وضوحاً على دول العالم الثالث. كان واضحاً أن فرصتهم الوحيدة لاستعادة أمجادهم تكمن في إقامة جولاتهم في دول العالم الثالث. نازعت بشدة لتأمين التذاكر. كانت جميع تذاكر الملعب الضخم مباعة. كما في الولايات المتحدة، كان رجال الدين المسلمون في الهند يشاركون في «ذعر شيطاني»، ولكن بعد بضعة عقود. شعرت كثائر في تلك الحفلة. عثرت على قصاصة لمجلة *الهند/اليوم* تظهر ما كان يواجهه هؤلاء القادة الدينيون آنذاك:

بدأ قارع طبول فرقة ديب بربل إيان بايس للتو عزفا منفرداً. في ملعب جاواهلال نهرو في نيودلهي، كانت الفرقة تعزف بأعلى الأصوات على الأدرينالين معززة بما مقداره 40,000 واطاً من الاستطاعة الصوتية لنحو ساعة. مصروعاً بموسيقى الروك، غارقاً في إيقاع بايس ، وصوت الميتال يملأ الملعب، يلهث طالب جامعة بعينين ملؤهما الحماس: «إنهم آلهة، يا رجل».

لطالما ترافقت أصوات الهيفي ميتال، موسيقى عشرينياتي، مع صور الشيطان وما يرتبط به في مخيلتي. مهما يكن ما حصل عليه من هذا فأنا أعلم، أعلم أننا لن ننسى أبداً. دخان على الماء، ونار في السماء. ذكرت نفسي أنني كنت في رحلة دينية وحاولت إخراج كلمات الأغنية من رأسي.

عندما وصلنا إلى الجمرات، جهزت حجرتي. وأنا أرمي أولى الجمرات، تذكرت عندما مزح حسين عن كون أعمدة الجمرات تمثل أمريكا، وإسرائيل، وإنكلترا لدى بعض الإيرانيين. كان الضجيج مصمماً للأذان بالنسبة لي إلى درجة أنني لم أستطع أن أميز أي شيء يقال فيما عدا، «الله أكبر»، إذ تسارع الحجاج متخطين لي في كل الاتجاهات، قاذفين حجارتهم، رأيت نظرات جنونية في أعينهم، كما لو كانت نهاية الزمان. رميت أنا وعدة أشخاص آخرين بحصى مرمية بإهمال، بالإضافة إلى أخفاف، وأكياس نوم، وأغراض شخصية أخرى «ملعونة» أو «منحوسة» كانت تصوب بإهمال نحو أعمدة الجمرات. لم يبد أن هناك أي شيء إلهي في هذا المكان. لاحظت أن النساء كن يدفعن إلى الأرض من حولي. حاولت أخواتهن الإمساك بهن. عندما قدمت يدي لمساعدة إحدى النساء للنهوض، صفعتها امرأة أخرى بعيداً. حتى هنا في الجحيم، كان الفصل الجنسي مطبقاً ذاتياً.

في الاندفاع المجنون، حتى أنا دفعت أرضاً من فوج حجاج إندونيسيين دفعوني أرضاً عن غير قصد وساروا فوقني دون توقف و، الأهم من ذلك، بشكل غير إنساني. أهذا هو الجزء الذي أموت فيه؟ أنقذت من متسولة نيجيرية لطيفة. كانت فاقدةً ليديها، ولكنها أعطتني ما تبقى من ذراعها. بالنسبة لي، فقد كان فعلها اللطيف البسيط، رغم انتهاكه قواعد الإسلام في عدم اختلاط الأجناس، سيحظى بموافقة النبي. حسب ما أرى، فقط كانت هذه المتسولة، المقطوعة المتواضعة، وحدها تطيع نداءات النبي الأسمى للتراحم.

في لحظات كتلك، كنت أذكر نفسي أن هذه رحلتي الروحية. كنت أركز على الكعبة، المكان الوحيد في مكة الذي منحني الطمأنينة الروحية. كوني قادراً على عزل نفسي عن الضجيج، والتدافع، والحرارة، والقذارة، والإزعاجات، ونقل نفسي إلى المكعب الأسود مكنني من تذكير نفسي على الدوام بغايتي وإعادة ضبط قلبي ليوافق قلب النبي. علمت أن اعتمادي على الكعبة والنبي سيفسره الوهابيون على أنه من الشرك، ولكن هذا الإخلاص السري كان الأمر الوحيد الذي يمنعني من الانهيار. عندما كنت أسير،

كان النبي دائماً يسير معي، بيديه على كتفي. في خيالي الآثم كان يتخذ نفس الشكل الذي وصفته الخالة في طفولتي.

ترنحت خارجاً من الجحيم إلى الشمس. رغم أن مهمة إبقاء مجموعتي مع بعضها قد أوكلت إلي، فقد فقدتهم جميعاً. لم يكن هناك سبيل للبقاء معاً وسط ذلك الجنون. اتجهت إلى مكان اجتماعنا المتفق عليه: البوابة 17. عندما وصلت، وبخت فوراً عندما شم أحد رفقاء الحج رائحة مزيل العرق الخاص بي. «أتضع عطرًا؟» همس موجهًا التهمة، بصوت يكفي بالكاد لتسمعه المجموعة كلها. لا يفترض بالحجاج أن يضعوا أي شيء من الزينة. وقد قرر هذا الذي نصب نفسه عالماً إسلامياً أن هذا يشمل العطر. لم أفهم هذا الأمر قط. علمت أن النبي كان يحب العطور. لذا تجاهلت هذا التضييق الغبي. بعد ثلاث أيام دون استحمام، ومن السير في الرمال، سمحت لنفسني برفاهية وضع مسحة من مزيل العرق، التي بالكاد أثرت في رائحة العرق المنبعثة من كل جسدي. تجاهلت تعليق هذا الرجل. الكارهون سيكرهون.

حاولت أن أجد شيئاً من العزيمة والتعزية بالتفكير بالبساطة الروحية لأسلافي، والجهد الذي كابدوه ليؤدوا الحج دون الرفاهيات المعاصرة التي أتمتع بها الآن.

لم تكن رائحتي كريهةً وحسب، بل خرجت من الجمرات مرهقاً، مصاباً بكدمات، قاسي القدمين، مصاباً بالجفاف، ومحطماً روحياً. لم أكن واثقاً من قدرتي على الاستمرار. نزعت تجربة الحج عني كل ما يجعلني رجلاً معاصراً متحضرًا. شعرت كأنني لامست لأول مرة أي قوة بدائية كانت تكمن في داخلي – دماغ رجل الكهوف المتعطش للدماء. في هذه المرحلة من الحج يؤمر الحجاج بذبح معز، كما فعل إبراهيم عندما فدى إسحاق. عندما كنت طفلاً، كانت طقوس العيد السنوية عند ذبح الأضحية دوماً تملؤني بخوف وإيجاس لا يوصفان. كانت التضحية عاديةً بالنسبة لي، ولكنها مع ذلك تبدو بربرية. في كل سنواتي، لم أحاول قط إيذاء كائن حي. ولكن الآن، تطلعت لسكب الدماء. أستصعب صياغة هذا الشعور بكلمات.

«أتظن أنك فعلاً جاهز لهذا؟» قال عم لي قبل أن أخرج إلى الحج.

«نعم»، قلت واثقًا. «هذا هو الوقت المناسب من حياتي».

«حسنًا، سنرى إذا ما كنت ستظل تشعر كذلك عندما يطلب منك أن تقتل حيوانًا بيديك».

بأول مرة في حياتي، فهمت القوة الشافية للأضحية. لم يعد الشعور بأنها بربرية، بل ضرورية. بإطلاق حيوان إلى موته، سأقتل أيضًا جزءًا آثمًا مني أريد بشدة أن يموت.

ولكن لم يقدر أن يحدث ذلك. مشينا إلى لوحات كتب عليها «مشروع المملكة العربية السعودية للإفادة من الهدى والأضاحي بإدارة البنك الإسلامي للتنمية». صاحب الكلمات شعار صغير: نخلة وسيفان. كعدة جوانب من الحج، فقد طور الذبح بالكامل بشكل صناعي ضمن مجمع ضخم مكون من عدة بوابات مخصصة لمجموعات مختلفة. اقتيد الحجاج في مكان الذبح، دون أن يعرفوا بالضبط وجهتهم. مضت مجموعتي قدمًا مع حجاج آخرين، ولكن الموظفين الرسميين صرخوا في مكبرات صوت علينا ألا نمضي قدمًا. أخبرنا أحد الحراس باللغة الإنجليزية، «لا يمكنكم المرور لأنكم صفر». لم أعرف أبدًا لم صنف «أصفرًا»، أو ما الذي يعنيه ذلك الرمز اللوني. المزيد من الترهات السعودية، حدثت نفسي. «اخرج أيها الحاج!» صرخ أحد الحراس. «لا مزيد من الماعز!».

حاول قائد مجموعتي بأقصى ما يستطيع أن يسحبنا جميعًا معًا. صرخ وسط الصخب، «لأولئك الذين لم يستطيعوا المشاركة في الذبح، اكتبوا أساميكم وأرقام هواتفكم على ورقة. سأحرص أن يذبح تيس عن كل منكم وسأتصل بكم لتأكيد أن ذلك تم لتستطيعوا الاستحمام والاحتفال بالعيد».

لم يكن يفترض بنا أن نستحم حتى تذبح أضاحينا. لم أكن أدرك أن ذلك متاح حتى، أن يذبح عني شخص آخر. علمت أن الحاج يجب أن يفعل ذلك بيديه العاريتين. شعرت كأنني سرقت. كان يجب أن يكون هذا عملي العظيم للحصول على الخلاص الشافي، وقد رفضت. حاولت جاهدًا أن أؤدي كل شعيرة بالطريقة الواجبة. حطمني الشعور بأن حجي غير مكتمل.

لم أكن الوحيد الذي شعر بشيء من الفقد. أثناء عودتنا منهزمين لخيمننا، تشكلت الاحتجاجات خلفنا. كان الحجاج يلكمون بعضهم. كان الحراس قلّة أمام هؤلاء الحجاج المتعطشين للدماء والذين لم يحصلوا على أضاحيهم. مع اقترابنا من منى، رأيت رجالاً برؤوس حديثة الحلاقة يتجولون في أثواب



ملونة، لافي أذرعهم بأذرع زوجاتهم، محتفلين بعيد الأضحى. كان ملايين المسلمين في أنحاء الكوكب يفعلون المثل. كنت أخيراً قادراً على الانضمام إلى الاحتفالات في وقت متأخر من تلك الليلة، حين تلقيت اتصال قائد مجموعتي.

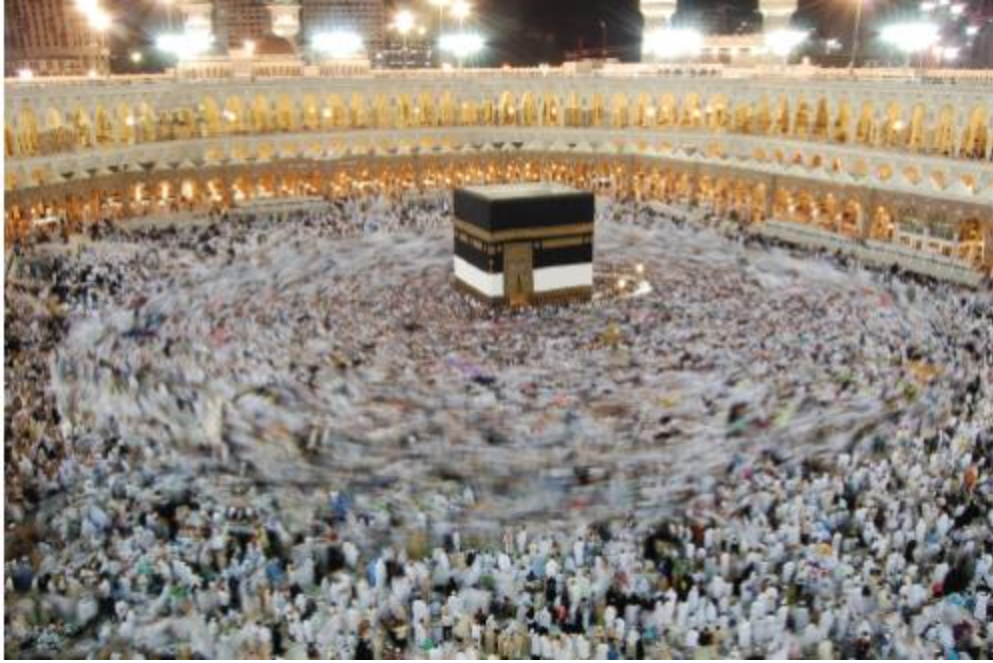
«تم الأمر» قال لي، كقاتل هوليوودي مأجور يتصل بمقر عملياته لإخبارهم بإتمام عملية قتل. أغلقت أنفي واستحممت في الحمامات-المراحيض الكريهة في منى.

رجعنا في اليوم التالي لرجم الشيطان من جديد في الجمرات. اقتربت النهاية. ما زال أمامنا بضعة أيام من البقاء في مكة، ما أتاح لي أداء عمرة (حج أصغر) إكراماً لوالدتي. استقلت سيارة أجرة خارج حدود مكة وأحرمت من جديد بخبرة مستحقة، على الطريقة البورمية. وبثقة، ارتديت حزاماً مع حقيبة على الخصر.

ليس في العمرة سوى الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة: شعيرتاي المفضلتان في مكة. كنت سعيداً بتكرارهما. كوني ابتعدت عن المجموعة، وكوني أؤدي شعائر العمرة عن والدتي، التي لم تستطع قط أن تؤدي الحج، كان يغمرني بالرضا الروحي. شعرت كأنني أؤدي واجباً. أثنائي شعور بالخلاص في الكعبة، ما ساعدني على مواساة نفسي بعد ألم التغيب عن الذبح.

رغم أنني كنت الآن قادراً على إلقاء رأسي في الراحة النسبية للفندق من جديد، فقد واجهت صعوبات في النوم. لذا لجأت إلى الكعبة وصليت، ليلة تلو الأخرى. جلست في الطابق الثاني من المجمع وتأملت لساعات. شاهدت حجاجاً من كل الأنواع -شباباً، مسنين، طوالاً، قصاراً، ملونين، بيضاً، سوداً، فقراء، معاقين- كلهم يؤدون الطواف. كانت رؤية تنوع الأمة معروضةً بهذا الشكل تدعو إلى الشعور بالتواضع. والأكثر منها كان استيعاب أن العديد من هؤلاء الحجاج باعوا ممتلكاتهم الدنيوية للوصول إلى هنا للقاء الله. أكثر بكثير من نيويورك، كانت هذه المدينة لا تنام أبداً. صليت لأجل العائلة، ولأجل الأصدقاء، ولأجل الغفران، وخصوصاً لأجل كيث، زوجي، الذي أحببته أكثر من الحياة نفسها.

لأول مرة، فإن الشعور أنني قتلت أُمي، إذ اعترفت لها بتوجهي الجنسي وهي تحتضر، قد أزيح أخيراً عني. شعرت بمغفرة الله. لم أعد قاتلاً.



الطواف حول الكعبة



الحركة حول المسجد النبوي



بارفيز أمام الكعبة وأعمال البناء



برج المملكة يشرف على الكعبة





حاج أفغاني يرفع سبابته



حاجة إيرانية ترفع يديها



الحجاج أثناء الوقوف بعرفة



رجل غارق في الصلاة في المدينة



رجل وزوجته يركبان على دراجة نارية للأجرة في مكة



حاجات أفريقيات في المدينة





مطوع ينظر إلى الكعبة خلال الطواف



حاج متطوع شاب يتخذ صورة مع العلم السعودي



فوضى خطيرة في أحد الأنفاق العديدة



أب وابنه يقفان أمام الجمرة الثانية





صبي هندي صغير يجلد نفسه



صلاة الجمعة جماعة في بلدة مسقط رأس بارفيز

## الفصل العاشر

### محمّدو مكّة الكثيرون

قال محمّد، «إنها مصنوعة في الصين. أفضل الأشياء دائماً مصنوعة هناك». حاول عامل المتجر هناك أن يبيعي تذكارات دينية. كان في يده سلسلة مفاتيح بلاستيكية صغيرة. وفيها كعبة كبيرة جداً وبرج مملكة صغير-عكس الواقع. كان المكعب مليئاً بالسائل مثل كرة الثلج، وفيه كُرات ملونة صغيرة وبريق يتراقص عندما ترجه. حُفر في المكعب شكل قلب، كما لو أن الصانع يقول إن صاحب هذا التذكّار ترك قلبه في مكة. كان قبيحاً، ولكنني أحببته.

قال مبتسماً، «ثلاثون ريالاً، ولكن من أجلك عشرة تكفي».

قلت له، «سأخذ خمسة قطع، لأعطيها لأصدقائي في الوطن».

«أمريكا؟»

أومأت برأسي إيجاباً. ركض الرجل في المتجر ليجلب لي شييرت.

قال هو والتي شييرت، «أحب مكة!» كان التي شييرت مصمما على طراز شعار «أنا أحب نيويورك» الذي يملأ المبيعات الوافرة في المواقع السياحية في مدينتي.

كان محمد لابساً كما يلبس نجوم بوليوود. ثياب جميلة وواضحة المعالم، وكان حسن الزيّ إلى درجة جعلت منظره متناقضاً مع مكانه.

قال محمد، نصف مازح، «هل تستطيع أن تأتيني بجواز سفر أمريكي؟»

أكملت المزحة. «إنه جواز عديم الفائدة هذه الأيام».

ضحك الرجل. قال، «اسمي خان، وأنا لست إرهابياً!»، كان يشير إلى اقتباس من فلم حديث من بوليوود كان بطله شاه رخ خان. في الفلم الصادر عام 2010، والمسمى /اسمي خان، خدع مسؤولو

إدارة أمن النقل شخصية خان لتبحث عن تجويف جسم في نسخة براقية مجملة المنظر من مطار جون كينيدي القديم القفر. ولكن شخصية خان كان عندها متلازمة أسبرغر، التي تمنعها من التواصل بسهولة. يأتي خان إلى أمريكا ليعطي رسالة شخصياً إلى الرئيس أوباما ليغيّر منظوره للإسلام في الولايات المتحدة. في مغامراته الكثيرة في أمريكا التي حولها الفلم إلى مدينة بوليوودية، كاد خان أن يغرق في سلسلة أعاصير كاترينا الممتدة والمضحكة بلا قصد. يقول الرجل لمعتقله من إدارة أمن النقل، «اسمي خان، وأنا لست إرهابياً». انتشرت هذه العبارة انتشار النار في الهشيم وأصبحت جزءاً من روح العصر الهندية والباكستانية. كانت أشبه بعبارة فورست غمب، «الحياة مثل صندوق شوكولاتات».

استمر محمد وقال بعض الكلمات من الأغنية. ضحكت من قلبي، لأول مرة منذ مدة. بإشاراته إلى الأفلام الهندية، وتذكاراته الصينية، وتي شيرتاته المطبوعة على الطراز الأمريكي، ووضعه غير القانوني -غالباً- في المملكة العربية السعودية، أظهر محمد وعياً عالمياً راقياً بسهولة، مع أنه ليس إلا عاملاً بلا مهارات. اشتريت حفنة من قطع محمد الرخيصة.

قال لي، «تعال غداً، سأحاول أن أجد التي شيرت بمقاسك».

انتهى الحج، ولكن لم يكن أحد مستعجلاً لمغادرة مكة.

عدت إلى محمد. عدة مرات. بل إننا تشاركنا سيجارة وكوباً من الشاي عندما ذكرت له انتشار اسمه. كنت منجذباً إليه، وكان يردّ لي كل إشارة خفية أرسلها له. بلغ حساسي بالمثلثة «10» وأنا معه. واشتريت من الأشياء الروحية أكثر مما كنت لأشتريه.

بعد عدة ليال، طلب محمد أن يلتقيني بعد صلاة الظهر، بعد انتهاء مناوبته. كنت عالماً بما يريد اقتراحه، ولكن على رغم خوفي، وافقت أن ألتقيه. قادني محمد في الأزقة القديمة والأدراج العالية في حارته. عندما فتح بابه، خسرت ثقتي بنفسي وأحسست بغصة روحية.

لم أرد أن أعيرّه. قلت بالأردو، «لها مكان وزمان». ندمت بعد ذلك على اختياري للكلمات. بالنسبة لي، سيكون لها أمكنة وأزمنة كثيرة، أما هو العالق في المملكة العربية السعودية، فعلى الأرجح أنه لن يكون.

قال، «خُدا حافظ»، وأغلق الباب. *ليكن الله حافظك*. ركضت كما لم أركض منذ زمن بعيد. نعم، كنت أخاف المطوعين وما سيحدث إذا كشفونا ونحن نفعل ما كان يمكن أن نفعله، ولكن قراري كان آتياً من تقواي. كنت أريد أن أكون طاهراً في هذا المكان المقدس.

شعرت بعار كبير لأنني فكرت في لقاء جسمي في مكة. واستيقظت عارات قديمة فيّ. في الوقت المناسب، بدأ أذان المغرب. شعرت بالنجاسة، إلى درجة أنني فكرت بغير عقلانية أن الناس في مجموعتي سيستطيعون رؤية العار الذي أشعر به بسبب شهوتي الجسمية. أردت أن أبلغ في تطهير نفسي بعد هذا الفصل مع محمد عامل المتجر. لذا اغتسلت بدلاً من الوضوء العادي، ولو أن الغسل ليس واجباً.

نويتُ *الطهارة*. غسلت يديّ ثلاث مرّات وأنا أقول، «بسم الله»، وغسلت مناطقِي الخاصّة. ثم دخلت وضع الوضوء. جمعت الماء في كفي الأيسر ونشرته على ذراعي اليمنى، إلى أن بلغ إبطي. ثم فعلت مثل ذلك لذراعي اليسرى. ثم غسلت خلف أذنيّ وصببت الماء على رأسي إلى جذور شعري. جمعت الماء في يدي اليمنى وتمضمضت ثلاث مرات. ثم غسلت قدمي اليمنى، ونظّفت بين أصابعي، وكذلك اليسرى.

عوداً إلى الغسل. مسحت رأسي ثلاث مرات. ثم بقية جسمي، بجانبه الأيمن والأيسر، وتأكدت أن الماء بلغ كل نقطة من بشرتي. لا إجماع بين المذاهب الإسلامية على الطريقة الصحيحة لهذه الشعائر. في لحظة الصدمة النفسية هذه، حاولت أن أؤدّيها كما علّمت. ولكنني متأكد أنني أخطأت في بعض الخطوات.

توجهت إلى الكعبة لأصلي صلاة المغرب، ثم أتبعتها بعمرتي المصغرة الثالثة. لقد حججت مرة، واعتمرت مرة لأمي، والآن أعتمر مرة ثالثة لنفسِي—لأكون متأكداً وحسب. بعد لقائي الذي كاد أن يكون جنسياً مع عامل المتجر، اعتقدت أنه ينبغي لي أن أكسب من الله بعض النقاط الإضافية. لم لا؟

أديت الطواف، ثم اتجهت إلى السعي. وأنا أركض بين الجبلين، لاحظت امرأة متسولة ومعها طفل. تذكرت مباشرة هاجر وابنها إسماعيل. مددت يدي إلى محفظتي لأكتشف أنني نُشلت، غالباً في أثناء طوافي. من حسن الحظ أن جوازي كان في أيدي سعودية، إذ أخذ مني عند بدء رحلتي. شكرت

الله أول مرة في حياتي على الطبيعة السلطوية للسعودية. فقدت مجموعة غالية من السباحات، وأكثر بقليل من 100 دولار من الريالات. سألت نفسي كيف يستطيع أحد لا يبعد عن الكعبة إلا أقدامًا قليلة أن يسرق. الفقر المدقع وحده هو الذي يستطيع أن يدفع أحدًا إلى هذه الأعماق من التدنيس وقلة التقديس، بل والتعرض للخطر—قد يخسر السارق بسهولة يداً إذا كُشف. وإذا تبين أنه سارق يكرر السرقة، سيواجه الإعدام بقطع الرأس.

في اليوم التالي ركبت سيارة أجرة، وطلبت من السائق أن «يريني» مكة. كما كانت عادتي في نيويورك، بدأت حديثًا مع السائق الباكستاني. كان اسمه محمد قاسم. وكان من سكان العزيزية، وهي منطقة تُلَقَّب بـ«باكستان الصغيرة». ليكتسب معيشته يغطي نفقاته، كان قاسم يعمل عملاً ثانيًا في مجمع تجاري، يبيع ساعات تدل حاملها على اتجاه مكة، أينما كان في العالم. رأى قاسم أنني كنت مهتمًا بتعلّم المزيد عن الحياة المحلية—ولاحظني أكتب ملاحظات—لذا عرض عليّ أن يأخذني في رحلة بالسيارة في أرجاء الحي. لم يكن ممكنًا أن نصل بالسيارة إلى مدخل بيته، لذا ركبنا السيارة في الشارع—زقاق منحدر. ذكرتني الزباله ومياه المجاري في الأزقة الضيقة بأسوأ حارات مومباي، دارافي. دخلنا مبنى م الشقق وصعدنا الدرج. كانت شقة قاسم بالضبط كما وصف رحمان، ماسح البلاط الذي التقيته في المدينة—مزدحمة ومظلمة وذات رائحة ومتداعية، وخالية من الماء الجاري والمرحاض الدافق. وكانت الحقائق مكّومة في زاوية—تذكّرهم بأملهم المستحيل لترك البلد.

كان عند السعوديين نظام اسمه *الكفالة*، لمراقبة أنشطة ملايين العمال المهاجرين غير الماهرين. بمقتضى هذا النظام، كان جواز سفر قاسم محتجزًا عند صاحب شركة سيارات الأجرة التي يعمل بها. والكفالة في الحقيقة ليست إلا عبودية في العصر الحديث، ولذا فقد اتجه إليها نقد متزايد حول العالم. قال قاسم، «هؤلاء السعوديون يرون أننا أسوأ من الكلاب». «ويقولون لنا هذا، يقولون أشياء من قبيل «الحيوانات أفضل منكم»، و«مكانكم تحت أقدام السعوديين»».

سألته، «منذ متى وأنت هنا؟»

«اثنا عشر عامًا. ولا أستطيع أن أقول لك كل الأشياء التي لاقيتها هنا».

استعمل قاسم كلمة كانوا يستعملونها ليعذبوني في المدرسة الابتدائية. «غاندبازي». وتعني الذي يتلقّى الجماع من الدبر، الذي يؤتى من دبره. استعمل قاسم الكلمة بمعنى الاغتصاب. كان يخبرني أن شريكه في السكن اغتُصب على يد رب عمله.

التقيت آخرين مثل قاسم ورحمان، عمال غير ماهرون من جنوب آسيا. يمكن تشبيه هؤلاء الخدم المعاقدين بالعمال المهاجرين المكسيكيين الذين يقطفون الثمار في شمس كاليفورنيا، ولكن هذه الأرواح المسكينة تعامل بدرجة أكبر بكثير من الإهانة. نغمة «أخذوا وظائفنا» التي تسمع كثيراً في بعض أنحاء الولايات المتحدة وصلت حديثاً إلى المملكة السعودية. تراجعت عائدات النفط باستمرار في العقد الماضي، وازدادت البطالة بين السعوديين. ووصل الأمر إلى أن بعض النساء السعوديات بدأن العمل في متاجر فيكتوريا سيكريت في المجامع التجارية مثلاً. هذه الأعمال كانت من قبل تعتبر أدنى بكثير من النساء السعوديات. وبالطبع يتجه حقدهم الناتج إلى الغريب: الذي كلما زاد وجوده تباطأ الاقتصاد.

سألته، «كيف تطيق العيش في هذه الظروف؟»

قال قاسم، «الحمد لله». «أكتسب ثواباً مضاعفاً لأنني أعمل قريباً من مسجد النبي. هذا ما يقويني للاستمرار في الحياة.»

راسلت صديقاً سعودياً في نيويورك لأنني كنت أعرف أن أدهم لن يصدقني. «في مكة تجري جماعات شرجية بالإكراه.»

«ولكنها أقدس مدينة في الإسلام؟»

«جُل في المدينة وانظر في عدد حاراتها الفقيرة. هل شاهدت فلم سيتي أوف جوي لبلدك؟ لا يعرف أحد كم من الناس في هذا البلد يعيشون تحت خط الفقر. لا أحد». ولكنني احتجت إلى دليل أكبر من هذا، فبحثت في غوغل تلك الليلة. ادعى أحد المواقع أن ربع سكان هذا البلد يعيشون تحت خط الفقر. كيف يمكن أن يكون هذا في أغنى دول العالم بالنفط؟ كيف يمكن أن تكرر فظائع الفقر في كالكوفا هنا؟

عدت إلى فندقتي ولاحظت رجلاً خمسينياً يقف في الخارج ومعه لافتة أراها كل يوم منذ أن وصلت إلى مكة. كُتِبَ على اللافتة، «الطريق إلى مكة». كعادتي، أردت أن أتكلم معه.

«ما اسمك، أخي؟ ألاحظك هنا كل يوم».

قال «محمد جعفر». وشرح أنه أتى من أسرة مطوّف الباكستانية، التي عملت في مهنة تختفي يوماً بعد يوم، هي مهنة دليل الحج التي عمل بها بعض أهل مكة قروناً من الزمن. كان أصحاب هذه المهنة محترمين جداً لأن عملهم كان يُرى على أنه معيّن من الله. بسبب تحديث تجربة الحج، حلّ الأدلاء السياحيون الدارسون محل هؤلاء السدنة التقليديين.

قلت له، «هذا آخر يوم لي هنا».

قال جعفر، «هل بقي مكان لم تره؟ أتريد أن آخذك إلى أي مكان؟»

فكرت لحظة. بقي مكان واحد. ليس جزءاً من الحج التقليدي، ولكنه حي في ذاكرتي منذ الطفولة.

قلت، «غار حراء». المكان الذي تلقى فيه النبي محمد أول وحي في القرآن من الملاك جبريل.

قال الرجل، «سيكون مزدحماً جداً، ولكن أستطيع أن أوصلك إليه».

ركبنا سيارة أجرة واتجهنا إلى جبل النور. وتحادثنا طول الطريق.

قُلْتُ، «لقد دُمِّرَت أماكن كثيرة»، ناظراً إلى الأفق الذي يزداد توسّعاً.

«كنت أعمل مع الشيخ أنجاوي في التسعينيات. لقد ناضل كثيراً للحفاظ على الأماكن المهمة في

تاريخنا. ولكنه لم يكن بقوة جرّافات بن لادن».

«لماذا يدمر هؤلاء السلفية الوهابيون كل شيء؟»

«لا تقول وهابيون. لا يحبون هذه الكلمة. سمّهم سلفيين فقط» وبخني جعفر. «إنه جزء من دينهم. لا يمكن أن يوجد أي مكان للشرك لذلك يدمرون دائماً». قال الرجل «دينهم» باحتقار، ليفصل إسلامه عن إسلامهم.

وصلنا إلى الجبل، وكان مزدحمًا ازدحامًا لا يمكن تصديقه.

قال جعفر، «لن نستطيع الوصول إلى القمة».

مرة أخرى ظهر إهمال السعودية لسلامة الحجاج أكمل ظهور. كان الجمع في حراء مدفوعًا بالحب، الذي كان يزداد كلما اقتربوا من الموقع المقدس. كان الناس متناثرين على جانب الجبل، وليس بينهم وبين الموت المباشر إلى خطوة واحدة خاطئة.

أحزنني أنني لن أستطيع صعود الجبل لرؤية غار حراء. لطالما رأيت أن أمر الملاك جبريل لمحمد بالتلاوة أمر مهم وذو معنى-ليس الإسلام إلا دعوة إلى العقل.

اقترح جعفر أن نتشارك كوب شاي. وجدنا متجر شاي قريب يقدم شايًا ساخنًا جدًا في أكواب بلاستيكية صغيرة.

سأل جعفر، «كيف كان حجك؟»

قلت، «الحمد لله، شعرت قرب الكعبة بأعظم البركات».

قال جعفر، وذكرني بما قاله سائق سيارة الأجرة، «أنا محظوظ جدًا، لأنني أستطيع الصلاة عندها كل يوم».

أخبرني جعفر كيف صارت إعالة أسرته أصعب عليه بسبب الاستغلال التجاري لسياحة الحج الروحية. «كان المطوفون أمثالي يُطلبون طلبًا. أما الآن فلا».

«لو كنت أعلم لأتيتك قبل هذا».ناولت الرجل كل المال في محفظتي الجديدة، وقبله مترددًا. قلت، «لم أر في حياتي كل هذه الأنواع من المسلمين من أرجاء العالم يلتقون في مكان واحد. لم أشعر في حياتي بالأمن الذي شعرته في المدينة وحتى في مكة».



«يستحيل أن يكون للمسلمين مكان للقاء أفضل من هذا. الجهاديون وجماعة القاعدة يلتقون هنا بسهولة، وجماعة حزب الله اللبناني يلتقون الباسيج من إيران».

فاجأني قوله. «هل حضرت اجتماعاً من هذا النوع؟»

«لو عشتَ في مكة كالذي عشتُه طويلاً، لسنحت لك الفرصة أن ترى كل شيء يجري هنا. لقد وُلدت هنا ولم أغادر يوماً».

أشار الرجل إلى الرسوم على بعض الصخور المجاورة. أحدها كان صورة وجه امرأة متلثمة بكوفية منظمة التحرير الفلسطينية. وكُتب على الرسم، «أنا مواطن سعودي. حر ومستقل». وعلى رسمٍ آخر، «من قال إنني لا أعترف؟ لقد اعترفت بكل شيء لربي». وعلى رسم آخر، بدا أنه مناوئ لآل سعود مباشرة: «الحكومة لا تعرف الحب».

أشرت إلى رسم آخر عليه كتابة بالخط العربي.

ضحك جعفر. «ما فائدة الجسم البتول إذا كان العقل عاهراً؟»

سألته سؤالاً مقصوداً، «كيف يسمحون بوجود هذا في مدينة مقدسة كهذه؟»

قال جعفر، «جميع الإشارات هنا. أين رأينا رسوماً مثل هذه؟»

قلتُ من فوري، «مصر». لقد رأيت الرسوم بعيني.

أوماً الرجل برأسه. «لم نكن نرى مثل هذه الرسوم على جدران مكة إلا منذ مدة قريبة. لقد رأيت القاهرة، ورأيت تونس، ورأيت ليبيا منذ أيام قليلة». كان معمر القذافي قد قُتل في هذه الأيام. «انتظر حتى ترى ماذا سيحدث في سوريا والعراق».

ما الذي سمعه هذا الرجل؟ سوريا والعراق؟ هل كانت تعقد في مكة هيلتون اجتماعات سرية للجهاديين في الوقت الذي يشرب فيه الحجاج العاديون أمثالي الشاي؟

إذا كانت رياح التغيير التي هبت من النيل ستتجه شرقاً، فطبيعي أن تكون سوريا والعراق هما التاليتان. الأولى يرأسها دكتاتور تدعمه إيران، والثانية في حالة من الفتنة المستمرة، بدأت بجورج دبليو

بوش وعصابته، والآن نراها في الطائفية التي لم نر مثيلاً لها في تاريخ العرب تقريباً. لقد أخفقت محاولة أمريكا أن تكون قوة استعمارية. لم تكن الديمقراطية نتيجة لحرب العراق، بل كانت النتيجة مذبحه طائفية. لقد حافظ صدام حسين، رغم كل شروره، على وحدة العراق.

أعلم الآن أن جعفر كان يشير إلى وحشية داعش. لكنني لن أعرف كيف عرف.

في شوارع مكة، بدا أن حالة من التوجس تسود. أشار جعفر إلى الرسوم الجدارية ليلمح إلى هذه الحالة. وعبرت كلماته أكثر. ولكن هل كان جعفر المكي الوحيد الذي يعرف هذه الأمور؟ في تلك اللحظة كنت متأكداً تماماً أنه ليس الوحيد. كان الأفضل ترك السياسة دائماً في مكة، إلا في غرفة الشيعة 701، وفي المدينة أحياناً مع مجموعتي. كان الأمر واضحاً، أن مكة مدينة لا تنام، ولكنها أيضاً المدينة الوحيدة في العالم التي يستطيع فيها جميع أنواع المسلمين المتطرفين أن يجتمعوا بل ويخططوا. أقبل أن أكون حشرة على الجدار في نقاش جهادي مشتعل. لقد كنت على الراجح أبالغ في تخيل هذه الأمور.

لم يكن عالم بن لادن بعد أوباما متفقاً على الوصف الإنكليزي للمصيبة القادمة، التي عرفت باسم الدولة الإسلامية، أو داعش (الدولة الإسلامية في العراق والشام). تشمل الشام سوريا وفلسطين والأردن وإسرائيل ولبنان وقبرص، ومحافظة هاتاي التركية. هو مصطلح نشأ بعد الاستعمار ليصف التقسيمات الجغرافية الدموية التي رُسمت على عجل لتشكيل «الأمم» الحديثة.

إن وصف هذه المجموعة بالدولة مشكلة لم يفهمها النقاد الغربيون المفوهون، الذين يستمدون معارفهم من ويكيبيديا. يؤكد هذا الوصف ما تريده داعش: الإقرار بأنها دولة، والصعود الحتمي والحق بإقامة الخلافة. في الشوارع العربية كانوا يسمونهم داعش. لقد أعطى الغرب، عندما وصف هذه المجموعة بالدولة، أعطاها قوة أكبر وأراضي أكبر مما استولت عليه في كل حياتها. لذلك، أسميهم أنا داعش، ولا أصفهم بالدولة.

إن قول «داعش» عند أمثال كريس ماثيوز من قناة إم إس إن بي سي كان يشير إلى نوع أعلى من المعرفة، كما لو أن المعلّق عرف سرّاً عربياً لم يعرفه أحد غيره. إن استعمال كلمة داعش أزعج التنظيم الإرهابي حقاً. عملت آلات الفتوى عندهم بكل ما لديها، وأفتت أن من يُسمع منه هذا اللفظ يُقطع لسانه. كلمة داعش تشبه كلمة عربية أخرى، هي دُعس، وتعني «الدوس» أو «الوطء». أما نقاد التلفزيون فكانوا

يقولون الدولة الإسلامية، غير عالمين أن هذا التصنيف يعجب الدواعش. إنها كلمة تلغي احتمالات الإهانة الضمنية في كلمة داعش، وتأخذ جزءاً من الاسم الذي أطلقه التنظيم على نفسه - بل كان بعض معتنقي هذه الأيديولوجيات الوحشية يقولون «الدولة» إذا لم يسعفهم الوقت، قاصدين التنظيم نفسه. لا يعرف معظم الناس أن قول «الدولة الإسلامية في العراق والشام» أو «... في العراق وسوريا» أو حتى «الدولة الإسلامية» يعطي هذه «المجموعة» شرعية أكبر من التي تملكها. اعتادت الحكومات العربية أن تقول داعش لتنكر أي شرعية يسعى إليها هذا التنظيم. وعندما استعمل وزير الخارجية الأمريكي جون كيري كلمة داعش، قامت الدنيا في قنوات الأخبار ولم تقعد. راسلتُ صديقي أدهم في جدة بشأن معنى الكلمة. كنتُ قد قرأت أنها قد تعني «الإيلاج» إذا لُفظت «داحش». قال أدهم إن هذا ممكن، نعم.

قال، «لول! كما تحبها حبيبي! ابحث في غوغل».

رددت، «ليس عندي لوحة مفاتيح عربية». سألت مزيداً من الأصدقاء وحصل إجماع بين أصدقائي العرب، على الأقل. إن كلمة داعش كلمة ازدرائية لأن الطريقة التي تصرف بها الحروف في العربية تفرق في المعنى. ولكن هذا لم ينته هنا. فمن سوء حظ هؤلاء الإرهابيين الذين يكرهون أن يُسمَّوا داعش، يمكن استعمال هذه الكلمة أيضاً لوصف العنصري والطائفي والمتزمت أو حتى المتعصب أو المجنون الذي يفرض آراءه على الآخرين.

«يفرضون آراءهم على الآخرين»، تماماً كما عملت ميليشيات الإخوان التي أسسها ابن سعود في القرن الثامن عشر لتنشر الوهابية. إن جذور هذه الجماعة في الجزيرة العربية كانت كلها متعلقة بالحروب الوحشية. بينما كان السفير العثماني الجميل ينام مع الليدي ماري في *داون تاون آبي*، كان كمال أبوك (الذي يشاركه اسمه الأول غاندي تركيا، كمال أتاتورك)، الإخواني السفاح، مستولياً على شبه الجزيرة العربية. علماً أن هؤلاء الإخوان غير الإخوان المسلمين، المجموعة المقموعة جداً في مصر.

تجاهلت داعش الجزء الصغير من الأيديولوجية الوهابية الذي رآه العلماء المسلمون «حركة إصلاح»، وأخذوا كل الأجزاء العنيفة التي تناسبهم. داعش والوهابية، أو ما يفضل الوهابيون أن يسموه السلفية، مرتبطان منذ نشأة داعش. حمل السيف، وارتداء الأسود، والتلثم وركوب الخيل، كلها صور

للإخوان الوهابيين الهمجيين العنيفين الذين هَيَّؤوا لحكم ابن سعود عند انحسار الإمبراطورية العثمانية. بعد سفك دم كثير، أصبحت السعودية العربية دولة عام 1932.

عدت إلى مجموعتي، وكانت تجري بينهم نقاشات بالهمس. هذه المجموعة نفسها كانت تقود السياح الشيعة إلى أماكن دينية شيعية مثل الشام (اسم من القرن السابع عشر لسوريا) وكربلاء في العراق. تساءلت لم يستعملون اسمًا من القرن السابع عشر لوصف دولة حديثة. ولكنني لم أجروا أن أسألهم لأن هذا سيظهر جهلي، الذي هو في رأيهم نتيجة لسنييتي. كانت الفوضى التي تتزايد في المنطقة تؤثر سلبًا على عملهم في السياحة الروحية الشيعية. تهامس كثيرون عن مخاوفهم أن سوريا كما يعرفونها لن تدوم طويلًا. وصدقوا في هذا، كما أشار جعفر.

ولكن كانت بينهم إشاعة أكبر. تقول إن أقدس أضرحتهم ستسقط، كانوا يخافون ذلك بجبريتهم الشيعية المعروفة. سُمِّي مسجد السيدة زينب باسم ضاحية في دمشق تحمل الاسم نفسه، وحسب التراث الشيعي فإن في هذه الضاحية قبر حفيدة النبي زينب. في الأدبيات الشيعية، كانت زينب أخت الإمامين الحسن والحسين، وبنت الإمام علي وبنت النبي فاطمة. كان بين أهل الغرفة مخاوف من تفجير هذا المسجد. كانت قد جرت فعلاً بعض الاشتباكات في المنطقة. دُفن في هذه الأراضي أيضاً منظرٌ شيعي مشهور للثورة الإسلامية الإيرانية، كان يكتب بأسلوب شعري يعجبني، هو علي شريعتي. في السنين الخمس التالية، تعرضت المنطقة لهجوم كبير من داعش، وصدقت مخاوف قادة مجموعتي من أن تصبح الطائفية هي الواقع العادي الجديد.

لم أجروا أن أتواصل معهم منذ ذلك، ولكنني كنت أتساءل أحياناً كيف يناقشون الحج والسياحة الروحية الشيعية في مدن منكوبة مليئة بالموتى البريئين، في وقت قطعت فيه السعودية وإيران العلاقات الدبلوماسية بينهما. سعدت نسخة عام 2014 من التنظيم الإرهابي بنفسها، عندما سمتها البي بي سي، «ما يسمى الدولة الإسلامية». لقد رأوا كل العناوين التي أرادوها، وبدأ أن الشباب المسلمين الجاهزين للتطرف قصدوهم من كل زاوية في كل حي أوروبي أو عربي. لقد كانت عندهم «خلافة» وخليفة جديد، أبو بكر البغدادي، الذي استطاع أن يبلغ صوته كل أرجاء الأرض فيما أسماه الديمقراطية الرقمية الفوضوية التي هي اليوتيوب. الخليفة هو الذي يقود الخلافة – ليس المقصود المغني الأمريكي

وزير خليفة، إذا كان أحد من محبي أغانيه. مثل أسامة، كان البغدادي ينشر «خطبه» بالصوت والصورة، ولكن كل شيء آخر يفعله أو يفعله غيره باسمه إنما أمكن بفضل الأدوات التقنية والرقمية التي أتاحت في السنين الأخيرة من العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين.

أرى أن داعش لم يكونوا إلا «القاعدة ولكن مجهزين هذه المرة بالفيسبوك واليوتيوب وتويتر»، نشرت هذه الحالة على الفيسبوك وأنا أنتظر في مكتب طبيبي. استمرّ انتظاري مع تزايد عدد الإعجابات، التي لم تلبث أن أصبحت بالمئات. من اللطيف أن يُعجّب أحد بمنشوراتك على الفيسبوك. لقد كنت أنا وأجهزتي تحت رقابة المخابرات الأمريكية أصلاً، لذا لم أكن خائفاً من لفظ كلمة داعش من هاتفي، على موقع تواصل اجتماعي، وكثيراً من حاسبي المخصص للبحث. هؤلاء الدواعش الذين لم يزل العالم يستكشف أمرهم ادعوا أن رايتهم المكتوب فيها بالأبيض على خلفية سوداء، تعود إلى عصر النبي. وكانوا يسمونها راية العُقاب. لقد كان هذا تغييراً خطيراً لمظهر الإسلام والسؤال هنا بين الحقيقة الإسلامية والخيال الإسلامي. يبدو أن داعش يفضلون الخيال الإسلامي. لطالما كانت مشكلة الإسلام أن معظم المسلمين في أرجاء العالم يعيشون في فقر مدقع وأمّية. هؤلاء المسلمون يرون أن الكلمات التي تُقال في الخطب وتجعل داعش مجموعة شرعية دعوة للزحف. كما زحف بضع مئات من المسلمين في إسلام آباد وباكستان ضد الرسوم الدنماركية التي صورت النبي بصورة كريهة، يمكن أن يزحف عدد مشابه ليدعم داعش. لم يكن في العوالم الإسلامية ما يكفي من الأئمة الذين يشجبون تنظيم داعش باستعمال المبادئ القرآنية في خطب الجمعة التي لهم فيها منبر القوة. وهذا هو ما كنا نحتاجه، ولم نزل.

لتنظيم داعش منطقته المقلوب الخاص في هذا الأمر، كما في كل الأمور الإسلامية. نعم كان للنبي محمد راية سوداء، حسب بعض الروايات، وكان متبعاً في هذا للتقاليد الرومانية في اتخاذ الرايات. كانت هذه العادة هي ما يفعله قادة القبائل والأمم في ذلك الزمن. لكن العلماء المسلمين الذين يرون الكون من منظور أرمجدوني، يرون أن هذه الراية تدل على مجيء مخلص الإسلام، المهدي. يعتقد كثير من المسلمين كذلك أن مجيء المهدي سيكون في وقت قيامة يسوع. سيحارب المهدي المسيح الدجال ويهزمه. لذا كان الدواعش يدعون (خطأً) أنهم يقلدون النبي برايتهم التي تحمل الشهادة (إعلان الإيمان القصير جداً في الإسلام). وأضافوا كذلك «خاتم» النبي المعروف كذلك باسم «خاتم النبيين». الخاتم في

الأردو وفي العربية يعني «النهاية»، أو «الأخير». أما النبي فهي كلمة من كلمات كثيرة تستعمل للنبي محمد. في رأيهم المحرّفة، أراد الدواعش ادعاء النهائية الإسلامية. لقد امتد الخلاف العقائدي في شأن راية النبي قرونًا، ولكن داعش جعلت هذه الراية الملققة رايته. باستعمال هذه الراية صبغت داعش جميع الإسلام باللون الأسود، وقالت إن الدين واحد، وعنيف وغير متسامح. الأسود لأن الإسلام قوة مظلمة لا تنتج إلا الخوف. ويبدو أن الأسود له مظهر ثوري حول العالم. لطالما فضّل الأناركيون «الثائرون» من سياتل إلى لندن الأوشحة السوداء ليغطوا هوياتهم. أتساءل إن كان الدواعش يتساءلون بشأن أن الأسود هو أكثر الألوان استعمالاً في طقوس الشيعة الذين يكرهونهم.

أرسل لي أدهم من جدة، «يتكلمون من الآن عن أمر داعش في مكة؟» من أجل السلامة والأمان، تحدثنا من خدمة الإم إم إس. كانت عائلته الكبيرة غنية وقوية. إذا أصابتنى مشكلة، قد أستطيع الاعتماد على معارفه.

رددت، «نعم. لم، هل يتكلمون عنها في التلفزيون؟»

«نعم. رأيت الكثير على قناة العربية. لعلك لم تفرغ لترى التنوع الكبير في القنوات السعودية أيها الحاج!»

أرسلت له، «لول!» مع صورة سيلفي درامية ووجه حزين درامي.

مع اقتراب مغادرتي لمكة، قضيت ليلي كاملة عند الكعبة. أتأملها من الطابق الثاني من الأراضي التي بنتها بن لادن وجعلتها ناعمة ومكيفة الهواء ورخامية، كان هذا التأمل عوناً كبيراً لي. هل سيقول التاريخ في المستقبل أن معاقدتي شركة بن لادن فعلوا خيراً ولم يدمروا؟ وأنا أراقب الطواف المهيب، شعرت بالسلام. هذا الطواف لم يتوقف لقرون. حتى زوجي الملحد سيشهد بحقيقة أن شيئاً مثل هذا، لمستّه أجيال من «الآثمين» له قوة يستطيع وصفها العلم. يقدم قانون الإسلام، الاستثنائي في العلم والرياضيات وغيرهما، قليلاً من المعرفة عن كثير من الأشياء التي لا توصف.

قوة العقل موجودة في أول وحي في الإسلام. متى خسر المسلم العنيف عقله؟ ما سب ذلك؟ الطفولة السيئة؟ التلقين؟ أن الدين أفيون الشعوب (الأمية)؟ كان النبي محطماً للتماثيل. تزوج سيدة

أعمال، أكبر منه بعقد كامل. أعالت هذه المرأة الأسرة هي. بصق قومه عليه وقالوا إنه رجل تعيله امرأة. لم تكن مكة إلا بؤساً لولا حب خديجة الثابت وإيمانها بالنبوة.

يجب أن ينتج الأمر العقلي (اقرأ!) طاعة عقلية. وقد تحاكم الفكر الإسلامي قروناً إلى العقلانية البشرية. ولكن لا عقلانية عند آل سعود ولا عند داعش. كان مفهوم الجاهلية مفهوماً مهماً استعمله محمد، والقرآن والشريعة الإسلامية لوصف كل شيء كان قبل الإسلام. منها عبادة الأصنام في قبائل مكة الوثنية. كانوا جاهلين.

لو كان محمد هنا لرأى أن إسلام القرن الواحد والعشرين أيضاً جاهلية. وأن كل محارب مع داعش أو القاعدة أو آل سعود أو عائلات بن لادن، جاهل.

يعصي كثير من الناطقين باسم ديني هذا الأمر بالتفكر العقلي. لقد تأملت أن أجد تراث النبي في السعودية، ولكنني لم أجد. يتعلم العلماء ليشككوا في العلم، أما المؤمنون فيقبلونه وحسب. يبدو أنني قادر على الاثنين معاً. كان حجّي طلباً للمعرفة والخلاص. جالساً هنا، أنظر إلى الكعبة، وأجمع كل قواي العقلية بوصفي مؤرخاً ثقافياً ومراسلاً ومحللاً سياسياً، وقبل كل ذلك، مهاجراً روحياً. هل يمكنني أخيراً أن آخذ موقعي في طاولة الإصلاح الإسلامي الذي أجبر المسلمون عليه بعد هجمات 11 سبتمبر؟

كان بحر الحجاج العميق يطوف من حولي في هذه الشعيرة القديمة، وكنت أدرك أن الإسلام إذا كان سيتغير، فسيكون التغيير جزئياً على يد أمثال الذين أحطت بهم نفسي في سنين دراستي وسفري. ولكن في الحقيقة، لا يمكن أن يقوم بالتغيير إلا المؤمنون. لا بد أن يكون التحول في الإسلام من الداخل إلى الخارج. ولئن كانت جرعة صغيرة من الاجتهاد والاستدلال العقلي المستقل أداة يستعملها الكثيرون، فإنها لا تقدم حلاً وحدها. في الحقيقة، لقد حمدَ حكام هذه الأرض الذين أكرههم الاجتهاد. كيف يمكن أن أوافقهم؟

هل سيكون محمد قوة يُحسب حسابها بعد أربعة عشر قرناً من الآن؟ على الراجح. هل ستكون داعش وشيوخها الوهابيون مجرد هوامش؟ أرجو.

وأنا أجهّز لمغادرتي للمملكة العربية السعودية، تأملت في كيف أثر الإسلام الوهابي على مرّ السنين في عالمي الصغير أنا المسلم. بُني مسجد الشارع 96 في مانهاتن، حيث كنت أصلي الجمعة، بأموال سعودية. كان الأئمة الجدد الذين تصنعهم مصانع الوهابية يتوالون على خطب الجمعة. وكان لمانهاتن حصتها. كانوا دائماً يظهرّون منطقاً قروسطياً، كقولهم إن المكان الوحيد الذي يجب أن تلتزم به المرأة هو المنزل. وأن النساء لسن إلا للولادة والطبخ. وكانوا يذكرون أيضاً طرقاً لكبح الزوجات «العاصيات». كنت دائماً أعجز عن التفكير في ذلك المكان. هنالك، في المدينة التي لعلّها أكثر مدن العالم حريةً، في وطني الذي اخترته، في تلك الزاوية من مانهاتن، أبعد النساء إلى زاوية مظلمة باردة من المسجد لا أستطيع حتى ملاحظتها. وكُنّ يجلسن هناك كالمستمعات المطيعات لهذا المنطق الأعوج بشأن وجودهن، الذي اعتدنا مجيئه من أفواه الرجال الذين درسوا في المذهب الوهابي. هل كُنّ بعد ذلك يذهبن إلى شققهن المتداعية ومنازلهن في كوينز وبروكلن ليفعلن ذلك؟ ليطبخن البرياني الباكستاني (وهو طبق مشهور في جنوب آسيا) بلحم الضأن الحلال لأزواجهن سائقي سيارات الأجرة؟

في شبابي، لطالما سمعت الأئمة يتلفظون بهذا المنطق الإسلامي الوهابي الصرف، الذي لم أكن أفهمه فهمًا دقيقًا في ذلك الوقت. كان العائدون من العمل في تلك المنطقة، أو العائدون من الحج، يأتون دائماً ومعهم أدوات إلكترونية فخمة، من التلفزيونات الملونة الحديثة وأنظمة الصوت من أكاي، ومشغلات الفيديو من سوني. أتذكر أنني كنت أتساءل إن كان الحج رحلة تسوق وكانت مكة سوقاً للبضائع الحديثة. ظهرت عقولهم المتوهّبة بطرق أخرى. بين ليلة وضحاها، كما يبدو، أصبح النساء في تلك الأحياء يلبسن البراقع السوداء. أما وشاح أُمي (الدوباتا) التي كانت تلقيه ولا تهتم كثيراً، لتغطي رأسها، فلم يعد يليق بهن. بدأ الآباء يرسلون زميلاتي وصديقاتي، وهن أطفال في الصف الثامن، إلى المدرسة وهن مرتديات للحجاب.

في الفسحة بين الحصص، كُنّ يجتمعن معاً ولا يحتككن بي كما كُنّ في الماضي المختلط.

زارنا بستانينا سعيد مع زوجته بعد أن أتمّ الحج. لقد كلفهما الأمر جنى عمرهما ليؤدّي هذه الشعيرة التي شعرا بأنها فرض عليهما.



حيّيت الرجل، «السلام عليكم حاج سعيد». لقد نال الآن أعلى المراتب في الدين، مرتبة الحاج. وكانت تستعمل سابقةً لاسمه، وترفع مكانته مباشرة في مجتمعه. يأتي الناس إلى الحاج ليسألوه في المسائل الدينية الصغيرة. هكذا كان الأمر. لطالما زار سعيد وفاطمة أسرتي. هذه المرة أتت فاطمة وهي مرتدية برقعاً كاملاً أزرق اللون (وهو اللون الذي فضّله طالبان بعد ذلك). بسذاجتي التي كانت في ذلك العمر، سألت سعيد لماذا كانت فاطمة ترتدي هذه الثياب.

قلتُ، «لا أستطيع حتى أن أرى وجهها».

قال سعيد، «هذا هو الواجب في ديننا»، وأضاف، «هكذا أراد النبي أن ترتدي النساء المسلمات الصالحات».

لم ينتشر الطاعون الوهابي بطرق شيطانية دائماً. كانت عيوننا دائماً مفتوحة وكنا نراه. عندما خرجت القوات الاستعمارية من الأراضي الإسلامية في القرن العشرين، ازدهر التنظيم الديني، والتزمت، و«الجهاد» المجلّم. جمع المنطق الوهابي كل هذا معاً.

كان المسلمون في ذلك الزمن ينتظرون مجيء نظام عالمي جديد. كانت خسارتهم للأرض جزئياً نتيجة لسقوط الإمبراطورية العثمانية. ولكن التغيير كان أعمق. لقد كان خسارة للثقافة، لتواريخ كاملة وتقدمات في العلم والاكتشاف والابتكار والمعمارية والشعر والفكر التقدمي الذي جاء به الحكام المسلمون إلى الأراضي المغزية. كانت خسارة فكرة الخلافة جرحاً عميقاً. كان جرحاً بُكي عليه كثيراً ولم يلتئم. وليمزيد المستعمرون الطين بلة، قطعوا الأقاليم الإسلامية التي عمّرت قروناً إلى دول حديثة تناسبهم حدودها.

هل كان السلب هو معظم ما خلفه المستعمرون؟ ليس حقاً. كما أن الإسلام الصاعد الاستعماري في وقت سابق ترك أشياء أخرى للبلدان المستعمرة. أثبتتها قرون أربعة عشر. لقد صبّ الإسلام نفسه في نسيج مجتمعات وثقافات كاملة، وأنشأ توفيقات دينية غير مسبوقة. ترك الإسلام آثاراً ساحرة أينما ذهب. ولم يكن ديناً غير متسامح. لو كان كذلك لما رأينا دليل نجاحه العالمي في بناء إمبراطوريات عظيمة. ولكن المستعمرين الحديثين أحيوا مشكلة أساسية في الإسلام. على مرّ القرون، علّم المسلمون

أن دينهم ليس روحياً فقط. وكما أن الإسلام صارم في أحكامه في كل مجالات السلوك الإنساني، فهو صارم عقدياً كذلك في السياسة. إن الأحزاب السياسية القائمة على الدين ليست شيئاً حديثاً. انظر إلى الكنيست الإسرائيلي الحديث. إن عند الإسلام من المهارات لتزويج الدين والسياسة مثل ما عند الأديان التوحيدية السابقة له.

هنا في مكة، شعرت بخسارة عميقة، ولو أن خسارتي كانت من النوع الذي يأتي من الشك الدائم الذي يهزّ الروح. كانت داعش أسوأ نسخ الإسلام. في قفار السعودية الوهابية القاحلة، أُتيح لنوع من التعصب شبيه بالحشيش أن ينمو بلا لجام. والآن أصبحت جذوره أعمق من أن تُقَطَّع. إن المصافحة التي جرت في القرن الثامن عشر بين عبد الوهاب وابن سعود كانت «حقيقة» لا مرأى فيها. فضّل عبد الوهاب أن يسمّى تلاميذه سلفيين، وادّعى أن هؤلاء أفضل من جميع المسلمين. إلى اليوم، يكره الوهابيون في السعودية أن يسموا وهابيين، وهو السبب الذي يجعلني أستعمل هذه الكلمة دائماً. في العقلية الوهابية المتطرفة، حتى الكلمة قد تكون عبادة أصنام، لأنها مشتقة من اسم رجل حقيقي. يرى الوهابيون في عقلهم أنهم متشبهون بالنبي محمد وأتباعه الأوائل، وأول ثلاثة أجيال من المسلمين، المعروفين باسم *السلف الصالح*. يرى هؤلاء السلفيون أن هذه الفترة كانت الفترة «المثالية» في الإسلام، التي صيغت فيها الشريعة الإسلامية، التي يتبعها معظم المسلمون حول العالم (ليس كلهم)، صياغة تامة. من أمثلة هذا عند المسلمين السنة، *صحيح البخاري*، أحد *الكتب الستة* في القانون الإسلامي. تبقى أصالة هذه الأحاديث مسألة خلاف ونقاش. أعرف البخاري جيداً، لقد علّمت أن هذا الكتاب، بعد القرآن، هو أهم كتاب للمسلمين. وكلمة صحيح في لغة الأردو لها نفس معناها في العربية.

بعد الحج، في دقيقة واحدة في نيويورك، قررت أن أجرب مسجداً آخر غير الذي في الشارع 96 على أمل أن يكون أنسب. هذا المسجد في حي إيست فيلج البنغلاديشي يطلّ على الجادة 2 والشارع 11، الذي كان يسمى مسجد المدينة، اتخذ الآن لائحة جديدة كُتِبَ عليها «المجلس الإسلامي في أمريكا». لم تتغير منطقة الصلاة كثيراً، أما الإمام فقد تغير، على الأقل في الجُمُع التي كنت أحضر فيها. بدا أن هذا الإمام مستورد، على الأغلب من بنغلاديش، الدولة الإسلامية التي كانت من قبل تسمى باكستان الشرقية-الدولة التي صورت فيها فلم *جهاد للحب* من غير تصريح قانوني. علمت أجهزة الأمن بهذا

ووجب علينا أن نخرج من البلد بسرعة. لم أعد بعد ذلك. ولكنني كنت متقنًا ما يكفي من اللغة البنغالية، وهو ما جعل المسجد مألوفًا عندي. كان عند البنغلاديشيين قلق من تزايد «طلبنة» بلدهم. كان الإمام دليلًا على هذه الطلبنة. استعمل الإمام حديثًا على الطريقة الوهابية في خطبته ليدعم حججه. هذه الجمعة، في أواخر 2011، استدعى الإمام حديثًا من صحيح البخاري في تقريره للكفار والمرتدين. جُرم الأولين هو الكفر، وجُرم الآخرين هو الردّة. كاد أن يصرخ، «يجب قتلهم!»

أردت أن أتحدّاه. لقد كان مخطئًا، حسب العقيدة وحسب القرآن أيضًا. كان في المسجد بين خمسين وخمسة وسبعين مصلّيًا. لقد ألقيت خطابات لجماهير أكبر في عملي. ولكنني لم أجرو. لطالما كنت تلميذًا صالحًا ومطيعًا، لا أجرو على التشكيك في شيوخه وسؤالهم أسئلة لم أنعم النظر فيها. في النقاشات في المدرسة كنت دائمًا أخسر أمام الذين يناقشونني، إذ لم أكن أجد المحسنات الخطابية التي كانوا يصيغونها بسهولة. إن أنفسنا الطفولية لا تفارقنا.

لو كان عندي من الشجاعة ما يكفي في تلك اللحظة، لذكرت أولاً سورة من أحب السور إليّ في القرآن. هي السورة 109، سورة الكافرون:

بسم الله الرحمن الرحيم.

قل يا أيها الكافرون

لا أعبد ما تعبدون،

ولا أنتم عابدون ما أعبد.

ولا أنا عابد ما عبدتم

ولا أنتم عابدون ما أعبد.

لكم دينكم ولي دين.

كنت لأقول لهذا الرجل الجاهل، أن القرآن كان دعوة إلى التسامح الديني. لقد قال الله، «لكم دينكم ولي دين». هذا هو الله غير المتحيز، الواسع الصدر، الذي يحترم التنوع الديني. وما كنت لأقف هنا-بل كنت لأجاده في الجهاد. لقد وضعت كلمتي الجهاد والحب في عبارة واحدة في فلمي السابق.

لو أنني جمعت شجاعة أكبر في تلك اللحظة، لقلت له كيف أنني مجاهد، وأن كل المسلمين «الصالحين» مجاهدون. ولأحتج لهذا الأمر كنت سأستعمل علم المعاني. في العربية، كلمة *جهاد* اسمٌ يعني شيئاً قريباً من «المثابرة، والمناضلة لإصلاح النفس».

ثم تكلم الإمام وأطال عن الكفار الذين يحيطون بنا في مانهاتن، ولم يذكر سورة الكافرون مطلقاً، بل ألح إلى أننا نحتاج إلى الابتعاد عنهم أو دعوتهم إلى الإسلام. كان مستمعو الإمام من سائقي التاكسي البنغلاديشيين العاديين في نيويورك، وهم أقلية كبيرة في عالم سيارات الأجرة في نيويورك، التي يسود فيها الآسيويون الجنوبيون. كيف يمكن أن يقنعوا بالإسلام رجلاً سكران في الساعة الرابعة صباحاً؟ هل علم هذا الأحمق المنصوب على منبره أن خطابه المختل هذا من أسباب الإسلاموفوبيا؟ لقد كانت حجة لعدم تسامح الإسلام ظاهرة في ترشح المشهر (الذي لم يلبث أن أصبح رئيساً) دونالد ترامب، الذي دعا إلى حظر سفر على المسلمين، ثم في نقاشه الثاني واجه امرأة مسلمة، ونشأ هاشتاق #MuslimsReportStuff في تويتر. كُتب في إحدى التغريدات: «مرحباً، أود أن أبلغ عن ديماغوجي ميسوجيني عنصري خطير في تلفازي... نعم سأنتظر». كانت الإهانات للمسلمين الصادرة من الأفواه المتقلبة المستفزة مكافئة للتجنيد في داعش من حيث العدد. في الماضي القريب، عندما ركل الجنود الأمريكيون المصاحف وداسوها وبالوا عليها، أو عندما حرق بعض الكهنة الإنجلييين الأمريكيين مصاحف أو أنزلوها في دورات المياه، نتج عن ذلك تجنيد بضعة آلاف آخرين في داعش. ولكن الإمام في إيست فيلج أيضاً جزء من المشكلة.

فضّل محمد عبارة *الجهاد في سبيل الله*. كان لهذه المجاهدة أهمية كبرى، لأنها كانت مجاهدة للنفس من أجل تحقيق علاقة أفضل مع الله. لقد حاول العلماء قروناً أن يغيروا هذا المبدأ الذي أمر به النبي والكتاب (أي القرآن). حتى أنا كنت مجاهداً. ولكن الجهاد في نسخته الثانية التي تفضلها داعش هو

جهاد إفساد وهمجية. إن إخوان داعش حاملو السيوف راكبي الخيول القاتلين، يتبعون طريقة أسلافهم في زمن عبد الوهاب وابن سعود.

لم تعد داعش مادتها التي لا تنتهي من الشباب الساذج الجاهل، الذي لم يتعلم حتى صلواته المفروضة. أنتجت سلسلة للمبتدئين (For Dummies) مئات من الأدلة في كل جوانب الحياة. طبعاً، بعد هجمات 11 سبتمبر، أصبح كتاب الإسلام للمبتدئين واسع الانتشار بين القراء. هل كان الجهاديون المستقبليون يقرؤون هذا الكتاب كما تبحر ربات المنازل الملات في أمازون أو وولمارت؟ الظاهر أن نعم، إذ وُجد بين جثث الدواعش الممزقة بعض الحمقى الذين درّسهم المجنّد الداعشي صلاح عبد السلام وأمثاله. يبدو أن بعض المفجرين الانتحاريين بدؤوا دروسهم التمهيدية عن الإسلام بهذه الطريقة. كان كثير منهم لا يعرف حتى كيفية الصلاة، إذ لم يذهبوا يوماً إلى المساجد-الأقبية التي تفضل في بلدان مثل فرنسا. وعلى الراجح أنه قد قيل لهم أن الشهادة ستأتيهم بحورية سماوية، أو اثنتين وسبعين عذراء، وصبيان «يحملون الخمر». حاول بعض العلماء أن يدّعوا ادّعاءً أوسع هو أن جميع المؤمنين الذكور سيكافؤون بالهوريات الشهوانيات في الجنة. لو أُتيحت لي تذكرة ذهاب بلا إياب للجنة، لاخترت الصبيان على العذراوات حتماً.

ولكن حقاً، لا يحتاج الأمر إلا إنساناً وحيداً، مريضاً نفسياً، مكتئباً، كارهاً للبشر، يفكر في الانتحار، وحاسوباً يتصفح فيه الإنترنت المظلم. الإسلام هو الفرق الوحيد بين آدم لانزا في مجزرة ساندي هوك وخالد البقراوي في هجمات بروكسل عام 2016. من بين 1.7 مليار مسلم، كانت هذه الأنواع قليلة جداً، ولكن كافيةً للتوحّش.

التكفير عند داعش أساسي، ومن ذلك وصف الشيعة والمسلمين أمثالي بالكفار. الفرق الوحيد بين العقل الداعشي والعقل الوهابي هو فكرة المملكة الإسلامية. ترى داعش أن آل سعود غير إسلاميين، بل أن كل الممالك خارجة عن دار الإسلام. أما الوهابيون، فالمسألة عندهم مسألة بقاء: لقد أحسّوا منذ زمان أنهم لولا آل سعود لكانوا هباءً. بالإضافة إلى ذلك، لدينا دار الحرب، وهي كل الأراضي التي لا يحكمها الإسلام. لقد تجرأت داعش أن تقول ما لا يجرؤ الوهابيون على قوله - وإن كان كثير منهم

يؤمنون به - أنه يجب أن تكون حرب دائمة (إلى يوم القيامة) مع معظم أهل الأرض، وحمامات دم للطوائف الأخرى وللکفار.

في الفكر الوهابي والداعشي، كل شيء خارج هذه النظرة الكونية، حتى نظرتي الكونية أنا، انحراف بدعيّ يجب معاقبته. كنت أعلمُ أنا صانع الأفلام الذي جمع الإسلام والمثلّيّة معاً - شيء لم يحدث من قبل في الأفلام - أن جهاد النفس عندي أصبح صعباً جداً إلى درجة أنه جاء بي إلى أبواب مكة، هذه المدينة القديمة، التي لا يدخلها إلا المسلمون، والتي لعلّها مخزن جميع أسرار العالم الإسلامي. على مر السنين، في جلسات الأسئلة والأجوبة، كنت دائماً أدافع عن محمد وأؤكد على محاولتي لجعل حياتي مثل حياته. نعم كان محمد محارباً - ولكن هذا كان ظرفاً معهوداً في تلك الأزمنة، ونتيجة شرعية تقريباً للدعوة التوحيدية، التي ذاق المسلمون كثيراً منها، من ذلك الحملات الصليبية. كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة مسؤولة عن أكثر من حصتها العادلة من الحروب الوحشية. لا يحتاج المرء أن ينظر إلى سوى التوراة ليرى أدلة العنف اليهودي. إن كتب اليهود والمسيحيين والمسلمين المقدسة كلها ملوثة بالدم. كان النبي محارباً متردداً. مثله مثل عيسى، ليس إلا لاجئاً. والتشابهاً لا تنتهي هنا. ولكن التاريخ الديني الداعشي مليء بالتحريفات. فهم مثلاً يهملون أن عيسى مذكور في القرآن أكثر من محمد بعشرة أضعاف. وأن القرآن يجعل له مكانة النبوة، مثل إبراهيم وموسى. إن القرآن يتربّع بثبات واحترام فوق دينيه السابقين، اليهودية والمسيحية.

التوحيد، مبدأ وحدانية الله، هو قطب الإسلام الذي يدور عليه: *الله الأحد الوهاب*. في كل صلاة يؤديها المسلمون يؤدّون *التشهد*، الذي يقولون فيه، «لا إله إلا الله محمد رسول الله». علّمت أن أرفع سبابتني عند ذكر الله في هذا الدعاء. أرسل إلي أدهم رسالة في أحد الأيام، جاءت بالمصادفة بعد صلاتي:

«الحمد لله يا برويز! ماذا لو أمر محمد برفع الأصبع الوسطى بدلاً من السبابة؟!»

لم أستطع إلا الضحك على قلة ورع أحمد. ولكن المسألة كان فيها أمر محزن. إن فكرة التوحيد المشترك للأمة كلها التي أرادها محمد أصبحت مزقاً. لن يعرف أحد من المسلمين الأوائل هذا الإسلام الذي نعرفه اليوم.

وأنا أودّع محمد جعفر في ذلك اليوم الأخير عند سفح جبل النور، بعد محاولتنا المخففة لدخول حراء، سألته، «هنا ملايين من المسلمين. أنواع كثيرة جداً. فمن أي نوع أنت؟»

ضحك محمد وأشار بيده اليمنى من قلبه إلى السماء فوقنا، «ليس للإسلام إلا طريقة واحدة، وهي طريقتي».

ببساطة شديدة كان يصف قروناً كثيرة من الصرامة اللاهوتية التي كانت تجادل في هذا الأمر. في جوهر الإسلام، لا وسطاء. بل الله والمؤمن فقط. هذا ما أراده القرآن والنبي. ويصعب أن نثبت إن كان النبي قد تنبأ بالفتنة التي سيخلقها الإسلام في القرون القادمة بالطائفية والحروب. على رغم أن الشيوخ والعلماء أضروا الإسلام ضرراً كبيراً في القرن الواحد والعشرين، فإن النبي أُوحي إليه أنه لا وسطاء بين الله والمؤمن. لقد رفض النبي في الواقع فكرة رجال الدين. كل مسلم ومسلمة، إذا أراد، عنده خط ساخن مباشر مع الله، واتساب لا ينقطع بعبارة اليوم. على رغم أميته، كان محمد وعاءً لوحى شعري راقٍ أدبياً بسبب هذه البصيرة.

يصبح الأنبياء أنبياء لأنهم يرون أشياء لا يراها بقيتنا.

## الفصل الحادي عشر

### رحلتي إلى الهند

إذا اعتبرت باكستان والهند وبنغلاديش كياناً واحداً جنوب آسيوي، فستحصل على أكبر عدد من المسلمين في العالم (إندونيسيا هي الثانية في هذا الترتيب) - أكثر من الشرق الأوسط بأكمله. لطالما كان هذا الثلاثي الجنوب آسيوي أمة واحدة حتى فصلهم المستعمرون البريطانيون الراحلون إلى الهند وباكستان الشرقية والغربية. لقد تشاركوا اللغات والثقافات والتاريخ. لكن أدى الانفصال (التقسيم) إلى أكبر هجرة جماعية وأكثرها دموية في التاريخ. ومثل اسميهما الجديدان، وقعت باكستان الشرقية وباكستان الغربية في الجانبين المخصصين لهما. كانت المشكلة أن ثاني أكبر عدد من المسلمين في العالم وجد آنذاك في الهند الهندوسية الواقعة بشكل غير ملائم في المنتصف. في عام 1971، دعمت الهند حرب باكستان الشرقية من أجل الاستقلال، وتحولت إلى دولة بنغلاديش، نتيجةً للحرب التي دارت حول الجغرافيا بقدر ما دارت حول اللغة والثقافة.

كان من الطبيعي بالنسبة لي كمسلم هندي أن أعود من حيث أتيت. إذ تعيش إحدى أصدق الموروثات الإسلامية في جنوب آسيا، والتي لم تنقسم إلا منذ فترة قريبة. لطالما أعاد المستعمرون رسم الحدود الوطنية بدماء الأبرياء. تعد الولايات المتحدة جديدة على سلوك الأسلوب الاستعماري والنتائج المؤسفة لمحاولاتها الحمقاء تخاض في شوارع العراق وسوريا وأفغانستان وباكستان، على سبيل المثال لا الحصر. الأهم أنني أدرك أن أمريكا ليست سيئة في الاستعمار فحسب؛ إنها أمة تحتقره.

في كل مرة أعود فيها إلى الوطن، أحصل على فكرة جديدة عن «مشكلة الإسلام»، بحسب تعبير أحد المحللين في التلفزيون الباكستاني. لفترة ما، تتمتع الإسلام الديوبندي بتفوق في جنوب آسيا أكثر مما هو عليه الآن، بسبب تأثيره القوي على طالبان. وكان الاختراق الوهابي هو السبب الرئيسي في فقدانه النفوذ. عنت تلك العقيدة موت التوفيق المبني بعناية بين المعتقدات والمصاغ على مدى قرون بين الحكام المسلمين (المغول)، وعبداء الأوثان (الهندوس)، والأعداد الكبيرة المنجذبة إلى طريقة الحياة الصوفية. ويعد انتهاك الأضرحة الصوفية الروحانية العديدة دليلاً على قدرة الإسلام الوهابي الشبيهة



بالكوبرا على ابتلاع كل ما يأتي في طريقه. في الواقع، لطالما عرف الديوبنديون السياق التاريخي لداعش.

عدت لأول مرة في عام 2006، عندما كنت أصور فيلم *جهااد من أجل الحب*.

«حسنًا، يمكنني أن أوصلك إلى المدخل، لكن عدني أولاً يتبين شيء وألا تصوّرني»، أصرت زينب علام. كنت قد طلبت مقابلتها في مدينة لكانا، موطن أعلى نسبة شيعة في الهند. ورغم كونها من كبار الباحثين في جامعة لكانا، لم تمنحها كليتها مكانة رفيعة، ولكن أمضت زينب عقوداً تدرس بصمت دور المرأة في الإسلام، في يومنا وعبر التاريخ. أخذتني في ذاك اليوم أنا والمصور الشيعي إلى مدرسة الندوة، أو باستخدام الاسم شبه الرسمي، معهد العلوم الإسلامية. ترتبط هذه المدرسة ارتباطاً مباشراً بالمدرسة السننية الديوبندية الإسلامية التي نشأت حيث كنت وقدمت الأساس الأيديولوجي لطالبان. لا تسمح العديد من المدارس التي فرختها ديوبند للنساء بدخولها مطلقاً، أو إن كنّ محظوظات كفاية لدخولها، يجب عليهن تغطية أنفسهن بالكامل - طار شعر زينب بحرية.

في الغرب، يحدث «التطرف» تجاه الجهاد العالمي عن طريق ومضات حواسيب المختلين عقلياً المنغلقين مواكبين تنظيم داعش الخبير في شبكة الإنترنت الاجتماعية. ويختبئون خلف تطبيقات تصفح لا يمكن اكتشافها تعد بإخفاء عناوين بروتوكول الإنترنت أو تغييرها. لكن بالتأكيد، تستطيع وكالة الأمن القومي استبدالها والانضمام إليهم في جولات منتصف الليل هذه في الشبكة المظلمة حيث يسكن داعش جزئياً؟

فأنت لن تلتقي غالباً آلات القتل هذه وجهاً لوجه. ولن تتصل أبداً مع أميرهم، أبو بكر البغدادي (يُشاع أنه قُتل في عام 2016)، أو مع مجلس الشورى (مستشاروه)، أو تزور حتى عاصمتهم المعلنة في مدينة الرقة السورية. لكن أوصِل بضعة آلاف هذا الأخرق إلى «الخطوط الأمامية».

في عام 2006 كان أسامة ما يزال حياً، يدير مصنع الشوكولاتة الجهادي. فقد جاء هذا الجهاد معباً بنكهات مختلفة. مع دخولي إلى الندوة، تساءلت هل حدث «التطرف» هنا على مرأى الجميع؟ لقد وجدت الكلمة إشكالية لأنني أيضاً كنت مسلماً متطرفاً، لكن من نوع مختلف تماماً. لقد حال الكثير من الإسلام بيني وبين القاعدة. هنا، هز مئات من تلاميذ مدرسة الندوة ذوو القبعات البيضاء رؤوسهم

لأعلى ولأسفل في طريقة للتلاوة عن ظهر قلب، إذ هدف تكرارها إلى غرس التركيز. لن يعرفوا أبداً شعر القرآن أو عمق معناه أو سياق تاريخه.

سألت أحدهم: «عما تتعلمون اليوم؟»

قال: «التكفير»، اتهام مسلم الآخر بأنه كافر.

سألت: «هل تعلم ماذا يحدث للكافر؟». قهقهه وهز رأسه. تساءلت إن كان قد تعلم بالفعل المبدأ غير القرآني القائل بأنه «يجب قتل كل الكفار».

فقلت: «ماذا تعلمتم أيضاً؟»، متسائلاً كذلك إن كان يعلم أن هناك عقوبة شرعية شديدة للتكفير باستهتار.

أجاب: «التقليد». تعني هذه الكلمة حرفياً «الاتباع الأعمى». وهو يشجع على اتباع المجتهد، عالم الشريعة، بموجب رأي أغلبية المذهب (المدرسة) الحنفي في الهند. هناك أربع مدارس إسلامية فكرية. أصبحت الحنفية، بسبب التأثيرات المغولية والصوفية، أكثر تعددية من الحنبلية الوهابية، الأكثر تشدداً. فقبل عام واحد فقط من وصولي إلى الندوة، سُلِمَ ما يسمى رسالة «عمان» التي تدعو إلى الوحدة والتسامح في العالم الإسلامي. أيدها 200 عالم في جميع أنحاء العالم. لقد كانت وثيقة مملّة تتناول قضايا الفقه الإسلامي، لكنها نصت رسمياً على أن الإسلام السني يشمل الحنفية، والشافعية، والمالكية والحنبلية باعتبارها مدارس اللاهوت الأربعة. وحصل الشيعة على مدرستين -الجعفرية والزيدية- بالإضافة إلى مدرستين أخريين لا توافقان أي من الطائفتين، الإباضية والظاهرية. لم يحقق الإجماع الذي تاقوا إليه. أنا متأكد من أنه لا أسامة ولا البغدادي ولا أحد هنا قد قرأ رسالة عمان مطلقاً. تحدثت إلى طالب يرتدي نظارة طبية بعد أن طلب مني وفق الطريقة الوهابية إغلاق كاميرتي لأنها «حرام».

قال: «نتعلم عن ابن تيمية». علمت أن هذا كان موضوعاً خطيراً. سألته إذا كان قد تعلم الآية 33 في سورة المائدة، السورة الخامسة من القرآن. اقتبست الآية. كنت قد حفظتها غيباً لأنني واجهت تحدياً بشأن خصوصيتها:

«إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ

يُصَلِّبُوا أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا  
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

رد الصبي بثقة: «لا أعتقد أنه يمكن استخدام مثل هذه العقوبات في العصر الحديث». وذكرني  
بالآية 32 (الجدلية) السابقة، والتي تقول جزئياً: «كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ  
أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا». ستكون إدارة  
بوش مؤهلة بأكملها!

قلت: «نعم»، «أنا سعيد لأنك أشرت إلى ذلك. إن قتل أي إنسان بريء كقتل البشرية جمعاء». كانت إحدى  
السور المفضلة لدي وكان يمكن أن تكون إجابة هذا الشاب إجابتي. علمت أنه كان نادراً.  
ربما لم يذهب العلماء الغربيون الذي يضجون بـ«السياق» إلى مدرسة كهذه أبداً، حيث كان استخدام  
السياق انتقائياً ولكنه متاح لطلاب مثله. لن يجدوها في لغة القرآن العربية الفصحى. لكن هذا الشاب  
وجدها. تمنيت أن يصبح عالماً (متعلم) ولا يبتلعه التطرف. كان هذا الإسلام المعاش مختلفاً تماماً عن  
إسلام ساحة الحرم الجامعي الأمريكي البعيدة - حيث لا وجود للواقع حقاً.

العالم هو مفرد علماء، وهم الأقرب في الإسلام إلى رجال الدين. يعتبرهم العديد من السنة الأعلى  
سلطة. فهم أوصياء الفقه والسنة. عملياً، لم يعين محمد أي رجل دين.

ظهرت امرأتان ترتديان العباءة من العدم في الممر. فقدم المراهق عرضاً رائعاً لغض بصره، رغم  
أنه لم يكن هناك شيء ليرى بمظهريهما الأسودين عديمي الشكل مع فتحة للعيون. لقد تراجع مرة  
أخرى إلى عالمه الذكوري.

كان لدى الندوة منهج دراسي لخمس سنوات، بحيث تدرس كل المواد باللغة العربية بعد  
تدريسها لمدة سنة. غالباً ما يتصور المسلمون الفقراء، في بلد تنتشر فيه «المدارس المتوسطة الإنجليزية»  
ولكنها تظل بعيدة المنال، أن تعلم اللغة العربية والقرآن يجلب الحظ لأطفالهم. لطالما وجدت شبكة عالمية  
من الجمعيات الخيرية القائمة على الدعوة (التبشير) المرتبطة بالزكاة (الصدقة)، إحدى أركان الإسلام

الخمسـة. ومولت مدارس مثل الندوة وديوبند. لقد سبقت القاعدة. لكن يعلم المسلمون أمثالي منذ زمن بعيد أنه لم ترسل كل الأموال إلى المدارس الإسلامية.

في القرن الرابع عشر، كان ابن تيمية أكبر علماء المذهب الحنبلي (المدرسة المتطرفة). وأصدر هذا الرجل فتوى بأن الجهاد العنيف على الكفار مباح ومشجع. كان يتحدث عن الغزاة المغول في عصره. يقول العلماء إنهم دعوا كذلك لأنهم لم يتبعوا الشريعة. بعد قرون كان وهاب من أشد المعجبين به. لقد أعطى ابن تيمية المتزمت الجهاد العنيف موافقة شديدة ظاهرياً، قائلاً:

تلتزم المبادرة في قتال هؤلاء بمجرد وصول الدعوة النبوية بالأسباب التي يحاربون من أجلها إليهم. لكن إذا هاجموا المسلمين أولاً، يصبح قتالهم أكثر إلحاحاً، كما ذكرنا عند تناول القتال ضد العصابات المتمردة والعدوانية.

وبالنسبة لداعش، الذي يبدو أنه نسي أحداث 11 سبتمبر، عنى ذلك أنه لم يهاجم العراق ولا سوريا الولايات المتحدة أو أوروبا الغربية أولاً أو مطلقاً. بل على العكس من ذلك. وفق منطق المنحرف، هوجمت أرض المسلمين أولاً.

جعل ابن تيمية الجهاد العنيف ضد جميع غير المسلمين واجباً على جميع المسلمين. وعنت كلمة «هؤلاء» بوضوح «غير المسلمين». انتشرت اللصوصية والفوضى في العصور وسطى في هذه الصحاري. وكان (المغول) يقتلون شعبه بجيوش عالية التدريب. أتساءل إن كان يمكن إقناع إمام محب للعنف في إسلام أباد أنه يجب قراءة آراء ابن تيمية في السياق بدافع الاجتهاد والتفكير المستقل.

هل وجد عنده جهاد النفس؟ لطالما أثار فضولي عدم زواج ابن تيمية أبداً أو حتى وجود رفيقة أنثى في حياته كلها. هل كان مثلي الجنس؟ تساءلت بشكل خطير وسري في أثناء دراسة روايات عن حياته في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. لابد أن إخوان ابن سعود المتوحشين اعتبروا ابن التيمية شخصية مقلدة. وكذلك داعش.

يكاد يكون مستحيلاً العثور على جندي مشاة من داعش، غير متعلم أحياناً الطريقة الصحيحة للصلاة، يعرف عن ابن تيمية أكثر من اسمه أو يعرف حتى المبادئ الإسلامية التي فضلها الرسول

وأصحابه «فعلًا». زعموا أنهم يحتذون بهذه الأمثلة. ولكن، كان تعليمهم سريعًا. واجبك الإسلامي؟ القتل والموت. لتحصل عائلتك بأكملها على الخلاص وكذلك أنت، إذ ينتهي بك الأمر شهيدًا في الجنة حيث تنتظر الحوريات (العداري - يقول البعض اثنان وسبعون منهن) وغيرهن من المسرات. في ذلك اليوم في الندوة، أمر أحد المدرسين طلابه بفتح الآية 191 من سورة البقرة التي جاء فيها:

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمُ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمُ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ

سرعان ما بدأ المئات من الأولاد الصغار يهزون رؤوسهم لأعلى ولأسفل مرددين.

«لا يأكل الهندوس الأبقار. فهل نقتلهم؟» سأل طالب فضولي.

غير المعلم الموضوع، إدراكًا لوجودي. فبقي السؤال دون إجابة ووبخ الصبي. هل كان سيجيب بنعم لو لم أكن حاضرًا؟

أكثر من 70% من مسلمي العالم لا يقرأون، ولا يتحدثون، ولا يكتبون ولا يفهمون اللغة العربية. لقد تعلموا الآيات القرآنية في اللغة العربية الفصحى عن ظهر قلب. وليس لدى معظمهم أية فكرة عما يقولون. إن الاختلافات بين العربية الفصحى والعامية هائلة، إذ تأتي الأخيرة في العديد من الأشكال الإقليمية. ويعد عبء تعلم اللغة الملقى على عاتق الطالب ثقيلًا. قد يشرح هذا المعلم لطلابه في الصف الأعلى أو ربما في هذا الدرس نفسه ما هي فكرته عن «هم». أمكنه تجميل تعريفه للكفار جدلاً بقوله إنهم الهندوس واليهود والمسيحيون - تقريبًا العالم غير الإسلامي بأكمله، ر/ر/الحرب. لست متأكدًا من أنه كان لينخرط في علم اللاهوت المقارن ليعلمهم الآية 190 السابقة لهذه الآية: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

دخلت الإسلام الهند في القرن السابع، فالإسلام الهندي قديم قدم الإسلام نفسه. كان معظم ذلك الوقت تاريخًا من التعايش السلمي بين الهندوس والمسلمين، حتى أن كلا الديانتين أخذتا من بعضهما البعض. كنت نتاجًا هذا النوع من الزواج العقائدي، وفي هذه الغرفة في الندوة، بدت الأرض تحت قدمي تنزلق.

دوى صوت الأذان. لطالما أعجبت بالتنوع الموسيقي لأذان المؤذنين في بلدان عديدة. ولكن شعرت هناك أنه غير متزامن بشكل غريب.

سيسعد وهاب بمعرفة مدى انتشار أيديولوجيته، من شارع 96 في مانهاتن إلى الندوة وديوبند في الهند، رغم أنه رأى انقسامها المبكر بين العنف واللاعنف. يواصل وهابيو ديوپند جذب اهتمام وسائل الإعلام بفتاوى كإعلان التصوير غير إسلامي، بهدف إرهاب النخبة «العلمانية» في الهند. تحكم الهند الآن حكومة هندوسية يمينية. سيحكم الزمن على تأثيرها على مواطنيها المسلمين. خلال رحلة عام 2006 تلك، اقترح صديق شيعي أن كونك مسلمًا في الهند يشبه كونك أسودًا في أمريكا. صحيح جدًا، أذكر أنني فكرت.

علمنا كأطفال أن نطلب رأي الشيوخ، «رائي» باللغة الأردية أيضًا. وكان علماء الشريعة، المجتهدون، شيوخًا. فهم مؤهلون وعاشوا حياة مثالية. تحدث صحيح البخاري (القانون السني الأكثر نفوذًا لحديث محمد) عن مدى صعوبة أن يصبح المرء مجتهدًا. تساءلت في العشرينات من عمري كيف يمكن لمفهوم الاجتهاد المرن أن يصف الكون الإسلامي الجامد والمعقد. هل كان الجهد الشخصي أفضل طريقة لوصف الجهاد، كجهاد النفس؟ وهل كان مقبولاً استخلاص روابط دلالية بين مصطلحات الجهاد، والمجتهد، والاجتهاد؟ وهل كان لدى المجتهد مؤهلات اجتهدية كافية ليصبح وعاء شريعة للمسلمين العاديين؟ إن تعلم العلاقة الوهابية-الاجتهاد على مدى سنوات الدراسة جعل الأخير أقل جاذبية.

لسوء الحظ، تستخدم غالبية الأمة اليوم //تقليد، الاتباع أعمى. وهذا محفوف بالمخاطر. يخصص المذهب الحنبلي الخطير للقاعدة والسعوديين فقط، كما يزعم البعض خطأً. لكن كان التصدير الوهابي ناجحًا للغاية، لدرجة أن معظم التقليد وصل إلى عتبات الوهابية/الحنبلية بأية حال.

لوهلة، بدت الندوة من عالم آخر. ولم تستطع إم إس إن بي سي ولا سي إن إن اختراق هذه الجدران بمنطق «المسلمون المعتدلون» خاصتهما. إذ ابتعد محللو أمريكا كواكب عنها.

هل كان هذا المنهج إعادة صياغة للديوبندية والوهابية وغيرهما من اللاهوت الخطير؟ هل تلقى هؤلاء المعلمون الابتدائيون تعليمًا مناسبًا؟ يحتاج الاجتهاد، للتوسع أكثر، إلى تفسير شرعي وعلمي

للقرآن والشرعية والقانون. ويستغرق عمراً من الصرامة الأكاديمية. إن تحقيق الاجتهاد صعب مثل الالتحاق بجامعة هارفارد. فالمسائل القانونية، مثلاً، تحتاج إلى تفكير تناظري والقدرة على استخلاص سورة أو آية من القرآن حسب الحاجة. فقد اعتبر الحفظة -حفظة القرآن- مثاليين. كانت شريعة الله عادلة وهائلة ومنزلة إلهياً.

على عكس الأديان الأخرى، رسم الإسلام كل شيء بدءاً من كيفية تنظيف عانتك بعد ممارسة الجنس مع شخصين مختلفين إلى كيفية ترتيب مائدة الإفطار (وجبة الغروب في رمضان) إلى تعريف الجهاد الشرعي حقاً كما فهمه النبي وفسره أخلاقياً. يجب أن يكون هناك علم، أو معرفة، بما سبق كذلك. والأهم من ذلك، أن كل ما يفعله «المسلم الصالح» موصوف بصرامة في الشريعة والقرآن المنزل على محمد. يزعم الكثيرون في الغرب أن أبواب الاجتهاد قد أُغلقت في القرن العاشر، رغم عدم امتلاكهم المؤهلات اللازمة تقريباً لقول ذلك. ينفي آخرون ذلك، مع قول شيعة إيران إنهم سمحوا بالاجتهاد في أثناء الثورة الإسلامية عام 1979. وهذا يجعلهم يبدون أكثر انسجاماً مع العصر من المسلمين السنة. يحب اللاهوت السعودي الوهابي الاجتهاد. وتفضل حماس في فلسطين الاجتهاد. واستخدمه أسامة لمطالبة باطلة بصفة المجتهد.

«مزيد من الشاي؟» قاطعني المعلم، فقطع حبل أفكارى. قالت زمرة المعلمين إنهم جميعاً مجتهدين. جلسنا هناك وناقشنا دلالات كلمات الاجتهاد وبالتالي المجتهد، المستمدة من الجذور اللفظية لكلمة الجهاد. ظلوا صامتين بينما تحدثت عن كيف أن أسامة والإخوان المسلمين في مصر والمؤسسة الوهابية للسعودية ادعوا جميعاً الاجتهاد أيضاً. وأخبرتكم كيف تخشاه الأنظمة الديكتاتورية في جميع أنحاء العالم الإسلامي لأنها تعتقد أنه سيعزز التعددية بينما سيقوض الوحدة السياسية، إذ كانت الأخيرة ضرورة لإخضاع شعوبها. كان ردهم بالإجماع: إن الهند بلد علماني، لذلك لا يهم أي من هذا هنا.

احتفظت ببقية أفكارى لنفسى. إن العمل القذر المتمثل في صياغة واجهة «للوحدة السياسية» في الشرق الأوسط العربي بأكمله يتم بواسطة المخابرات أو وكالة الاستخبارات المخيف في كل بلد، وهي أساساً شرطة سرية على غرار شتازي الحرب العالمية الثانية. تستخدمها مجموعة واسعة من الديكتاتوريين مثل السيسي في مصر، وبشار الأسد في سوريا، وحتى الملك عبد الله الثاني ملك الأردن

الذي يفترض أن يوالي الغرب، مع عواقب متساوية ومرعبة. فبالنسبة لهذه الأنظمة، يُزعم أن الاجتهاد يشبه البدعة. في القرون الأربعة عشر الماضية، نوقشت الآراء حول ما إذا كان الاجتهاد دعوة إسلامية مستمرة أم لا على قدم المساواة. إنني أشعر كفرد أن قدرتي على استخدام التفكير المستقل مقدسة بالنسبة لي. وأعتقد أن الاجتهاد ليس بدعة للعصر التقدمي، لأنه موجود منذ قرون. لكن الحجج حول كونه «حلاً» لـ«مشاكل الإسلام» مضللة في أحسن الأحوال.

وبأي حال، من يريد الجلوس في نفس الكرسي مع القاعدة والوهابيين الذين يتغاضون عن المبدأ؟ ليس أنا.

مزيد من الشاي وغرفة خضراء أخرى بها مجموعة مختلفة من المعلمين. أوضحوا أننا لا نستطيع تصوير هذه المحادثة. وقال أحدهم إن الخلافة الإسلامية وشيكة.

قال مدرس آخر: «في 11 سبتمبر 2001، أصبحت مشيئة الله حقيقة». وقال ثالث إن الكفار مثل اليهود والمسيحيين خلقوا أحداث 11 سبتمبر كمؤامرة. بذل معظمهم أقصى جهدهم قائلين كيف شددوا «الاجتهاد» على طلابهم منذ الصغر. وعلى مدار أكواب لا تحصى من الشاي، كان هذا هو نوع الهراء الذي انغمس فيه أولئك المدعون علماء. وكان ذلك هو إجلالهم التافه للاجتهاد.

بدأت أفكر آنذاك في أن الاجتهاد لم يكن أبداً كما روج له. لم يكن لدى الإسلام مشكلة واحدة فحسب. وذلك لأنه لم يكن هناك نوع واحد للإسلام فقط. بل العديد، ووجب التعامل مع كل منها بشكل مختلف. يمكن القول بالتأكيد إن الحرب جهاد شرعي للقضاء على «الكفار»، لنقل، كـ«جندي» القاعدة؟ تركت لهم سؤالاً: «هل تعتقدون أن حرب أمريكا ضد القاعدة والعراق تجعل الجهاد العنيف واجباً مبرراً على جميع المسلمين؟» فأوماً كل منهم برأسه، بشكل مقلق.

قال أحدهم مشيراً إليّ: «واجب عليك حتى إن كنت مسلماً صالحاً».

لقد جئت إلى لكانا لتصوير مسلمين مثليين كتومين ولكن متدينين لفيلم جهاد من أجل الحب. تمتلك لكانا أكبر عدد من السكان الشيعة في شبه القارة الهندية بأكملها. يدعو المثلثون أنفسهم كوتي



(الشخص الذي يمارس الجنس الشرجي) زنانا (الشخص الذي يتصرف مثل المرأة)، بطريقة ودية ومرحة. وكان قاسم شيعياً منهم.

كانت القناة الرابعة في المملكة المتحدة قد أرسلت لنا بواسطة فيديكس شارات صحفية، ما أتاح لنا الوصول إلى مسجد ومنزل سيد كالبي جواد، أكبر رجل دين شيعي في جنوب آسيا، الذي احتوت غرفته على صورة عملاقة لآية الله الخميني. كان سيد سيء السمعة فذعرت، وكذلك قاسم. كان هذا هو الرجل الذي نظم مليون شخص في أكبر مظاهرة للمسلمين على الإطلاق ضد الولايات المتحدة وإسرائيل والدنمارك عندما اندلع الجدل حول الرسوم الدنماركية. وهو الرجل الذي شبه المملكة العربية السعودية الوهابية بـ«اليهود» في عام 2016. وذهب أبعد من ذلك ليقول إن إعدام السعودية للشيخ السعودي الشيعي نمر النمر كان مؤامرة دبرتها الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية وإسرائيل. يدعي سادة الشيعة نسباً مباشراً من النبي محمد. كانت إسلامات الهند العديدة معقدة وقد قضيت سنوات أدرسها. وادعى السيد أحمد بخاري، الإمام الأكبر لأحد أكبر المساجد السننية في شبه القارة الهندية، المسجد الجامع في دلهي، أنه كان سيّداً أيضاً. لم يتمكن أي من هذين الرجلين من التوفيق بين تحيزاتهما.

كنت أصور قاسم الورع. إن العنف الروحي شيء حقيقي وقد وقع ضحيته. تمنيت أن أسجل المواجهة بين هذا الشاب ورجل الدين. وكما توقعت، لما حصلنا على جمهورنا خلف الكاميرا، أظهر قاسم صراحةً مدهشة.

قال السيد: «أبواب المغفرة مفتوحة دائماً في بيت الله». ارتدى رجل الدين عمامة سوداء وبشت، زي مرتبته العليا. لو أنه كاثوليكي، لكان ارتدى اللون الأحمر الكاردينالي الزاهي.

ألح قاسم في أسئلته. «ماذا لو صليت بالفعل استغفاراً؟ هل سيبرئني هذا؟» و«ماذا لو استمر انجذابي للرجال، حتى بعد أن يغفر لي؟» انزعج السيد. وبدأت «أبواب التسامح» المفتوحة دائماً تغلق مع احتدام المحادثة. في النهاية، شجع السيد قاسم على رؤية طبيب نفساني.

«لديك مرض»، قال رجل الدين بعد نحو عشرين دقيقة من التصوير. وفي أثناء عودتنا بعربة الريكشا، قال قاسم: «إنها مشيئة الرب أنني ولدت في هذه الطبقة»، وأضاف، «لقد وضع قلب امرأة في جسم رجل، وهذا من سوء حظي». حاولت مواساته. رغم أن ذلك، على نحو غير اعتيادي، لم يكن هذا

مفاجئاً بالنسبة لي. استخدم قاسم الكلمة الإنكليزية *caste*، التي تعني طبقة. لكن لماذا؟ فظاهرياً، لا يوجد في الإسلام نظام طبقي - الأمة متساوية، ذات إله واحد وتحت قانون واحد. ولكن برع الإسلام أيضاً في التبني والاندماج. وهكذا، وجد النظام الطبقي الذي يفترض الناس أنه هندوسي بشكل فريد أحياناً في العديد من أنواع الإسلام الهندي أيضاً.

كان لا بد للدعوة الإسلامية (التبشير) من أن تستفيد من هذه القدرة الفريدة للدين في العطاء والأخذ، على حد سواء، من الأديان الأخرى. فلم يكن ممكناً أن يوجد تاج محل رمزياً أو ثقافياً أو مادياً لو استبعد الهندوس من إنشائه. بدأ أكثر من قرنين من الحكم الإسلامي (المغولي)، منذ أوائل القرن السادس عشر، بحرب عنيفة، مثل جميع الحضارات والأديان المسيحية. لكنه لم يؤدِ إلى حالة مستمرة من «الحرب الإسلامية» في جنوب آسيا. بل حدث العكس. لقد نشأ تاريخ موسيقي، وفني، ومعماري، ولغوي، وأدبي، وثقافي وسينمائي ثري من زواج الإسلام-الهندوسية. اقتصر الإسلاموفوبيا الهندي المتفشى على القرن الحادي والعشرين. ففي عام 1582، طور الإمبراطور أكبر المغولي المسلم ديانة جديدة سميت دين الله. قيل إنه أخذ مبادئ جميع الأديان التي قسمت إمبراطوريته -الهندوسية، والإسلام، والسيخية، والزرادشتية واليانية- وجمعها معاً في كيان جديد متماسك ليكون مبدأه الأساسي هو التسامح المتبادل. كان أكبر فريداً. فقد أحب المناقشات المكثفة حول المسائل الفلسفية والدينية.

اعتادت خالتي أن تقول: «نحن من نسل المغول». لكنها لم تقدم أي دليل على هذا. وكلما أسفت والدتي على فقدان لغتها المفضلة، أوضحت أن الأردية التي تكتب بها كانت لغة وليدة من اللغة الهندية للهندوس والفارسية للبلاط المغولي.

بعد مناقشتنا مع السيد، انضمنا إلى زينب. ومع الشاي والبسكويت، ناقشنا مشاكل الإسلام المعاصر في شقتها المدممة.

سألته «هل سبق لك الوصول إلى نساء الأسر المدربة في الندوة؟».

قالت: «لا». في هذه المرحلة سألتها عن الآية 31 من السورة 24، النور، والتي يبدو أنها تتضمن بوضوح «المثلية الجنسية» في إحدى آياتها. إذ سُمح للنساء أن «يبدين زينتهن» من بين أشياء أخرى كثيرة إلى «أولي الأربة من الرجال» (من لا حاجة لهم في النساء).

«ها قد حصلتِ عليه! دليل من القرآن!» قلت، مؤمناً وقتها أن ذلك يشير إلى الكوتين مثل قاسم بقدر ما يشير إلي.

فأجابت: «إن معظم الناس الذين ستقابلهم في هذه الرحلة لديهم معرفة ضئيلة في القرآن». أخبرتها كيف أن كل «معلم» في الندوة لديه زببية، وهي كلمة تستخدم لتحديد جبين المتدينين، وتشير إلى نوع من نتوءات الصلاة. اتفقنا على أنهم منافقون. فلا تصنع كثرة الصلاة مسلماً صالحاً. علمت أنها تعرف الكثير عن موضوعي المفضل.

فبدأت بحذر شديد: «إذن كما تعلمين، تعتبر الوهابية في بعض أجزاء الهند حركة إصلاحية . . .» .

قالت: «بالطبع، فقد كانت هناك حركات إصلاحية في كل مكان في إسلام القرن الثامن عشر. ووعدها بالمثل، لأشخاص مثل جدي الذي استخدم هذا الوعد حتى آخر أيامه».

اعترضتها بشأن الأيديولوجية الوهابية البربرية الكامنة في صميم الشريعة السعودية والمنتشرة الآن في كل مكان. كانت زينب امرأة مثقفة جداً، فقد نالت درجة الدكتوراه في العقيدة الإسلامية من جامعة عليكرة الإسلامية الشهيرة في الهند.

قالت: «عليك أن تدرس ظهورها في السياق»، كانت تخبرني بما عرفته مسبقاً. كان وهاب نتاج زمن خسرت فيه الإمبراطوريات الإسلامية أمام المستعمرين. وقالت إن اتفاقه مع ابن سعود كان ضرورياً «للاستقرار». لقد رأى الرجل «إصلاحه» في أثناء حياته منحطاً. وصحيح أن «الانقسام» بين «السلم» و«العنف» حدث في حياة وهاب. ولكن، كان مقدراً حتى للاهوته المتشدد «السلمي» أن يكون قوة مدمرة.

ناقشنا كيف كان أسامة جزئياً نتاجاً للجزء العنيف من المنطق الوهابي. وقيمتنا الغضب الهائل والشعور بالخسارة وسط إمبراطوريات المسلمين لأن المستعمرين، مثل البريطانيين، أعادوا رسم حدودهم. فبالنسبة للمغول والقوى الإسلامية الأخرى، أصبح هذا التفكك السياسي مشكلة دينية أيضاً. ثم جاء وهاب في القرن الثامن عشر بمنطقه من القرن السابع.

قلت: «نعم، كان متزمتاً. وكره الأسلوب الصوفي الذي شجعه المغول واحتفلوا به. لقد سلب حريات المرأة المسلمة، التي ظلت حتى ذلك الحين أمراً مفروغاً منه. لكنني ما زلت أتساءل إن كان وهاب قد اعتقد أنه في مهمة إلهية لبناء ما اعتبره أمة متساوية كما تصورها النبي تماماً».

قالت زينب: «هذا جدير بالبحث». «كان من نجد وبالتالي سار على نفس الرمال التي سار عليها مسلمو الرسول الأوائل. كان سيحتقر الهندوس».

«ولكن لماذا نشد جدك إذن؟»

«لأنه حتى الديوبنديين اعتنقوا إصلاحه. لقد انجذب إلى إدانة وهاب لعبادة الأوثان، الديانة الرئيسية في الهند. فكما ترى، اعتبر الإسلام الوهابي حركة إصلاحية. وهو ما كان عليه في القرن الثامن عشر». اتفقنا على أن وهاب نفسه آمن بالتوحيد والسنة والقرآن، وربما لم يكن رجلاً عنيفاً. وقلت إن خلفاءه يذكرون اسمه لنشر «الرعب».

كنت سعيداً للعثور على عالمة مسلمة تقول إن وهاب لم يكن مفكراً سياسياً. كان تحوله إلى ذلك من فعل محمد بن سعود، الذي حرص على إقامة نظام ملكي مقدس.

تحدثنا عن سياقات تلك الأوقات. في عام 1744، نقل وهاب وبني سعود الأوائل القبائل من حياة الرحل إلى الحياة المستقرة عمداً، ما سمح بالتبشير الوهابي. ولكن حتى في ذلك الوقت، تحولت الغزوات القديمة التي اقتصر على نهب الماشية من أجل الطعام، إلى مذابح تكفيرية وكافرة.

كانت علاقة سعود ووهاب كزواج مصلحة. لم يكن لوهاب أتباع لو لم يغزوا ابن سعود ويجلبهم إليه. وعلى نحو مثير للانتقاد، لم يجد وهاب أي دليل إسلامي على الإبادات البشرية التي نفذها الإخوان الذين أوجدتهم ابن سعود. وقال إنهم لم يكونوا شهداء.

هل كان نسخة عربية من القرن الثامن عشر لمصلح القرن السادس عشر البروتستانتي مارتن لوثر؟ فقد فضل محو الأمية والاجتهاد والتفسير القرآني. لكنه فضل أيضاً قطع الرؤوس علناً وسلب الحقوق القرآنية للمرأة. بالنسبة لي، كان «إحيائه» إفساد لكياسة القرآن. كان الصوفي الروحاني ابن عربي قد قال في القرن الثالث عشر: «لا تمجد إيمانك حصرياً حتى تكفر البقية». لم يكن وهاب ليوافق.

لكنه علم بالتأكيد أن الأساطير الصوفية، التي يجعلها الملوك والمتصوفون والبشر العاديين على حد سواء، قد استخدمت في الكثير من توسعات الإسلام الجغرافية.

قلت لزينب: «لكن وهاب كان سيدمر كل المزارات الصوفية هنا في لكانا». دفن صوفيون روحانيون مثل الشيخ «الجشتي» الهندي التوفيقي نظام الدين أولياء على بعد مبانٍ قليلة من أحد منازل المنطقة التي نشأت فيها. ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر كان من الطبيعي للعلماء الشعراء أمثاله أن يقولوا إنهم ليسوا يهوداً ولا مسيحيين، ولا حتى مسلمين، لأنه بمجرد أن يحقق المؤمن الكشف الإلهي، تصبح هذه الانقسامات البشرية غير مهمة.

وافقت بخصوص أولياء لكنها أضافت: «إن الوهابية كاملة جداً في هذه المنطقة لدرجة أن ذلك مسألة وقت فقط. فانظر فقط إلى أفغانستان وباكستان». لا أستطيع أن أتخيل الهند بدون نظام الدين. لكن يتزايد شك إسلام القرن الحادي والعشرين في جذوره وإرثه الصوفي.

لقد مات نفور وهاب من العنف غير الضروري معه. لكن استخدم آل سعود المستقبلين الجهاد والتكفير بنفس القدر من الشراسة لذبح قبائل بأكملها. ونهبوا مدناً مثل كربلاء المقدسة عند الشيعة في مطلع القرن التاسع عشر. ابتهج الوهابيون الصاعدون لرؤية الزوال المتطور للعثمانيين الذين حاربوا معهم مرات عديدة. ومع ذلك، حدثت مجازر لا هودة فيها في الجزيرة العربية حتى أنشأ عبد العزيز بن سعود في عام 1932 رسمياً ما نسميه أنا وأدهم، مثل الكثيرين، KSA، أو المملكة العربية السعودية. يتذكر هذا الكيان الحديث الهمجية في جذوره تماماً ولا يخشى استخدامها أبداً، حتى في عصرنا هذا.

أتساءل أحياناً عما سيكون رأي زينب في تأثير الوهابية على داعش؟ كيف ستنظر إلى الأراضي المقفرة في سوريا والعراق وصلتهما بمنطق «نهاية الأيام»؟ يتعاش متوحشو داعش مع بعضهم، في حين يعتبرون كل شخص آخر مرشح للموت بالرماح والسيوف. فقد ذبحوا، متجاهلين الإسلام، «المرتدين» بشكل روتيني، بمن فيهم آلاف القرويين العزل، ولم يفكروا بأي شيء عند اغتصاب النساء وذبح الأطفال ونحر أعناق الأسرى الذكور بشكل روتيني أو قطع رؤوسهم حتى. التقطت كاميراتهم كل شيء بكفاءة. في أواخر العشرينيات من القرن الماضي، كان عبد العزيز آل سعود أو ابن سعود (ليس السعودي الذي أبرم الميثاق الوهابي) مفتوناً مثل أسرة كراولي في مسلسل داونتون بالهواتف،

والتلغراف، والسيارات، والسجائر والغرامافون. قال الإخوان المتجولون التابعون له إن أي شيء حديث (لم يستخدم في القرن السابع) كان بدعة، ابتكار هرطقي، وأعلنوا الحرب عليه. هزمهم أخيراً في عام 1930، لكنهم لم يرحلوا أبداً.

دعا ابن سعود علماءه الأوائل إلى القول بأن «الجهاد المسلح» غير إسلامي. وأصبحت بقية أيديولوجية وهاب شريعة السعودية. لكن، من الواضح أن هذا الموقف الرسمي لم يمارس قط. وبعد عام 1979، أعطت الحكومات الغربية، بما فيها الولايات المتحدة، بسبب خوفها من إيران الشيعية الثورية مثل آل سعود، مباركتها للمشروع السعودي المتمثل في إضفاء الطابع الوهابي على الكوكب.

سألت زينب عما تشعر حيال علم الانتشار الوهابي هذا.

قالت بحكمة: «دمر الإسلام نفسه».

لقد مرت سنوات منذ أن رأينا بعضنا.

قال صبي صغير: «أنا أبحث عن القمر»، «أرسلني والدي لأجده».

كنت جاثياً على أحد الأسطح في مدينة دلهي القديمة العشوائية، فوق شبكة الأسلاك المتشابكة التي كانت قادرة بأعجوبة على إيصال الكهرباء المتقطعة إلى المنازل المحيطة. كان شتاء 2012 وكنت آنذاك حاج. ملئت الاحتفالات الأجواء. سميت تلك الليلة *Chand Raat* («ليلة القمر»). طهى أصحاب المتاجر الميثاي (حلويات). وكانت السيفايان (نودلز شعبية حلوة محمصة) هي المفضلة لدي. وضعت النساء الحناء وارتدى الجميع ملابس جديدة. كان رمضان على وشك الانتهاء. وكنت قد صمت شهراً كاملاً من شروق الشمس حتى غروبها مثل الملايين من رفاقي المسلمين الهنود وبدأت رحلتي المتجددة بإيمان وقوة. انضمت إلى عشرات الآلاف من المتضرعين في المسجد الجامع في نيودلهي مرتدياً كورتا (غلالة) أعطتني إياها والدتي. قبل عام واحد فقط كنت قد انخرطت في نشاط سعودي عقيم.

بحثنا في تلك الليلة عن جزء من القمر يسمى هلال الذي يدل على نهاية شهر رمضان ويؤكد للمؤمنين أن صلواتهم قد استُجبت. انتظرنا رجل الدين الأعلى في دلهي ليعلن رؤية الهلال بواسطة مكبرات الصوت العديدة. غالباً ما يذكر سكان جنوب آسيا، لدواعي طائفية، مثل قنواتهم التلفزيونية،

أوقاتاً مختلفة لظهور القمر. سادت صرخات الفرخ والمفرقات النارية عندما أعلنت الرؤية. أفترض أن مسلمي القرن السابع لم يكونوا على دراية بالمناطق الزمنية. لكن صدر الإعلان في النهاية. كان عيد الفطر غداً.

تهوت بسبب الرائحة الكريهة التي تغلغت في مقصورتي من الدرجة الثانية في القطار المتجه إلى سهارنبور. أعادت هذه الرائحة الكريهة ذكريات الطفولة المزعجة. حجزت في فندق أتلانتس المتهاك، والذي كان بعيداً كل البعد عن كونه ابن العم الألف لأخته اللامعة في دبي. لقد مرح طاقم عمل ربات البيوت الحقيقيات في بيفرلي هيلز وتشاجروا في رفاهية محدثي النعمة في الأخير. في حين رحب بي هذا الشخص بصراصير يندفعون حول ما أطلق عليه الموظف في اللغة الإنجليزية «suit» بدلاً من «suite».

في صباح اليوم التالي، تحدثت مع رجل دين محلي في مسجد طفولتي عن نواياي في سهارنبور.

قلت: «هذه مسألة معقدة»، متجراً على التوضيح أنني حجبت مع حجاج شيعة وأن مذهبهم ترك مسألة طريقة ذبح الماعز مفتوحة أمام الفرد. لم أكن متأكداً مما تقول المذاهب السنية المتنوعة بشأن هذه القضية.

وشرحت: «لقد نفدت الماعز لديهم». لم أتمكن من إكمال طقس الحج الأخير. فقد قال قائد مجموعتنا الشيعية إنه فعل ذلك نيابةً عنا. لا أدري إذا كانت هذه مسألة فقهية.

أمسك رجل الدين الصغير شحمة أذنه مقلداً عقوبة تلميذ المدرسة. ففي الهند، كان يطلب من الأطفال العصاة أن يشدوا شحمة أذنهم. إن ذلك يبرح من الألم بعد فترة، ويستخدم كشكل شائع من أشكال العقاب البدني والإذلال العلني.

صاح «أستغفر الله!». التي تعني عادةً «سامحني يا الله»، ولكن أمكنني فهمها بشكل أفضل على أنها انفجار بمعنى «يا إلهي!» كان رجل الدين الميلودرامي يعبر عن صدمته لأنني تجرأت على

السفر مع الشيعة. اندفع إلى غرفة أخرى واسترجع كومة من الكتب. وقال: «هناك آراء دينية كثيرة في هذا الأمر».

قاطعته «أخبرني فقط إن كنت أستطيع تقديم قرباني بعد انتهاء الحج».

استشعر المال، فقد كان الملا متلهفًا إلى الإرضاء.

فقال: «إن كانت لديك الوسائل، يمكنك ذلك»، «ودعني أحذرك - هناك الكثير من الفقه الذي يبطل حجك لأنك ذهبت مع الشيعة المرتدين».

لما نهضت لمغادرة مسجده، تركني رجل الدين مع سؤال أخير: «لكن هلا حرصت على توزيع اللحم هنا في هذا الحي؟» أوامُت وعانقته مرتين، كما يفعل الكثير من المسلمين الهنود عندما يودعون عضوًا من نفس الجنس، ودسست 3,000 روبية في يديه.

تجولت في شوارع سهارنبور. كانت شوارع عارٍ بالنسبة لي. لن تغفر لي والدتي لكوني مثلي الجنس. بحثت في جميع شوارع سوق الأخشاب، ثم رأيته: محل الجزار الحلال من طفولتي. لم أصدق أن نفس الرجل ما يزال يدير أعمال العائلة. تروي تجاعيده قصة حياة صعبة.

سألته «هل تتذكرني؟».

قال: «نعم». «لطالما قطعت اللحم لعائلتك في العيد».

«أريد قربانًا».

«هل تقصد أنك تريدني القيام بذلك نيابة عنك؟»

لم أشرح الظروف التي أوصلتني إلى متجره. «يجب أن استعمل يدي، لكنني أريدك أن تكون موجودًا لإنهاء المهمة. من فضلك لا تسأل الكثير من الأسئلة». ناولته 10,000 روبية، وهو مبلغ من شأنه أن يغطي تكلفة التضحية ويخدم أي فضول قد يلهمه للتحديث معي. فقد ربطت هذا الرجل بماضي الذي اتسم بالحكم وما هو أسوأ.



«ما رأيك في الساعة الحادية عشرة صباح الغد؟ أتمنى أن تكون زوجتك وأطفالك بخيرا!» فقد كان غير معقولاً بالنسبة لهذا الرجل أن أكون قد بلغت سن الرشد دون أن أتزوج وأتكاثر، كما يجب على كل المسلمين الطيبين.

إن نتانة الموت اليومي خاصة. ففي الغرب، تخفى الرائحة الناتجة عن ذبح الحيوانات بعيداً بشكل ملائم. أمّا هنا في الهند، ينتشر الموت بجميع أشكاله في العراء. وتتنافس المسالخ مع جميع الأعمال التجارية الأخرى على المساحة، لذا لا يبتعد المرء أبداً عن رائحته الفريدة. قابلت الجزار في الساعة المحددة في صباح اليوم التالي. ثم اشترينا معاً ماعز من سوق قريب. وكلما اقتربنا من الفصل الأخير، ابتليت أكثر بصراع داخلي. فمن ناحية، خشيت التجربة. إذ لم أنفذ مطلقاً عملاً عنيفاً في حياتي. كان مشهد الذبح مألوفاً بالنسبة لي، لكنني أبقيت دائماً على مسافة آمنة. لم يسبق لي أن زهقت حياة حيوان بيدي. ومن ناحية أخرى، تقّنت بشدة إلى التنفيس الذي آملت أن يتبع التضحية. فقد غادرت المملكة العربية السعودية وأنا أشعر أن حجي لم يكتمل. لقد اختبر إيماني بشدة هناك، وبعد أن ضيعت فرصة التضحية، شعرت بالحرمان. لكنني صنعت بقوة إرادتي سيناريو قد يمكّنني من إيجاد كفارة.

حدقت في الماعز التي سميتها إسماعيل، ممسكاً السكين في يدي. في طفولتي، تشكل تصوري لقصة تضحية إبراهيم بابنه إسماعيل عن طريق علاقتي الهشة مع والدي. فقد كنا متباعدين عاطفياً في اتجاهين مختلفين. بدت لي فكرة أن إبراهيم كان مستعداً وراغباً تماماً في التضحية بابنه تصويراً حقيقياً لعلاقة الأب والابن. وشعرت عندما كنت صبيّاً، أنه لو أُتيحت الفرصة لوالدي، فلن يتردد هو أيضاً في وضعي على المذبح. هل سأجد الخلاص في اللحظة الأخيرة كإسماعيل؟

لم يكن هناك خلاص لهذا الحيوان المتخبط.

قلت: «بسم الله» حاملاً النصل إلى حلق الماعز. وجاهدت لتمزيق الجلد.

قال الجزار: «اضغط بقوة أكبر». كان الهدف هو قطع الوريد الوداجي والشریان السباتي والقصبه الهوائية بتمريرة واحدة نظيفة. لقد نُظِم كل جانب من جوانب الإسلام بعناية. استجمعت كل انضباطي للتأكد من أنني أدت الطقوس المروعة بشكل صحيح.

ولما تم الأمر، تشبثت بالحيوان النافق. كانت ملابسي مزرجة بالدماء. وتسابقت أفكاري. هل فعلت ذلك بشكل صحيح؟ هل أنعم عليّ بالخلاص؟ هل أغفلت أية تضرعات؟ هل ستوافق والدتي؟ ماذا سيعتقد والدي؟ كانت النهاية التي جلبها ذلك غير مألوفة. هل قتلت طفولتي أيضاً مع هذا الحيوان؟

تلوت السورة الأولى من القرآن، التي لطالما طمأنتني. لكن ليس تلك المرة. شعرت أنني قاتل. سقطت على الأرض في وضع جنيني واستلقيت هناك لما بدا أنه ساعات. لم أشعر قط بمثل هذه النجاسة. لن يوافق كثير من المسلمين على ما فعلته لاحقاً. صعدت، مغطى بالدماء، إلى السطح وأديت الصلاة مع ركعات إضافية. كانت صلاتي خاطئة في الوقت الخطأ، وكل ذلك وأنا مغطى بدم الحيوان، وبالتالي غير طاهر. كانت الصلاة في الإسلام دوماً أداءً - نوعاً يستخدم لغرس الانضباط والانسحاب إلى الروحانيات. إنها طقسية للغاية، وهي تشبه اليوغا في الديانة الهندوسية تقريباً.

عندما كنت طفلاً، استخدمت آية الكرسي المستفيضة جداً من القرآن لتريحني في النوم، ولم تفشل في ذلك أبداً. لكنني لم أعلم معناها حتى كبرت. إن هذه الآية أشهر الآيات قرآنية في العالم على الأرجح، وتستخدم في مناسبات لا تحصى، كانت إحداها تهدئي في النوم. لطالما رأيتها منقوشة في جميع أنواع المعلقة الجدارية، والحرير، والمخمل وغير ذلك. واستخدمت أنماط لا تحصى من الخط العربي، كما يظهر في تاج محل، لهذه الآية أيضاً.

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ»

كانت ما تزال تنفع في تلك الليلة من عام 2012، أفضل من أي حبة منوم.

عدت إلى الهند مرة أخرى. كان ذلك في أواخر يناير 2014. جلست على شرفة منزل غولف لينكس الفخم لأحد الشخصيات الاجتماعية البارزة في دلهي. كنت أزور ضيفها الصحفي الباكستاني المشهور غالب كيدواي. الذي كان قد دخل لتوه لـ«طلب» المزيد من الشاي. كنت في الهند، أحرر الفيلم الذي سيصبح آثم في مكة عند صدوره في عام 2015. لم تكن دلهي قد تحولت بعد إلى حفرة جهنم بدرجة

حرارة 50 مئوية. وكان أواخر يناير ما يزال لطيفاً كفايةً للجلوس في الخارج. عرفنا أنا وغالب بعضنا البعض لسنوات عديدة منذ أن عملت كمراسل مبتدئ. لقد كان دائماً أذني في باكستان، الدولة التي لم أحصل على تأشيرة دخول إليها إلا مرة واحدة. إذ يكاد يكون مستحيلًا على الهنود والباكستانيين زيارة بلاد بعضهما. ومثل العديد من الهنود الشماليين، كانت لعائلتي صلات عميقة في باكستان والعكس صحيح. ودرس جدي أيضاً في كلية بارزة في لاهور.

عرف غالب، الملحد، الفيلم الذي كنت أحرره وكان قلقاً علي. تحدثنا عن تقرير نقدي للاتحاد الأوروبي لعام 2013 لم يحظ باهتمام إعلامي كبير. قال: «لم أحضر سوى هذه الصفحات؛ يصعب الحصول على تقارير كهذه كاملة». كان يعلم أنني قد أقتبس منه. لذا غيرت اسمه وانتمائته، مثل جميع من في هذا الكتاب. إذ يمكن أن تلحق المعرفة العامة بصدافتنا الطويلة ضرراً كبيراً به وبحياته المهنية – فقد كان اسمي سيئ السمعة في باكستان. كان غالب أول صديق باكستاني لي يكتشف أن فيلمي الأول يوجد في سوق أقراص الدي في دي المقرصنة في لاهور.

لقد تطلب منه الأمر بعض التحريات الصحفية للعثور على هذه الاقتباسات من تقرير الاتحاد الأوروبي. يبدو أن هذا الكيان المسبوت عادةً الذي يدفع لبيروقراطيه رواتب ضخمة للغاية لصنع أميال من عروض الباوربوينت التقديمية قد فعل شيئاً مفيداً؟ فتشت في صفحاته المملة. حاول شرح شبكة التمويل العالمية باستخدام مبادئ الزكاة والدعوة الإسلامية. لقد بدأت في السبعينيات مع ازدهار النفط السعودي الذي جعل أسرة أسامة ثرية لدرجة تفوق الوصف. إذ يوجد مليارديرات مثل ابن سعود وابن لادن في كل مكان. غدت هذه الأموال القاعدة وغيرها الكثير من الأعمال التخريبية. لقد استيقظ هؤلاء البيروقراطيون أخيراً في وظائفهم المكتبية الآمنة والمستمرة ظاهرياً، على حقيقة عرفها المسلمون منذ عقود.

كتب في الصفحة 74 المنسوخة من تقرير الاتحاد الأوروبي: إن الجماعات الوهابية و/أو السلفية (اعتماداً على الطريقة التي تريد تسميتهما - إنهما نفس الشيء بالنسبة لي) المتمركزة في الشرق الأوسط، شاركت من كذب في «دعم وتوريد الأسلحة للجماعات المتمردة في جميع أنحاء العالم». كان يمكن أن يخبرك أي عائد من الخليج إلى باكستان في الثمانينيات بذلك. لقد عرفنا ذلك منذ سنوات

ولكن كان هذا دليلاً على أن آل سعود ورجال دينهم الوهابيين لهم صلات مباشرة بالإرهاب. وحذر من أنه «لا يوجد بلد في العالم الإسلامي بمأمن من عملياتهم . . . لأنهم هدفوا دائماً إلى ترويع خصومهم وإثارة إعجاب مؤيديهم». عاد حينها غالب بمزيد من الشاي.

قلت: «يا إلهي». «هل تعتقد أن بيت أوباما الأبيض يعلم؟»

قال: «ماذا تظن؟»

وقال إن بعض وسائل الإعلام المطبوعة باللغة الإنجليزية في باكستان قد كتبت عن ذلك في عام 2013 - لأن ساحاتها الخلفية في البنجاب الباكستانية ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية الجامعة كانت موبوءة بهذا الإرهاب. لكن لماذا صمت النقاد التلفزيونيين وبيت أوباما الأبيض عن هذا الاكتشاف الجديد الحاسم؟ لقد مات ابن لادن، لكن ما زالت القاعدة موجودة، وهكذا حصل داعش وبقايا القاعدة على معظم أموالهم. سرعان ما علم موظفو الاتحاد الأوروبي أن «التطرف» كان يحدث تحت أنوفهم تماماً في بروكسل، على بعد بضع محطات مترو فقط. لكن كان هناك بلاء أكبر وجب عليّ أنا وغالب مناقشته.

قلت لغالب: «حتى طالب السنة الثانية في متخصص بالعلوم السياسية يمكنه إخبار الاتحاد الأوروبي بأن أكبر مثال على ذلك تجسد فعلاً في دعم الولايات المتحدة والسعودية للجهاد الأفغاني المبكر ضد السوفييت - وهي الظاهرة التي أوجدت القاعدة».

«الأمر بسيط يا بارفيز. إن الزكاة التي تغذي المسلحين وتبني الأمة يمكن أن تتم عبر الإنترنت الآن».

قلت وأنا أحتسي الشاي: «مثل بايبال للزكاة والجهاد»

هل درس الفتية في الندوة وديوبند الفلسفة التي كانت حجر الأساس لطالبان والقاعدة وجهاديي سراييفو وغيرهم؟ هل شاهدوا فيديوهات داعش لقطع الرؤوس؟ لقد نشأت مع جمعيات خيرية مثل هذه بهيئة طبيعية.

كانوا يظهرون على عتبة بابنا عند اقتراب شهر رمضان. ويقولون: «حتى أصغر زكاة فرض لأن الله شاء ذلك». ولطالما دفعنا لهم.

ذهب تقرير الاتحاد الأوروبي إلى أبعد من ذلك. إذ قدر المؤلفون أن المملكة العربية السعودية وحدها أنفقت أكثر من 10 مليارات دولار للترويج للوهابية عن طريق المؤسسات الخيرية السعودية. كانت دولة قطر الصغيرة والفائقة الثراء، والمعروفة أساسًا بإنشائها قناة الجزيرة، أحدث مشارك في اللعبة، إذ دعمت الامتيازات المسلحة من ليبيا إلى سوريا.

كان لدى غالب المزيّد ليخبرني به. قال إنهم يعرفون ذلك منذ سنوات حكم بوش. فقد أصدرت وزارة خارجية بوش تقريرًا بشأن ذلك في عام 2006.

قلت ضاحكًا: «ربما اختفى في بعض سراديب قبو مبنى هاري ترومان في العاصمة».

أخبرني غالب أن تقرير عام 2006 ذكر بوضوح أن المتبرعين السعوديين والجمعيات الخيرية غير المنظمة كانت مصدرًا رئيسيًا لتمويل الجماعات المتطرفة والإرهابية على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية. ولطالما كان الرئيس الثالث والأربعين بوش، كما هو الحال مع إدارة والده، في الفراش مع السعوديين. فقد كان تعطش أمريكا للنفط لا يروى. لذا لم تجرؤ الولايات المتحدة على عرض تقرير الدولة للعموم مطولاً، آملّة أن يختفي. وهذا ما حصل.

امتد شاي الظهيرة في دلهي ذاك حتى العشاء. لفت غالب انتباهي إلى ما يجري في البنجاب الباكستانية. تذكرت من سنوات عملي كمراسل مجموعات مثل الخدمات وجماعة الدعوة وجيش محمد التي لها أقدام في كل من الهند وباكستان. وفي كل مرة تعلن فيها الحكومة الهندية جماعةً كجيش إرهابي، تظهر جماعة جديدة.

توقعت أنا وغالب أنه يوجد الآن الآلاف حرفيًا من هذه المجموعات، الكبيرة والصغيرة، من جميع أنحاء البلدان والمجتمعات الإسلامية مثل مالي، والصومال، وسوريا، وأفغانستان، وباكستان، والهند، وإندونيسيا وغيرها. ماذا فعلوا؟ أخذوا مسلمين من تقاليد متنوعة في الإسلام ومعتدلة بشكل استثنائي، مثل الإسلام الغني بالصوفية في جنوب آسيا، وأتوا بالأئمة الوهابيين ليدعوهم إلى التعصب.

لم أشرب كحولاً بعد الحج، لذا طلبت المزيد من الشاي بينما كان غالب يستمتع بمشروبه المفضل بلاك لايبيل.

«تعد باكستان في النهاية دولة فاشلة؟ ولهذا تمكن أسامة من الاختباء هناك لسنوات، بالقرب مدرسة الجيش العامة الداخلية التي التحقت بها؟»

قال غالب: «لا يمكنك الإدلاء بمثل هذا البيان الموسع. أنت تحب التفاصيل، يجب أن تكون أعقل». لقد كان محقاً. لقد اعتبر الكثيرون في جناح اليمين في الهندوتفا الهندية باكستان دولة فاشلة ولم أرغب في مشاركة خطابهم.

جعل أسامة باكستان إحدى أهم محطات الإرهاب الإسلامي العالمي. لقد كانت، حسب رأيي، في حالة حرب أهلية منذ نشأتها بعد اقتطاعها مما كان يُعرف بالهند الخاضعة للحكم البريطاني، جوهرة التاج. وجدير بالذكر أن هذه الحرب قد تخللتها سنوات من الديمقراطية. فقد منحت باكستان العالم رئيسة منتخبة ديمقراطياً لدولة مسلمة تمثلت في بينظير بوتو. ومن المهم أيضاً الاعتراف بأن بنغلاديش، التي دعت باكستان الشرقية حتى عام 1971، كانت دائماً دولة ديمقراطية إسلامية، وحكمتها امرأتان بالتناوب، البيغوم خالدة ضياء والشيخة حسينة واجد، والأخيرة هي رئيسة الدولة الوحيدة الحية التي امتلكت لقب شيخة واستخدمته. لم يكن الإسلام غير متوافق مع الديمقراطية، كما أحب ابن لادن ونظرائه اليمينيون في الولايات المتحدة أن ينتشر بعنف. لم يتناول الكثيرون التعددية الإسلامية التي سمحت بديمقراطية تقودها النساء ليس مرة واحدة فحسب، بل عدة مرات. وهذا السقف الزجاجي الذي عجزت حتى أمريكا عن تحطيمه، هدمته الديمقراطيات الإسلامية إلى الأبد. نعم، يمكن للمرأة المسلمة أن تكون، وقد كانت، رئيسة دولة وتديرها. ولا، الإسلام ليس غريباً على الديمقراطية ولا يتعارض معها، كما قال لي منتج وثائقي مغرور في البي بي سي بتعالٍ أمام لجنة في أحد المهرجانات السينمائية.

استطردت، وأخبرت غالب عن الفترة التي أمضيتها في دكا قبل بضع سنوات. دعيت لتناول الكوكيتيلات في منزل عائلة «صناعية عملاقة» أصبحت ثرية نتيجة معاناة أيدي البنغلاديشيين شديدي الفقر الذين عملوا عندهم في مصانع الملابس المستغلة للعمال. كنا في قصر في حي غني يسمى

غولشان. ارتدت النساء اللواتي يقطنن ماساً الساري الشهير في المنطقة. اعتزت والدتي المحتضرة باثنين امتلكتهما، عندما كنا نعيش في كلكتا فيما كان قبل عام 1947 ولاية البنغال الهندية بأطرافها الشرقية. التي وقعت ولاية البنجاب على طرفها الغربي. قسم البريطانيون الدولتين، وذبح الملايين باسم الدين. أصبحت لاهور عاصمة البنجاب الباكستانية وشانديغار عاصمة البنجاب الهندية. وبالمثل، أصبحت كلكتا عاصمة ولاية البنغال الغربية الهندية ودكا عاصمة ما سمي باكستان الشرقية. وفي عام 1971، تحت قيادة إنديرا غاندي، رئيسة وزراء أخرى من شبه القارة الهندية، مكّنت الهند من اندلاع حرب أهلية حررت شرق باكستان وأنشأت بنغلاديش. فخرت بنغلاديش للغاية بإنشائها - اندلعت الحرب حول اللغة من بين أمور أخرى. فقد فرضت باكستان الغربية اللغة الأردية على باكستان الشرقية، بينما كانت البنغالية هي لغة شعبهم الحقيقية.

في تلك الليلة، دخت النساء في هذا القصر وشربن بوفرة كالرجال. شاركتني إحداهن، التي أشيع عن علاقتها بدبلوماسي أمريكي، سيجارة وفزعت لأنني كنت أعيش في حي شانتي ناغار (حي السلام) الذي تقطنه الطبقة المتوسطة الدنيا في فندق يُدعى على نحو مثير للسخرية البيت الأبيض.

«أنا سعيدة أن غولشان قريبة جداً من المطار»، قالت مقرقرة. «لم أزر مثل هذه المناطق قط. إنها ليست آمنة. أنا متأكدة من أنه يمكننا أن نجد لك إقامة لطيفة في النادي أو في فندق آخر هنا». على عكس بومباي وكيب تاون، حيث كانت مدن الصفيح أقرب إلى المطارات، جعلت جغرافية دكا غولشان الأقرب إليه. ربما لم تغادر طيف شانيل رقم 5 التي وقفت أمامي غولشان لرؤية بنغلاديش الحقيقية أبداً، إحدى أفقر دول العالم. وكل ما احتاجته هو التنقل في سيارة بسائق في هذا الجزء من المدينة ثم الهروب إلى أوروبا من المطار القريب.

اقترب مني رجل مسن ذو مظهر مثقف يسألني عن نوع الفيلم الذي كنت أصنعه. لم أجروء على إخباره. فغيرت الموضوع وسمحت له بالانطلاق فيما بدا وكأنه فكرة نادرة: «هل رأيت كيف دمر إسلام طالبان هذا البلد؟ أتمنى لو لم تنفصل عن الهند أبداً».

لقد فوجئت، لكنه كان شعوراً يشاركه فيه جدي غالباً. كان تأثير طالبان يتزايد في بنغلاديش، وبالتالي تأثير الديوبندية، الفلسفة. وضعت النساء في هذا الحفل البيندي بفخر، وهو جزء من التراث

الثقافي الذي تشاركوه مع البنغال الهندوس من الجانب الهندي. لكن بدأت حروب ضد البيندي. وثار ضده الشيوخ والأئمة في مسجد بعد مسجد قائلين إنه رمز للشرك الذي يمارسه الهندوس، ولا ينبغي أن تلبسه المرأة المسلمة. ما تزال بعض النساء المسلمات البنغلاديشيات يضعن البيندي على جباههن، ولكن لم تضعه أية من الرئيستين المتناوبتين في رئاسة الوزراء. بالنسبة للمرأة الهندوسية، استخدم البيندي أحياناً كدلالة دينية على الزواج، لكنه استخدم غالباً لزيادة الجمال فحسب، وبهذه الطريقة استخدمته النساء البنغاليات في هذا البلد.

قال لي غالب في ذلك اليوم من عام 2014: «لاهور ودلهي هكذا أيضاً، يا بارفيز». كنت أعرف أن الفقر المدقع يعيش بجوار الإسراف والترف في منطقتنا هذه من العالم، لكنني خالفته. «بالله عليك يا غالب. دلهي ليست كذلك - فهذه هي أكبر ديمقراطية في العالم. وفي المرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى لاهور، لم يكن الأمر كذلك».

ضحك، «لا تلقي أكبر شهادة بكالوريوس ديمقراطية في العالم عليّ، يا صديقي»، لكنني علمت أنه جاد. بالنسبة للباكستانيين، كانت الديمقراطية الهندية دائماً موضوعاً مؤلماً.

لقد عانت باكستان أسوأ أنواع التلقين الوهابي وتثبت ندوبها ذلك. في أواخر السبعينيات، أدخل الديكتاتور الباكستاني ضياء الحق، حليف الولايات المتحدة، المنطق الوهابي في مراسيم حدوده حتى يجعل باكستان متوافقة مع الشريعة الإسلامية. غمرت السعادة السعوديون، ونظرت الولايات المتحدة في الاتجاه المعاكس.

قضى غالب سنوات مراهقته في زمن ضياء. لقد رأى بلاده تتغير بين عشية وضحاها تقريباً مع ولادة هذه المراسيم الشائنة. وفجأة أصبح رجم النساء حتى الموت مقبولاً؟ من تمثل باكستان هذه؟ جرى تأسيس نظام قائم على الشريعة مواز لقانون العقوبات، كان أشبه بسيرك. أراد ضياء الحق الواهم تغيير سبب وجود باكستان نفسها. ففي مخيلته خلقت باكستان لتكون دولة إسلامية. لكنه غفل عن حقيقة أن مؤسس أمته المشهور بتعاطي الكحول محمد علي جناح كان ميّالاً إلى الديمقراطية والعلمانية؛ والأسوأ أنه كان شيعياً! في فبراير 1948، خاطب جناح «شعب الولايات المتحدة» في الإذاعة، إذ قال:



لا أعرف كيف سيغدو الشكل النهائي للدستور، لكنني متأكد من كونه ديمقراطي النوع، يجسد المبادئ الأساسية للإسلام. إن هذه المبادئ قابلة للتطبيق اليوم في الحياة الواقعية كما كانت قبل 1300 عام. لقد علّمنا الإسلام ومثاليته الديمقراطية.

الإسلام يعلم الديمقراطية؟ لقد عنى ما قاله فعلاً لأنه علم أن تحقيقه ممكن.

ضياء، من ناحية أخرى، كان دكتاتوراً سفاحاً، حكم على ذو الفقار علي بوتو، رئيس الوزراء الشعبي المنتخب ديمقراطياً، ووالد بينظير بوتو وصاحب الميول السوفيتية، بالإعدام شنقاً.

قال غالب، مؤيداً الرأي العام، «يستحيل ألا يكون لوكالة المخابرات المركزية والولايات المتحدة يد في ذلك». بعد تصفيته بوتو، كان نظام المصطفى (حرفياً، «حكم النبي») أحدث حماقات ضياء.

«ولكن نبي من؟» سألت غالب.

قال: «كان ضياء شريكاً مثالياً للآلة السعودية الوهابية».

«انظر إلى الأمر بهذه الطريقة، بارفيز. حتى عام 2006 أمكنك رجم امرأة حتى الموت بتهمة الزنا في شوارع لاهور أو كراتشي». استوجب الزنا العقاب بالطريقة الوهابية. وكان مغتصبو النساء يتجولون بحرية بينما تقبعن الضحايا في السجن. لطالما حسبت المسلمين الباكستانيين المشاغبين ذوي الألباب أفضل من السعوديين. أخبرت غالب عن بشير «القاتل بدعوى الشرف»، والذي التقيته في أثناء الحج.

قلت لغالب: «الحمد لله على اسمي»، في إشارة إلى الحاكم العسكري لباكستان، الجنرال بارفيز مشرف، الذي صدر في عهده مشروع قانون حماية المرأة عام 2006؛ قانون مدني صارم جعل الاغتصاب جريمة يُعاقب عليها. لكن باكستان كانت جنة التلقين العقائدي الوهابي وعليه استمر وجود محكمة الشريعة الفيدرالية - يجب أن تكون القوانين المدنية «متوافقة مع الشريعة». ربما شكّل وجود أشرف جيهان بصفة قاضية بين قضاة هذه المحكمة الثمانية علامة على التقدم.

«هذا جيد لها. أنا ممتن»، قال ساخراً بينما ناقشنا هذا النظام القانوني الغريب.

كان الإسلام السياسي والهوية الباكستانية في طور الاندماج. يُحسب لباكستان أنها طبقت، خارج فترات الحكم العسكري، ديمقراطيةً فعالة ذات امتيازات مدنية حقيقية، وإن كان هذا لفترات وجيزة. الإسلام ليس كارهاً للديمقراطية. وتمكنت كل من باكستان وبنغلاديش وتركيا وإندونيسيا وماليزيا من إثبات ذلك بطرائقها الخاصة. دون نسيان إلقاء ثالث أكبر عدد من المسلمين في العالم بأصواتهم في أكبر ديمقراطية في العالم (الهند).

سألت غالب عن استمرار التجنيد التقليدي حتى الآن.

«لما عساه أن يتوقف أساساً؟»، أجاب. زاد تأكدي من نظريتي المتنامية منذ الندوة.

كنا نتحدث عن بلد عانى فقراً مزمنًا. وفقًا لـ «مؤشر التنمية البشرية» لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام 2013، احتلت باكستان المرتبة 146 من أصل 187 دولة. جرى تطوير المؤشر استناداً إلى عوامل متوسط العمر المتوقع ومحو الأمية والتعليم ومستويات المعيشة.

كما هو الحال في الهند وبنغلاديش، يؤلف فقراء الريف ثلثي البلاد. كانت باكستان ثاني أكبر دولة إسلامية في العالم، ونحو 70% من سكانها فقراء؟ كانت الإحصائيات غنيةً عن البيان. مثّلت الأمية والفقر والبطالة الأعراف السائدة لمسلمي جنوب آسيا الذين يشكلون غالبية المسلمين على هذا الكوكب.

«لا أستطيع أن أخبرك بمدى غضبي تجاه حفنة من محلي القنوات التلفزيونية المسلمين الذين لا يملكون أدنى فكرة عما يتعاملون معه»، قلت لغالب. «يتفوهون بالمصطلح الوحيد الذي تعلموه - الاجتهاد. حتى أن العديد من هؤلاء البلهاء زعموا أن الثورة المصرية الفاشلة كانت محض ظاهرةً على وسائل التواصل الاجتماعي».

حاولنا ربط الأمور بين السعوديين وأسامة القاتل وداعش. لن يعترف آل سعود بذلك أبدًا، لكنهم أسسوا شبكة عالمية غامضة ومعقدة من الحسابات المصرفية مع صلات بجمعيات خيرية إسلامية، تملك بدورها صلات بالإرهابيين. ما بعد 11 سبتمبر، برأ نجل عائلة بن لادن، بكر، عشيرته الكبيرة من أي مسؤولية لأنهم نبذوا أسامة وقطعوا جميع الروابط المالية معه. ربما يكون أسامة قد سحب حصته من أرباح بن لادن السنوية (ملايين) قبل سنوات من فراره من السودان. كان الوضع كوميدياً. بعد 11

سبتمبر، اجتاحت بن لادن وآل سعود جنيف في محاولة لإنقاذ أموالهم. وفي عام 1994، سحبت السعودية على مضض جنسيته السعودية. أمكنهم إخراج أسامة من المملكة العربية السعودية، لكنهم لم يتمكنوا من إخراج السعودي من أسامة. بعد أيام من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، سمح البيت الأبيض في عهد جورج دبليو. بوش بالإخلاء السري لأربعة وعشرين فرداً بارزاً من عائلة بن لادن كانوا موجودين على الأراضي الأمريكية، ومنخرطين في أنشطة تنوعت بين الأوساط الأكاديمية والعقارات وممارسة الضغط في أروقة الكابيتول وصولاً إلى التسوق في روديو درايف أو الجادة الخامسة. علماً أن هذا حدث في فترة ظل فيها ملايين المدنيين غير قادرين على السفر جواً. يُزعم أن الملك فهد المحموم اتصل بسفارته في العاصمة قائلاً إن «أطفال بن لادن موجودون في جميع أنحاء أمريكا». من المنطقي افتراض أن مكالمات هاتفية بين الملك السعودي وجورج دبليو. بوش جعلت إجلاء عائلة بن لادن بأكملها ممكناً. لم تكن العائلة غريبة عن أمريكا، بل كانوا في الواقع أصدقاء لبوش والبيت الأبيض.

بعد الحادي عشر من سبتمبر، قام بوش بزيارتين للسعودية، كانتا أشبه بطقوس إلزامية شبه مهينة تتذلل فيها الرئاسة الأمريكية عند أقدام الملك عبد الله. ضاعف أوباما هذا الرقم وجعلها أربع زيارات. ولا تتوقف السخافات هنا: هذا البلد الذي لا حقوق إنسان فيه أصبح عضواً في مجلس حقوق الإنسان المتناقل التابع للأمم المتحدة. كما لو أن هذا لم يكن كافياً، في عام 2017، ضم أكثر المجتمعات كرهاً للمرأة على هذا الكوكب، والذي يعامل نسائه مثلما تعامل المتاع، إلى لجنة حقوق المرأة التابعة للأمم المتحدة. لا يمكن أن يكون نفاق الأمم المتحدة أوضح.

وفي أقل من عام، سيرحب دونالد ترامب، الذي كان انتخابه أساساً محل نزاع، بالرجل الذي أدار المملكة العربية السعودية فعلياً، ولي ولي العهد الأمير سلمان، في المكتب البيضاوي - وكلاهما عضو في نادي أخطر قادة العالم. بعد أسابيع، خلال رحلته الأولى خارج البلاد، هبط ترامب في الرياض ليحصل على حصته من التذلل المألوف للملك سلمان العاجز حينها والبالغ من العمر واحداً وثمانين عاماً. جسّد اللقاء «إعادة ضبط» مروعة لهذه العلاقة الطفيلية، التي تجمدت مع نهاية ولاية أوباما الثانية.

علمت أنا وغالب عن الصفحات الثمانية والعشرين التي ذكرت صلات آل سعود وعائلة بن لادن بالقاعدة، وحُذفت من تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر حول التواطؤ (الحقيقي، على ما أعتقد) بين النظام الملكي وعائلة بن لادن مع القاعدة - كان السؤال يطارد رئاستين. لكن هذه الصفحات لم تحمل الكثير عندما رفع الكونغرس السرية أخيراً عنها عام 2016. المشكلة أن لولا الإسلام الوهابي السعودي (الذي تلقنه خمسة عشر شخصاً من الخاطفين) لما وُجد تنظيم القاعدة وأحداث 11 سبتمبر.

«أياً كان من يراقب نوع المواقع الإلكترونية التي أزورها في وكالة الأمن القومي في الولايات المتحدة أو حتى الحكومة هنا في الهند، فإنه يستمتع كثيراً. هذا على الأقل لقضية نبيلة»، قلت.

قال غالب: «لا تمزح في مثل هذه الأمور، فلها عواقب حقيقية». كان من شبه المؤكد أن المخابرات الباكستانية سيئة السمعة وضعت على قائمة المراقبة.

ناقشنا كيف أن الغالبية في مصر، البلد العربي الأكثر اكتظاظاً بالسكان مع 82 مليون نسمة، تعيش في فقر مدقع. كما هو الحال في جنوب آسيا، كان الأمر أشبه بوباء.

قلت: «الفقر يتناسب طردياً مع الأمية، التي في بعض الحالات تتناسب طردياً مع عدد المرات التي تصلي فيها أو تزور مسجداً». وافق غالب.

علمت أننا ورغم الماضي التوفيقي للهند، قابعون الآن في أكثر دول العالم رهابة للإسلام. أن تكون مسلماً في الهند شابه كونك شاباً أسوداً في أمريكا. فالمسلمون يملؤون السجون الهندية. والسقف الزجاجي فوق رؤوس المسلمين المتعلمين قد بُني على ارتفاع منخفض جداً. ومن المستحيل ظهور حركة «حياة المسلمين مهمة!» في الهند.

بالنسبة إلى العديد من المسلمين في العالم البالغ عددهم حوالي 1.7 مليار مسلم، لم تكن الهواتف الذكية جزءاً من واقعهم، وكان فيسبوك وتويتر وإنستغرام وريدت أشياء ربما سمع قليلون عنها حديثاً. افتقرت الغالبية إلى الوصول السهل إلى الويب، رغم رغبتهم بذلك. حمل معظم الناس هواتف نقالة عادية. فاق عددها عدد أجهزة آيفون وغالاكسي. حتى أن حصّة كبيرة من «تطرف» داعش انبثقت غالباً من أجهزة كمبيوتر محمولة من الجيل الثاني أو حتى الثالث استخدمها المسلمون

الأوروبيون. تجمع المسلمون في مدن باكستانية صغيرة مثل سيالكوت، على طول طرقها الإرهابية السريعة، بعيداً عن «ثروات» المسلمين في بروكسل، أو فيينا، أو باريس.

على أي حال، ما يزال التجنيد التقليدي طريقةً ناجعةً لداعش، كما كان مع القاعدة. دائماً على شفير الانهيار الاقتصادي، حضرت باكستان مع إناء الصدقة على أبواب السعوديين. رأى آل سعود «المحسنون دائماً» أن من واجبهم الزكوي مساعدة الدول الإسلامية الفقيرة. لذلك قدموا النقد والنفط دورياً إلى باكستان أو بنغلاديش. لكن لا وجود لوجبة غداء مجانية. جاء المال والنفط السعوديان مع الملاهي والمناهج الوهابية. حتى إيران انضمت إلى حفلة التبرعات، مدركةً أن شبه القارة الهندية تضم ثاني أكبر عدد من الشيعة في العالم. وعليه أرسلت الأموال الإيرانية مغلفةً في أيديولوجية شيعية متشددة.

لطالما ساعدني وضع الأشياء في سياق إحصائي. المسلمون ربع البشرية. ويعيش ستة من كل عشرة مسلمين في آسيا وليس في الدول العربية، التي، بما فيها دول شمال إفريقيا المنسية مثل الجزائر والمغرب، لا تضم سوى 20% من سكان العالم المسلمين. 10% إلى 13% من المسلمين شيعة و87% إلى 90% من المسلمين سنة. ومصر هي الدولة العربية الوحيدة التي تظهر على قائمة العشرة الأوائل في عدد السكان المسلمين. بحلول عام 2050، سوف تضم الهند أكبر عدد من المسلمين في العالم. ونعم، سوف يعيشون في دولة ذات أغلبية هندوسية. هل عوروبا تهديد حقيقي؟ عندما تصدق البيانات السخيفة مثل أن ألمانيا فيها مسلمون أكثر من لبنان، قد تصبح تهديداً. لكن عدد سكان لبنان الكلي أقل من 5 ملايين نسمة، 55% منهم فقط مسلمون، بينما ألمانيا وسكانها البالغ عددهم 81 مليون نسمة ضمت 4.8 مليون مسلم عام 2010. يعيش واحد من كل خمسة مسلمين في دولة غير مسلمة. والأهم هو أن ثلثي مسلمي العالم يعيشون في عشرة من أفقر دول العالم. أما الجزء الأصغر من هذه الأعداد المسلمة يسكن في أوروبا، حيث يؤمن قسم ضئيل منهم بالاندفاع بالشاحنات وسط حشود احتفالية في نيس أو برلين.

يعيش معظم الشيعة (بين 68% و80%) في أربعة بلدان: إيران وباكستان والهند والعراق. يقطن إيران 70 مليون شيعي. ويتوزع البقية بين الهند وباكستان والبحرين والعراق. تتشابه أعداد

الشيعة في الهند والعراق تقريبًا. علمًا أن شيعة إيران، يؤلفون 40% من شيعة العالم. ثم تأتي الهند مع ثاني أكبر عدد من الشيعة في العالم، بعد إيران. وفي المرتبة الثالثة توجد باكستان بعدد لا بأس به يُقدر بنحو 40 مليون؛ أهداف دائمة للوهابية الباكستانية العنيفة.

من المهم ملاحظة أن عدد الشيعة في الهند أكبر من عدد الشيعة في باكستان. وهذا يقود البعض إلى التنويه بالتنوع الموفق للإسلام - وهو احتمال إحصائي، والموجود برأيهم فقط في هذه الأمة ذات الأغلبية الهندوسية، وصاحبة أكبر ديمقراطية في العالم. وبالمقارنة، ستظل أغلبية سكان الولايات المتحدة من البيض حتى عام 2043 - ومن المثير للاهتمام، أنه العام الذي سيصبح فيه الإسلام الديانة الثانية في أيرلندا. باستخدام ما ورد آنفًا، يفترض «العقلانيون» المسلمون رؤية الإسلام سابقًا الغرب بعقود. لكنهم نسوا ذكر الطائفية الغادرة والتعصب والعنف بجانب هذا التنوع الإسلامي. إن معارضي الإسلام محقون بشأن أن المسيحيين واليهود لا يمكنهم الصلاة علانية في دول مثل المملكة العربية السعودية. لكن المسلمين في المقابل بإمكانهم التيقن من وجودهم تحت المراقبة في الهند وأوروبا والولايات المتحدة.

كان بحوزة غالب تقرير آخر عن الطائفية الإسلامية نوى عرضه في خطاب له في منظمة تسمى أي آي سي في نيودلهي حول بقايا عهد الراج الصدئة.

«أتمنى أن يدرك الناس أن أعظم عنف في العالم هو قتل المسلمين للمسلمين»، قلت لغالب. «أتمنى لو أجروا حساباتهم على النحو الواجب».

أجاب: «تفيض شوارع مدننا بوحشية الشيعة والسنة».

عثر العديد من المسلمين على جنتهم في المملكة العربية السعودية الغنية بالنفط في السبعينيات. إذ هرع الفقراء اليائسون إلى العمل، ووجدوا الكثير من الوظائف المتنوعة؛ سائقون وعمال بناء ومنظفو مراحيض. أمة بأكملها تعين بناؤها مع بنية تحتية حديثة بما فيها الطرق. لن يقوم السعوديون بهذا النوع من الأعمال المتواضعة - بل تركت لمكسيكي السعودية. انطلق فيضان الطفرة النفطية شرقًا من الهند وباكستان وبنغلاديش وجنوب شرق آسيا. بينما غربًا تدفق المصريون والسوريون والفلسطينيون. إذ أسسوا عائلات بأكملها وعادوا إلى ديارهم بصفة جنود مخلصين لابن وهاب. حيث غُلفت نسائهن

بالعباءات والبرقع، وأمكنهم تزويج بناتهن في سن البلوغ. كان هذا الإسلام إرثهم. في القرن الحادي والعشرين، تكررت جهود شبكة الجمعيات الخيرية الإسلامية ذات الجذور السعودية لإنقاذ باكستان. وكان الزلزال الهائل في 2005 وفيضانات العام الذي قُتل فيه أسامة أدلةً على ذلك.

قال غالب: «لم تذهب كل هذه الأموال للناجين». في الواقع، أُرسِل جزء كبير منها إلى الجماعات المتطرفة التي استهدفت الهند والغرب بدعم من الموساد الباكستاني، آر أو إيه (جناح البحث والتحليل).

في واقعة شهيرة، نسفت طالبان تمثالي بوذا باميان العائدين إلى القرنين الرابع والخامس بالديناميت قبل بضعة أشهر من تحول الغرب إلى هدف لإخوانهم في القاعدة. ليضيع إرث تاريخي لامحدود بأوامر من مضيف أسامة بن لادن ونصيره، الملا محمد عمر. والذي أعاد عجلة الزمن في أفغانستان بسرعة إلى القرن السابع عبر قطع الرؤوس والجلد وتقطيع الأطراف. فكانت تماثيل بوذا أصناماً؛ وتدميرها سنة؛ فعل النبي الشيء نفسه بالأصنام في الكعبة. تبنت داعش وحدوية طالبان والقاعدة. كان الإسلام التوفيقي في المنطقة يحتضر. وأصبح تدمير أي أصنام واجباً، بما فيها قبور القديسين التي لسوء حظهم اعترضت طريق هؤلاء اللصوص. إن العنف الذي أجازه الإسلام الأردّي الديوبندي لطالبان كان مبنياً على المنطق العربي للقاعدة.

تناقشنا أنا وغالب أيضاً حول الدكتور ذاكر نايك، وهو وهابي هندي مشهور متعصب.

«لقد أجريت مقابلة مع الوغد»، قال غالب. «كما هو متوقع، لم يملك أي منطق».

«يا للهول، حقاً؟ لأن محاضراته على يوتيوب منطقية جداً إذا كنت من النوع الذي يفضلُه. إنه فصيح للغاية»، أجبت.

مثل جماعة أهل الحديث المتطرفة، كان ذاكر نايك ذو لحية طويلة غير مشذبة ولا يبدو أنه يفضل الشارب. هكذا حرّف الزي النبوي. حُظرت قنواته التلفزيونية «بيس تي في»، التي حصدت ملايين التقييمات. لذلك وجد دعماً أكبر مما يتخيله على يوتيوب. خطب نايك بالتقوى الوهابية. ومن الشائعات التي انتشرت قوله إن جميع المسلمين يجب أن يكونوا إرهابيين (لم أجد مقطع الفيديو لإثبات ذلك). زعم أيضاً أن جورج دبليو. بوش هندس أحداث 11 سبتمبر، ودعا صراحةً إلى فرض عقوبة الإعدام بحق

المثلية الجنسية والردة. تفخر الهند بحرية التعبير الدستورية التي تتمتع بها، لذلك سمحت الحكومة بأنشطته الأخرى، بما فيها الخطب أمام جمهور كبير، ليزداد انتشار مقاطعه الصوتية على يوتيوب. حصل نايك على تأييد قاعدة جماهيرية ضخمة وأجرى جلسات أسئلة وأجوبة أشبه باللقاءات المفتوحة حيث أعرب عن آرائه حول أي شيء سئل عنه تقريباً. يتمتع نايك بشعبية كبيرة في باكستان أيضاً، فقد كان بمثابة جويل أوستين الهندي، علماً أن عقيدته ستكون أبعد ما يمكن عن المسيحية بالنسبة إلى معظم الغرب.

مع تقديم وجبة لذيذة من البرياني بحذر، ناقشنا الأشياء التي تحدثنا عنها من قبل. قال غالب متعللاً: «دعونا نتحدث بالإنجليزية». فسياق محادثتنا كان مشحوناً. والخدم في الهند، لم يعودوا خاضعين كما كانوا، وشاع عنهم. ما يزال أعيان الأحياء الفاخرة مثل غولف لنكس حيث بقي الفير/نجيس (أي «الأجانب» بالهندية) يتذمرون بشأن مدى صعوبة العثور على أحدهم. كان الأمر واضحاً. لماذا تنظف الأرضيات بينما يمكنك العمل في مركز اتصالات أو توصيل البيتزا إلى أكبر طبقة وسطى في العالم؟ لقد كانت «مشكلة» على الصعيد الوطني.

وقال غالب «هذه الجمعيات الخيرية والجماعات التي لا حصر لها مثل سرطانات انتشرت في كامل جسد الأمة». بغرابة، أُنذر هنا بتوصيف شائن للإسلام نفسه على أنه «سرطان» و«ليس ديناً» أطلقه الجنرال مايك فلين الذي عينه ترامب لأجل قصير بمنصب مستشار الأمن القومي (رجل أكاذيب تماماً مثل سيده). لم يعلم أي منا أن العالم سينقلب رأساً على عقب في السنوات الثلاث المقبلة بانتخابات واحدة فقط.

في ذلك الوقت، استهدفت «الجمعيات الخيرية» العائلات الأكثر فقراً، مسلحةً أحياناً بنحو 100 مليون دولار مقسمة بين الجماعات الجهادية العنيفة. كان الجهاد العنيف هو ما زرعه الكثير هذه الجمعيات في رؤوس الأطفال المتأرجحة والتي رأيت الكثير منها في ديوبند وفيما بعد في الندوة. تحت أنوف حكوماتهم في جنوب آسيا، وصلت الأموال من أواني الزكاة في جميع أنحاء العالم إلى رجال الدين المتشددون في المساجد المحلية، والذين حملوا لقب مولانا وشاركوا مشاركةً كبيرةً في التجنيد على



الأرض. كان مولانا زعيماً دينياً محترماً، حصل على نفوذه بشهادات من دار العلوم. ودرس علم الكلام والفقه. من ناحية أخرى، نُظر إلى «الملالي» الدنيئين على أنهم محرضو غوغاء.

بين الثامنة والخامسة عشر عاماً، كان هذا أفضل سن «لأصطياد» جنود «الجهاد» المستقبليين. والطريق دائماً نفسه، احتضانهم وتلقينهم عقائدهم حتى أواخر سن المراهقة، ثم إرسالهم إلى «معسكرات» الإرهابيين المزدحمة. ومن هنا تعليمهم أخيراً استخدام بنادق الكلاشنيكوف وأحدث الأسلحة الهجومية والقنابل اليدوية. كان الوضع أشبه باحتفالات عيد الميلاد على مدار العام بالنسبة إلى أولئك المجاهدين.

«لذا فهم يستمرون باستهداف الأسر متعددة الأطفال؟ ذات دخل منخفض ومحاصيل فقيرة الغلة وتفتقر الوصول إلى تعليم «حقيقي» أو وظائف في مراكز الاتصال أو توصيل البيتزا في لاهور؟»، قلت. أوماً غالب برأسه. أشرف المولانا على «الرصد» الأولي للمجندين المحتملين بنفسه، وغالباً ما رافقه زوار من جماعات إرهابية ذات واجهات سياسية.

يصل مولانا إلى عتبة عائلة فقيرة قائلاً إن «حالتهم» (الفقر) تتناسب تناسباً مباشراً مع أفعالهم غير الوهابية، مثل زيارة الأضرحة الصوفية لطلب البركات أو حتى الاستماع إلى أقرانهم الصوفيين المحليين، وعليه أصبحوا من المشركين. تعود هذه التقاليد إلى أجيال، لكن زيارة مولانا كانت شرفاً كبيراً. كان يقول عادةً إن أسرع طريقة لكسب «فضل الله» مرة أخرى هي تكريس حياة واحد أو اثنين من أبنائهم للإسلام. لقد علموا مسبقاً تركيبة العائلة. إذ مالت العائلات المسلمة إلى إنجاب ذرية متعددة، لذلك كانوا جاهزين للتجنيد. وعد المولانا في أثناء شرب الشاي (المضطهدون دائماً مضيافون) بتعليم الأولاد في مدرسته وإيجاد عمل لهم فيما بعد في «خدمة الإسلام».

بعد بضعة أسابيع، أعقب ذلك زيارة ثانية بأجندة أكثر شؤماً؛ مناقشة الشهادة، أو الاستشهاد. في حالة «استشهاد» الابن غير المحتملة (لم يستخدموا كلمة «موت» أو «قتل»)، سيتنعم الابن والعائلة كلها بخلاص فوري - في هذا الحياة وفي الجنة. لقد تنقلوا بين العالم السماوي والعالم الحقيقي بسهولة. كان لكل ابن تسعيرة (بوضوح)، والدفع نقداً. تقرر حصول الأسرة على تعويض عن «تضحيتها» للإسلام. بحلول أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، كان المبلغ الوسطي

المتعارف عليه لطفل ذكر نحو 500,000 روبية باكستانية أو هندية (نحو 6000 دولار أمريكي). كان هذا مبلغًا كبيرًا للفقراء. وقلة من العائلات ترفضه. إضافة إلى ذلك، حصلت العائلات على حقوق المفاخرة بالتزام أبنائهم بما يسمى «قضية» الإسلام. غالبًا ما استخدم المولانا أيضًا آيات قرآنية خارج السياق في عملية التجنيد.

في السنوات القليلة الماضية، بدأ المولانا بتجنيد الفتيات الصغيرات، وهو أمر فوضوي بطبيعته، في سياق عملية أبوية للغاية، وغالبًا ما ينطوي على زواج الأطفال.

كان الجو كثيبًا بينما استمتع غالب بارتشاف كأس ويسكي جديد ببطء. «لن يتوقفوا أبدًا، أليس كذلك؟» قلت.

أجاب: «نجاحهم يتناسب طرْدًا مع مدى فقر الأسرة».

كلانا علم أن فرعي آر إيه دبليو الباكستاني والهندي زعما أنهما «راقبا» المدارس الدينية الكبرى في المناطق الحضرية. عرف الوهابيون كيفية التحايل عليهم عبر الحفاظ على المدارس صغيرة، مع أقل من 100 طالب. تُرك الأطفال الذين لُقِنوا العقيدة دون أي اتصال تقريبًا بالعالم الخارجي. وما حصلوا عليه للتسلية كان مقاطع فيديو لداعش وحياتهم كزراعة بقر. أما سابقًا، كانت هذه فيديوهات أقل أناقة لتنظيم القاعدة. لم يكن هذا عالمًا ذي وسائل تواصل اجتماعي وأجهزة كمبيوتر محمولة وهواتف ذكية. لكن تأثير الشبكة الاجتماعية بات صعب التجاهل. ومع أن الفيديوهات لم تقارن بلعبة «غراند ثيفت أوتو» على أجهزة إكس بوكس. لكنها كانت كافية. امتلكت الندوى والديوبند، مثل العديد من النظراء الباكستانيين، مواقع على شبكة الإنترنت. كان منهجها وهابيًّا على الدوام. والشريعة بنظرهم غير مسلمين، مثلهم مثل الهندوس واليهود والمسيحيين، والجهاد العنيف واجب للقضاء عليهم. مثلت الديمقراطية، الباكستانية أو الهندية أو البنغلاديشية، العدو في عالم كانت فيه «دار الإسلام» الدولة المنشودة. غالبًا ما يزور مولانا المجنّد العائلات التي عرضت أطفالها، ويثني على التقدم الذي أحرزوه. أما الخريجون فوُضعوا أمام خيارين: أن يصبحوا رجال دين صغار، من النوع الذي التقيت به في مدرسة الندوة، أو الذهاب إلى معسكرات الجهاد المحلية. وذلك بعد اختيارهم من قبل المعلمين، الذين راقبوا بدقة قدرة الطفل على الانخراط في العنف وقبول الثقافة «الجهادية».

قال غالب: «معسكرات التدريب الحقيقية موجودة في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية أو مقاطعة الحدود الشمالية الغربية». الأولى منطقة خارجة عن القانون والثانية حيث تقع بيشاور، مدينة رئيسية على طريق الحرير الإرهابي.

لم تفعل «الحكومات» الباكستانية المتعاقبة ما يُذكر حيال ذلك. في الهند، ظهرت المشكلة نفسها دون أن تنتشر على نطاق واسع. ضياء الحق، الذي قُتل في حادث تحطم طائرة (كان «متعمداً» في باكستان الغنية بالشائعات) قد نفذ عمله الشرير بعناية - فالبيروقراطية الباكستانية مليئة بالموظفين الذين ما يزالون متعاطفين مع هذه المنظمات والإسلام المتشدد.

«ليس من قبيل الصدفة، غالب، أن أسامة بن لادن أمضى سنواته الأخيرة في أبوت آباد تحت أنوف مجمع الأكاديمية العسكرية الباكستانية»، قلت بينما افترقنا في تلك الليلة.

«كن حذراً، بارفيز. مع أننا لم نتحدث كثيراً عن ذلك، فأنا أعرف نوع العمل الذي تقوم به. قد يجلب عليك ما لا تُحمد عقباه، خاصةً في هذا الجزء من العالم. متى تحصل على الجنسية الأمريكية؟» سأل، وعانقني. أجبت أنه هذا بعد عام على أقل تقدير.

لم أكن غريباً عن الفتاوى التي تدعو إلى موتي. لكن كلماته بقيت معي خلال نقلي إلى الفندق في تلك الليلة الباردة في دلهي، بعد ثلاث سنوات من الحج.

## الفصل الثاني عشر

### إسلام 3.0

أدركت أنا وشاهيناز في نهاية رحلتنا للحج لعام 1432، ونحن نعانق بعضنا بعضاً بعيون باكية، مدى فداحة الأخطار التي تجاوزناها. فحتى عناقنا في مطار الملك عبد العزيز في جدة كان محظوراً! ولكن لم يسعنا أن نأبه البتة بأمر الشرطة الدينية. وقد تسلح آلاف الحجاج المغادرين بغالونات من مياه زمزم، ولوح لهم الملك عبد الله بالأعلام مودعاً إياهم. الأمر بدا كما لو أن السعوديين متلهفون للخلاص منا.

بعث أدهم لي رسالة بنبرته الساخرة المألوفة: «ومن قد لا يتلهف إلى ذلك؟». «فنحن الآن علينا أن نأتي وننظف الفوضى التي أحدثتموها في مكة. يا للقرف!». غيرتني تلك الرحلة للأبد من جوانب لم أتمكن من فهمها لسنوات. باشرت بالرد على أدهم بنبرة جادة هذه المرة قائلاً: «المسلمون يتركون مكة، ولكن مكة لا تتركهم أبداً». فرد عليّ قائلاً: «أتمنى ألا يعلمك الحج المزيد من الميلودراما (-)».

وزّع وهابيون صغار كتيبات لامعة وردية من الدعاية المغرضة بعناوين مثل حياة، وتعاليم، وتأثير محمد بن عبد الوهاب. ألم يعلموا أن إضافة صبغة وردية على الكعبة قد لا تكون فكرة جيدة؟ توجد مثل تلك الكتب المطبوعة بجميع اللغات التي يتحدثها المسلمون في عدد لا حصر له من المساجد حول العالم. هذه هي الدعوة السعودية على أرض الواقع. فهم ينشرون الإسلام الوهابي دون أن يشعروا سيقاً واحداً.

وفي أثناء رحلتي التي استغرقت ثلاث عشرة ساعة، توافدت عليّ مستجدات عائلة كارداشيان أخيراً. فعلى ما يبدو أن كيم كانت تحاول بصعوبة يائسة أن تنجب طفلاً آخر. وكلوي ولما كانا متجهين إلى طريق الانفصال، وسكوت عاد إلى مصحة إعادة التأهيل، وسينت كان مجرد بارقة أمل في أعين كانييه.

صعد سائق سيارة الأجرة الباكستاني الخاص بي على طريق ويست سايد السريع في طريقه إلى هارلم. وكان الستيريو الخاص به يذيع تسجيلاً صوتياً للقرآن. وتدلّى قرص زخرفي من مرآة الرؤية

الخلفية لديه. انحنيت للأمام كي ألقى بنظرة عن كثب. ولاحظت أن صورة الكعبة كانت منقوشة على سطحه. ونادى الستيريو قائلاً: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ».

مررنا بجانب قاعة طعام حلال في الجادة السادسة. وشعرت فوراً بالطمأنينة. فقد عدت إلى المنزل. وقد أضحت عربات الطعام الحلال المتنقلة الآن في كل مكان. لطالما تكلمت مع العمال الذين معظمهم من العرب، وتساءلت عما إذا كان المروجون لهم يعلمون أن تلك «الموسيقى» التي يشغلونها من عرباتهم ليست سوى تلاوة قرآنية، وأن الطعام الحلال ليس سوى نسخة إسلامية مكافئة للكوشر اليهودي.

كان القارئ يرتل الآية السابعة والتسعين من السورة الثالثة من القرآن (آل عمران). وكان لهذا القارئ صوت جميل للغاية.

كانت تلك الصدفة تفوق الخيال. أخبرت السائق قائلاً: «لقد عدت لتوي من الحج». فاستدار إليّ وقال: «محال! أود أن أذهب أيضاً بشدة. أنا أدخر المال لذلك طوال حياتي». تحسست لهفته البالغة من صوته. وكان الاسم المعروض على بطاقة هويته محمد بارفيز. قال لي: «ما شاء الله! كيف كان ذلك؟» فأخبرته أن لدينا نفس الاسم. «أوه يا للعجب من ذلك. هذه تجربة تحدث مرة واحدة في العمر، إذا جاز التعبير».

ثم ضحك. وتحدثتُ أنا عن الحج بحماس واستفاضة. وتعمدت أن أحذف من القصة كل القمامة، وسرقة المحافظ، وانعدام المساواة – وسلطتُ الضوء على الإيجابيات فقط، كما كان يفعل كبار السن عقب عودتهم من الحج. ولم يسعني أن أفصح عن الجانب المظلم من تجربة الحج التي يتحكم بها آل سعود.

ثم سألني: «كم كلفك ذلك».

فقلت له: «دفعْتُ أنا وصديقي نحو 12,000 دولار، ولكن ذلك يشمل كل شيء».

اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: «أوه، لا يمكنني تحمل تلك النفقات. أليس هناك طرقاً أرخص؟». فقلت له: «بالتأكيد. الحج للجميع».

وأضفت قائلاً: «أنصت إليّ، ليس من قبيل المصادفة أنني هنا في سيارتك وأن لنا نفس الاسم. لا بد من أن الله يناديك».

فقال لي: «لطالما أخفيتُ ذلك في قلبي»، كاشفاً عن مهمته طويلة الأمد بحيلة.

ثم سألت بارفيز وهو ينزل حقائبي: «أين تصلي؟»

فقال لي: «مسجد الشارع السادس والتسعين».

«لعلني أقابلك هناك يوماً ما. سأحاول أن أحضر كل جمعة، عسى أن يجعلني الحج مواظباً وملتزماً مرة أخرى».

«إن شاء الله».

هممت بالمشي إلى الباب الأمامي للمبنى ثم توقفت واستدرت للخلف. «ما اليوم وفي أي سنة نحن؟ لقد كنت أعيش في مكة، حيث كانت 1432».

فضحك وأجاب عن سؤالي. وأعطيته 40 دولاراً كبقشيش. كان هذا كل المال الذي معي. اعتبرت ذلك حينها نوعاً من الزكاة.

وحين وصلت إلى شقتي، تعانقت أنا وكيث والدموع تفر من أعيننا. ثم استلقينا على السرير واحتضنا بعضنا لساعات في صمت. لم يسعني أن أصف له التجربة التي مررت بها، ولم يدفعني هو لذلك. فقد قضينا مع بعضنا وقتاً كافياً للدخول في مرحلة يحظى فيها التواصل غير الكلامي بالأولوية على الثروة الفارغة التي يشعر الأزواج الجدد بأنهم مُلزمون بالمشاركة فيها. فقد اكتفينا ببساطة بأن نكون في أحضان بعضنا بعضاً.

لقد عدتُ قبل عيد الشكر مباشرة. وتولى كيث مهمة الطهي طوال اليوم إعداداً لوليمة فاخرة. أنا على دراية تامة بأصول عيد الشكر العنيفة، ولكنه احتفال غير طائفي بالتعددية ذو طابع أمريكي

خالص. كل أعياد المسلمين ومعظم أعياد الهندوس التي شهدتها في صغري كانت ذات طابع ديني. ولكن الديك الرومي يدفع حتى أعتى الملحدين مثل كيث إلى التأمل في حياتهم وامتنانهم بطريقة لا تشهدها عادةً خارج مسجد، أو كنيسة، أو كنيس.

انضم إلينا على طاولة غداء عيد الشكر رجل هندوسي مثلي، ورجل متحول جنسياً من برلين وحبيبته الفرنسية، وامرأة سوداء نشأت وترعرعت في هارلم. لففنا حول الطاولة وشكرنا الجميع.

كان لصديقتي من هارلم حس فكاهي مذهل. «اليوم أنا ممتنة للأغلبية الصامتة التي أبقت المسلم الاشتراكي المولود في كينيا المفضل لدي في منصبه!» وعرضت عليّ كأساً من النبيذ.

قلت لها: «لم أعد أشرب الخمر».

فقلت لي مازحة: «هذا ما تفعله السعودية بالناس أليس كذلك؟». «ما الذي تغير لديك أيضاً؟».

قلت لها: «الكثير». «ومع ذلك القليل».

فهمت قائلة: «لقد جعلتك نحيفاً بلا ريب. هذا ما تفعله حمية الحج الغذائية يا ناس! حمية الحج! دعمكم من حمية أتكينز وحمية الشاطئ الجنوبي وكل أشكال الهراء الآخر!». كانت الطاولة حافلة بالبهجة والامتنان في تلك الليلة.

تعلمتُ الكثير في السعودية. وبكل تلك السنين من الدراسة والعمل الجاهد، شعرت أنني فزت أخيراً بحق الجلوس في طاولة إصلاح الإسلام الجاري الذي فرض على الإسلام بعد أحداث 11 سبتمبر. وهذا أمر مهم. فالإسلام لم يطلب إصلاحاً في القرن الحادي والعشرين، بل اضطرت أحداث 11 سبتمبر وغيرها إلى اعتناقه. وبعد أن انتهيت من رحلة الحج، بوسعي أن أقول بثقة إن إرث السعودية والوهابية المشهود في قوس التاريخ الأخلاقي الطويل سيكون مدمراً. ولسوء الحظ أضحت الدوغما (أيًا كان نوعها، سواء كانت سلفية أو وهابية) أكثر نجاحاً من النفط في كونها أكبر الصادرات السعودية. ولم ينج من هذا الوباء إلا بضعة مساجد قليلة.

لقد أُبِيدَ إرث محمد. وبما أن يدي اتسختا في كثيرٍ من الأمم المسلمة التي عشت، ودرست، وصورت أفلاماً فيها مع أكثر الناس تديناً ممن يدينون بديني، فأنا أوّمن بأن ذلك يمنحني السلطة التي

تمكني من أن أكون من بين أولئك المصلحين. يسيل لعاب الوهابيين على الاجتهاد باعتباره تقليدًا مستمرًا. ولكن السماح للخبراء المسلمين بيننا -لنقل أولئك الذين في الغرب- بتقديم الاجتهاد كحل لهو خطأ تاريخي.

وكيف له أن يكون حلًا حين تصدر بلدة ديوبند المولعة بالاجتهاد فتاوى وهابية منافية للمنطق مثل «كل أشكال التصوير الفوتوغرافي منافية للإسلام» (2013)؟ أو أن الأسر التي تعيش على أجور النساء منافية للإسلام، وأن من غير المسموح أن يعمل النساء والرجال معًا (2010)؟ في الهند الحديثة؟ مستحيل.

تكمّن مشكلة «العوالم» الإسلامية الكبرى، كما ناقشت مع غالب، في الأمية والفقر. فالتعليم القياسي الحديث غير متاح للأغلبية. وما هو متاح في أماكن مثل الندوات لا ينتج مجتهدين - أو علماء ملتزمين بالشريعة يعتمدون على الاستدلال المستقل (الاجتهاد). هل يؤدي التخصص في الدراسات الجندرية إلى الحصول على وظائف مجزية؟ كلا. يلاقي خريجو الندوات نفس المصير. فالحصول على وظيفة بالنسبة لمن ليسوا في طريقهم إلى معسكرات الجهاديين هو ببساطة أمر مستحيل.

ولهذا السبب، يُعد المجتهدون وهابيين بالنسبة إلى أغلبية المسلمين. وأسلوب اجتهادهم هو ما تنجذب إليه العقول الوهابية والداعشية. فلا أحد يأبه بأمر «الإمام المثلي» في جنوب أفريقيا الذي قدم الاجتهاد كحل في فيلمي الأول. لقد توصلت إلى أنني أعارض فحوى الفيلم الخاص بي جهاد من أجل الحب. ترى هل تعلم أخيرًا أن ينخرط في سياسة العالم أم أنه لا يزال هائمًا في القرآن؟

لقد ساهم بيت آل سعود في بناء شبكة إرهاب دولية. وفي 2003، وصلت تلك الشبكة إلى أعتاب أبوابهم حين انفجرت القنابل في الرياض، ما أسفر عن مقتل تسعة وثلاثين فردًا. وقد وبخ أسامة آل سعود باعتباره معادين للإسلام في رسائل الفاكس ولاحقًا في «مقابلات» الجزيرة. وبعد 11 سبتمبر، شرعت عائلة بن لادن بشراصة في قص كل الأحبال السرية التي قد تربط بين أسامة وبينهم أو آل سعود، في حين أنهم سربوا مليارات الدولارات إلى حسابات خارجية. ولكن كيف لهم أن يفعلوا ذلك؟ إذ لا تزال 11 سبتمبر ذكرى حديثة.



يعمل المفتون في المملكة السعودية وفقاً لإرادة الملك، وفي المقابل، يرجع سبب صمود آل سعود إلى الأفضال الوهابية الدينية. أمر عبد الله، ملك السعودية حينئذٍ، باختراق ومراقبة كل المنظمات الخيرية الإسلامية الواقعة داخل مملكته، وهرع على نحو متوقع إلى مفتيه المطيع الأعور (عبد العزيز بن عبد الله الشيخ)، الذي كان أيضاً رئيس هيئة كبار العلماء، حتى يأتي له بفتاوى مفصلة تحت الطلب. وبدوره، قال الشيخ:

أولاً: التطورات الأخيرة في الولايات المتحدة، التي شملت اختطاف الطائرات، وترويع الأبرياء، وإراقة الدماء، تمثل شكلاً من أشكال الظلم لا يتسامح معه الإسلام الذي يعتبر ذلك جرماً شنيعاً وفعلًا آثماً.

ثانياً: أي مسلم على دراية بتعاليم دينه ويلتزم بأوامر القرآن الكريم والسنة لن يشارك أبداً في مثل تلك الأفعال، لأنها تغضب الله عز وجل، وتؤدي إلى الخراب والفساد في الأرض.

كان هناك المزيد، ومن بين ذلك إشارة خفية إلى «تشويه» الإعلام لصورة الإسلام.

ولم يذكر آل سعود أو العلماء شيئاً عن أن خمسة عشر من أصل تسعة عشر خافطاً كانوا يحملون جوازات سفر سعودية.

ضحك سعوديون مثل أدهم. هل نسيت عائلة الملك أنها صنعت ومولت جهاد أسامة؟ ألم يعلم السعوديون مدى الدعم الذي يحظى به أسامة وداعش فيما بينهم؟

لقد أضفى مفتي التسعينيات على الجهاد الخفيف طابعاً عصرياً. فقد شُجّع السعوديون الشباب على الجهاد ضد السوفييت في أفغانستان. وكان عليهم أن يتعلموا «تحديات» الإسلام. الأمر أشبه بفصل دراسي في الخارج، ومشى المجاهدون العائدون في خيلاء بأزيائهم وعتادهم العسكري في كورنيش جدة. ألم تُعجب الفتيات بمن يرتدون أزياءً عسكرية؟ الإسلام والعنف؟ ليس أمراً جديداً على السعوديين.

«جهاد السيف» هو أمر مألوف ليّ وللعظم السعوديين. فلطالما كان يحظى بدعم مستتر من بين بعض السعوديين العاديين، والعديد من العلماء، وحتى من بين أفراد آل سعود وعائلة بن لادن. وبصفة

رسمية، كان آل سعود شركاء في حرب جورج دبليو. بوش «على الإرهاب». وتعود الأواصر التي تربط بين دار آل بوش ودار آل سعود إلى زمن بعيد. فبعد انتخابه بفترة قصيرة وقبل أحداث 11 سبتمبر ببضعة شهور، طلب بوش من وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي أن «يتراجعوا» عن التحقيق في عائلة بن لادن وآل سعود. وفي وقت كتابة هذا الكتاب، أخبر زكريا موسوي، عميل القاعدة ذو السمعة السيئة المسجون مدى الحياة، محامين أن أفراد العائلة السعودية الملكية، بما فيهم رئيس الاستخبارات السابق الأمير تركي الفيصل آل سعود، «دعموا» القاعدة في تنفيذ هجماتها.

وصلت إلى السعودية بعد أن أجهز أوباما على أسامة ببضعة أشهر. كان التخلص من جسم الجريمة أمراً ملحاً. ولم يرغب أحد في إدارة أوباما أن يحظى هذا الرجل بمنزلة «الشهيد». ألم يدركوا أنه كان كذلك بالنسبة إلى الكثيرين على أي حال؟ زعمت ويكيليكس أن الولايات المتحدة أحضرت جسمه لإجراء تحليل مرضي ثم أحرقوا جثته (بما يخالف العقيدة الإسلامية). ويقول آخرون أنه ألقوا به فعلاً من متن سفينة يو إس إس كارل فينسن وهو ملفوف في كفن مع 300 رطل من السلاسل. وقال العقل المدبر لوكالة المخابرات المركزية ليون بانيتا في كتابه: «جُهِزَ جسم بن لادن للدفن وفقاً للتقاليد الإسلامية، ملفوفاً في كفن أبيض، وقُدِّمت له دعواته الأخيرة باللغة العربية، ثم وُضع داخل كيس أسود ثقيل».

اعترض بعض العلماء المسلمين على الكيفية التي جرت بها الجنازة على يد أوباما. أكانوا يريدون أن يقيموا له موكباً جنازياً؟ حتى أن منظمة العفو الدولية اقترحت بسخف أن بما أنهم أمسكوا به وهو أعزل، فحريّ بهم أن يقبضوا عليه حياً.

حينها أيضاً مضت بضعة أشهر على اشتعال نيران الربيع العربي. كان الشيعة يحتجون على نحو متوقع وكان لا بد من مراقبة موسم الحج هذا جيداً. وحين كنت هناك كانت الشرطة الدينية على أهبة الاستعداد وفي حالة استنفار غير عادي. وقد تعرضت لمتاعب كثيرة معهم. وقد اخترت أن أذهب إلى الحج في عام 2011 متعمداً.

تعلم أسامة بن لادن طوال حياته أن يحتقر بلده الأم، ورغم ذلك فهو وداعش يستمدون معظم منطقهم القائم من الإسلام الوهابي الذي لا يختلف البتة عن الأمة التي وُلد فيها. فكثيراً ما تماثل فضاءع الدولة الوهابية داعش وما تبقى من القاعدة. تذكر عدة تغريدات سعودية أن بحلول منتصف 2015

ذبحت السعودية عدداً من الناس يفوق ضعف ما ذبحته داعش. وقد أثار نشر الغسيل المتسخ هذا غضب الملكية وغضب ملكها الجديد سلمان، الذي يعلن عن حلول عصر جديد بعناد وإصرار. كيف ذلك؟ لا يدري أحد. فرعاياه مشغولون بالتغريد، وهم يمثلون أكثر قاعدة مستخدمي تويتر بجانب الكويتيين. يقول البعض أن سبعة ملايين من السعوديين من مستخدمي تويتر. ألا يعرفون أن دولة الرقابة المتطورة تلك التي بُنيت خلال المدة التي قضاها بن لادن هناك تطورت مع مرور الزمن – وهي الآن صارت تراقب تويتر يومياً؟

يقود الملك سلمان دولة مهتزة ولكنها مستقرة بخلاف غيرها من الدول. في أكتوبر 2016، أفادت جريدة نيويورك تايمز بأن الأمير ذا الاسم الطويل تركي بن سعود بن تركي بن سعود الكبير قد أُعدم، بالذبح غالباً.

كان آل سعود ومفتي المملكة في وضع تحذير: إذا كان بوسعنا أن نذبح أميراً من دمنا، تخيل ما قد يحدث لإنسان فانٍ عادي. لقد مرت أربعة عقود على آخر مرة لاقى فيها فرد من العائلة الملكية السيف. انتشر الذعر بشكل فيروسي. وتساءل أدهم، مثل شبان آخرين، عما إذا كان هذا يعني العودة للماضي الباطش. ولكن في الحقيقة، لم يختلف هذا البطش في أي مكان.

آل سعود عائلة مشهورة بالتكتم، ولكن الأمراء الصغار مستمرون في إذاعة أنماط حياتهم الفارهة على إنستغرام، تماماً مثل آل كارداشيان وذا رايال هاوس/يفز في أي مكان. ومن المرجح أن ثاني أقوى رجل في السعودية هو نائب الملك بعمر الواحدة والثلاثين، الأمير سلمان، وهو ابن الملك. فهو يرى طريقه للملكية بوضوح، بينما يدمر أي قوة يمتلكها الأول في صف العرش – المخرف المصاب بالسكر ذو السبعة وخمسين عاماً الأمير نايف. ويتحكم سلمان في كل مسألة قومية في مملكته تقريباً. ورغم ذلك فقد أدى حبه للترف الفاحش إلى شرائه يخباً بمساحة 440 قدماً وقعت عليه عيناه حين كان يقضي عطلته في ريفيرا. وهذا كان في الوقت ذاته الذي أُمر فيه «رجال الدين» المنضبطين بالمناداة بالزهد. فهم يقولون إن الزهد فضيلة من الإسلام، وإنه يساعد البلد في الحفاظ على استقرارها في الأوقات العصيبة. وخفضت الحكومة أيضاً ميزانية الدولة، وجمدت العقود الحكومية، وخفضت أجور

الموظفين المدنيين في وقت انخفاض أسعار النفط. ولكن آل سعود لم يتوقفوا عن التسوق، كما تقتضي العادة.

ورغم ذلك، إن ظفر سلمان الابن بالنصر في هذا القصر الذي يعج بالمؤامرات، فإن أصدقاء مثل أدهم يشيرون إلى أن سلمان يُعد اختياراً مستساغاً وصغيراً في السن، كما لو كان النظير السعودي لأوباما. يتصدر سلمان النقاشات الملكية على موقع مشروعه المحبوب - رؤية السعودية 2030. يزعم الموقع أن المشروع سيقول اعتماد السعودية على النفط وينقذ اقتصادها المتخبط. ويقول النص الكبير على الموقع: «رؤيتنا: المملكة العربية السعودية، قلب العالمين العربي والإسلامي، وقوة استثمارية رائدة، ومركز يربط بين القارات الثلاث».

أسس الأمير أيضاً «هيئة الترفيه» لاسترضاء الغالبية اليافعة من رعاياه بأمور مثل العروض الكوميدية. هل يقع مستقبل الشبان السعوديين العرب في يدي هذا الرجل الثلاثيني الجذاب الذي يزعم أنه يفهمهم؟ هل سيشكك رعاياه في السبب الرئيسي الذي جعله يقرر شن حرباً سعودية إيرانية غير موفقة بالوكالة في اليمن؟ ماذا ينوي أن يفعل لكبح إسراف عائلته الهائل الذي لا يخلو من النفاق؟ فقد اشتهرت الأميرة مها من الجناح السديري ذي النفوذ من العائلة بأنها هربت من فندق شانغريلا في باريس الفاره في منتصف الليل حتى تتجنب دفع فاتورة الفندق التي بلغت 7.5 مليون دولار.

بعث أدهم لي رسالة تقول: «الجميع يحبونه». ثمة أكثر من 10,000 فرد ملكي في المملكة، ويحصل كل رجل أو امرأة رغم ذلك على نصيبه من الثروة المستنزفة وفقاً لمكانته.

في 15 أكتوبر 2016 أفادت نيويورك تايمز بأن «البيت الأبيض لمح علامة مبكرة على صعود الأمير الصغير في أواخر 2015 حين قدم الأمير بن سلمان -بما يتنافى مع البروتوكول القائم- خطاب مناجاة بشأن إخفاقات السياسة الأمريكية الخارجية خلال اجتماع مع أبيه، الملك سلمان، والرئيس أوباما».

لا يغرد المغردون السعوديون ضد الملكية أو الدين، ولذا فتويتر المراقب بصورة مكثفة مفيد لأفراد العائلة الملكية. فهو يسمح لرعاياهم بالتنفيس عن غضبهم، ويبدو أنهم شكلوا دولة تقوم على التشتيت مثلما يفعل ترامب.

لا يشبه ذلك ما يفعله ترامب من حيث الانتظام، ولكن كليهما له نفس أسباب الإلهاء، فالملك سلمان يغرد لمتابعيه البالغ عددهم بضعة ملايين بشح بالغ. فالكل يعلم بأمر أموال النفط المخفية. وحتى علماء الاقتصاد مثل عم أدهم المحبوب يقول في أحاديثه الخاصة أن ما لا يقل عن ربع السكان يعيشون تحت خط الفقر. لا شك في أن هذا العدد يشمل المهاجرين العاملين بالسخرة؟ ثمة نسخة سعودية من إباحية الفقر، بنفس نمط الأحياء الفقيرة في فيلم مدينة /الرب، للحجاج الباحثين عنها. وكانت رحلتي وسط أزقة مكة النتن، مثل تلك الرحلة التي خضتها مع محمد الماكر، دليلاً على ذلك.

وأنا أعتقد أن الشبان السعوديين المترفين اعتادوا على هذا النوع الغريب من الدولة الحاضنة. فكل ملك كان يضخ الإعانات في وجه أي مشكلة تقابله. ولا يزال البعض يعتقد أن آل سعود لن يخذلوهم أبداً.

قال أدهم: «نحن أكسل من أن نضطلع بثورة».

حين فاز الإخوان المسلمون في الانتخابات الحقيقية الوحيدة في مصر بفارق شاسع، كنتُ أنا من بين القلائل غير المتفاجئين. فقد أدركت أنه لا يوجد وجه مقارنة بين هؤلاء الإخوان والوهابيين. إن التركيبة السكانية لمصر واضحة: غالبية فقيرة وأمّية، وبالتالي فهي متدينة بتفانٍ. وقد أنفق إخوان مصر عقوداً من الزمن في استرضاء الناس وإظهار النوايا الحسنة لتلك القواعد الشعبية. وبالنسبة إليهم، حينئذٍ، كان تولي محمد مرسي رئاسة مصر نتيجة مشروعة. ولم تكن المراقبة الأخلاقية أولوية قصوى في أجندتهم. ولذا ظلت مصر تمثل نسخة سعودية من ريفيرا لأولئك الذين لا يمتلكون ثروة كافية لتأجير فيلات في فرنسا. ولهذا السبب لم تتوقف طقوس البذخ السعودية الصارخة الفاحشة في بيروت أو القاهرة أبداً، حتى مع صعود وسقوط الديكتاتوريين والثورات. لقد رأيت بعيني نساءً بالبوركني ونساءً يرتدين العباءات وهن عائمات في مسابح فور سيزونز. ولا يمكن للكلمات أن تصف هزلية رؤية كيس أسود منتفخ تحته إنسان داخل مسبح في فندق خمسة نجوم. ها هو مثال آخر على النظام الأبوي السعودي.

ومع جفاف ثروة النفط في بيت آل سعود، حاول أن تلتمس الراحة فيما يلي: اقتصاد الحج لن يذهب في أي مكان على الأقل.

نال أدهم درجة البكالوريوس في اللاهوت الإسلامي، وهو ما وصفه بأنه «ملتوي». وفي 2009 التحق ببرنامج لدراسة الهندسة في جامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا المثيرة للجدل في جدة. وقد تصدرت تلك الجامعة عناوين الصحف لأنها سمحت بالاختلاط - ما كان سبباً رئيسياً في إشعال تويتري. والاختلاط هو من بين الأسباب التي جعلت المحافظين السعوديين يبقون بعيداً، ما أبقى معدلات الالتحاق السعودية منخفضة نسبياً. وبالإضافة إلى ذلك، كما يحدث في مكة، يُزعم أن النساء في تلك الجامعة غير مضطرين لتغطية وجوههن. فطالما بقي شعرهن الآثم مكسواً فالأمر برمته حلال. ولكن الطلاب الأجانب تكالبوا على الدخول، ظناً منهم أن نيل الدرجات من هنا سيوفر لهم وظائف مرتفعة الأجر في المنطقة. وفي تلك الأثناء، انتشرت مقولة للشيخ أحمد الغامدي، العقل المدبر المتزمت لشرطة مكة الدينية القاسية، كالنار في الهشيم، وأرسل لي أدهم رابطاً لتقرير منشور في *العكاز*، وهي النسخة السعودية من *نيويورك بوست*.

قال الغامدي أن الاختلاط مسموح. ولا توجد حاجة للفصل بين الجنسين.

بعث لي أدهم رسالة بنبرة مبتهجة تقول: «ها هو التغيير قادم!». ولكن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فزعت من ذلك. طُرد الغامدي من عمله.

ولكنه أسس طائفته الخاصة على تويتر والتلفاز. فقد قال في مواضع متفرقة أن من الجائز للنساء أن تقود السيارات، وأن لا حاجة للمتاجر أن تغلق أبوابها في أوقات الصلاة. وقال إنه في زمن الرسول كانت النساء تركب الجمال، وهو ما يثير فتن أكثر مما تثيرها النساء المحجبات وهن يقدن السيارات الرياضية متعددة الأغراض. إن الغامدي ماكر، وهو بخلاف معظم الناس، على دراية تامة بالثغرات الموجودة في القانون الديني التي تسمح له بالتحدث بتلك الجراءة. فهو متمرد من الداخل. وفي 10 يوليو 2016، في مقالة لـ *نيويورك تايمز*، قال غامدي عن الشرطة الدينية: «أحياناً قد يُهان الفرد بطريقة غير إنسانية وقد تولد هذه الإهانة كرهًا للدين». وقال إن الرموش الصناعية جائزة وظهر على التلفاز مع زوجته المتزينة وهي كاشفة عن وجهها.

تشارك الغالبية في المجتمع السعودي على الأرجح وحتى العائلة الملكية آراء الغامدي. فهذا الرجل أتى من قلب الإسلام ذاته، مكة. ولعل المراقبة الأخلاقية هناك ساعدته في إدراك مدى تنوع الإسلام حقًا. ورغم ذلك فإن معالجة تلك القضايا أمام الجمهور أمر نادر الحدوث. وقد أرغمت أقواله سلمان على وضع حد لتسلط الشرطة الدينية. ولكن كيف لرجل مثل الغامدي أن يكسب رزقه الآن؟

أرسل لي أدهم صورة من سينما جامعة الملك عبد الله، وقال: «الأرض الخالية من السينمات صارت لديها واحدة الآن. أهذا هو المنطق الوهابي؟»

فرددت عليه قائلاً: «سيخلقون أفواههم بشأنها لأن آل سعود هم من بنوها».

إن أي إصلاحات هناك ستكون في غاية البطء. وتُشكل الآن صناعة أفلام مراقبة ومُدققة بعناية وصرامة من قبل الحكومة. وقد طُرح فيلمان خياليان على الأقل، وجدة (2012) وبركة يقابل بركة (2016)، للأوسكار باعتبارهما «أفلاماً سعودية». وأنا فخور بأن فيلمي، آثم في مكة، هو أول فيلم وثائقي مُنتج بالخارج في العالم ومُعد في مكة والمدينة، مصوراً الحج والبلد من زوايا داخلية عميقة، بكل عيوبهما. وهو ليس فيلمًا وافقت عليه الحكومة في مؤتمر ما، بل هو فيلم وثائقي غير مسبوق بأسلوب حرب العصابات مُعد على هاتف أيفون. وهذا بدوره يجعلني مشاركًا نشطًا في الثورة الجارية التي فُرضت على الإسلام بعد 11 سبتمبر. ورغم ذلك، لا يتردد محمد في أن يقول إننا نعيش في زمن الجاهلية. وسرعان ما سيدرك أن المشكلات الكبرى التي يعتل بها الإسلام في القرن الحادي والعشرين هي الفقر، والأمية، والبطالة.

أضحى محمد يؤيد ما كان سيصعق ناشطي حقوق تصويت المرأة في العقود الماضية: حصل نساء السعودية أخيرًا على حق التصويت، بعد أن مُنحوا هذا الامتياز في 2015. وقد «أُنتخبت» 21 مرشحة لتولي المناصب في المكاتب البلدية. وقد وضعتُ كلمة «أُنتخبت» بين قوسين لأن هذا يحدث في بلد بلا موسيقى، أو سينمات، أو أحزاب سياسية. تلك المحاولة البائسة لتحقيق الديمقراطية أمر هزلي. وفي عقول الكثير من الوهابيين، نحن لا زلنا في القرون الثلاثة التي أعقبت موت محمد. وفي العادة، هم لا يحركون ألسنتهم حين يتشدق الملك بالكلام عن الإصلاحات وحقوق الإنسان بانتظام، فهي ظروف لم يعيشوا فيها ولم يفهموها أبدًا.

خليفة الباز، الشيخ، حاله كأبي حال مفتي آخر، «مطاوع لبنت آل سعود». فقد اشتهر بإصدار فتوى تقول إن الشطرنج منافٍ للإسلام وحظر بوكيمون جو، ظاهرة لعبة الواقع الافتراضي على الهواتف الذكية، لأنها شكل من أشكال «القمار». ورغم أنه حديث نسبياً في وظيفته الجديدة، فقد أثار ضجة عالمية في 2007 في العالم الإسلامي حين أصدر خطباً لتدمير مسجد النبي في المدينة والقبور التي «حوله»، والقبة الخضراء فوقه. ولعل هذا يكون المنشور الذي تحدث عنه قائد مجموعتي في المدينة. والحق أن السعوديين يعلمون أنهم لا يجرؤون على المساس بتلك القبة. فلو فعلوا ذلك ستقوم فتنة عالمية (تخيل أكثر من 1.6 مليار مسلم غاضب).

أسس المتطرف الفلسطيني عبد الله عزام، وطالبه السعودي السابق أسامة، وأيمن الظواهر المصري الذي لا يزال على قيد الحياة منظمة القاعدة. وقد اختاروا هذا الاسم عمداً.

وجميعهم متأثرون بأيدولوجيا راديكالية كتب عنها الإسلامي المصري سيد قطب خلال مسيرته المهنية الخصبية. قطب كان يُعد شخصية مؤثرة من قبل لاهوتي يدعى حسن البنا الذي أسس جماعة الإخوان المسلمين التي لا صلة تربطها بإخوان اليوم الأشبه بداعش. وعلى أي حال، كان لكل هؤلاء الرجال في مواضع متفرقة من التاريخ خبرة في استعمال القرآن والشرعية في إنتاج العنف والمواد المنافية للمنطق.

إن نجاح داعش، بخلاف القاعدة في مكان وزمن مختلفين، يكمن في براعتهم في استخدام الشبكة الاجتماعية. فحتى في عام 2011، لم تكن داعش لتحلم بـ«تجنيد» الناس في العواصم الأوروبية من لندن إلى بروكسل. ولكن، في الحقيقة، كل ما كان يتطلبه الأمر هو شخص في غرفة وحيدة، بلا عمل، ذو عقلية سيكوباتية قائمة بالفعل، وحاسوب محمول. وقد أضحى هذا الجيل الجديد اللامع من المجاهدين في هذا الكيان اليائس الذي اعتاد العالم أن يلقبه باسم «ISIS»، أو اسم داعش الذي يبدو أكثر منطقية، يحملون جوازات سفر أوروبية وحتى أمريكية. وبسبب أشخاص مثل هؤلاء، فإن أشخاصاً مثلي، ممن يحملون اسمي، ولحيتي، وجواز سفر أمريكي جديد يُستهدفون في المطارات استناداً إلى سماتهم.



ولهذا السبب كان لانتصار حديث لي طعمًا حلواً للغاية. فحين كنت مسافراً إلى أوروبا وعالماً في أحد صفوف إدارة أمن النقل المروعة في مطار جون إف كينيدي، انتهى بي المطاف بمقابلة مسؤول أمن تعرّف عليّ من فيلمي آثم في مكة. وكنت مذهولاً من مدى إعجابه بالفيلم الذي عثر عليه وهو يقلب في أفلام نتفليكس.

وقال لي: «أنت رجل شجاع يا سيدي»، ثم قادني إلى صف التفتيش الأولي حيث عبرت سريعاً من الأمن ولم أضطر إلى خلع حذائي. ليتني التقطُ صورة سيلفي معه. كان الاسم المكتوب في بطاقته «جوليو»، ولذا افترضت أنه من أصل لاتيني.

ومع كل إصدار جديد ألمع من ذي قبل من د/بق، النسخة الداعشية من فانيتي فير، ومع كل فيديو ذبح أو رمي الناس من فوق مبنى مرفوع على يوتيوب بجودة عالية، تتمكن داعش بصورة شبه يومية من أن تكون متحدّثاً باسم الإسلام، وبوسعي أن أفهم الكيفية التي يؤدي بها ذلك إلى الإسلاموفوبيا. فقد تسببت أكثر أيّدولوجيا إسلامية (وهابية) ثراءً ونفوذاً من رمال السعودية في ضرر جسيم للإسلام الحديث. وصار الغرب يشهد عواقبه المروعة، برعاية المملكة العربية السعودية.

وفي نفس الوقت الذي ارتعد فيه «الغرب المسيحي» (بضلالة)، اشتدت قوة مهارات التصوير السينمائي وتنضيد الحروف التي تتسم بها أذرع داعش الإعلامية ذات الدهاء الحاد. ولدت د/بق مجلة جديدة على الإنترنت تتميز بكونها أقصر وأكثر حدة وأكثر «عالمية» تُدعى رومية. وقد اقتبس محللو التلفاز أقوالاً منها مثل: «دم الكافر حلال، فإسفكه». وظل منطق داعش الإسلامي المتعصب قائماً. وقد صارت مقاطع الفيديو أيضاً أكثر لمعاناً – ويعلق في ذهني بالتحديد فيديو يظهر فيه «جنديان» تركيان يحترقان حتى الموت. اتسم ذلك بطابع سينمائي، فمن الواضح أنهم كانوا يستخدمون كاميرات متعددة ويستعينون بمفاهيم سينمائية مثل اللقطات المقاطعة وضبط تركيز العدسات. قد ولت أيام لقطات الهاتف الجوال المهتزة رديئة الجودة. وصارت أحدث المهارات والتقنيات الإخراجية مُستخدمة هنا.

لم يكن اسم «رومية» محض مصادفة. فهو يعني روما. إن هذه المجلة، التي يجدر الذكر أنها نُشرت بلغات عديدة أخرى، تعتمد في اسمها (الذي يتماشى مع أسلوب د/بق) على منطق غامض. فقد استخرجت «ذراع داعش الإعلامية»، مركز الحياة للإعلام (تيمناً باسم أكبر جريدة في المنطقة)، نبوءة

إسلامية مشكوك في صحتها من القرن الخامس عشر. وقالت تلك النبوءة أن روما -وبالتبعية، الغرب- سوف تسقط بعد أن يستولي المسلمون على القسطنطينية ويستعيدوا أمجاد الخلافة العثمانية التي ماتت منذ زمن طويل. وتتماشى فكرة أن يكون العالم المسيحي (المتمثل في روما التي تحتوي على الفاتيكان) دار الحرب مع متعصبي داعش بدرجة لا بأس منها. المسيحية في حربٍ مع الإسلام؟ فكرة مُجربة ومُختبرة ومُوثوق منها، ولهذا نفضوا عنها الغبار من غياهب نسيان التاريخ وجعلوها في الصدارة على المسارح التي إما شيدتها الحياة أو شيدها بيت ترامب الأبيض.

لطالما كانت القاعدة مولعة بالمشاهد التي تذكرنا بالأفلام الهندية. كم من الناس بمقدورك أن تقتل وكيف بوسعك فعل ذلك (فقد هلك 3,000 فرد خلال مائة دقيقة في 11 سبتمبر، وهو المكون البصري الذي عاشه الكوكب بشكل مروع على الهواء مباشرة). ولن يتكرر هذا المشهد بالشاحنات التي تدهس الحشود. ولكن لدقيقة تاريخية واحدة، بدا الأمر وكأن داعش أرادت أن تذبح وحسب، غير مبالية بالمظاهر. فمن المؤكد أن المذابح التي يتعرض لها المسلمون حتى هذه اللحظة تحظى بوقت بث أقل في الإعلام الغربي.

ورغم ذلك يبدو أن الملكية المتكتمة تشتد بأساً: فقد تمت مهمة نشر الوهابية في العالم ووعد سلمان على نحو مضلل بمستقبل اقتصادي عظيم لا يعتمد على النفط. وحاله كحال ترامب تماماً، لا يخجل أي منهما من الكذب بوقاحة. ففي يونيو 2016، قابل مؤسس تويتر جاك دورسي أميراً سعودياً رفيع المستوى في زيارة لنيويورك. ولم تكن تلك زيارة مجاملة على الإطلاق. فالأمير الوليد بن طلال، حادي وأربعون أغنى رجل في العالم طبقاً لمجلة فورتن، يمتلك نصيباً من أسهم تويتر أكبر مما يمتلكه دورسي. إذ يمتلك بن طلال 5.2 في المائة من أسهم الشركة في حين أن دورسي يحتل المرتبة الثالثة الفقيرة بنحو 3.2 في المائة فقط. وكان الأخير مجاملاً أكثر مما ينبغي لدواعي الضرورة. ذلك أن بن طلال كان صريحاً في الإدلاء برغبته في استبدال دورسي المعاد تشكيله حديثاً. وسخرية القدر القاسية هذه جعلت أحد أعظم المبتكرين في أمريكا جاثياً على ركبتيه أمام أمير سعودي فاسد. فهو في حاجة للبقاء في عمله.

أرسلتُ لأدهم رسالة تقول: «لا بد أن آل سعود يديرون كل شيء الآن!»، وهو بدوره لم يكن لديه أدنى فكرة بالصلة التي تربط تويتر بآل سعود، كما توقعتُ. وفي نفس الأثناء، يتقاتل الملايين من السعوديين العاديين، والأمراء والأميرات، والملك، والأهم من ذلك، العلماء، من أجل الحصول على مساحة في فضاء تويتر السعودي. وإن تتبع حركة مرورهم هو أمر ذو أهمية حيوية.

هذه هي أوقات شيوخ الشبكات الاجتماعية والفتاوى المنشورة على تويتر. يزعم رجل الدين الوهابي السعودي محمد العريفي أنه صاحب أكبر نفوذ من بين كل الإسلاميين العرب بنحو 15 مليون متابع على تويتر. وتتسم بعض فتاوى العريفي بالغرابة، والكثير منها يتسم بالخطر. فعن موضوع قيادة النساء للسيارات المثير للجدل دائماً، غرّد العريفي أن هذا الأمر لا يجوز لأنه سيقود لوقوع المزيد من الحوادث. ولا بد من أنه في حاجة للتذكير أن السعوديين من بين أسوأ سائقي السيارات في العالم طبقاً للإحصاءات. وقال إنه يجوز للأزواج ضرب زوجاتهم «قرانياً»، ولكن «لا بد من أن تكون الضربات خفيفة وألا تشوه وجهها». ولم يسعد الكثير من المتابعين بذلك. بعثتُ رسالة لأدهم عقب رؤيتي لتغريدة فتوى ضرب الزوجات: «كيف يُسمح لهذا الرجل بالوجود في هذا القرن؟ لماذا يتابعه الناس؟».

رد عليّ أدهم قائلاً: «ليس لديك فكرة عن كم من الناس يحبونه»، مضيفاً أن ما يحتاجه أصدقاؤه حقاً هو الاختلاط المشروع، لا «هذا المهرج الذي يدعى العريفي». وقال إنهم «في نقطة الانهيار». وكرهية النساء تلك التي تفرضها السعودية تجعل إيران الحديثة، حيث يُسمح للنساء بقيادة السيارات والترشح في الانتخابات، تبدو جنة بالمقارنة.

ومن بين شيوخ تويتر المشهورين الآخرين ناصر العمر (1.8 مليون متابع) وسعود الشريم (1.25 مليون متابع). وبوسع كل واحد منهم أن يكون محرضاً للرعاع، وبعضهم، مثل العريفي، يفعلون ذلك بالفعل.

غرّد العريفي في إحدى المرات للمغنية الإماراتية ديفا أحلام، طالباً منها أن تلتزم بالورع، وأن تستغل شهرتها في التبشير بالإسلام نظراً لاقتراب شهر رمضان. ورفضت هي ذلك بأدب. واقتبست صحف الخليج من العريفي وهو يقول: «الشيعة كفار لا بد من قتلهم». العريفي صامد إلى الآن لأنه يقول ما يريد أن يقوله آل سعود ولكن لا يسعهم فعل ذلك.

ولكن الانحراف البالغ يعيش أيضاً داخل المؤسسة الدينية. فقد اغتصب الواعظ التلفزيوني فيحان الغامدي ابنته لاما ذات الخمس سنوات وعذبها وقتلها في 2012. ودفع أكثر من مليون ريال سعودي كدية قتل لأم لاما المصرية المطلقة بالفعل. وأطلق سراح هذا البربري. وانتشر هاشتاغ #أنا لاما وسرعان ما اندثر. ولا يزال الغامدي الذي يستحق الذبح حياً حتى الآن.

أما بالنسبة إليّ، بدا صوت عمرو خالد، الواعظ التلفزيوني المصري المحبوب، الذي يحظى باحترام كبير من قبل الملايين، وله أكثر من 7 ملايين متابع على تويتر، واعداً أكثر. فقد كان من بين أكثر 100 شخصية مؤثرة في مجلة تايم، واشتهر بكونه شيخ الروشنّة الذي جعل الدين أكثر «مرحاً» بصورة لا يمكن تخيلها.

أما في أرض آل سعود، يتسابق شيخ بعمر الستين يُدعى سلمان العودة مع العريفي في عدد المتابعين بنحو 10 ملايين متابع. والعودة هو مدير موقع إسلام توداي المشهور الذي يصفه البعض بالتطرف. وكان أسامة بن لادن يوماً ما معجباً به واستشهد بكلامه، وبادله العودة هو الآخر بالمعروف. وفي التسعينيات سجنه آل سعود لخمس سنوات بعد أن هاجمهم علناً لاستضافتهم الكفار (الجنود الأمريكيين). ولاحقاً، انقلب العودة رأساً على عقب، موبخاً أسامة في «رسالة» ميلودرامية مشهورة أُذيعت على قناة إم بي سي (شبكة تلفاز الدولة السعودية):

يا أخي أسامة، كم من الدماء أريقّت؟ وكم من الأبرياء والأطفال  
والعجزة والنساء الذين قُتلوا... تحت اسم القاعدة؟ أيسرك أن تلقى الله  
تبارك وتعالى تحمل هؤلاء الناس على ظهرك وهم يُعدون بمئات الآلاف أو  
الملايين؟

ومن اللافت أن العودة ظل يدعو أسامة أحاً رغم أن هذه كانت اللحظة المثالية لتكفيره.

وفي 2016، زُعم أن العودة تكلم مع مراسل سويدي. والتقطت سي إن إن بالعربية وهافنغتون بوست وغيرهما تلك القصة. ذلك أنها كانت تثير المشاعر. فقد زُعم أن العودة قال: «رغم أن المثلية الجنسية تعتبر إثماً في جميع الكتب المقدسة السامية، فهي لا تقتضي—عقاباً في الحياة الدنيا». وأضاف، مشيراً إلى داعش، قائلاً: «إنهم يقتربون إثماً أعظم من المثلية الجنسية نفسها بالحكم

على المثليين بالموت. ورغم أن المثلية الجنسية في حد ذاتها لا تبعد المرء عن الإسلام، فالإسلام لا يشجع الأفراد المنجذبين لنفس الجنس على إظهار مشاعرهم على الملأ». وأضاف: «الشخص المثلي ليس خارجاً عن الإسلام حتماً».

وتبع ذلك عاصفة على تويتر في الشرق الأوسط ذي الأغلبية الكارهة للمثليين. فالعودة استخدم ذكاه في قتل عصفورين، الوهابيين وداعش (المنشغلة بقتل المثليين برميهم من فوق المباني)، بحجر واحد (مثلي الجنس).

بعثتُ رسالة إلى أدهم تقول: «بطل سابق لأسامة بن لادن يقول إن لا بأس في المثليين! أهذا ممكن؟»

فرد عليّ أدهم: «إذا كان هذا حقيقياً يا بارفيز، فإن كلماته مهمة».

ومع وجود داعش بالقرب من الحدود السعودية، يغرد العودة بحماس بالغ ضدهم وضد التطرف. وظهر العودة على روتانا، قناة تلفاز يملكها الأمير بن طلال. ورُفع مقطع فيديو على اليوتيوب لتلك المقابلة في 21 يونيو 2015، وقال فيها العودة إن الجيوش والحروب ليست الحل. وقال إن داعش لها وجود إعلامي قوي وتستعين بالبلاغة في الكلام لجذب غير المتعلمين. وقال العودة أن بالنسبة للجموع الفقيرة، داعش تمثل القوة والنصر.

غدت أطروحتي أقوى من ذي قبل. فقد أثبت شيوخ تويتر أن محمد لم يخلق إسلاماً روحياً فقط. بل كان يؤسس كذلك إسلاماً سياسياً بطرق شتى (لا سيما من خلال صحيفة المدينة). وتطور وفاق الاثنين بطرق مختلفة أينما ذهب الإسلام. أحبت إيران ذلك، بينما يخشى منه آل سعود.

أرسل لي أدهم مقاطع فيديو مثيرة للضحك تظهر فيها النسخة السعودية من الشيخ المرح عمرو خالد، أحمد الشقيري. وهو يصف نفسه بأنه «إفيس بريسلي» من بين الواعظين التلفزيونيين. ولديه ما يقرب من 6 ملايين متابع وهو يغرد بشأن عرضه التلفزيوني عديم الملامح خواطر. وفي مقالة عنه عام 2009، قالت جريدة نيويورك تايمز: «إنه يخلط الالتزام الديني العميق بالفكاهة العصرية المرحّة دون أي عناء».

أرسل ليّ أدهم رسالة تقول: «أليس آل كارداشيان بالنسبة لك مثل الزاناكس؟»

«إلى ماذا ترمي؟»

«هذا ما يمثله برنامج خواطر بالنسبة لي أنا أيضاً!»

يزعم الشقيري أنه مهتم بنشر أفكار الدعوة وجهاد النفس. والإسلام المعروض في خواطر هو نسخة مُغطاة بالسكر. ويزعم الشقيري أنه المسلم «الوحيد» غير الطائفي، متفوهاً بالأكاذيب بكل أريحية مثل ترامب.

إن شيوخ تويتز هؤلاء هم جهات فاعلة للحكومة ذات نفوذ قوي. إذ لطالما تطلّع المسلمون، ولا سيما العرب، إلى بوليوود الهند وموسيقى وسينما وثقافة مصر— فيما يخص النماذج الثقافية. أما بالنسبة للنماذج الدينية، فهم يقلدون بكل أسى رجال الدين الوهابيين. من الواضح أن مشروع تصدير الوهابية السعودي أكبر من صادرات النفط لديهم.

وبالمقارنة، تحظى مصر نسبياً بعدد أقل من مستخدمي تويتر، وتنتج قادة إسلاميين عصيين مثل إسلام البحيري، الذي حكم عليه ديكتاتور مصر الجديد، عبد الفتاح السيسي، بالسجن لمدة سنة في 2015 بتهمة «ازدراء الدين». وأُلغي عرض البحيري التلفزيوني لكن لم يلق صوته نفس المصير. وأُفرج عنه في غضون ستة أشهر، وقال، بنبرة ساخرة، «أتقدم ببالح الشكر للسيسي وثورته الدينية... وحرية التعبير في مصر». ويظل البحيري ناقداً متمرداً للكثير من الأحاديث المُقتبسة في صحيح البخاري بجانب الكثير الذي لا بد من تغييره في الإسلام. وأي شخص مثل البحيري في السعودية سيتعرض للإعدام، على الأغلب بطريقة الذبح على الملأ المفضلة لديهم هناك.

وبحلول 2013 غدوتُ آخذ داعش على محمل الجد. ومن المعقول أن الوقت للذي قضيته في السعودية بدا وكأنه نذير بالوباء القادم. وتابع المسلمون مثلي كل أشكال الدردشة على الشبكات الاجتماعية العربية، والفارسية، والأردية. وطالعتُ أنا الإصدار اللاحق من مجلة دابق. وظهر على غلافها صورة للمشيعين الشيعة في كربلاء. وكُتب في مكان العنوان: «الرافضة: من ابن سبأ إلى الدجال». وتماشى العنوان تماماً مع الصورة المصاحبة له. ذلك أن كربلاء في العراق هي ثاني أقدس

مدينة بالنسبة إلى الشيعة، حيث وقعت فيها معركة كربلاء التاريخية. وهي المعركة التي سلبت الحياة من أكثر الأئمة تبجيلًا في الإسلام الشيعي، الحسين. لطالما كانت تلك المدينة هدفًا للسنة. ولقب الرافضة التحقيري (الذي وصفوا به الشيعة) يشير إلى أعداء داعش والوهابية على حد سواء. ابن سبأ هو اسم الرجل اليمني اليهودي الذي تحول إلى الإسلام في القرن السابع، والدجال هو عدو المسيح.

ثمة منطق تاريخي لاسم *دابق*، عنوان مجلة داعش. دابق هي بلدة صغيرة متواضعة في شمال سوريا. ومعظم الخرائط لا تشملها وداعش على شفا خسارتها، ولهذا ظهرت الحاجة لاستبدال دابق برومية. ويعتقد بعض علماء الآخرة الوهابيين أن هذا سوف يكون موقع معركة «نهاية العالم» الحاسمة بين «قوى الإسلام» و«قوى الروم». تزعم داعش صحة هذه الإشارة الغامضة، إن لم تكن زائفة، وتمثل روما لهم «جيوش المسيحية وأمريكا». وتحذر الصفحة الأولى من أن المجلة «تحتوي أيضًا على تقارير مصورة، وأحداث جارية، ومقالات إعلامية بشأن قضايا الدولة الإسلامية».

هؤلاء الهمج بارعون في استعمال الشبكة الاجتماعية، وبارعون كذلك في تصميم الرسومات، وصناعة الأفلام، والتنضيد، وتحرير الفيديو، والتصوير الفوتوغرافي. ومن المرجح أنهم بارعون أيضًا في استخدام فاينال كات برو، وفيميو، وويترانسفر، ومستندات غوغل. وبوسع محرري *دابق* ومنتجي المحتوى لديها أن يكونوا جالسين في أي مكان في العالم، حتى في أمريكا، مستخدمين تطبيقات لتغيير عنوان بروتوكول الإنترنت مثل تنل بير.

ومع ظهور مؤشرات اقتصادية خطيرة، انحسر تدفق البعثات الممولة من قبل الدولة السعودية للطلاب إلى المدارس الأمريكية. وعلاوة على ذلك، لم تغير الأسرة الملكية عاداتها إطلاقًا. ففي 2015، انقلب مدمرو شواهد القبر السعوديون المعتادون رأسًا على عقب بصورة لا تخلو من النفاق، وأعادوا تشكيل قبر ابن الوهاب في الدرعية، إحدى ضواحي الرياض التي تُعد حاليًا نسخة إسلامية صغيرة من ديزني لاند وبها ثلاثة متاحف، أحدهم مُخصص حصريًا لابن الوهاب. وقد أمل أصحاب الفضيلة غير المشاركين هؤلاء أن لا أحد سيلاحظ ذلك. أرسل لي أدهم صورًا لهذا المكان. وبدا لي كمدينة ملاه إرهابية.

عند هذه اللحظة، دُمر 90 في المائة أو أكثر من التاريخ الإسلامي بالجرافات. ولأن هذا كان موقع بناء آخر في مكة المنبوذة المليئة بالرافعات، لم أدرك أنني شهدت آثار تدمير منزل صاحبي مهم من أصحاب النبي يُدعى أبو بكر. فقد تحول المنزل إلى أنقاض ليحل محله فندق هيلتون جديد - ويُقال إنه أكبر فنادق العالم. المزيد من الدمار. بلغت الفاتورة 3.5 مليار دولار. أي آثار تعود لعصر ما قبل الطوفان قابلة للتدمير على يد عائلة بن لادن بموافقة الوهابيين.

وسُيطلق على هذا الفندق اسم أبراج كدي، وهو ليس بعيداً عن أبراج البيت التي تضم فرع ستارباكس الذي صليتُ وتسكعتُ فيه مرة. وانضمت باريس هيلتون إلى سباق الأثرياء الجدد، وافتتحت متجرًا جديدًا في مول مكة، ونشرت صورة له على تويتر معلقة: «أحب متجري الجميل الجديد الذي افتتحته لتوي في مول مكة في السعودية!»

امتلاً المكان حين كنتُ هناك برافعات تغربل قروناً من الرمال، غافلةً عما قد يرقد تحتها. وتزعم الإشاعات أن السعوديين شغلوا 10,000 غرفة فندق جديدة، ومهبط للمروحيات، والعديد من المولات، وأكثر من خمسين مطعمًا. وسيشمل ذلك اثنا عشر - برجًا، و«أجنحة ملكية»، و«مركز مؤتمرات»، و«غرف للصلاة». لقد حظيت عائلة بن لادن في 2016 بنفوذ أكثر من ذي قبل. وهم ما زالوا يملكون عقود الاستمرار في توسيع المسجد الحرام بتكلفة قدرها 21 مليار دولار، وقطار «الحرمين» فائق السرعة الذي فتح أبوابه بأسلوب الفصل العنصري السعودي لعرب مجلس التعاون الخليجي فقط في 2011، وعقد «أطول مباني العالم»، وهو البرج الملكي الآخر في جدة.

دائمًا ما كان البذخ الفاحش السعودي يتحول إلى حقيقة على يد عائلة بن لادن.

وضّح لي أدهم ضائقة جديدة، وهي «فترة الانتظار» التي تنتشر - أحيانًا على الإنترنت في صورة هاشتاغ. ذلك أن الحصول على زوجات يبدو مستحيلًا. فالآباء يطلبون مهورًا باهظة الثمن لبناتهم المتعلمات. وعدد النساء في الخارج اللاتي حصلن على درجاتهن العلمية يفوق عدد الرجال. وقد وصلت تكاليف الزواج والبيوت الجديدة إلى أرقام فلكية.

قال لي أدهم: «ليتك خرجت من مكة والمدينة»، مضيفًا: «بوسعك أن تجد موارد أكثر هنا في جدة. لكان بوسعي أن أعرفك بكل السعوديين الغاضبين، والشبان، والمفلسين كما تشاء. وهم مولعون



بالكلام والتغريد طوال الوقت. لدينا أيضًا بضعة أشخاص لطيفين مولعين بالغرافيتي. حتى أن لدينا بانكسي هنا في جدة! هل رأيت فيديو (لا امرأة، لا قيادة؟)»

فرددت عليه قائلاً: «ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لقد أخذوا منا جوازات السفر».

«أبإمكاننا أن نحصل على تذكرتين لفيلم جهاد رجاء؟»

هذا ما قاله رجلان أكبر مني سنًا عند كشك تذاكر سينما مؤسسة التمويل الدولية في حي ويست فيلاج في نيويورك. كان فيلمي، جهاد من أجل الحب، يُعرض عادةً في دور العرض الممتلئة لخمس أسابيع في هذا المسرح السينمائي في صيف عام 2008. وفي أوقات الظهيرة المتأخرة تسكعتُ حول شبك التذاكر حتى أرى كم من الناس حضروا لمشاهدة فيلمي. واعترتني سعادة غامرة حين سمعت أحد المتفرجين يشير إلى فيلمي باسم «جهاد» فقط حين اشترى التذاكر. وبالدمج بين الجهاد والحب معًا، ترى هل أحدثنا تأثيرًا في مكافحة الإسلاموفوبيا؟ مهما كان هذا التأثير طفيفًا فهو ذو أهمية.

كنتُ أنزع الأحوال من التعريف الإسلامي الآخر للجهاد حين أجبتُ على الصحفيين في كل مكان قائلاً: «في القرآن، يُفهم الجهاد على أنه الجهاد مع النفس في طريقها نحو الله». وتدعى شركة إنتاج الأفلام الخاصة بي أفلام حلال، لأنني أؤمن من أعماق نفسي—أن محمد سيوافق على ما فعلته. وحلال تعني حرفيًا ما هو مسموح به، وهو عكس الحرام (إذا أستخدمت الكلمة ونُطقت بالطريقة التي تعني «محظور»). وبعدها ببضعة أعوام أطلقتُ على الشركة المنتجة لفيلم آثم في مكة اسم أفلام حرام، مستخدمًا الكلمة بمعناها الآخر (الأهم) «الحرم الشريف».

وفي نهاية جهاد، يعد زاهر، الإمام المثلي، ورشة باوربوينت تحكي قصة خمسة عشر أخصائيًا اجتماعيًا مسلمًا، «مستقيماً»، «متدينًا» في كيب تاون. وبالنقاش في الدلالات القرآنية نجد أنها غيض من فيض بالنسبة لمحيطات «رهاب المثلية» في الإسلام. وحله المطروح لـ«مشكلة المثلية» هو الاجتهاد، وقد حظي بالكلمة الأخيرة في فيلم جهاد من أجل الحب. ولكني الآن غدوت أختلف مع منطقه.

وفي ضوء ما تعلمته، لا يسعني أن أرفض الجهاد بكل سهولة أيضاً، ولن أقول «في القرآن» بل في «علم تفسير النصوص الإسلامية». لم أشرع في دراسة ديني بحماسة بالغة قبل منتصف التسعينيات. وقد بدأت بما أصبح نسخة متهالكة للغاية من ترجمة يوسف علي للقرآن، وهي مليئة بالملاحظات الهامشية التي كتبها بخطي المتصل الرديء. وسافرت معي تلك النسخة إلى المملكة السعودية العربية. معظم المسلمين الذين كنت أعرفهم حينئذ قالوا إن الجهاد هو دعوة قرآنية للمسلمين للسعي إلى أن يكونوا مسلمين أفضل. ولكن الجهاد الآخر، الذي ينبغي استخدامه في حالة الدفاع عن النفس فقط، موجود داخل وخارج السياق. وبصفتنا مسلمين، من الواجب علينا أن نعترف بكلا النوعين. ومن ناحية قرآنية، غالباً ما يكون الجهاد العنيف الخيار الوحيد. ولكن القرآن يبدو في بعض الأحيان أنه يقف على السياج المحفوف بالأخطار بين الجهاد العدائي والجهاد الدفاعي.

إذا جلس إرهابي من داعش أمامي، فسوف أتلو عليه الآية التالية. ولكن المشكلة تكمن في أن بوسعه أن يجد آية أخرى تؤيد حجته أيضاً. إذ تقول الآية 78 من سورة الحج:

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي  
الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي  
هَذَا (الوحي)

تشمل كلمة الجهاد العربية في جملة «جاهدوا في الله» السعي في طريق الله في سياق السورة بالأعلى. وأنا أدرك مدى خطورة تفسير القرآن. ولكن إذا كانت داعش والأئمة الرجعيون حول العالم يفعلون ذلك، فمن حقنا ذلك أيضاً.

وفي الآية 39 من نفس السورة، أذن الله للصحابه، الذين لجأوا حينها إلى يثرب (المدينة)، أن يقاتلوا من قاتلهم. ويُعد ذلك، من جديد، بالنسبة لبعض العلماء إشارة إلى مبدأ السلم الذي يزعمون أنه متأصل في القرآن. فالحرب مقبولة فقط في حالة الدفاع عن نفس على حد قولهم، مستشهدين بالآية 39 من سورة الحج: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ».

يقول الكثيرون أن القرآن أوحى بأهمية هذا المبدأ لمحمد. إذ تقول الآية 159 من سورة آل

عمران:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا  
مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

ولا بد من أن غنائم الحرب في شبه الجزيرة العربية كانت تشمل غير المقاتلين، والنساء، والأطفال. والقرآن يشجع التعامل معهم «بلطف». بينما لم يُعامل أسرى الحرب في فيتنام، والحرب العالمية الثانية، وحتى العراق بلطف أبداً.

أكان القرآن أفضل دفاع عن نفسه؟ أجل، فيما عدا الحالات القليلة التي يناقض فيها نفسه.

يواجه القرآن الذي أحببته الآن تحديات جسيمة. إذ يأتي المبررون الإسلاميون (الذين عادةً ما يكونون مسلمين نشأوا في الغرب) مُجهزين بأجزاء مُجمعة على عجالة مما يجدونه على ويكيبيديا عن الإسلام. وهم يحبون «الاستشهاد» بتلك القصاصة المناسبة للإذاعة على محطات التلفاز من تفسير الآية 256 من سورة البقرة، التي استشهدتُ بها أنا أيضاً.

يقول هؤلاء: «لا إكراه في الدين، هكذا تكلم القرآن» وترتسم على وجوههم ابتسامة حميدة. هؤلاء يمثلون نوعية «المسلم الجيد» الذي تحب قنوات التلفاز أن تعرضه. نحن المسلمون في الغرب مخطئون لعدم انخراطنا في تفسير القرآن؟ للأسف هذا صحيح. وعلاوة على ذلك، يحجب ضجيج الإسلاموفوبيا الستار عن أفضل جهودنا.

لقد أبلى الكارهون للإسلام بلاءً حسناً فيما يخص البحث والتدقيق. فهم يشيرون إلى أكثر من 100 آية في القرآن مما يزعمون أنها توافق على العنف. علينا أن نجد عدداً أكبر وأن نفند حججهم آيةً بآية. هل درس العنف المتأصل في جميع الأديان التوحيدية وقُورن بينهم بشكل عادل؟ أجل هذا هو ما حدث. ولكن أكاديمية الغرب لا تتكلم من أجل أحد في ديوبند مثلاً.

فلنحاول أن نفسر الآيات من 190 إلى 193 في سورة البقرة ذاتها.

تقول الآية 190 من سورة البقرة: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

وتقول الآية 191: «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ».

وتقول الآية 192: «فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وتقول الآية 193: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ».

يبدو أن هذا الجزء من القرآن ينص بوضوح على أن القتال مسموح به في مواجهة المعتدين فقط. وبما أنها آية مدنية فلا بد من أنها تشير حتماً إلى الفترة التي تبعت هجرة محمد التي اضطره إليها أهل قريش الذين خططوا لاغتياله بشكل مروع. وثمة تأكيد على الامتناع عن القتال إلا في حالة التعرض للهجوم. ففي نفس الآية (191) التي تقول «وَأَقْتُلُوهُمْ» قيل أيضاً: «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ».

وتشير كلمة «الْكَافِرِينَ» في نفس الآية إلى أهل قريش وقبائل البدو الأخرى التي لم يدخلها محمد إلى الإسلام، ولكنها لا تشير إلى المسيحيين واليهود كما فسرت على نحو خاطئ. لا بد أن يعلم كارهو الإسلام أن القرآن يبذل جهوداً كبيرة في أمر المسلمين بمعاملة أهل الكتاب، أي اليهود والمسيحيين، كأقرباء.

يحتوي هذا الكتاب الفوضوي رغم شاعريته على بعض الأجوبة، لا كلها. ولكن لا بد من استخدام تناقضات هذا الكتاب وشريعته في صالحه. وفي عالم مثالي لا بد أن تكون المناهج خالية تماماً من التأثير السعودي في كل المدارس التي يرتادها المسلمون.

هل يشكل العنف المرتكب باسم الإسلام والمبهر من خلال الآيات المقتبسة من كتابه، القرآن، مشكلة مع الإسلام نفسه؟ أي مسلم عاقل (وأتمنى أن أكون أنا كذلك) سيجيب بالموافقة.

بدا الأمر كما لو أنني نشأت بعقيدة الخوف. قتلت مكة بداخلي الخوف من الإيمان. شعرت بعد الحج ببركة لا تفارقني إطلاقاً. وأنا سعيد أن حجي لم يكن نتاجاً لمجرد تقليد أو اتباع أعمى. بل كان

وليداً لتعطش إسلامي متأصل للمعرفة يبلغ عمره عدة قرون. ولعل الحج يكون محاولتي الفردية لأصبح مجتهداً، حتى وإن كان ذلك بدرجة ضئيلة للغاية.

وعلاوة على ذلك، بلغت أطروحتي عن أن الفقر والأمية يمثلان أكبر مشكلات الإسلام قدرًا لم تبلغه قط من القوة. حتى أنه صار بمقدوري أن أعترف أن معظم المسلمين الذين نشأت بينهم لن يفهموا مضمون هذا الكتاب على الأغلب. وغدت أوروبا مرة أخرى بيتًا لمذابح الأبرياء. لم يمر على المجزرة في باريس سوى خمسة أيام، وقد سألني منظمو مهرجان الأفلام هذا بالتحديد عما إذا كان ينبغي أن نمضي في تقديم عروض الأفلام. وحين أجبت بالموافقة، قدموا عرضين إضافيين. وفي كل مرة بيعت كل التذاكر وأعقب ذلك نقاشات طويلة.

سألني مراسل من *لو موند*: «أهذه معركة الحضارات؟»

قلتُ له إنني لا أستطيع الإجابة عن ذلك بتعليق بسيط، وأضفت قائلاً: «ولكن كل ما بوسعي أن أقوله لك هو أنني لست مستعداً لإبداء أقوال مثل (الإسلام دين السلام) لأنها أقوال اختزالية».

فواصل سؤاله قائلاً: «إذن أنت تقول إن الإسلام ليس دين سلام؟»

«لم أقل ذلك. أنت تلوي كلامي. قلت إن وقت إبداء أقوال اختزالية مثل هذه قد ولى». كنت ارتدي قميصاً مكتوباً عليه «Je Suis Paris» (أنا باريس)، وهو نفس القميص الذي صنعت منه نسخ عديدة على الأرجح في المصانع التي تستغل العمال في بنغلادش أو الصين ثم حُمِلت على متن السفن المتجهة إلى الغرب. وقد ارتديته ظناً مني أنه سيحميني من كره الأجانب الذي بات الآن متفشياً في أوروبا المعاصرة.

كنت أحمي نفسي، بطريقتي الخاصة الضئيلة. وفي يوم الجمعة عثرتُ على مسجد واقع داخل سرداب صغير حقيق ودخلتُ إليه حتى أؤدي صلاة الظهر. كاد المسجد أن يكون خاوياً. لم يحط بي أقل من 150 فرداً في أي صلاة جمعة حضرتها من قبل. ألم يدرك انتحاريو داعش أنهم أطلقوا حرباً شاملة على الإسلام أيضاً؟ هل هذه منظمة من الأساس، أم أنها مجرد موسم صيد مفتوح لأي مختل يريد أن يضع يديه على أسلحة نارية، ويرتكب المجازر، ويدّعي أن «داعش» فعلتها؟ لقد أرعبتني باريس للغاية.

فمن الصعب للغاية أن تشتري سلاحًا ناريًا في أوروبا. في حين أن حوادث القتل الجماعي تقع داخل نطاق خبرة أمريكا المهووسة بالأسلحة.

سافرتُ بفيلمي، آثم في مكة، إلى العديد من أمم الاتحاد الأوروبي (بما في ذلك المملكة المتحدة قبل بريكست). وحين كنت أسافر من وإلى الولايات المتحدة إلى أوروبا بصفة متكررة، احتجزتني إدارة جمارك الولايات المتحدة أكثر من مرة، حتى أن الوكلاء استدعوا حقايبى المفتشة لفحص كل قطعة ملابس داخلية امتلكتها. شعرت بالانتهاك. هل أوقفوني انتقائيًا على أسس عرقية أم دينية؟ كلاهما على الأغلب. هل أدى حصولي على الجنسية الأمريكية مؤخرًا إلى شعوري بأمان أكثر؟ كلا ولا حتى لدقيقة.

كان الخوف من اللاجئين المسلمين متفشياً. ففي أحد عروض الأفلام في كوبنهاجن، حضر رجل مسن ومعه حزمة من الأوراق. كان يتحين فرصة للكلام معي، ولذا جلسنا معًا واحتسينا القهوة. ولوح أمامي بنسخ مطبوعة من موقع أعرفه جيدًا يدعى religionofpeace.com. وهو عبارة عن محاولة يمينية متطرفة لوضع الإسلام في قالب بالطريقة التي تنظر إليها مجموعة واحدة، وهو أن الإسلام أكبر تهديد تواجهه البشرية. كان تصرفًا ذكيًا من «مركز ديفيد هورويتز للحرية» الكاره للإسلام أن ينتزع هذا الاسم حين كان لا يزال متاحًا. ما هو الرابط بين الإسلام والسلام على أي حال؟ إن المدافعين عن الإسلام يعززون الهدف الواحد الأوحى الذي وُجد هذا الموقع من أجله حرفيًا.

قررتُ أن أفحص قسمًا من حزمة الأوراق التي يحملها بعنوان «ماذا كان محمد ليفعل؟». أخذتها منه وقلت «حسنًا، فلنحاول أن نفحص ذلك بعقلانية. يُقال هنا إن محمد كان ليمارس الجنس مع طفلة بعمر التاسعة، ويذبح الناس، ويأمر النساء بتغطية وجوههن، ويتملك العبيد، ويتزوج زوجة ابنه، ويوافق على الدعارة، ويأكل بنهم، وينصح الأزواج بضرب زوجاتهم، ويضرب زوجته، ويقتل أسرى الحروب، ويدافع عن الهجمات الانتحارية، ويخبر المرضى بأن عليهم شرب بول البعير للشفاء، ويضرب الأطفال إذا أبوا أن يؤدوا الصلوات، ويذبح أولادًا لم تتجاوز أعمارهم ثلاث عشرة سنة، ويتزوج إحدى عشرة امرأة في وقت واحد، ويوافق على ممارسة الجنس مع الأطفال، ويكذب، ويستعبد النساء والأطفال، ويرجم الزناة حتى الموت، ويعذب الناس بدافع الطمع، ويسرق، ويقتل من أهانه، وينتزع الأموال من الأقليات الدينية، ويستعبد النساء كملكات يمين، ويجبر الناس على اعتناق الإسلام، ويشجع

الأفعال الإرهابية، ويقتل امرأة، ويأسر ويغتصب امرأة أخرى، ويشجع اغتصاب النساء أمام أزواجهن! يا إلهي، يا لها من قائمة طويلة!». قلت ذلك علماً بالاتجاه الذي سأسلكه معه. سألتها عما إذا كان يعتبر معظم أفراد البشرية أشخاصاً عاقلين. فأجاب بالموافقة.

«حسنًا، فلنتناول الإسلام إذن. هل تعلم أن عدد المسلمين حول العالم يبلغ 1.7 مليار؟ أي ما يقرب من ربع سكان البشرية». فأجاب بالموافقة.

«جيد. فلنلق نظرة أقرب على هذا الدين. لقد ظل هذا الدين قائماً لأربعة عشر قرناً، وأقام العديد من الإمبراطوريات العالمية. وقد قدمت تلك الإمبراطوريات مساهمات كثيرة إلى علم الرياضيات. ولطالما كانت تتميز بالفكر، والفنون، والشعر، والأعاجيب المعمارية، وأكثر بكثير من ذلك». فأجاب بالموافقة على مضض.

فقلت له ليتني أملك المزيد من الوقت، ولكنني اختتمت كلامي قائلاً: «فلنقل إننا في وضع يسمح لنا باعتبار الأغلبية من هؤلاء المسلمين المعاصرين البالغ عددهم 1.7 مليار أشخاصاً عاقلين. وإذا أخذت في الاعتبار أن هذه العقيدة صمدت لفترة طويلة ووهبت العالم الكثير، إذن، يا صديقي، لا شيء مذكور في هذا الموقع اللاعقلاني يبدو منطقيًا». ونصحته بقراءة بضعة عناوين بسيطة مما ورد في ذهني حينها بدلاً من ذلك. حتى أنني نصحته بقراءة الإسلام للأغبياء. وبسبب هذا الشخص، صار لدي سبب آخر للاقتناع بأن علماء الإسلام في المستقبل سيزعمون عن حق أن القرنين العشرين والحادي والعشرين يمثلان عصر الجاهلية الإسلامي الثاني. وفي الوقت ذاته، تأججت مخاوف «عوربة أوروبا» بحماس متجدد. لقد صارت كراهية الأجانب أمراً طبيعياً. وأصبح مشهد المرأة المتحجبة (الذي صار اعتيادياً الآن في بعض المدن) رمزاً لقمع، وعنف، وظلام الإسلام. الاجتهاد وحده لن يكفي لحل تلك المشكلة المستعصية.

قابلت «مرشدة» في أحد مهرجانات الأفلام في براغ. وحين تجولنا شوارع العاصمة القديمة المحفوظة بعناية وجمال، أفصحت المرشدة عن مشاعرها.

قالت لي: «لقد رأيت فيلمك وأعتقد أنك شجاع للغاية، لذا لا تسيء فهمي»، ثم أضافت «نحن لا نريد هؤلاء المهاجرين هنا. جمهورية التشيك دولة صغيرة للغاية. علينا أن نحافظ على قيمنا وبنيتنا

الاجتماعية». وبعدها على الفور تصادفنا بغرافيتي يقول «من يريد أن يدمر أوروبا؟» لقد رأيت نفس العبارة بالألمانية مكتوبة على حائط في فيينا.

أشرت إلى الغرافيتي وقلت بهدوء، رغم أنني كنت أستشيط غضبًا من الداخل، «حين تجرف الأمواج الفقراء، والمهمشين، والمشردين، والجائعين إلى شواطئ أوروبا حريفًا، حيث يموت بعضهم في الحال، ألا تقع مسؤولية رعايتهم على عاتق العالم (المتحضر)؟»

إجابتها على ذلك كانت: «لم لا يستقبلهم السعوديون الأثرياء أو دول الخليج الثرية؟ لم يجب أن يكون نحن من يفعل ذلك؟»

أيّما ذهبتُ من وارسو إلى فيينا كنت دائماً أقحم في مواقف غير مريحة اضطر فيها إلى الكلام بالنيابة عن اللاجئين لمجرد أنني مسلم. وبعد التفكير في الأمر، أدركت أن هذا هو نتاج كراهية الأجانب الحقيقية المتجولة في شوارع القارة المعرضة للخطر بعد بريكست. إذ تنبع في هذه البلدان الصغيرة علامات مخيفة، بدءًا بفوز السياسيين اليمينيين بالانتخابات إلى عدد متزايد من النساء اللاتي يرتدين الحجاب. لطالما اشتاق اليمين الشوفيني لحلول هذا العصر. كنت أشعر بالإرهاق بالفعل من كوني مسلمًا ظاهرًا للعيان، ولكنني ارتأيت القيام بجلسة سؤال وجواب عقب الجلسة التي قمت بها من أجل فيلمي.

«هل تعتقد أن فيلمك سيشجع كراهية الإسلام؟»

«كيف لك أن تدافع عن الإسلام حين يجلب كل هؤلاء اللاجئين المسلمين عدم التسامح ورهاب المثلية معهم؟»

بخصوص السؤال الأخير، لا يسعني أن أكون مخادعًا: فالأغلبية من المسلمين في أوروبا بالفعل، سواء كانوا مقيمين أو وافدين، كارهين للمثلية على الأرجح.

سأل آخر «ما الذي سيحل بقيم الحرية والسلم والمساواة لدينا؟»

فأجبت قائلاً: «لا أجد ردًا على ذلك أفضل من شعار الجمهورية الخامسة هنا في قلب الحضارة الغربية. الحرية، المساواة، الأخوة. تمسكوا بذلك وربما حينها ستعلمون ما ينبغي فعله حين يدلف لاجئ مضطهد إلى عتبة ديارك».



لا ينفق «جنود» داعش وقتاً في دراسة القرآن. بل يمكثون في ممرات السيارات لدى الإسلام كما لو كانوا أمام مطعم ماكدونالدز، حيث يتسنى لهم أن يختاروا وينتقوا من القائمة كما يشاؤون – وإنها لإساءة لأربعة عشر قرناً من التعلّم. لم ألتفاجأ حين قرأت تقارير تفيد بأن نسخاً من الإسلام للأغبياء عُثر عليها في حوزة المفجرين في باريس وبروكسل. فبالنسبة إلى «المتطرفين» الجاهلين، العاطلين، شبه الأميين، التابعين لتلك الخلافة الوهمية، تساعدكم تلك الكتب وما يشابهها في حفظ الأساسيات مثل «كيف يصلي المسلمون؟». واستبدال كلمة «pray» (صلاة) بـ«prey» (فريسة) في هذه الحالة يحفز نوع الكوميديا السوداء الذي أشاركه مع أدهم. يقول موقع سلسلة للأغبياء: «يساعدك كتاب الإسلام للأغبياء في مد جسور الفهم بينك وبين جيرانك في قرية العالم». بيد أن داعش تفضل هدم الجسور عوضاً عن بنائها. و«قريتهم العالمية» هي خلافتهم الوهمية.

من أبرز ما قاله «أميرهم» أبو بكر البغدادي، العقل المدبر لهذا الإرهاب:

لم يكن الإسلام يوماً ديناً يدعو للسلام، بل يدعو إلى القتال، وحربنا التي نخوضها ليست حرب تنظيم الدولة الإسلامية بل حرب جميع المسلمين التي يتولى قيادتها تنظيم الدولة الإسلامية. إنها حرب المسلمين ضد الكفار. أيها المسلمون، حاربوا في كل مكان. إن ذلك واجب كل مسلم.

حتى البغدادي يتذرع بحجة المدافعين عن الإسلام المغلوطة! أي متجول وحيد الآن بوسعه أن يزعم ولاءه لداعش في حين أن الأخير لن يعلم بحدوث المذبحة الجديدة التي قام بها إلا من خلال وسائل الإعلام. وعلاوة على ذلك، على عكس ما يحدث في أوروبا، معدل تجنيد داعش للإرهابيين في أمريكا المحصنة المحمية بالمحيط الأطلنطي ضئيل للغاية في أفضل الأحوال. النمط صار واضحاً الآن. يتذرع الإرهابيون بالإسلام لقتل الأبرياء. ويحمل مرتكبو الجرائم عادةً جوازات سفر أوروبية، وقد ولدوا وترعرعوا في أوروبا. اعتدت أن أمزح مع أصدقائي وأقول إن المملكة المتحدة صارت الآن إنجلادستان. ولكن وقت النكات قد ولى. ذلك أن متطرفاً وهابياً مثل أنجم تشودري يريد إقامة الشريعة في المملكة المتحدة حيث وُلد وترعرع. وهو يمدح داعش علناً. ولدى أمريكا نسخة خاصة بها في إمام مرييلاند المدعو سليمان أنور بنغارسا.

إن هؤلاء الرجال هم نتاج للهجرات الجماعية التي أعقبت عصر الاستعمار، حيث هاجر آبائهم أو أجدادهم الفقراء للبلدان التي كانت تحكمهم يوماً ما لضمان مستقبل أفضل – ولا يُعد ذلك أمراً حديثاً في التاريخ. وقد حصلوا الآن على جوازات سفر أوروبية أو بريطانية، ولكن لا شيء آخر. وتبع ذلك عقوداً من التهميش المدعوم من قبل الدولة. وقد تجولت العنصرية المنهجية والصريحة في شوارع أوروبا الغربية حيث يذهب أطفال هؤلاء المهاجرين إلى المدارس، ولكنهم لا يلتحقون بالجامعات أبداً، ثم يكبرون دون أن تُتاح لهم فرص عمل. والسقف الزجاجي للمسلمين في أوروبا أدنى بكثير مما هو عليه في المملكة المتحدة، حيث انتخبت مدينة لندن الكبيرة عمدةً مسلماً، صادق خان. ولكن لندن التي انتخبت خان لديها أيضاً أصوات إسلامية متطرفة من جنوب آسيا مثل تشودري. كانت الغالبية الملحدة تمثل الفكر الديني الأساسي في أوروبا لمدة عقود. ولكن لسخرية القدر أنتجت أوروبا عينها بضعة شبان مسلمين جاهزين لتفجير أنفسهم باسم داعش. ولم يحظ الكثيرون منهم بمقابلة البغدادي (المقتول زعمًا) ولم يغادر الكثير منهم أوروبا حتى. فعلى غرار ترامب، لا يحتاج البغدادي إلى مجندين. تسعد داعش أيما سعادة حين يُنسب إليها حدوث أي هجمة إرهابية. فهم ليسوا مثل الجهات الفاعلة الحكومية، بل إنهم يتصرفون مثل مجموعة الاختراق الحقوقية المشهورة التي لم تتمكن أي حكومة من هزيمتها حتى الآن.

داعش هي النسخة الإسلامية من أنونيموس.

حرب الإسلام مع نفسه ليست أمراً غير مألوف في تاريخ هذا الدين. ولكن الإسلام في القرن الحادي والعشرين لا يمتلك عوامل التصحيح التاريخية. فقد فات الأوان الآن على العودة بالزمن للوراء إلى ما قبل التلقين العالمي الوهابي.

يقول بعض العلماء الغربيين (عن حق) أن القتال واجب فقط ضد من يهاجم أو يقتل المسلمين الأبرياء أو يحارب دولة مسلمة. ألا يعلمون أن «متطرفي الإسلام الراديكالي» يستعينون بنفس الحجة؟ فقد أعلن الغرب الحرب على الأراضي المسلمة مثل أفغانستان، والآن العراق، ولذا فالقتال ضد هؤلاء «المعتدين» أمر مبرر، وفقاً للقرآن. تزداد أعداد المجندين في صفوف داعش أسياً كلما قال ترامب أنه لن يدع المسلمين يدخلون أمريكا.

في اللغة العربية الكلاسيكية والقرآنية، تُستخدم كلمة //فتنة// للإشارة إلى المحنة والمأساة. وكما هو شائع في الفروقات العديدة بين اللغة العربية الكلاسيكية والدارجة، ففي العصور الحديثة اليوم، قد تعني نفس الكلمة الافتتان والسحر على حسب السياق. وأنا مهتم باستخدامها كمبدأ قرآني، وقد استخدمتها في هذا الكتاب كثيراً بمعنى حالة «الاضطراب» أو «الفوضى» التي تهابها بُنى القوى العربية في الوقت المعاصر، وتتذرع بها تلك البنى كثيراً حين تواجه تحدياً من قوة الشعب.

وفي عصر مختلف تماماً (2008)، حظي خيرت ويلدرز، سياسي هولندي، بشهرة عالمية عقب إنتاجه لمقطع فيديو معادي للإسلام رديء الصنع يُدعى فتنة. وثمة سوابق لذلك. ففي 2004، أنتج صانع أفلام هولندي مغمور يُدعى ثيو فان جوخ مع متطوعته، آيان هرسي علي، محتوى ناقداً للإسلام في مقطع فيديو آخر يُدعى //الخضوع. قُتل فان جوخ بوحشية، وحظيت متطوعته بنجومية فورية في الولايات المتحدة، وألفت عدة كتب. وقيل إنها، بعد أن وُصمت بالكفر، أضحت جندياً مدفوع الأجر لليمين الأمريكي. وما رأيته بغيضاً في هذا الفيديو شخصياً هو آيات القرآن التي كانت مكتوبة على جسد آيان العاري. وعلى غرار الفيلم الأول، قدم هذا الفيلم القصير محتوى ينم عن مهارات سينمائية بدائية ونظرة اعتيادية.

في 2005، نشرت جريدة هولندية اثني عشرة رسمة كاريكاتيرية في الصفحة الأولى تسخر من النبي، وصورته إحدى تلك الرسومات بقذيفة في عمته. ونظرت إلى ذلك مجدداً باعتباره محاولة متعمدة لافتنال الجدل وتأجيج الغضب. إن تحريم التصوير في الإسلام ليس أمراً جديداً. فهو معروف منذ قرون. اعتمدت حادثة تشارلي إبيدو، التي أعتبر عواقبها شخصياً مذبة، على استفزاز أوروبي مألوف معادي للإسلام. كانت تبعات ذلك وحشية، لأن داعش بدورها كذلك. ومن المثير للاهتمام أن أكثر «هجمات الإسلام» بروزاً وقعت في أوروبا. أضحى جزء كبير من العالم الإسلامي خائفاً لأن أعمال الشغب والقتل الوحشي هي أمور لا يمكن التغاضي عنها. ولكن الفكرة القائلة بأن الإسلام دين «رجعي»، وهي عبارة مجازية تُستخدم ضد الإسلام بكثرة، عادت إلى الصدارة. يُنظر إلى تلك «الهجمات» باعتبارها «حرباً» في عالم داعش. وفي تلك الحالات فقط يتمكنون من تجنب إدانة شاملة. ولكن هل الإسلام الحديث في نزاع شبه مستمر مع نفسه علاوة على وجود الفتنة؟ للأسف هذا صحيح. ولكن الإدلاء

بأقوال سطحية مثل أن «الإسلام متأخر بعدة قرون» يكشف عن عقلية مستشرقة إشكالية. لأن الإسلام كان دائماً في المقدمة على مر التاريخ.

بخلاف تاريخ الثراء الإسلامي «المجيد» -سواء من ناحية مادية، أو جسدية، أو فكرية- كثيراً ما تُداول أرقام إحصائية حديثة موثوقة تقول إن نصف فقراء العالم مسلمون. يشكل المسلمون ربع سكان البشرية، وغالبيتهم يعيشون في فقر مدقع. وتشمل بعض أكثر البلدان المنكوبة بالفقر سيراليون، وأفغانستان، وكامبوديا، والصومال، ونيجيريا، وباكستان، وموزامبيق، والأهم من ذلك، الهند. إذن فالبلدان الثمانية التي تمثل أفقر بلدان في العالم تشمل سبع بلدان ذات أغلبية مسلمة. تلك الأرقام محيرة للعقل وهي تزداد سوءاً. وخصصت الهند بالذكر لأنها ستحتوي على أكبر عدد من المسلمين في العالم بحلول عام 2050، وهي الآن تحتل المرتبة الثالثة. وتتذرع كتائب القومية الهندوسية اليمينية التي تحكم الهند اليوم بمثل تلك الإحصاءات التي تربط بين الفقر والمسلمين باعتبارها السبب في أن «المسلمين يطيحون بالهند». ما الذي سيحدث حقاً في 2050 حين تحتوي الهند على أكبر عدد من المسلمين في العالم - من الذي سيحكم من؟

ما يقرب من 800 مليون فرد من بين مسلمي العالم البالغ عددهم 1.7 مليار أميون. وأكثر من ستة من بين كل عشرة أفراد غير ملمين بالقراءة. بالمقارنة بالغرب المسيحي، 78 في المائة ملمون بالقراءة والكتابة.

في 2009 قدم تقرير الأمم المتحدة عن تنمية البلدان العربية تقييماً متشائماً للغاية عن العرب الفخوريين بأنفسهم عادةً:

- نصف النساء العربيات غير ملمات بالقراءة؛
- واحد من بين خمسة أفراد من عرب يعيشون على أقل من دولارين في اليوم؛
- 1 في المائة فقط من العرب لديهم حاسوب شخصي، ونصف في المائة فقط يستعملون الإنترنت؛
- 15 في المائة من القوة العاملة العربية عاطلة عن العمل، وقد يرتفع هذا الرقم إلى الضعف بحلول 2010؛

- متوسط معدل النمو لدخل الفرد في العشرين عاماً الماضية كانت نصف في المائة فقط لكل عام، أي أسوأ من جميع الأماكن في العالم باستثناء أفريقيا السوداء.

من شأن الإحصاءات أن تبعث على الملل. ولكنها مهمة للغاية. لطالما اعتقدتُ أن الفقر والامية متناسبان طردياً. وتلك الإحصاءات تقدم دليلاً على ذلك. وتمثل مصر، أكثر بلد عربي مكتظ بالسكان وأمة فقيرة بشكل فظيع، دليلاً على ذلك. ذلك أن أكثر من ربع ما يقرب من 82 مليون مصري يعيشون في فقر مدقع. وهم غير منشغلين بالتغريد أو تحديث حالاتهم على فيسبوك. بل جل ما يحاولون فعله هو وضع الطعام على المائدة. ورغم أن انتشار الهواتف وصل إلى نحو 100 في المائة تقريباً، فإن معظم تلك الهواتف غير ذكية ولا تُستخدم إلا في المكالمات فقط. ونحو 44 في المائة من المصريين فقط يعرفون كيفية استخدام الإنترنت أو لديهم طريقة للوصول إليه. أغلبية المسلمين يعيشون في منطقة كانت متحدة سابقاً ولكنها الآن مُقسمة إلى ثلاثة بلدان مختلفة: باكستان، وبنغلاديش، والهند – أي بعبارة أخرى، تحتوي شبه القارة الهندية على أكبر عدد من المسلمين في العالم. وتلك البلدان الثلاثة تتميز بمعدلات مرتفعة للغاية من الفقر والامية. من هم ضحايا هذه الآفة المزدوجة؟ المسلمون. باختصار، يمثل السعوديون المترفون استثناءً نادراً لحالة الغالبية من المسلمين.

سنة من بين عشرة مسلمين غير ملمين بالقراءة؟ ألا يعلمون أنهم بذلك يعصون الدعوة إلى الفكر التي في قلب الإسلام؟ أهم فقراء بشكل بائس للغاية لدرجة أنهم لا يمتلكون أي خيار حرفياً؟ أين عسانا نجد رمزاً للمسلمين مثل فرانكلين د. روزفيلت بوسعه أن ينتشل جيلاً بأكمله من الفقر؟ أيقن للمسلمين أن يكون لهم قائد إسلامي بوسعه أن يوحدهم تحت غطاء وعود الإسلام الأصيلة، التي تشمل كرامة إنسانية والإمام بالقراءة والكتابة (وإتاحة فرص عمل أيضاً)؟

لطالما كان الفقر والامية، كما اكتشفت كل من القاعدة وداعش وغيرهما، أراضٍ خصبة مثالية وقوية للإرهاب. الإسلام ليس بحاجة إلى اجتهد يوافق عليه ربع سكان البشرية في أوقات الجهل هذه. بل ما يحتاج إليه هو مدارس ووظائف للتصدي للخطاب الفاسد الذي تتبناه الملايين من

المساجد في كل جمعة، خارج حدود الغرب. والمسلمون حول العالم في حاجة أيضاً إلى التعلم من «جيل الألفية» لديهم وتعليمهم، ذلك أنهم يشكلون جزءاً كبيراً متنامياً من السكان.

وقعت أحداث كثيرة في العام الذي قمت فيه بجولة ترويجية لفيلم آثم في مكة في أوروبا. وأهمها هو مجزرة باريس الوحشية في 2015. وبعدها بفترة وجيزة، ركبت قطاراً من أمستردام إلى بروكسل. عزمتُ على قطع كل هذا الطريق لأن شبكتين من شبكات التلفاز البلجيكية القومية كانا في حاجة إلى «مسلم وليد اللحظة» لشرح ما يعجز شرحه عادةً لجمهورهم الهولندية، والفرنسية، والألمانية (الفلمندية).

في المقابلة التلفزيونية الأولى، سألني المذيع عما علمني إياه الحج.

فقلت له، ضاحكاً: «كيفية التعامل مع الخوف من الأماكن الضيقة». «ولكن بجدية، كان الحج رحلة حولت حياتي لأنني، في مكة، قتلتُ الجزء الذي جعلني أشكك فيما إذا الإسلام سيتقبلني. واستبدلتُ ذلك بالتيقن من أن تقبل الإسلام ذاته أمر متروك لي».

فسألني قائلاً: «هل تقبلت الإسلام إذن؟»

«أجل، بثقة وبشروطي الخاصة. لا بشروط بيت آل سعود وبيت داعش اللذين لا يقلان عن بعضهما خطراً».

«من الذي يتكلم بالنيابة عن المسلمين؟»

قلتُ للمذيع، الذي كان يحاول إيقاعي في مأزق: «المسلمون يتكلمون بالنيابة عن أنفسهم. 99.9 في المائة من المسلمين هم أناس مثلي ومثلك. أناس محترمون، كادحون يحاولون أن ينجحوا في حياتهم، ويطعموا عائلاتهم». وتمكنتُ من جعله يشارك في نقاش حول ضرورة فوز أوروبا بالحرب الأيدولوجية بينها وبين الإسلام الوهابي. ثم طلب مني أن أبقى لحين «انتهاء الفاصل».

حينها كنت حظيت بالفعل بالكثير من التغطية الصحفية الأوروبية في عدد من البلدان الأوروبية الصغيرة. وتبع ذلك بعد عدة شهور حمام الدماء في بروكسل، ولكن المدينة حينها كانت في حالة إغلاق تام بسبب توارد المزاعم التي قالت إن العقل المدبر لمذابح باريس، صالح عبد السلام، الذي

دعاه محاميه لاحقاً منفضة سجائر خاوية ووغداً، موجود في هذه المدينة التي تمثل بيت البيروقراطيات العقيمة للاتحاد الأوروبي.

ترجلت من القطار في محطة مليئة بالجنود والعصي في كل مكان. وحين وصلت إلى فندقي وجدت دبابة عند مدخله. قلتُ لهم إنني صانع أفلام أمريكي دُعيت إلى حضور مقابلة لدى شبكة إرسال كبيرة. فتشوا حقيبة ظهري وأجروا تحقيقات هوية سريعة على جواز سفري. وبدا الأمر الأخير سخيلاً لأن البلجيكيين والاتحاد الأوروبي بصفة عامة مشهورين برفضهم لمشاركة الاستخبارات فيما بينهم. سألتُ أحد الجنود عما إذا كان بإمكانني أن أدخُن سيجارة قبل دخولي إلى الفندق. واتضح أنه زميل مدخن وتشاركنا قداحتي. هنا بدأ الحدث: أفراد رابطة المدخنين السلميين العالمية يساعدون بعضهم بعضاً كالمعتاد. وفي الداخل، بدا موظف الاستقبال الوحيد خائفاً وأبى أن يدخلني إلى الفندق. كان لا بد لي حينها من إجراء مكالمة مع منتجة البرامج البلجيكية، ولحسن الحظ أنها أجابت على هاتفها. دخلتُ إلى غرفتي.

ولاحقاً في ذات الليلة، وصلت سيارة أجرة لتقلني إلى استوديو التلفاز الثاني عبر ما توقعت أن يكون مدينة مهجورة، ولكنها كانت غارقة في الزحام المروري بسبب المواطنين الخائفين المترقبين حدوث هجمة إرهابية على غرار باريس على الأرجح. سألتُ السائق عما إذا أُستهدف على أساس عرقي أو ديني «في هذه الأيام».

فقال لي: «وما الجديد في ذلك؟ لطالما كان ذلك يحدث». ثم سألني عن نوع الفيلم الذي كنت أروج له. ولكنني لم أجرو أن أخبره بعنوانه.

وما خرج من لساني حينها هو: «إنه فيلم وثائقي عن رحلة الحج»، وأجاب بالعبارة المتوقعة: «الحمد لله».

كان المذيع التلفزيوني الثاني مجاملاً بإفراط، وسألني، كما توقعت، عن رأيي بخصوص اللاجئين، وعبد السلام. وأبديتُ رأيي بشأنهما على النحو الواجب. وفي هذه المقابلة، شعرتُ أنني حققت نصراً صغيراً حين قلتُ: «إن الإبداء بقول غير منطقي مثل أن الإسلام دين سلام لهو بمثابة المشاركة في الكذب. أجل، ما لا يقل عن 99 في المائة من مسلمي العالم ليسوا إرهابيين. ولكن هذا الواحد في المائة

أو أقل هو ما كان يجب أن ننقذه مما هو في النهاية عقيدة سعودية. ولكننا لم نفعل ذلك. فعلى حسب آخر مرة تحققت فيها، لا يزال أوباما والملك سلمان أصدقاءً مقربين».

كنت جائعاً في تلك الليلة ولم يكن لدى هذا الفندق المهجور خدمة غرف أو طبّاخين. تمشيتُ إلى الخارج حتى أدخلت سيجارة. ولحسن حظي أنني التقيتُ بنفس الجندي في وقت الخدمة.

قلتُ له أنني كنت دائماً أبحث خلال رحلتي إلى بروكسل عن «بني جنسي». وحكيْتُ له عن تلك المرة التي تحركت فيها من محطة قطار أنفاق مالبيك إلى جوار مولينبيك في رمضان. ويُقال اليوم أن «مشكلة الإسلام» في بروكسل تعيش في ضواحي مولينبيك التي يشكل المسلمون فيها 41 في المائة من السكان. ومع تزايد شهرة هذه المنطقة السيئة، نعتتها جريدة نيويورك تايمز ذات مرة بـ«الدولة الإسلامية في مولينبيك».

أخبرتُ هذا الجندي عن تلك الرحلة التي قمت بها قبل الحدث الإرهابي في رمضان. امتلأ الجوار حينها بالحيوية والفرح والأضواء والفوانيس والمتاجر التي تباع كل أنواع الحلوى الرمضانية، وامتلات الأجواء بروائح التوابل الهندية والباكستانية. وأخبرته أن الجميع كانوا خارج بيوتهم مع اقتراب وقت الإفطار.

وقلتُ له: «ما زال بوسعي أن أشم كل تلك الروائح العطرة».

فقال لي: «كنت هناك في رمضان أيضاً. لديهم أفضل شاورما على الإطلاق».

شعرتُ بارتياح غريب وأنا أشارك سيجارة مع الجندي المسلح، واقفاً بجوار دبابة حربية، وهو يعرب عن تقديره لشاورما مولينبيك.

وفي غضون بضعة أشهر، تعلم كل مراسل على وجه الأرض طريقة النطق الصحيحة لكل من مولينبيك ومالبيك، على إيقاع داعش.

بدا صباح شهر سبتمبر المشمس الذي تعلم فيه الغرب طريقة التهجئة والنطق الصحيحة لأفغانستان وكيفية العثور عليها على الخريطة الآن زمناً بعيداً.







